المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول
الدين
قسم العقيدة





زاهد الكوثري وآراؤه الاعتقادية
عرض ونقد

رسالة لنيل درجة الماجستير

مقدمة من الطالب / علي بن عبدالله بن عبد الرحمن الفهيد

إشراف :

الدكتور / أحمد بن عبد اللطيف العبد اللطيف

١٤٢٣هـ

ملخص موضوع الرسالة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهذه الرسالة التي بعنوان (زاهد الكوثري وأراؤه الاعتقادية عرض ونقد) ، للطالب / علي بن عبدالله الفهيد ، عبارة عن دراسة نقدية لأحد الشخصيات المؤثرة في عصره ، وهو الشيخ محمد زاهد الكوثري . والتي كان له أثر كبير في المنافحة عن مذهب الماتردية في الأصول ، وعن الحنفية في الفروع .

وكان له أراء في مسائل الاعتقاد ، وردود كثيرة على عقيدة السلف ، وبعض قواعدهم ، وعلى أئمتهم .

وتبرز أهمية هذه الدراسة أن الكوثري أحد أئمة المذهب الماتريدي المؤثرين، فقد كان صاحب مؤلفات كثيرة ، وتعليقات متناثرة على كتب أئمة السلف وغيرهم ، فقد أعاد الكوثري إحياء مذهب الماتريدية في باب الصفات من خلال الردود الكثيرة على أئمة السلف ، وتقرير آراء الماتريدية ، يضاف إلى ذلك أن الكوثري كان له أتباع تأثروا به فأعادوا نشر كتبه وتعليقاته ، لذا فبيان أرائه ونقدها فيه بيان للحق وجلاء لحقيقة هذه الشخصية .

وقد تناولت هذه الدراسة أهم ملامح العصر الذي عاش فيه الكوثري ، ومدى تأثره بهذا العصر .

كما تناولت بيان اسمه ونسبه ونشأته وأهم الأعمال الرسمية التي تولاها ، ثم وفاته .

وقد بينت تدرجه في طلب العلم ، وشيوخه ، وتلامذته ودراسة مفصلة لمؤلفاته .

وقامت الدراسة ببيان رأي الكوثري في القدر عموما ، ومعتقده في الحكمة وتعليل الأفعال ، وكذا رأيه في خلق الأفعال كل ذلك مع نقدها وفق قواعد السلف الصالح .

أيضا تطرقت الدراسة إلى مفهوم الكوثري للعبادة وللتوسل ونقد ذلك ، مع بيان رأيه في البناء على القبور والصلاة عندها ونقد ذلك .

وقد بينت الدراسة فهم الكوثري لمذهب السلف في باب الأسماء والصفات ومناقشة هذا الفهم .

ثم تناولت بالتفصيل رأي الكوثري في صفة الاستواء مع مناقشته في ذلك ونقده

كما تناولت الدراسة بالنقد والمناقشة رأيه في صفة النزول ، وكذا الأمر في صفة الإتيان والمجيء .

ثم تناولت الدراسة رأي الكوثري في الصفات الخبرية ، مع المناقشة والرد.

وتناولت أيضا رأيه في صفة العلو والأدلة التي يستدل بها مع مناقشة ذلك كله ونقده

وقررت هذه الدراسة رأي الكوثري في صفة الكلام ، مع المناقشة والرد.

وختمت الدراسة بأهم النتائج ، والتوصيات .

وصلى على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

ABSTRACT

This thesis (Zahid Al Kawthari and his Dogmatic Opinions : Presentation and Critidism) is acritical study of an effective character in his age . He is Sheikh Mohammad Zahid Al Kawthari . He had a great influence in defending the matirdiah Doctrine in the origins and in defending Al Hanafia in branches.

He had opinions in dogmatic matters and many reactions on the Ancestors dogmatic principles and the ancestral Imams .

The importance of this research shows that Al Kawthari is not an odd in his age . So demonstrating his opinions and criticizing them shlws the truth and discloses his reality .

In this study I have discussed :

- Aspects of the age in which Al Kawthari lived and the extet of his influence with this age .
- His name ancestry line upbringing the most important works he performed and his death .
- His progress in acquiring knowledge his religious teachers his students and a detailed study of his books .
- His opinions on the predestination wisdom and interpretation creation of deeds and their criticism .
- His opinions on the concept of worshipping supplication and criticizing thq a`em .
- His understanding of the ancestors doctrine on chaptr Names and attributions .
- His opinion on Allah s Highness and his discussion and criticism on that .
- His opinion on the attribution of Allah s talk and his discussion and criticism on that .

المقدمة

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدلله نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [1] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [2] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [3] .

أما بعد ، فإن معرفة التوحيد أشرف العلوم ، لأنه العلم المتعلق بمعرفة الله عز وجل ، وما يجب له وما لا يجوز عليه ، وبمراده وما يحبه ، وحقوقه على خلقه ، وبمعرفة التوحيد تكون النجاة يوم القيامة .

---

١) سورة آل عمران ١٠٢ .

٢) سورة النساء ١ .

٣) سورة الأحزاب ٧٠ .

وقد بعث الله الأنبياء فبينوا صفة الرب أعظم بيان ، وبلغوا عنه حقوقه ولوازم ذلك ، وجاء النبي الكريم ﷺ فعلم الناس العلم والعمل ، و لم يترك شيئاً يتعلق بالله — مما يلزم اشتراطه للنجاة يوم القيامة — إلا وبينه خير بيان ، فأخبر بيوم القيامة ورغب ورهب ووصف البارئ بصفات الكمال ، ونزهه مما لا يليق فسار على نهجه ﷺ أصحابه الكرام ، ثم تبعهم في ذلك أئمة مهديون تمسكوا بأصول الدين الذي جاء به ﷺ عرفوا بالأثر واتباع الدليل .

وقد كان من سنن الله القدرية أن يقع الاختلاف في الأمة ، فهدى الله من شاء ، وأضل من شاء .

ثبت عنه ﷺ أنه قال : " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، فسئل النبي ﷺ من هي ؟ فقال : هي من كان على ما أنا عليه وأصحابي" . (١)

فحدث في الأمة الخلل عندما أدخلوا ما يسمونه العقليات التي قاسوا بها الرب بخلقه ، فعطلوا صفات البارئ بدعوى الهرب من التجسيم ، وحرفوا دلالة النصوص ، وأوحشوا القلوب ، وزعزعوا الإيمان في قلوب أهل الفطرة .

لذا كان من أهم ما يشتغل به طالب العلم الشريف ، هو بيان الحق في ذلك ، ورد الباطل والشبهات المتعلقة بهذا الباب .

---

١) رواه أبو داود — رقم الحديث ٣٩٨٠ — كتاب السنة ، باب شرح السنة ، ورواه الترمذي ٢٦/٥ ، وأحمد في المسند ٣٣٢/٢ ، ١٢٠/٣ ، ١٤٥/٣ ، ١٠٢/٤ ، والدارمي ٣١٤/٢ ، وابن حبان ١٤١/١٤ ، ١٢٦/١٥ ، والحاكم في المستدرك ٤٨/١ ، ٢١٧/١ ، ٦٣١/٣ ، ٤٧٧/٤ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه .

وهذه الدراسة تتناول علماً من أعلام عصره ، وهو الشيخ محمد زاهد الكوثري (١٢٩٦ – ١٣٧١ هـ) حيث إنه كان من أشد المنافحين عن مذهب الماتريدية ، وله أثر كبير على أبناء عصره .

وقد ولد الكوثري بتركيا وتوفي بمصر ، تدرج في تلقي العلم مثل غالب علماء عصره في ذلك الأقليم على مذهب أبي منصور الماتريدي في الأصول وعلى مذهب أبي حنيفة في الفروع ، ثم اشتغل بالتدريس فترة ، وعاصر جمعية الاتحاد والترقي ، فعارض بعض خططهم ، ثم خرج منها إلى الشام ومصر ، حتى استقر بمصر ولبث فيها ثلاثاً وعشرين سنة (٢٣) مشتغلاً بالترجمة والتأليف .

وكانت مصر في ذلك الوقت ، تحت سلطان الملكية الخديوية ، فكان العصر آنذاك عصر انفتاح العالم الإسلامي على الغرب ، وخاصة مصر ، فإنها أشد وأول أقاليم المسلمين تأثراً ، على ما كان فيه من تسلط العنصر التركي الشركسي على مقاليد السلطة والنفوذ ، ولعل هذا أحد الأسباب التي دفعت الكوثري ، لاختيار مصر دون غيرها .

ولا شك أن البلاد منذ تولي محمد علي وهي في التوجه إلى أوروبا ، ميممة إلى الحضارة الغربية بالبعثات والعلاقات القوية الثقافية والعسكرية ، هذا كله أدى إلى تغيرات إجتماعيه ودينية وعلمية واضحة ، شهد الكوثري مرحلة منها ، وأدلى بدلوه في مايجري على الساحة في عصره .

لكن أشير إلى نقطة مهمة ، وهي أن الكوثري أدرك إحياء الدعوة السلفية بمصر ، وكان شديد المعارضة لها ، فتجده ينكر طبع المخطوطات السلفية ، ويتألم لإخراجها مثل (السنة) لعبدالله بن أحمد ، و(نقض الدارمي) للدارمي و (التوحيد) لابن خزيمة ، وكتب شيخ الإسلام وغيرها ، والتي نشط علماء السلف

لاخراجها وطبعها ، حتى إنه كتب في ذلك مقالا بعنوان (تحـــذير الأمـــة مـــن دعـــاة الوثنية)[1] .

والوثنية — وفق رأيه — والتي عنون بها مقالته ، إنما أراد بها وصف من أثبت الصفات الخبرية . يقول في تلك المقالة : " فأنت أيها الداعي تدعو الأمة عنا وجهاراً إلى ما في كتاب إمامك الدارمي الذي طبعته جماعتك[2] قبل شهر فقط ، وإلى ما في كتاب السنة الذي تقرون أنه كتاب عبدالله ابن الإمام أحمد ، ولست بتاركك تخادع المسلمين بما فيهما من الجاهلية والوثنية الخرقاء إلى أن تتوب وتنيب وتتبرأ مما فيهما من دسائس الوثنية وصرائح الكفر الناقل من الملة . "[3]

ويقول أيضاً عن كلام الدارمي : " وهو كلام لايدع مجالاً لتبرئة قائله من التجسيم ، والتجسيم ما هو إلا وثنية "[4]

ويقول عن معتقد الدارمي : " المعتقد الصريح في الوثنية "[5]

وكان هذا الأمر من الأسباب التي جعلته حريصاً على أن يرد على أئمة السلف ويطعن عليهم ، ويسارع إلى تحذير علماء الأزهر من انتشار مذهبهم .

وأما من جهة العصر الذي عاش فيه ، فقد كان عصراً ، علميا نشيطا ، وإن كان فيه مافيه " فالأزهر مثلاً — وهو المعهد الإسلامي الأول والجامعة العتيقة ، كان مركزاً لعلو المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه "[6]

وانصباب الجهد العملي كان في الأكثر على الحواشي والمختصرات المكررة في كثير من الفنون ، مع وجود التعصب المذهبي المذموم وآثاره .

---

١) مقالات الكوثري ٣٧٨ جمع أحمد خيري .

٢) يريد جماعة أنصار السنة بمصر .

٣) مقالات الكوثري ٣٧٨

٤) نفسه ٣٨٠

٥) نفسه ٣٨٣

٦) انظر الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، للدكتور علي بخيت ٦٦١ .

والكوثري ليس بعيداً عن هذا ، بل كانت له مشاركاته العلمية في عدة جوانب من أهمها :

١. الجانب العقدي ، فنرى له مؤلفات ككتب ومقالات يدور معظمها على أمرين :

الأول : إحياء ما يسميه عقيدة التتريه ـــ معتقد المتكلمين من أشاعرة وما تريديه ـــ يطبع كتبهم ويعلق عليها ، ويحث علماء الازهر على التمسك بها .

الثاني : الردود على كل المخالفين لهذا .

٢. الجانب الفقهي ، وذلك بالدعوة إلى العناية بفروع الفقه ، والحرص على تقييد كل أهل مذهب من المذاهب الأربعة بأقوال مذهبهم وأقوال علمائه وحرصه في ذلك على إظهار المذهب الحنفي ، والدفاع عنه بكل طريقة .

٣. الجانب الحديثي ، وذلك بالمشاركة في فنونه ، من تأليف وردود . ولكن يلحظ المتابع أنه ينحي في هذا الفن إلى توظيفه لخدمة الجانبين الماضيين .

أهمية الموضوع :

تبرز أهمية دراسة الموضوع (آراء الكوثري الاعتقادية) فيما يأتي :

١. أن الكوثري رد ، وطعن على كثير من أئمة السلف قديماً وحديثاً فمنهم من طعن ورد عليه ، ومنهم من طعن عليه وغمزه ، وغنما فعل ذلك لأجل إثباتهم صفات الله وفق معتقد السلف .

فقد رد على ابن خزيمة ، وعلى سفيان الثوري والأوزاعي (تأنيب الخطيب٧٢) وعلى الحافظ صالح التميمي المشهور بصالح جزره (التأنيب ١١٤ – ١٨٧) وعلى عبد الله بن أحمد وعلي الإمام ابن أبي حاتم، فقد رد عليه مطولاً (التأنيب ١١٤ – ١٦) متهماً إياه بالجهل بالتوحيد ، وسوء المعتقد ، والتشبيه .. الخ .

وعلى الإمام عبيد الله العكبري (ابن بطة) (التأنيب ١٤٨) وعلى عثمان الدارمي (التأنيب ١٦) وعلى مجاهد بن جبر (تبين كذب المفتري ١٤) وعلى ابن

المديني ، والدارقطني ، وأبي حاتم بن حبان (التأنيب ٩٠) ونعيم بن حماد ، طعن في معتقده .

وأما طعونه في شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم ، فشيء كثير متفرق في رسائله وتعليقاته .

كل هؤلاء وغيرهم طعن الكوثري في معتقدهم ، ونسبهم في كثير من كلامه إلى التجسيم والتشبيه تارة ، وإلى الجهل والغباوة تارة أخرى .

هذا من جانب ، أما من جانب آخر ، فإنه يقف موقفاً غريباً تجاه كبار المبتدعة — فربما يدافع عنهم أو يبرر حالهم ، يقول عن جهم بن صفوان : وتنسب لجهم آراء وليس له فرقة تنتمي إليه بعده ، ونسبة غالب ما نسب إليه من قبيل النبز بالألقاب تهويلا لسوء سمعة الرجل بين الفرق (تبيين كذب المفتري ١٢) ومثله التشكيك في قتل الجعد بن درهم ، والطعن في الذي قتله ، وإنكار هذه القتلة ، ومثله مع بشر المريسي ، وأما ابن عربي وابن الفارض [1] فهو لا يتعرض لهم بنقد ولا طعن .

٢. تعليق الكوثري على كثير من الكتب الأمهات ، والتي يحرص طابعوها على إثبات حواشيه ، هذا مع تكرار طباعته كلما نفدت ، ومن أهمها :

١. مقدمته وتعليقه على كتاب (تبيين كذب المفتري) لأبي القاسم بن عساكر وهذا مثال لبعض ما اشتملت مقدمته :

أ. حاول إرجاع معتقد من أثبت الصفات من السلف إلى جهل رواة الحديث وبساطتهم بسبب الأعراب وغيرهم ، فنقلوا أساطير اليهود والنصارى والمجوس وربما رفعوها إلى النبي ﷺ ، فوجد التشبيه وشاع (ص ١٠ ، ١٣)

---

١) (ابن الفارض) عمر بن علي بن مرشد الحموي ثم المصري شاعر الوقت ، صاحب الاتحاد – أي : وحدة الوجود – الي قد ملأ به التائية ،ومطلعها :

لغم بالصبا قلبي صبا لأحبتي   فيا حبذا ذاك الشذا حين هبت

قال الذهبي : فإن لم يكن في تلك ، القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده ، فما في العالم زندقة ولا ضلال ، توفي سنة (٦٣٢هـ) . [وفيات الأعيان ٤٥٤/٣] ، الميزان ٢٦٦/٢ ، السير ٣٦٨/٢٢ .

ب. تبريره حال معبد الجهني في بدعته والاعتذار له (ص ١١)

ج. نفي وجود من يعتقد معتقد الجهمية (ص ١١)

وصفه لعصرالمتوكل [1] بأنه ظهور للحشويه ، وسبهم ودعى عليهم .

د. قال (ففي مثل هذه الظروف الحرجة ، غار الإمام أبـــو الحسـن الأشعري رضي الله عنه ـــ على المسلمين من ضروب النكال ، وقام لنصرة السنة ، وقمع البدعة ، فسعى أولاً للاصلاح بين الفريقين من الأمة بإرجاعها عن تطرفها إلى الوسط العدل .. (ص ١٥)

ويعني بالفريقين ، المعتزلة ، ومن يسميهم الحشوية .

و. نسب بدعة التشبيه إلى المقادسة (آل قدامه) الحنبليين ، وأنهم ورثوها من ابن كرام .

ز. قسم الامة كما يأتي : المالكية كلهم أشاعرة ، والشافعية ثلاثة أرباعهم أشاعرة ، وربع معتزلة ، والحنفية ثلثهم أشاعرة ، وثلثهم ماتريديـــه ، وأما الحنابلة فقسم أشاعرة وبعضهم مفوضة ، وأما غالبهم حشـــوية على طريقة السالمية والكرامية ، لكنهم اتصلوا بعلماء المسلمين حـــتى كادت أن تزول حشويتهم لولا (جالية حران بعد نكبة بغداد ، حطوا رحلهم بالشام ، ونبغ من بينهم رجل فإذا هو يجري على خطة مدبرة في إحلال المذهب الحشوي تحت ستار مذهب السلف وحل مـــذهب أهـــــــــــــــــــــــــــل السنة (ص ١٧) وهو يشير بذلك إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

---

١) (المتوكل) أبو الفضل ، جعفر بن المعتصم بالله محمد بن الرشيد هارون بن المهدي بن المنصـــور ، القرشي العباسي البغدادي . المتوكل على الله ، الخليفة ، لد سنة (٢٠٥هـــ) بويع عند موت أخيه الواثق ، سنة(٢٣٢هـــ) . قال خليفة بن خياط : استُحلف المتوكل ،فاظهر السنة ، وتكلم بهـــا في مجلســـه ، وكتب إلى الأفاق برفع المحنة ، وبسط السنة ،ونصر أهلها . قُتل سنة (٢٤٧هـــ) ، [أنتـــاريخ بغـــداد ١٦٥/٧، وفيات الأعيان ٣٥٠/١، البداية والنهاية ٣١٠/١٠ السير ٣٠/١٢].

هذه بعض ما اشتملت عليه ثمان صفحات _ فقط _ من مقدمته لهذا الكتاب من أفكار وآراء ، هي ما زالت مبثوثة بين أهل العلم .

٣. أن حواشيه وتعليقاته ليست فقط على كتب الحديث والتاريخ ، بل منها على كتب العقيدة ، وأشد من هذا إذا كانت على كتب لها نوع اعتبار عند علماء السلف مثل :

أ. تعليقه على كتاب (الأسماء والصفات) للبيهقي ، وإن كان البيهقي رحمه الله من الأشاعرة ، لكنه كما كما هو معروف من متقدميهم الذين يثبتون ما زاد على السبع ، وهذا الكتاب مطبوع متداول بتعليقه بين العلماء والباحثين وغيرهم وقد قام الكوثري بالتعليق عليه خلاف مقصد البيهقي ، مما أفسد أهميته ولا ننس أنه في هذا الكتاب يروي بالسند فهو مصدر في بابه .

ب. تعليقه على كتاب (التنبيه والرد) للملطي ، وهو كتاب سلفي قديم غني عن التعريف .

ج. تعليقه على كتاب (الفرق بين الفرق) للبغدادي .

ومما لا يدخل ضمن هذه الكتب ولكن له أثره :

أ. كتاب (دفع شبه التشبيه) لابن الجوزي ، وكم فيه من التشنيع والطعن والمغالطات ، وهو كتاب مطبوع بتعليقه آخر طبعة كانت سنة ١٩٩٨ م .

ب. تعليقه على كتاب (العقيدة النظامية) لأبي المعالي الجويني.

ج. تعليقه على كتاب (الإنصاف في ما يجب اعتقاده ...) للباقلاني .

د. تعليقه على كتاب (الانتصار والترجيح) لابن الجوزي السبط .

كل هذه الكتب وأمثالها مما له علاقة بمسائل الاعتقاد ، علق عليها ووضع ضوابط وقواعد ، أكثرها خلاف الصحيح ، تحتاج إلى نقد ودراسة .

٤. أن الكوثري ينسب بعض الأمور الاعتقادية إلى السلف ، وهي ليست من معتقدهم ويترل معتقد المتكلمين من أشاعرة أو ماتريدية على معتقد السلف ويستدل ببعض ما نقل عن السلف على ضوء

منهج المتكلمين ، فهو يقرر معتقد الأشاعرة أو الماتريدية ، وربما الجهمية ، مثل الاستواء والنزول ، على أن هذا هو معتقد أئمة السلف كمالك وأحمد والشافعي وأبي حنيفة والأوزاعي وغيرهم .

وهذا مثال لماسبق :

قال (ولما سئل الإمام أحمد عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم ونحوها قال : نؤمن بها ونصدق بها ، لا كيف ولا معنى . وقال أيضاً يوم سألوه عن الاستواء : استوى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف . على ماذكره الخلال في السنة إلى حنبل عن ابن عمه الإمام أحمد . وهذا تفويض وتنزيه كما هو مذهب السلف .) أ . هـ هذا في نسبة بعض الاعتقاد للسلف مما ليس من معتقدهم .

وقال : وربما أولها في بعض المواضع كما حكى حنبل أيضاً عن الامام أحمد أنه سمعه يقول : احتجوا عليّ يوم المناظرة فقالوا : تجيء يوم القيامة سورة البقرة ، وتجيء سورة تبارك .... وهذا تأويل وتنزيه كما هو مذهب الخلف ، أما ما ينقل عن الإمام أحمد مما يخالف ما تقدم فهو تخرص صديق جاهل ، وسوء فهم لمذهب هذا الإمام : (دفع شبه التشبيه ٨) .

وهذا في تنزيل مذهب المتكلمين على مذهب السلف .

٥. تأثر بعض أهل عصره ، ومن بعدهم بكتبه ، وأقواله وهذا الأمر باق إلى اليوم ، فكثير منهم تلقوا آراءه ، وتقريراته ، وضمنوها كتبهم فمنهم من صرح بالنقل منه والتأثر به ، ومنهم من لم يصرح وإن كان نقل عنه .

وهذا يستدعي بيان حاله على النهج العلمي ، وفق معتقد السلف الصالح ومما يوضح ما أقول ما يأتي :

١. ثناؤهم عليه ، وتقريظهم كتبه (كثناء محمد أبي زهرة — انظر مقدمة المقالات ١٤ – ٢١) ، وتضمين شبير أحمد كتاب الكوثري (الاشفاق) في كتابه (فتح

الملهم في شرح المسلم) ، وشبير أحمد له تفسير للقرآن الكريم باللغة الأردو وهو من علماء الأحناف .

٢. إعادة طباعة كتبه كلما نفدت ، والحرص على طباعة الكتب بتعليقاته دون غيرها ، فقد جاء في مقدمة أحد الكتب التي نشرة له : أما بعد فهذا كتاب لابن الجوزي حجبه عنا هذه البرهة ــ بل عن كثير من المتخصصين في معرفة المؤلفات العربية ــ فئة أشياع الذين رد عليهم المصنف ، عملت على محو اسمه ورسمه قد حملني على طبعه انتشار كتب التشبيه ــ مخطوطاتها ومطبوعاتها ــ في الناس ، واشتغال بعض المؤلفين بالدعوة إلى التشبيه حتى اليوم ، والحرص على نشر تصانيف ابن الجوزي النافعة وكتب الردود الماتعة .

وقد علق عليه الأستاذ الشيخ محمد زاهد الكوثري ــ نزيل القاهرة ــ أدام الله النفع به ــ (دفع شبه التشبيه لابن الجوزي ٣)

٣. ترديد بعض الناس مقولات هي من آراء الكوثري ، مثل قول (اللامذهبية قنطرة اللادينية) قالها الشيخ البوطي ، وغيره) يقول أحدهم : وهو قول لو تدبره المنصف لوجده من جوامع الكلم) (مقالات الكوثري جمع أحمد خيري ٨٤) .

وهذه المقولة عنوان لأحد مقالاته (في المقالات ٢١٩) ألفها للرد على العلماء المجتهدين ، والذين يرون جواز الاجتهاد لمن عنده الأهلية لذلك.

٤. تعليقات السقاف المبتدع على كتاب ابن الجوزي (دفع شبه التشبيه) هو كلام الكوثري حذو القذة بالقذة إلا قليلاً .

٥. أن أهل السنة ، كما أنهم يبرزون معتقد السلف ــ رحمهم الله ــ ويحرصون على نشره ، وإظهار أئمته ، وبيان جهودهم في هذا ، أقول كما أن هذا منهجهم ، فكذلك من منهجهم الرد على من هجم على السلف ومعتقداتهم بإبراز حقيقة حاله ، والحكم عليه وعلى أقواله بالقسط ببيان ما له وما عليه ولا يمتنعون عن سلوك هذه الطريق إلا لأحد أمرين :

الأول : إما أن يكون المخالف لمعتقد السلف نكرة مغموراً ، لا ظهور له ولا بروز .

الثاني : وإما أن يخشى من الرد عليه إحياء بدعه التي ماتت بموته وإثارة مسـائل لا يحسن التعرض لها .

ولو طبقنا حال الشيخ الكوثري لم تكن حاله كذلك ، فهو أولاً ليس مغمـوراً ، وهو ثانياً قد أثار مسائل ما زالت موجودة ، ظاهرة يستدل بها مبتدعة هذا العصر في الرد على أئمة السلف ، والطعن عليهم خاصة ما يتعلق بشيخ الإسلام وابن القيم ، وغيرهما .

يقول المعلمي : لو كان هذا الطعن من رجل مغمور أو غير مشهور بالعلم أو غـير متبوع لهان الخطب ، ولكنه من رجل مشهور ينعته أصحابه بأمثال ماكتب علـى لـوح كتابه (تأنيب الخطيب) الذي طبع تحت إشرافه بتصحيحه (تأليف الإمـام الفقيـه — التنكيل ١٨٢ ط) .

فالذي يظهر — والله أعلم — أن تناوله بدراسة علمية ، ليس في إثارة مسائل ميتة ، بل هي حية موجودة ، وليس في ذلك إبراز له ، فهو مشهور معروف عنـد الكـثيرين .

والله أعلم والحمد لله .

أسباب اختيار الموضوع

كنت كثيراً أقرأ بعض كلام الشيخ الكوثري ، فتشدني قوة عباراته ، وانتقاداته لبعض الأئمة ، وتشنيعه على بعض معتقدات أهل السنة ، فأستغرب ذلك وأتسائل ماهي دوافعه ؟ وما هي معتقداته ؟

ولماذا لم يكن من المتبعين للسلف مع اشتغاله بعلم الحديث ؟ وما مدى قرب الشيخ الكوثري أو بعده عن منهج السلف ؟ وما مدى فهمه لهذا المنهج ؟ وهل كانت مخالفته لهذا المنهج مع فهمه له فهماً صحيحاً ؟ وماهو منهجه في العقيدة ؟ هل هو على منهج المتكلمين ؟ وإن كان كذلك ، فكيف استطاع الجمع بين الحديث ومنهج المتكلمين ؟ وما هي الجوانب التي انتقدت عليه ؟ وهل هذه الانتقادات كانت مطابقة لأقواله ؟ وإذا كانت كذلك ، فما هي وجهته فيها ؟ وأسبابها لديه ؟ وما الجوانب التي أصاب فيها — وفق منهج أهل السنة — ؟

ولماذا يكثر الطعن بأئمة السلف ؟ أهو بسبب اختلاف المحدثين ؟ أم هو بسبب اختلاف الرأي ؟ ماهي الأسباب الدافعة لذلك ؟

وهل يكون هذا الطعن عليهم ، مع معرفته بثناء العلماء عليهم ؟ومعرفته بأصالتهم بين أهل السنة ؟ وهل هذا الطعن في معتقدهم ؟ أو في عدالتهم في النقل ؟ أو في مدى فهمهم لمسائل الاعتقاد دون الرواية ؟

كل هذا وغيره دفعني ألى محاولة دراسة هذه الشخصية ، دراسة علمية ، لبيان ما له وما عليه ، على ضوء معتقد السلف .

لم أجد – فيما أعلم – من تناوله بدراسة علمية نقدية في مسائل الاعتقاد إلا :

١. " جهود الكوثري في علم الحديث " رسالة ماجستير بالجامعة الأردنية ١٣٩٣ هـ وهي في بيان جهوده وآرائه في الحديث ، وهي من إعداد الطالب / ضيف الله المناصير .

وأما الكتابات النقدية فأطلعت على :

١. " التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل " للشيخ العلامة / عبد الرحمن المعلمي وكان الكتاب في نقد المسائل الحديثية والفقهية ، وأما ما أفرده للمسائل العقدية فلم يكن لدراسة آرائه الاعتقادية ، بل كان عرضاً لمعتقد السلف.

٢. بيان " مخالفة الكوثري لاعتقاد السلف " د . محمد الخميس وهي رسالة صغيرة جداً ، كانت عرضاً لبعض آرائه ، دون مناقشة أو حصر .

٣. كتاب " بيان تلبيس المفتري محمد زاهد الكوثري " لأحمد بن محمد الغماري فإنه تعرض فيه للكوثري من ناحية الصناعة الحديثية ، وأيضاً الغماري يحتاج لمن ينقده كما لا يخفى .

٤. ردود عامة لبعض العلماء مثل بهجة الأثري(الكوثري وتعديه على التراث) ، ومحمد ناصر الدين الألباني (في مقدمته لتحقيق كتاب شرح العقيدة الطحاوية ومقدمته للتنكيل) ، ومحمد عبد الرزاق حمزة (المقابلة بين الهدى والضلال)، و د . بكر أبو زيد (براءة أهل السنة) وغيرهم ، ولكنها كانت ردوداً عامة صغيرة . عظيمة النفع وإن لم تكن دراسة تفصيلية

وهناك رسالة بعنوان " الشيخ زاهد الكوثري وآراؤه الكلاميةوالسياسية " رسالة دكتوراه بالمعهد الوطني العالي لأصول الدين بالجزائر .

ذكرت لي ، فسعيت جهدي لاتحصل عليها ، فلم يتيسر لي .

الصعوبات

لم تخل هذه الدراسة من صعوبات كان من أهمها :

أولاً:

عدم تيسر مراجع البحث بشكل كاف حيث إن كتب الكوثري يندر وجودها في بلادنا ــ و الحمد لله ــ فاضطررت للسفر وسعيت للتحصل عليها من جهات عدة .

ثانياً:

كنت عند إرادة تحرير قول الكوثري في المسألة أجد كلامه كثيراً ومتفرقاً ومكررا ، فاضطررت إلى مقارنة كلامه في كل مسألة لأعتمد على بعضها في تحرير رأيه في هذه المسألة .

ثالثاً:

كان الكوثري كثيراً ما يختصر عباراته ، وربما أبهمها ، فأضطر إلى استقراء هذه المسألة في كتب الماتريدية و الأشاعرة ،لأعرف مراده وأفك عبارته .

رابعاً:

ليس للكوثري كلام مجموع لكل مسألة – بإستثناء مسألة فعل المكلف –بـــل كان متفرقاً كما سلف ،فاضطررت لقراءة كلامه كله ، في هـــذه المســـألة في مواضعه المتفرقة .

خطة البحث

وقد استعنت بالله تعالى في وضع خطة مناسبة فجاءت مشتملة على مقدمة وبابين وخاتمة كما يأتي :

المقدمة : وتشتمل على التعريف بالموضوع وأهميته ، وأسباب اختياره

الباب الأول

التعريف بالكوثري وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول :

العصر الذي عاش فيه وأثره فيه

- المبحث الأول : الحالة السياسية .
- المبحث الثاني : الحالة الدينية والاجتماعية .
- المبحث الثالث : الحالة العلمية .

الفصل الثاني

حياته الشخصية

- المبحث الأول : اسمه ونسبه .
- المبحث الثاني : مولده ونشأته .
- المبحث الثالث : أعماله .
- المبحث الرابع : وفاته .

الفصل الثالث

حياته العلمية

الباب الثاني

آراؤه الاعتقادية

الفصل الأول

المعرفة

الفصل الثاني

توحيد الألوهية

- المبحث الأول : تعريفه ومعناه وفيه مطالب .

المطلب الأول : تعريفه وحقيقته عند أهل السنة

المطلب الثاني : معناه وحقيقته عند الكوثري .

- المبحث الثاني : رأي الكوثري في التوسل .

المطلب الأول : مفهوم التوسل وحكمه عند الكوثري .

المطلب الثاني : أدلة الكوثري في التوسل .

أ/ أدلة الكوثري العقلية .

ب/ أدلة الكوثري النقلية .

أولاً : استدلال الكوثري بالقرآن .

ثانياً : استدلال الكوثري بالسنة والآثار .

المطلب الثالث : موقف الكوثري من أدلة المخالفين .

- المبحث الثالث : وسائل الشرك وفيه مطالب .

المطلب الأول : التعريف بوسائل الشرك وحكمها .

المطلب الثاني : رأي الكوثري في البناء على القبور والصلاة إليها ونقده .

المطلب الثالث : رأي الكوثري في التبرك ونقده .

المطلب الرابع : رأي الكوثري في شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ونقده .

الفصل الثالث

توحيد الأسماء والصفات

- **الفرع الأول** : الصفات الاختيارية " وفيه مطالب "

تمهيد : التعريف بالصفات الاختيارية ، وحكمها .

المطلب الأول : رأي الكوثري في صفة الاستواء ونقده.

المطلب الثاني : رأي الكوثري في صفة النزول ونقده .

المطلب الثالث : رأي الكوثري في صفة الإتيان والمجيء ونقده .

- **الفرع الثاني** : الصفات الخبرية (اليدان والعين ، اليمين والقبضة والأصابع ، والساق ..)

المطلب الأول : التعريف بالصفات الخبرية وحكمها .

المطلب الثاني : آراء الكوثري في الصفات الخبرية تفصيلاً ونقدها .

- **الفرع الثالث** : العلو

المطلب الأول : معنى العلو والأقوال فيه .

المطلب الثاني : رأي الكوثري في العلو ونقده .

- **الفرع الرابع** : كلام الله .

المطلب الأول : معنى صفة الكلام والأقوال فيه .

المطلب الثاني : رأي الكوثري في صفة الكلام ونقده .

المطلب الثالث : رأي الكوثري في القرآن الكريم ونقده .

- الخاتمة وأهم النتائج
- حدود الدراسة
- المراجع
- الفهارس

وقد سلكت في هذه الدراسة المنهج التالي :

- قمت بجمع مصنفات وكتب الكوثري الأصلية ، وكذا تعليقاته ومقدماته ،وما كتب عنه ثم قمت بقراءتها كلها لاستخراج آرائه الإعتقادية ثم صنفتها وفق الخطة المعدة.

ولتكرار نصوصه وكثرتها اكتفيت بنقل بعض النصوص المتكررة ، راعيت في الاختيار أن تكون مبرزة رأيه بوضوح ومن غير إخلال ، وذلك لأن كلامه متكرر ومتفرق كما أشرت سابقاً في الصعوبات .

- قمت بعرض مذهب السلف في المسألة المراد دراستها ، في الأغلب .
- قمت بعرض رأي الكوثري العقدي في كل مسألة من خلال نصوصه ، محرراً قوله بشكل واضح ، وربما قدمت عليه بيان مذهب الماتريدية في هذه المسألة .
- ثم قمت بالرد عليه ، مستعيناً –بعد الله– بنصوص الوحيين ، ثم بكلام أئمة السلف ، وربما بكلام أئمة المتكلمين المخالفين له .
- عزوت الآيات إلى مواضعها من المصحف الشريف بذكر اسم السورة ، ورقم الآية .
- خرجت الأحاديث النبوية ، مكتفياً بالصحيحين أو أحدهما في الغالب ، إن كان فيهما أو أحدهما .
- ترجمت للأعلام _ عدا المشهورين _ .
- ختمت الرسالة بأهم النتائج والتوصيات .
- بينت حدود الدراسة
- ثم ذيلت الرسالة بفهرس للآيات القرآنية وفهرس للأحاديث النبوية ، وفهرس للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات .

وأخيراً أحمد الله ربي الذي سخر لي سلوك هذه الطريق وذلل لي العقبات ، وسهل لي سبيل العلم ، فله الحمد والشكر وهو أهل لذلك .

ثم إني أسدي شكري وتقديري لكل من :

فضيلة الشيخ الدكتور / أحمد بن عبد اللطيف آل عبد اللطيف / المشرف على الرسالة ، لما لمسته منه ، من خلق حسن ، وتواضع كبير ، وعلم دقيق ، وبذل للوقت في التسديد والإرشاد ، فجزاه الله عني خيراً .

والشكر موصول أيضاً للمشايخ الكرام الذين تفضلوا بقراءة الرسالة ، ومناقشة الرسالة : فضيلة الشيخ أ/د علي بن نفيِّع العلياني الأستاذ / بقسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين الذي أمدني بعلمه النافع وتفضل عليَّ بوقته الثمين لقراءة الرسالة وتقويمها ، فجزاه الله عني خيراً ، وفضيلة الشيخ أ/د : عبد الله بن محمد الدميجي عميد كلية الدعوة وأصول الدين لتفضله بمناقشة هذه الرسالة وإعطائي من وقته الشيء الكثير ، ولما لمسته منه من مساندة صادقة وتذليل للعقبات التي تعترض الطلاب بجد لا يخالطه إفراط ، وتيسير لا يخالطه تفريط فجزاه الله عني خير الجزاء .

الباب الأول

التعريف بالكوثري

الفصل الأول :

العصر الذي عاش فيه وأثره

المبحث الأول :

الحالة السياسية

يحار المرء من أين يبدأ هل يتكلم عن التاريخ السياسي والاجتماعي والعلمي للدولة العثمانية ، أم يتكلم عن الدولة الحديثة تركيا ، أم عن مصر ؟

فلقد عاش الكوثري حياته موزعة شطرين :

شطراً في تركيا مركز الخلافة ، وشطراً آخر في مصر التي كانت بها بدايات الحركات التحديثية في العالم العربي .

وهذه الفترة التي عاشها الكوثري تعد من فترات التاريخ الدقيقة ففيها : سقطت الخلافة الإسلامية ، وفيها : كان الاستعمار للبلاد الإسلامية ودكت عروش كانت قائمة . وقامت دول لم تكن ، وحدثت أمور ، كان لها تأثير عظيم على أبناء ذلك العصر .

المبحث الأول :

الحالة السياسية

عاش الكوثري (١٢٩٦ — ١٣٧١) فترة مصيرية من تاريخ الدولة العثمانية ، ومن ثم من تاريخ العالم الإسلامي ، فقد عاش فترة إعلان الدستور الجديد ، وفترة إلغاء الخلافة الإسلامية ثم قيام الجمهورية العلمانية عن طريق جمعية الاتحاد والترقي ، ومن بعدهم الكماليون .

ولا شك أن العثمانيين كانوا ، من خلفاء المسلمين العظماء ، فقد قامت خلافتهم أول ما قامت على الدفاع عن الإسلام ، خاصة في أوربا ، شرقها ووسطها .

ولكن سنة الله في الأرض لا تتخلف ، إذ حدث في آخر دولتهم الوهن والضعف ، والبعد عن الدين ، فلم يكد القرن الثامن عشر أن يخرج حتى بدأ التراجع ، والانحدار أمام دول الغرب المقبلة على القوة ، فتألبت عليها دول الشرق والغرب ، ساعية إلى تحطيمها ، وتفتيتها ، لأن ذلك يؤدي إلى ضعف العالم الإسلامي وشعوبه .

وقد حاول الخلفاء العثمانيون ، تدارك ذلك ، فسعى سليم الثالث (١٨٠٨ م) إلى إنهاض أمور السلطنة ، بما يسمى الاصلاح ، ففشل فشلاً ذريعاً ، إذ أولى الجانب المادي من إصلاح الجيش والدولة كل اهتمامه ، وأهمل ما يتعلق بإنهاض روح الأمة ، وتعزيز جانب نصرة الإسلام والمسلمين فيها [1] .

ثم جاء بعده محمود الثاني ، فسار سيرة سليم الثالث وقضى على فرقة الانكشارية ، بدل أن يهذبها ويحتويها ، فكان قضاؤه عليها أحد أهم أسباب ضعفه ومن بعده .

ومازال خلفاء بني عثمان ، يتداولون أمور السلطنة ، بالاصلاح مرة وبالتغيير مرة أخرى ، حتى تولى السلطان عبد الحميد الثاني سدة الحكم في ١٢٩٣ ، ووضعُ السلطنة في انحطاط كبير ، وعلى أسوأ حال ، تغيظ المسلم المحب ، وتسر العدو البغيض ، فعلى الوضع الخارجي تألبت دول الغرب على هذه الدولة التي سموها " الرجل المريض " فسعوا

---

١) انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ٧٠١

إلى تقسيمها ، فألبوا عليها القوميات الكافرة من صرب وبلغار ، وأوعزوا لليهود باستمالة العلمانيين والحاقدين في الداخل .

فأعلن الصرب الحرب على العثمانيين ، وقامت الحرب الروسية وقامت الثورات على الأتراك في بلغاريا ، واليونان وغيرها .

هذا بالاضافة إلى ضغط القوى الكبرى المتمثلة في الدول الغربية ، على السلطان عبد الحميد لتحقيق مايسمى الاصلاحات ، وحقوق الأقليات غير المسلمة ، وزيادة الحرية ... الخ .[1]

وأما على الوضع الداخلي ، فقد ، أثمرت جهود القوى الكبرى في زعزعة السلطة الداخلية للدولة من خلال ، ضغط الديون وإنشاء الجمعيات ذات الأهداف المعادية للإسلام والخلافة الإسلامية .

وقد سعت تلك الجمعيات ، والقوى إلى إثارة النعرات ، وإحياء العرقيات ، والقوميات حتى بين شعوب الإسلام .

ولا ننسى أن أعداء الخلافة إنما كانوا ينفذون أهدافهم من خلال فئتين داخل جسم الدولة :

الأولى : الأقليات غير المسلمة في تركيا ، وأعظمهم أثراً اليهود الذين كان لهم اليد الطولى في خلع السلطان عبد الحميد .

الثانية : العلمانيون الذين تغربت قلوبهم ، وعقولهم ، وفتنوا بدول الكفر وأنظمتها ، فمالوا إليها ، وسعوا إلى أن تكون دولتهم وبلادهم على صنوها ومثالها ، وكانوا يرون أن أعظم أسباب تأخرهم المادي هو تحكيم الشريعة الإسلامية ، ووجود نظام الخلافة الذي يتهمونه بالحكم المطلق والتفرد بالسلطة[2] .

واستمر الحال بين السلطنة — ويمثلها — في تلك الفترة السلطان عبد الحميد الثاني وبين قوى التغريب ويساندهم ملل الكفر وقوى الاستعمار ، من الصراع والتجاذب حتى كان نجاح القوى الغربية ، وأتباعهم المغربين بخلع السلطان عبد الحميد ، وبداية دخول

---

١) التاريخ الاسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر ٨ / ٢٢٦

٢) انظر (تاريخ الدولة العثمانية) نيلمز أزتونا ٢ / ١٤٤ -١٤٩ ، ١٥٧ – ١٥٨ ، ط الأولى (١٤١٠- ١٩٩٠) نشر مؤسسة فيصل للتمويل .

تركيا — وطن الكوثري — تحت حكم الاتحاديين [1] وكان عمر الكوثري آنذاك إحدى وثلاثين سنة ، حيث إن خلع السلطان كان سنة ١٣٢٧[2] .

وكان الاتحاديون يتولون إدارة أمور السلطة من خلال المجلس النيابي ،حيث كانت لهم الكلمة النافذة وهم من ألد أعداء الاسلام وأهله ، فكان من أول أهدافهم ، الغاء العمل بالشريعة الإسلامية وبمثلها المحاكم الشرعية ، وإلغاء الجامعة الإسلامية بإحياء القوميات ، وتعزيز العرقيات ، والسير بالسلطنة إلى النطاق القومي الضيق العفن ، وتقطيع كل صلة تربط هذه الدولة بالإسلام والمسلمين .

وقد تردت أحوال الدولة العثمانية عهد الإتحاديين أشد مما كانت عليه ، فخسرت الدولة ومعها المسلمون — بلاد البلقان كلها — وخرجت ليبيا من سيطرة المسلمين إلى أيدي الطليان الغاصبين ، وكان من ثمرة إدخالهم الدولة الحرب ضد أعداء المانيا سبباً جوهرياً في خروج العراق ، وبلاد الشام إلى أيدي الانجليز والفرنسيين .

وكملت محنة الدولة — ومعها المسلمون — بظهور مصطفى كمال الملقب بكمال أتاتورك ، في اقليم الأناضول ، حيث تزعم ثورة صغيرة مالبثت أن اتسعت حتى كان تأسيس ما يسمى المجلس الوطني ، واختياره رئيساً له ، وتكوين حكومة لأول مرة في أنقرة ، ثم أسس حزبه الخاص الذي سماه (حزب الشعب الجمهوري) .

ومازال يدير البلاد من خلال ذلك المجلس في أنقرة ، ويضعف سلطة السلطان أكثر فأكثر[3] .

وقد تمالأ هذا المتنكر لدينه وأمته ، مع أعداء الإسلام ، وذلك بقبول شروط الانجليز للاعتراف باستقلال تركيا ، التي كانت :

---

١) الاتحاديون ، نسبة إلى جمعية " الاتحاد والترقي " التركية وهي امتداد لجمعية " تركيا الفتاة " حيث إنهم بعد أن نجحوا في خلع السلطان ، أظهروا جمعيتهم السرية " الاتحاد والترقي " وتولوا أمور الدولة .

٢) انظر لخلع السلطان وما بعده : (تاريخ الدولة العثمانية) ليلمز أزتونا ٢ / ٢٦٠ ط الأولى (١٤١٠-١٩٩٠) نشر مؤسسة فيصل للتمويل .

٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية محمد فريد بك ٧٥٠

١. إلغاء الخلافة .
٢. أن تكون هذه الدولة علمانية لا صلة لها بالإسلام .
٣. اختيار دستور مدني لا يستمد عناصره من الدين .
٤. إخراج الخليفة وأسرته من تركيا [١] .

وكان ذلك سنة ١٣٤١ ، والكوثري آنذاك ابن خمس وأربعين سنة وهو وقت خروجه إلى مصر ، حيث وصلها ١٣ ربيع الآخر من السنة نفسها .

فوافق كمال أتاتورك على ذلك ، وسعى الى التغيير الجذري في السلطنة ، فأعلنت تركيا جمهورية ، و حجم نفوذ السلطان أكثر فأكثر حتى كانت خاتمة الأمر بإعلان إلغاء الخلافة الإسلامية ـــ بعد ألف وثلاثمائة واثنتين وثلاثين سنة ، تمتع خلالها المسلمون بالوحدة والهيبة ـــ من قبل المجلس الوطني سنة ١٣٤٢ هـ .

وعليه جرى طرد الخليفة [٢] وأسرته ، وبقية آل عثمان خارج البلاد ، وعطلت كل الأجهزة التابعة للخلافة [٣] .

وبهذا أسدل الستار على الدولة الإسلامية التي قامت في تركيا وضمت معظم الشعوب الإسلامية ، وتوالت بعد ذلك على تركيا مراحل التغريب وسلخ البلاد عن دينها ، وعن جذورها الإسلامية ، وقطع كل مايوصلها إلى ذلك الإرث العظيم ، حيث سعى العلمانيون ، والقوميون الأتراك إلى الغاء المحاكم الشرعية ، والحاق المدارس الدينية بوزارة المعارف التي اتخذت من العلمانية منهاجاً ، وحوربت الجمعيات الاسلامية ، حتى زوايا الطرق الصوفية ـ على ما فيها من ضلال ـ لم تسلم من الإغلاق والتضييق فقط لكونها تمت إلى التاريخ الإسلامي بصلة .

---

١) التاريخ الاسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر ٨ / ٢٣٣
٢) وهو عبد الحميد الثاني آخر خلفاء الدولة العثمانية ، والذي تولى من ١٣٤١ — ١٣٤٢ .
٣) ينظر التاريخ الاسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر ٨/ ٢٣٦

وكان من أعظم ما فعله الكماليون في حربهم للدين ، إلغاء العمل بالأحرف العربية وكتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية ، وحذف من المدارس جميعها التعليم باللغة العربية .

بل وأشد من ذلك سنت القوانين لمعاقبة من يكتب اللغة التركية بالأحرف العربية [1] وهذا أدى ولاشك إلى قطع الصلة بين هذه الأمة وبين دينها ، وتراثها الذي تراكم عبر مئات السنين .

و لم تكن مصر بعيدة عن هذه الأحداث ، إذ إن مصر كانت إحدى أهم الولايات لدى العثمانيين في وقت قوتهم ومنعتهم .

فقد عاش الكوثري في مصر بين عامي ١٣٤١ – ١٣٧١ هـ ، ثلاثين سنة عاصر فيها أحداثها السياسية والاجتماعية والعلمية ، وعاصر فيها آخر الدولة الخديوية [2] التي أسسها محمد علي ، وخلفه أبناؤوه ، الذين استقلوا بحكم مصر عن الدولة العثمانية .

فإن محمد علي كان أحد ولاة الدولة العثمانية ، لكنه استطاع أن يكون من القوة والولاء ما أدى إلا انفراده بحكم مصر [3]

والذي يهمنا في هذا العصر ، الفترة التي عاشها الكوثري في مصر ، إذ إنه ورد مصراً آخر عهد الخديوية سنة ١٣٤١ هـ _ ١٩١٨ ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والتي كان من ثمرتها إدخال مصر تحت الوصاية البريطانية .

" وقاست البلاد من الكبت والضغط ، ووقف المناصب الكبرى على الأجانب ، وإلغاء مجلس النواب ، وإبطال النظام الدستوري على مر السنين ، وكم من وعد قطعته بريطانيا على نفسها بالجلاء عن مصر قد بقي دون تنفيذ ، بل نجد العكس من ذلك أن بريطانيا قد فرضت الحماية على البلاد .

---

١) انظر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ، مصطفى صبري ٤/ ١١٧ – ١١٨ ، وانظر لهذا العصر : تاريخ الدولة العلية محمد فريد بك ، والتاريخ الاسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر الجزء الثامن ، الرجل الصنم لأحد الضباط الأتراك .

٢) انظر لذلك (علاقات مصر بتركيا) د / أحمد عبد الرحيم مصطفى طبعة ١٩٦٧ دار المعارف

٣) انظر لذلك (علاقات مصر بتركيا) د / أحمد عبد الرحيم مصطفى طبعة ١٩٦٧ دار المعارف ٧-٨

وساء مركز مصر السياسي ، وكبتت الحياة السياسية ، وأُجبرت العناصر الوطنية على الخروج من البلاد " [1]

وأنتج هذا قيادات تدعوا إلى رفع الحماية البريطانية حيث تشكل ما يسمى الوفد الوطني لمفاوضة البريطانيين على ذلك . [2]

وكان قدوم الكوثري وقضية هذا الوفد مشتعلة في مصر ، فعاصر أحداثها الوطنية .

والكوثري عاصر آخر ملوك الخديوية ، فقد عاصر الملك أحمد فؤاد الأول [3] ومن ثم ابنه الملك فاروق [4]

فقد تولى الملك فؤاد الأول بن الخديوي إسماعيل ، المُلك سنة ١٣٣٥ – ١٩١٧ " بعد وفاة أخيه السلطان حسين كامل [5] والحماية البريطانية مضروبة على مصر وفي أيامه قامت مصر بحركتها الوطنية (سنة ١٩١٨) بقيادة سعد زغلول [6] فرفعت الحماية سنة ١٩٢٢ ووضع دستور للبلاد وقانون لتوارث العرش ، وقانون لأمراء الأسرة الحاكمة ، وتحول لقبه من سلطان إلى ملك ، وحفل عهده بالأحداث إلى أن توفي " [7]

وهذا يشير إلى أن الكوثري شهد في عهد الملك فؤاد أحداثاً مصيرية بالنسبة لمصر والمنطقة .

وخلف الملك فؤاد الأول ، ابنه الملك فاروق الذي كان في عهده زوال الملكية على يد العسكريين .

فقد تولى الملك فاروق بن فؤاد الأول المُلك سنة ١٣٥٥ – ١٩٣٦ ، وقد تلقى تعليمه بفرنسا وإنجلترا .

---

١) المجمل في تاريخ مصر الحديثة ٣٤١ جلال يحيى ، نشر المكتب الجامعي ، بدون تاريخ

٢) المجمل في تاريخ مصر الحديثة ٥٦٣ – ٣٧٥ جلال يحيى ، نشر المكتب الجامعي ، بدون تاريخ .

٣) انظر لترجمته : الأعلام الشرقية لزكي مجاهد ١٥ ، والأعلام للزركلي ١ / ١٩٦

٤) انظر لترجمته الأعلام للزركلي ٥/ ١٢٨

٥) انظر لترجمتة الأعلام الشرقية لزكي مجاهد ٢٣

٦) انظر لترجمتة الأعلام الشرقية لزكي مجاهد ١٤٥ والأعلام للزركلي ٣/ ٨٣

٧) الأعلام للزركلي ١/ ١٩٦

" وخلف أباه ملكاً على مصر سنة ١٩٣٦ ، وأرغمته ثورة مصر (١٩٥٢) على خلع نفسه ، فنزل عن العرش لابنه الطفل (أحمد فؤاد الثاني) الذي ما لبث أن خلع بتحويل مصر إلى جمهورية " [١]

إذاً كانت السنة التي خُلع فيها الملك فاروق سنة ١٣٧١ وهي السنة التي توفي فيها الكوثري .

كل هذه الأحداث عاصرها الكوثري ، فأثرت فيه ولحظنا ميله إلى الملكية ،ونلمس ذلك من خلال الثناء على بعض أفراد الأسرة [٢] ، وكذا عدم مشاركته في النقد الموجه للملكية ، مع أن هذا النقد كان قوياً في ذلك الوقت من قبل شرائح كبيرة من المجتمع .

هذا هو العصر الذي عاشه الكوثري ، ولم يكن فيه بعيداً عن أحداثه فقد أثر بعضهم في بعض .

وسنرى كيف أنه لم يستطع أن يبتعد بالكلية عن هذه الأحداث الجسام وهو أحد منسوبي المؤسسة الدينية في تركيا .

وإن كنا نلحظ عليه ، ضعف مجابهته ، ومشاركته في هذا الصراع المرير بين دعاة التغريب والعلمنة ، وبين دعاة التمسك بالشريعة وتراث الأمة .

فقد كان من المتوقع منه _ وهو أحد علماء المذهب الحنفي والحاصل على الشهادة العالمية _ أن تكون له مواقف تليق بأمثاله ومؤلفات تتعلق بالذب عن الشريعة المحمدية تجاه ما يخطط لها ، وبفضح مكر ومخططات الكفر والملاحدة ودعاة التفرنج والتغريب .

لكننا رأينا كيف أنه اكتفى بمواقف حسنة وإن كانت قليلة ، كتصديه لمن أراد هدم مدرسة لإنشاء مركز أسعاف بدلاً منها [٣] .

ولا شك أن الكوثري تعرض لضغط عظيم ، طاول حياته من قبل الكماليين الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، مما دفعه إلى الخروج من تركيا ، والهجرة ، وأهله إلى

---

١) الأعلام للزركلي ٥/ ١٢٨ — ١٢٩

٢) انظر ثناءه على (صاحبة العصمة قوت القلوب) إحدى نساء الأسرة الحاكمة في مقال خاص في (مقالات الكوثري) ٦٠٩ — ٦١٢

٣) انظر مقالات الكوثري أحمد خيري ٤١

مصر ، وإن كانت العزيمة تدعو إلى الصبر والمجاهدة ممن كان على حاله ، والله أعلم بعباده والله المستعان .

لكننا نجد الكوثري في مصر غيره في تركيا ، فقد زاد نشاطه ، ودخل مصر وهي تعج بحركة علمية ، وتموج بتغيرات كبيرة ، ففي الجانب السياسي ـ كما مر ـ كانت مصرتحت حكم الأمراء الخديوية ، الذين لم يستطيعوا أن يمنعوا تدخل دول الغرب في شؤون البلاد ، فالبلاد لم تزل متأثرة ، تأثراً كبيراً بالحملة الفرنسية آخر القرن الثامن عشر الميلادي ، مما جعل مصر من أوائل البلاد الإسلامية تغريباً ونزوعاً إلى ثقافة الغرب ، وهذا أوجد صراعاً قوياً بين الفئات العلمية داخلها ،/ مما أوجد ظواهر وإفرازات لا تخفى على المتبع لتلك الفترة .

جاء الكوثري ، وفئات المجتمع السياسي تتصارع فيما بينها ، فشارك بمقالاته في هذا الجانب ، وحذر من أن تحذو مصر حذو تركيا ، ودعا إلى الاجتماع على الجامعة الإسلامية ، وحذر من التغريب وأثره [1] .

لكن هذا الجهد السياسي إن صح التعبير ـ لم يكن تحت أي تنظيم أو حزب ـ ، بل إن الكوثري ابتعد عن تلك الأحزاب حتى الاسلامية منها ، فلم يكن له لا مشاركات ولا عضوية ولا من ثناء او قدح .

---

١) انظر مقالات الكوثري ٤٤٠ .

المبحث الثاني

الحالة الدينية والاجتماعية

المبحث الثاني :

الحالة الاجتماعية والدينية

لا شك أن الحالة الاجتماعية هي نتاج الصراع الفكري ، والسياسي ، والاقتصادي لأي أمة فإن المجتمع إنما يتكيف ويتماثل وفق معتقده ، وتراثه وحالته السياسية والاقتصادية .

وقد مر بنا حال عصر الكوثري السياسي المتقلب ، مما كان له أعظم الأثر على الناحية الاقتصادية ، فبعد أن كانت تركيا ، أعظم بلاد الأرض غنى وترفاً ، لم تزل بها المحن حتى كانت في وضع اقتصادي يرثى له ، فقد تكالبت عليها الديون والتي كانت لأعدائها الذين يطالبونها بها ، ويذلونها ، ويفرضون شروطهم عليها بسببها مما أثر على حال المجتمع .

فالشعب يلهث خلف لقمة العيش ، حتى ضاقت عليه الأرزاق ، وانتشر الفقر ، وارتفعت بذلك مظاهر الفساد من الرشوة والسرقة ، واستعداد البعض للانخراط في أي شيء مقابل مايسد الحاجة ، ويدفع الفقر .

وهذا ما يفسر كثرة الفتن السياسية ، واندفاع بعض الناس إليها وإلى الأحزاب ، لا قناعة بها ، وإنما لدواعٍ اقتصادية وكذا خروج قطاعات من الجيش التركي عن إمرة السلطان إلى إمرة بعض القواد والضباط ، كما جرى ذلك من مصطفى كمال أتاتورك الذي ألب الجند في الأناضول ، واستقل بأمرهم ونهيهم ، ووسع نفوذه بهم حتى تمكن مما تمكن منه ، وإنما كان ذلك بفعل الذهب الأحمر الذي يحتاجه الجند ، فلا يجدوه عند السلطنة [1] .

وكذا فساد الأخلاق ، والذمم ، إنما هو مظهر اجتماعي بارز ، كان من أسبابه الوضع الاقتصادي ، وأثر دعاة التغريب على المجتمع .

وقد كثرت الجمعيات ، والأحزاب ـ عصر الكوثري ـ من كل لون ، لكن اللون الفكري والثقافي كان هو اللون الغالب وإن اتخذ طابعاً سياسياً في أغلب الجمعيات .

---

١) ينظر تاريخ الدولة العلية محمد فريد بك ٧٤٧

فانتشرت الجمعيات التي تدعو إلى القومية التركية في تركيا ، والقومية العربية في مصر ، والتي تغذي التعصب العرقي ، وتمزق الوحدة الإسلامية ، وكان ذلك بنظر وتأييد الدول الغربية [1] .

ومن خلال هذه الجمعيات وغيرها ، زاد نفوذ الأقليات غير المسلمة في الدولة ، وفي المجتمع ، وتأثيرهم .

فبرزت مظاهر الردة عن الدين ، والاستهانة بالشرع ، وانفتح باب التبرج والسفور ، بل وحوربت مظاهر الدين من قبل الاتحاديين ومن بعدهم من الكماليين ، فألغيت المحاكم الشرعية ، وجعلت المدارس الشرعية تحت إمرة غير الشرعيين ، وشجع الطاعنون في الدين ، في مؤسسات الدولة وفي الاعلام من صحف وكتب وغيرها .

"وألغى نظام تعدد الزوجات ، كما أصبح من حق التركية أن تتزوج رجلاً مسيحياً أو يهودياً ، وقرروا الأخذ بنظام الزواج المدني وتقرير حقوق متساوية للزوج والزوجة وتخويل كل شخص بالغ الحق في تغير عقيدته الدينية على حسب رغبته ، وفرضوا أجهزة مدنية كافية لمواجهة مهمة تسجيل الزواج بعد أن أصبح مدنياً كي يصبح زواجاً قانونياً ، لا تعترف الدولة بسواه وتعترف الدولة بنتائجه من ثبوت حقوق الإرث وما إلى ذلك ، وشهروا حرباً على الحجاب بالنسبة للسيدات والأزياء القديمة بالنسبة للرجال الذين كان عليهم أن يرتدوا الملابس الأوروبية والقبعات ومنعوا أئمة المساجد من ارتداء العباءة خارج المساجد وحولوا عدداً كبيراً من المساجد الكبرى والصغرى عن أغراضها الدينية إلى أغراض مدنية " "وجعلوا الإجازة الأسبوعية الرسمية في الوزارات والحكومة ومصالحها يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة وأبطلوا كتابة اللغة التركية بالحروف العربية واتخذوا لها حروفاً لاتينية " [2]

وحورب الدين بقوة " وقضت الحكومة في قسوة وعنف على كل نقد ديني لتدابيرها ، وفي سنة ١٩٣١ – ١٩٣٢ م ذهبت إلى أبعد من ذلك فحددت عدد المساجد ولم تسمح بغير واحد منها في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها خمسمائة متر .

---

١) من أشهر تلك الجمعيات " تركيا الفتاة " التي كان على يديها إسقاط الدولة العثمانية ، وإلغاء الخلافة ، وفصل تركيا عن الأسلام .

٢) الدولة العثمانية ، عبدالعزيز الشناوي ٢ / ١٠٢٠ .

كذلك خفض عدد الواعظين إلى ثلاثمائة واعظ ، وأوصدت أبواب جامعين من أشهر جوامع استانبول في وجوه المصلين ليحول أولهما ــ أيا صوفيا ــ إلى متحف ، وثانيهما ــ مسجد الفاتح ــ إلى مستودع " (١)

و لم تكن مصر ــ التي عاش فيها الكوثري ثلاثين سنة ــ بعيدة عن حال تركيا فالوضع الاقتصادي ــ وإن كان أحسن حالاً من تركيا ــ لكن لم يكن ينتفع به إلا أهل النفوذ والشوكة ، وكان أكثرهم من الأتراك والأعاجم ، أما عامة الناس ، فكانت في وضع الكفاف ، والفقر .

لكن تتميز مصر بوضع اجتماعي مستقر نوعاً ما ، فالصراع الفكري ، والثقافي كان محصوراً في طبقة قليلة بخلاف عامة الناس الذين يغلب عليهم الأمية والجهل .

لكن الكوثري ، شهد مع ذلك مظاهر التغريب التي أدركها في بلده تركيا ، وساهم بجهده في محاربتها .

---

١) تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ص ٦٩٨ .

المبحث الثالث

الحالة العلمية

المبحث الثالث :

الحالة العلمية

عاش الكوثري في القرن الرابع عشر الهجري (آخر القرن التاسع عشر ، ومنتصف القرن العشرين الميلادي) .

وهذه الفترة التي عاشها كانت ثمرة لفترة تاريخية حافلة بالتغيرات الفكرية والعلمية . فقد سعى العثمانيون إلى إرسال الطلاب المسلمين إلى بلاد أوروبا في بعثات علمية ، لتسير الدولة وفق النمط الحديث آنذاك .

وكانت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) هدفت _ فيما هدفت إليه _ نشر المفاهيم التي قامت عليها الثورة الفرنسية حتى يكون لها وجود في هذه المنطقة .

وقد أدرك الكوثري الدولة العثمانية آخر عهدها ، وهي في ضعف شديد أثر على المؤسسات العلمية والشرعية ، فبينما كانت الدولة كلها ، والبلاد كلها ، تتنافس في العلوم الشرعية ، علماً وتعلماً وتأليفاً ، تراجع ذلك ، حتى أحيا بعضه السلطان عبد الحميد .

فقد كانت تركيا _ البلد الذي نشأ فيه الكوثري _ مليئة بالمدارس الدينية ، والكتاتيب والمعاهد الشرعية ، التي تدرس علوم الشريعة واللغة العربية ، وسائر فنون العلوم الإسلامية ، وساير السلطان ، عصره ، فأنشأ المدارس ، على النمط الحديث ، بمراحله المتعددة .

وكانت تركيا من أعظم البلاد بكثرة المخطوطات ، حيث كثرت بها المكتبات التي تحتوي مئات المخطوطات في الفنون كلها وقد اطلع الكوثري على كثير منها ، واستفاد منها استفادة عظيمة .

وقد كانت الكتاتيب منتشرة في القرى كما في المدن ، مما مكن الكوثري من النهل منها في قريته دوزجة قبل أن ينتقل إلى الآستانة .

وهذا لا يعني أن الحركة العلمية في تركيا كانت مقتصرة على علوم الشريعة ، بل على العكس من ذلك ، فقد سعت الحكومة آنذاك إلى إدخال العلوم العصرية إلى المدارس

كلها ، حتى إنها ألحقت المدارس الدينية بوزارة المعارف بدعوى تحديث التعليم ، وإنما كان مقصودهم محاربة هذه المدارس ، والحد من الإقبال عليها .

و لم تكن مصر بعيدة عن تركيا من هذه الجهة ، فقد أثرت عليها الحركة العلمية التي قام بها محمد علي ، حيث أخذت مصر ـــ وهي آنذاك مركز العالم الإسلامي ـــ في اقتباس أسباب المدنية الحديثة لتنظيم البلاد ، وتخريج العلماء والأطباء والصناعيين ، وإنشاء المدارس الحديثة ، بإرسال البعوث إلى أوربا ، واستقدام المدرسين منها ومن تركيا .

وطاول هذا كله المدارس الشرعية والمعاهد الدينية ، وعلى رأسها الأزهر ـــ جامعة العلوم الإسلامية ـــ فكما هو معلوم أن الأزهر له اليد الطولى في الحركة العلمية على مستوى العالم الأسلامي ، وكان الاهتمام الأكبر له تدريس فنون الشريعة كافة ، حتى كان ما يسمى حركة اصلاح الأزهر ، والتي بدأت مطلع القرن الرابع عشر الهجري ، وأتمها محمد عبده ، بقوة وجلد ، وأدت إلى إدخال العلوم العصرية إليه مما أدى إذهاب الصورة الشرعية عنه ، وضعف طلابها ، وتغيير مكانته على مستوى العالم الإسلامي .

وقد أدرك ذلك الكوثري كله ، فساهم في بالنقد تارة [١] ، وبوضع برنامج للاصلاح تارة أخرى [٢] .

---

١) انظر مقالات الكوثري ٦١٥

٢) نفسه ٦١٩

الفصل الثاني :

حياته الشخصية

المبحث الأول :

اسـمـه ونـسـبـه

المبحث الأول :

اسمه ونسبه

" هو محمد زاهد بن الحسن الحلمي المتوفى [١] في دوزجه [٢] يوم الأربعاء ثاني عشر ربيع الآخر سنة ١٣٤٥ عن مائة سنة ، وكان انتقل اليها من قريته سنة ١٣٠٣ وهو ابن علي الرضا المتوفى بموضع قرية الحاج حسن قبل بنائها وعقب وصولهم مهاجرين من القوقاس سنة ١٢٨٠ وهو ابن نجم الدين خضوع المتوفى بالقوقاس في حدود سنة ١٢٤٥ وهو ابن باي المتوفى بالقوقاس حوالى ١٢٢٠ وهو ابن قنيت المتوفى بالقوقاس في حدود سنة ١١٨٠ وهو ابن قانص المتوفى بالقوقاس حوالى سنة ١١٤٠ . " [٣]

فهو محمد زاهد بن الحسن بن علي [٤] بن نجم الدين خضوع بن باي بن قنيت ابن قانص الكوثري الجركسي [٥] .

والجركسي أو الشركسي ، شعب من شعوب الترك ، يسكنون بلاد القوقاز .

والكوثري نسبة لأحد أجداده كوثر وهو فخذ قبيلة منهم .

فهو " جركسي الأصل ، أناضولي المولد ، استانبولي النشأة ، مصري المهجر والوفاة " [٦] .

والجراكسة أصل بلادهم القوقاز أو القفقاس ، وهم مسلمون .

كانوا مدداً عظيماً لجيوش المسلمين في عهد الدولة العباسية ثم المماليك ثم العثمانيين .

---

١) القصود الحسن ، لا محمد زاهد ، الابن .

٢) وكان اسمها (قونرابا) على اسم القائد التركي الذي افتتحها . يقول الكوثري عنها : " دوزجه ، بلدنا ، على خمس مراحل شرقي الآستانة ." انظر (البحوث السنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوتية) للكوثري ، ورقة رقم ٥ . مخطوط بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية برقم ١١٨٥ .

٣) مقالات الكوثري لأحمد خيري ٢٨

٤) وعليٌّ هذا هو الذي هاجر من القوقاز (القفقاس) إلى دوزجة ببلاد تركيا .

٥) مقالات الكوثري ، المقدمة أحمد خيري ٢٨ .

٦) نفسه ٨٧ .

المبحث الثاني :

مولده ونشأته

المبحث الثاني :

مولده ونشأته

ولد في ٢٨ من شوال سنة (١٢٩٦هـ) في قرية الحاج حسن أفندي ، وهي قرية أنشأها والده حسن فسميت باسمه ، و تبعد عن الآستانة بنحو خمس مراحل من جهة الشرق ، هذا وقد تردد أحمد خيري في تاريخ ولادته فقال : " ولد يوم الثلاثاء ٢٧ أو ٢٨ من شوال سنة ١٢٩٦ ست وتسعين مع أذان الفجر " . [1]

هذا ما ذكره أخص تلامذته ، ولكن فيما نقل نظر فقد ولد الكوثري في ٢٨ من شهر شوال بدون شك ، وفي سنة ٩٦ ست وتسعين والف ومئتين . (٢٨/١٠/١٢٩٦ هـ)

وذلك لأن الكوثري قال في آخر كتابه الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار" ما نصه :

" وكان الفراغ منه بتوفيق الله سبحانه على يد أسير وصمة ذنبه المفتقر إلى عفو ربه محمد زاهد الكوثري — عفي عنه — يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر شوال المبارك من سنة سبعين وثلاثمائة وألف ، وهو اليوم الذي ابتدأت به السنة الخامسة والسبعين من عمري " . [2]

فهو نص على أنه في يوم ٢٨ ثمان وعشرين أتم أربعاً وسبعين سنة ، وفي يوم ٢٩ شرع في سنة جديدة .

إذا فهو ولد يوم الثلاثاء ٢٨ من شوال سنة ١٢٩٦ هـ .

ونشأ الكوثري مثل عامة طلبة العلم في بلده ، فكان بيته بيت علم في المذهب ، فوالده حسن بن علي الكوثري [3] من علماء الأحناف درَّس في بلدة دوزجة وغيرها ،

---

١) مقدمة مقالات الكوثري . أحمد خيري ٢٨

٢) الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار ٣٦

٣) له ترجمة في كتاب الأعلام الشرقية ٢٩٧/١ .

ثم غادر قريته إلى الآستانة سنة ١٣١١هـ وهو ابن خمس عشرة سنة وطلب العلم فيها على أيدي مجموعة من علمائها ، ونال بها الشهادة التي تسمى العالمية سنة ١٣٢٥هـ واشتغل بها في التدريس بجامع الفاتح .[١]

وقاوم مشاريع الحكومة آنذاك في استبدال العلوم العصرية بالعلوم الدينية ، فصدر الأمر بنقله إلى قسطموني ، في وسط الأناضول ، فبقي فيها ثلاث سنين ، حيث استقال ورجع إلى الآستانة . وفي طريقه إليها كاد أن يموت غرقاً بقرب أقششهر يقول أحمد خيري : " فإنه لما استقال من عمله في قسطوني وأراد العودة الى الآستانة وكان الوقت شتاء ويستحيل السفر بالبر لكثرة الثلوج وصعوبة السير — وليس الا طريق البحر الأسود فسار من قسطموني إلى اينابولي وهي ميناؤها على البحر وتبعد عن قسطوني نحو مرحلة الى الشمال وهناك بعد أن طال انتظاره اضطر الى ركوب باخرة صغيرة قديمة كانت تسير حيناً وتتلف آخر حتى وصل الى ميناء اريلى وهناك فضل تركها واستقل قارباً يقصد أقششهر وهي ميناء بلدته دوزجه وتبعد عنها نحو خمس ساعات بالعربة التي تجرها الخيل على نية أن يبقى ببلدته حتى تتيسر له سبيل العودة الى الآستانه وكانت مغادرة أريلى مع الفجر وقبيل العصر بدت له ولمن معه من الركاب مدينة أقششهر وبدأ اضطراب البحر واشتداد هياجه وما أن أشرفوا على الساحل عن بعد حتى انقلب بهم الزورق ولكنهم ظلوا متمسكين به ورآهم من كان على الشاطئ فهموا بانزال زورق آخر ولكنهم اضطروا الى العدول لشدة هياج البحر واضطراب أمواجه فما كان من اثنين منهم الا أن نزلا الى الماء وسبحا ومعهما حبال طويلة ربطا بها الزورق وعادا لمن في البر لجذبه وأثناء الجذب اشتدت الأمواج المثلثة : وهي بأن تأتي الموجة تعقبها ثانية ثم ثالثة متتاليات . وأدى ذلك الى أن أفلت من في البر الحبال وعاد الزورق غير شاعرين بما يبذل لا نقاذهم فلما اشتدت الأمواج المثلثة أرغمتهم على افلات الزورق وهنا بدأ الشيخ يغرق ، وكان مما دار بخلده عند انقلاب الزورق أن لو كان غرق بعيداً لكان أجدى من غرقه هنا حيث يعثرون على جثته فيترتب على ذلك انزعاج والده وأهله ، فلما بدأ يغرق قال لنفسه أهكذا الموت غرقا بهذه السهولة كنت أظنه أشد من ذلك ثم غاب عن وعيه — ولم يفق الا على طنين في

---

١) مقدمة المقالات ، أحمد خيري ٢٩ .

أذنيه ثم بدأت حواسه تعود إليه حتى أفاق ثم ألزمه منقذوه أن يجري حتى لا يهلك مما تحمله من شدة البرد ومقاومة الأمواج ومع وجود كثير يعرفونه لم يعرفه أحد الا بعد مدة حين تمت افاقته وعاد الدم الى وجهه — وعلم بعد ذلك أن الرجلين اللذين ربطا الزورق بالحبال كانا في شبابهما ممن يعمل في البحر ثم أثريا وتركا تلك الصناعة لعمال تحت أيديهما فلما شاهدا الحادث — واتفق عدم وجود أحد غيرهما يحسن الانقاذ — نزلا وربطا الزورق ، ولما اضطرت الأمواج المنقذين الى افلات الزورق عادا الى النزول وأنقذا جميع الغرقى الذين خرجوا أحياء و لم يمت أحد منهم ولله الحمد — ولما أراد المترجم مكافأة الأخوين مادياً — وذلك لأن الرجلين المنقذين كانا أخوين — قيل له مهما تكافئهما فلن تؤثر مكافأتك عليهما لأنهما من الثراء بمكان عظيم ، ولكن لو توسطت لدى الحكومة فشكرت لهما هذا الصنيع لكان أجدى فلما عاد الى الآستانة وسط بعض أصدقائه لدى الصدر الأعظم فأنعم عليهما بنوط وأشير الى أن ذلك لشهامتهما — .

وعلم الشيخ أنهم عند اخراجه ظنوه قد مات ولكن أحد الشيوخ قال : اعملوا الواجب بأن تضربوه على رجليه وتستفرغوا الماء منه الى آخر ما يعمل لانقاذ الغرقى وماهي الا هنيهة حتى أفاق وعاد اليه شعوره وكان معه عند الغرق مجموعة من أنفس المخطوطات بلغ الحرص به عليها أن نقلها معه من الآستانة الى قسطمونى و لم يرد تركها هناك فحملها معه حيث غرقت فيما غرق متاعه — وكان بينها مخطوط ." [1]

فلما وصل إلى الآستانة تعين في دار الثفاقة الإسلامية — وهي مدرسة ليلية - .

ثم انتخب عضواً في مجلس وكالة الدرس ، ثم وكيلاً للدرس ورئيساً للمجلس المذكور و لم يلبث أن عزل " [2] .

وكان سبب عزل الكوثري عن منصب وكيل الدرس أن لجنة مساعدة منكوبى الحرائق بالآستانة أرادت هدم مدرسة دينية لتبني عليها داراً لإسعاف المنكوبين تكون بمثابة مأوى لهم ، فعارضهم الكوثري في هدمها ، ثم رفع دعوى لدى المحكمة لمنع هدمها، فتم عزله لذلك . [3]

---

١) مقدمة المقالات احمد خيري ٣٦ .

٢) مقدمة المقالات ، أحمد خيري ٣١ .

٣) ينظر مقدمة المقالات ، أحمد خيري ٣٩

ولما تولى الكماليون السلطة اضطر صاحب الترجمة إلى الخروج من تركيا ، فقد قيل [1] إن الكماليين يريدون اعتقاله ، فخرج من الشرق إلى الميناء مباشرة فتوجه إلى دار الإسكندرية ، فوصلها في ١٣ربيع الآخر سنة ١٣٤١هـ .

وتنقل بين الإسكندرية والقاهرة ، حتى رحل إلى الشام عن طريق الإسكندرية إلى بيروت فدمشق ، ولبث فيها سنة أو أكثر ، ثم رجع إلى مصر عن طريق فلسطين .

ثم مالبث أن سافر رحلته الثانية للشام سنة ١٣٤٧هـ براً ولبث بدمشق نحو سنة عاد بعدها إلى القاهرة سنة ١٣٤٨هـ ولقي في رحلته إلى الشام كثيراً من علماء الحنفية و، غيرهم .

وذكر أحمد خيري أنَّ الكوثري سمع من محدث الشام آنذاك بدر الدين الحسني و لم يستجزه ! [2] فلم ذلك مع حرص الكوثري على علم الحديث ، وكون بدر الدين إليه المنتهى في علم الحديث في عصره !

فهل لم يستجزه الكوثري ، أم أن بدر الدين لم يجزه ؟ فالله أعلم .

واستقر الكوثري في القاهرة فلم يغادرها حتى توفي ، حيث اشتغل مترجماً في دار المحفوظات المصرية [3] .

و لم يتزوج الكوثري إلا امرأته التي " رزق منها ولداً وثلاث بنات ، مات الولد وإحدى البنات بالآستانة قبل هجرته ، وماتت البنتان بمصر . " [4]

---

١) نفسه ٤١ .

٢) مقدمة المقالات ، أحمد خيري ٣٢ .

٣) نفسه ٣٣ .

٤) نفسه ٣٣.

المبحث الثالث :
أعماله

المبحث الثالث :

أعماله

عاش الكوثري خمساً وسبعين سنة ، فكانت حياته مليئة بالأحداث والأعمال .

فكان أول عمل تولاه الاشتغال بالتدريس سنة ١٣٣٢ في جامع الفاتح ، مدرساً للعلوم الشرعية ، وكانت الطريقة للتعليم في هذا الجامع وغيره من المعاهد والجوامع أن الطالب يدرس فنون الشريعة وآلاتها كلها مدة خمس عشرة سنة ، فأراد أصحاب النظام الجديد إدخال العلوم الحديثة الغربية وتخصيص المدرسين بأن يدرس كل منهم ما يختار له من العلوم لعدة فصول وجعلوا مدة الدراسة ثماني سنين ، وعقدوا لذلك مجمعاً ، وكان المترجم من أعضائه ، فرأى في ذلك قضاءً على الدين لقصر مدة الدراسة وكثرة العلوم ، خصوصاً أنَّ الطلبة أتراك والعلوم الدينية تستلزم دراسة اللغة العربية ، فما زال يحتال ويمكر حتى جعل مدة الدراسة اثنتي عشرة سنة غير البدء بسنتين تحضيريتين ، وبعد ذلك ثلاث سنوات للتخصص فأصبحت المدة سبع عشرة سنة ، وذلك بمعاونة بعض الصلحاء من أعضاء اللجنة مما أثار حفيظة ضغائن الاتحاديين من أعضاء اللجنة ، فسعوا في عزل شيخ الإسلام في ذلك العهد محمد أسعد بن النعمان الأخسخوي وتعيين خيري أفندي الأركوبي الذي كان على بغضه القديم وصرامته ذا ورع ودين إلى حد ما ، فلم ينل الاتحاديون مشتهاهم .

وأثناء الحرب أحب الخروج من الآستانة فتولى افتتاح معهد فرعي أنشأته الحكومة في قسطموني ، لبث فيه ثلاث سنوات .

ثم عاد مرة أخرى لتولي التدريس في مدرسة دار الثقافة الإسلامية .

وكانت الخلافة العثمانية في آخر عهدها قد استحدثت منصباً باسم مشيخة الإسلام ، يرأسه عالم شرعي كبير يسمى شيخ الإسلام ، وهذا المنصب بمثابة كبير الوزراء

أو رئيس الوزراء ، فلما كثرت أشغال شيخ الإسلام أخذ ينيب عنه بعض العلماء في إلقاء الدروس .

وعرف النائب باسم وكيل الدرس ، يقوم بتدريس الطلبة ، والعناية بهم ، نيابة عن شيخ الإسلام .

وكان الكوثري ممن نال هذا المنصب عن شيخ الإسلام في ذلك الوقت نوري أفندي [1] .

وأحب هنا أن أنبه على خطأ في هذا ، وهو أنَّ الكوثري كثيراً ما يعرف بوكيل شيخ الإسلام على طرر كتبه .

وهذا ليس بصحيح ، فالكوثري كان وكيل درس ، ولم يكن وكيل شيخ الإسلام ، وكان يشاركه في هذا اثنان غيره ، هما وكيل الفتوى ووكيل التحقيقات الشرعية [2] .

وتولى الكوثري مع قيامه بوكالة الدرس ، رئاسة مجلس وكالة الدرس ، لكنه عزل عن وكالة الدرس ، وذلك أنَّ لجنة مساعدة منكوبي الحرائق بالآستانة أرادت هدم مدرسة أنشأها السلطان مصطفى الثالث المتوفى سنة ١١٨٧ والمشهورة باسم (لا له لي) لتبنى عليها داراً لإسعاف المنكوبين تكون بمثابة مأوى لهم ، وكانت اللجنة برياسة شرف السلطان محمد وحيد الدين السادس ، ورياسة توفيق باشا ، فعارض الأستاذ في هدمها وطلب من شيخ الإسلام أن يعارض فلم يعمل شيئاً ، فما كان من الأستاذ إلا أن رفع دعوى لدى المحكمة لمنع هدم المدرسة لأنها مستكملة شرائطها ، ولا يجوز هدمها إلا بحكم ووكل عنه محاميين ورفعها أمام أحد القضاة ، وأثناء سير الدعوى ولى توفيق باشا منصب الصدر الأعظم .

وحاولوا ثني ا لكوثري عن عزمه فلم يفلحوا ، فاحتجوا بأن صاحب الحق في رفع الدعوى هو شيخ الإسلام ، فأخرج لهم الكوثري نصاً بأن المدارس تابعة لوكيل الدرس ، فلم يروا بداً من عزله وتعيين سواه. [3]

---

١) مقدمة المقالات ، أحمد خيري ٣٩ .

٢) انظر المقدمة للمقالات ٣٩ .

٣) انظر المقدمة للمقالات ٣٩

على أنه لما استقر بمصر لم يل من الأعمال ما يستحق أن يذكر ، فلبث زمناً يقتات من طبع بعض المخطوطات ونشرها ، حتى استقر على وظيفة بدار المحفوظات المصـــرية ، يقول أحمد خيري : " فهو حيناً يعيش من ترجمة الوثائق التركية بدار المحفوظات ، وآونة يعيش مما تجريه عليه وزارة الأوقاف من الخيرات " [1] .

---

١) نفسه ٤٢ .

المبحث الرابع :

وفاته

المبحث الرابع :

وفاته

توفي الكوثري بالقاهرة سنة ١٣٧١ هـ [١]

يقول تلميذه أحمد خيري : أن الكوثري كان آخر حياته يشكو من السكر والضغط وأمراض الكبر ، وعالج عينه مرتين دخل بسببها المستشفى مرتين .

" وفي يوم السبت السابق لوفاته شعر بأعراض الحمى فأحضر له الشيخ عبد الله عثمان [٢] وكان يلازمه في المدة الأخيرة طبيباً ، قرر بعد فحصه بأنه مصاب (بالأنفلونزا) وأمر له بدواء .

وفي ليلة الأحد اشتدت الحرارة ، وزاد الضعف ، وبعد ظهر يوم الأحد المذكور رأى الشيخ عبد الله أنّ الحالة تستدعي حضور بعض الإخوان لمعاونته على ما قد يحدث ، فنزل قبيل العصر ، ولما عاد في الخامسة إلا ثلثاً وجده انتقل إلى رحمه الله من بعد ظهر يوم الأحد تاسع عشر من ذي القعدة سنة ١٣٧١ إحدى وسبعين " [٣] .

---

١) الأعلام للزركلي ٦ / ١٢٩ ، ومقدمة المقالات ، أحمد خيري ٣٤

٢) هو أخو الكوثري الشقيق .

٣) مقدمة المقالات ، أحمد خيري ٣٤ .

الفصل الثالث :

حياته العلمية

المبحث الأول :

طلبه العلم

المبحث الأول :

طلبه العلم

الكوثري من علماء الحنفية ببلاد العجم ، وقد تدرج في طلب العلم تدرجاً تقليدياً ليس فيه ما يلفت النظر .

فقد ولد ببلده وتلقى مبادئ العلم على كتّاب قريته ، ودرس على يدي والده بعض الفنون في دوزجه .

ثم نزل إلى العاصمة فطلب العلم على يدي إبراهيم حقي الأيـيني [1] في جامع الفاتح ، واستمر يدرس بالجامع على يدي شيوخ الجامع حتى تخرج فيه سنة ١٣٢٢ هـ .

ثم تقدم لنيل العالمية سنة ١٣٢٥ فنالها .

حتى إذا تولى التدريس ، كان يمارس العلم ، طالباً ومعلماً ، ومدارساً لعلماء عصره .

فلما استقر بمصر ، تفرغ للتأليف والتعليق والنشر ، وأخذ عن بعض علماء الشام من الحنفية كأبي الخير الحنفي ، وابن عبد الغني ابن عابدين أخي ابن عابدين الحنفي صاحب حاشية رد المحتار ، ومحمد بن جعفر الكتاني المالكي ، وغيرهم [2] .

---

(١) كذا في مقدمة المقالات (الأيبيني) المقدمة ٢٨ ، وفي ترجمته في الأعلام الشرقية لزكي محمد مجاهد ٢٥٠ (الأكيني) ، والأول أقرب للصواب لاختصاص جامع المقالات بالكوثري ومعرفته بشيوخه .

(٢) مقدمة المقالات أحمد خيري ٣٢ .

المبحث الثاني :

شيوخه وتلامذته

المبحث الثاني :

شيوخه وتلامذته

أولاً : شيوخه

للكوثري شيوخ كثر قد جمعهم في رسالة سماها " التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز " .

اذكر بعضهم :

فأولهم : والده الشيخ حسن بن على الكوثري[1] المولود في قوقاسية سنة ١٢٤٥ وتلقى العلم هناك من الشيخ سليمان الشرلي الأزهري المقرىء المتوفى سنة ١٢٧٧ والشيخ موسى الصوبوصي المتوفى سنة ١٢٧٦ والشيخ موسى الحناشي المتوفي سنة ١٣٠٠ والشيخ حسن الصحصحى المتوفى سنة ١٢٩٥ تلميذ الشيخ شامل المجاهد الجركسي المشهور المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١٢٨٧ — ثم هاجر إلى البلاد العثمانية مع طلبته سنة ١٢٨٠ وبنى قرية جنوبي دوزجة بنحو ثلاثة أميال وتدعى باسمه إلى اليوم وبنى بها أيضاً مدرسة كثيرة الغرف لطلبة العلم سنة ١٢٨٤ . واجتمع فيها الطلبة فاستمر على تدريسهم إلى أن بنى أشراف مركز دوزجة سنة ١٣٠٣ فاشتغل بتدريس الطلبة بها إلى أن بني خان جنب المدرسة فانتقل إليها متخلياً عن شؤون المدرسة لأنجب تلاميذه وتفرغ المترجم لإقراء الفقه والحديث ، ومن شيوخه أيضاً الشيخ دولت المتوفى سنة ١٢٨٤ والشيخ موسى الاسترخاني المكي المتوفى سنة ١٣٠٢ صاحب عبد الله الارزجاني المكي تلميذ خالد البغدادي اجتمع به سنة ١٢٨٧ في موسم الحج وبقي عنده مدة ، ومن شيوخه أيضاً الشيخ أحمد ضياء الدين المكشخانوي المولود سنة ١٢٢٧ والمتوفى سنة ١٣١١ وكان للشيخ حسن المذكور باع طويل في الفقه والحديث فقد أقرأ أمهات كتب الفقه مرات ورا موز الأحاديث مرات وكان له شغف عظيم في صحيح البخاري يختمه مطالعة مع شرحي ابن حجر والبدر ثم يعيده وهكذا — وقد تلقى الكوثري من أبيه الفقه والحديث

---

[1]) له ترجمة في الأعلام الشرقية ٢٩٧/١

وغيرهما وأجازه بمروياته عامة توفي بدوزجة وابنه في بلاد الغربة مهاجراً وذلك يوم الأربعاء ١٢ من ربيع الآخر سنة ١٣٤٥ عن مئة سنة رحمه الله .

وثانيهم : الشيخ إبراهيم حقي الاكيني — كان آية في الذكاء وحسن الإلقاء ، — وكانت له يد طولى في علوم القراءة والأدب العربي — وكان بارعاً في الأصلين ، والمنطق والحكمة والفقه . تخرج في العلوم على الشيخ أحمد شاكر [1] المتوفى سنة ١٣١٥. وهو عمدة فيها وقد تخرج عليه نحو مئتي عالم ، إلى أن مرض في شعبان واستمر مريضاً حتى موته يوم السبت ٢٧ من شوال سنة ١٣١٨ عن ٥٧ سنة وهو عمدة الكوثري ويمينه في العلوم من صرف ونحو وبلاغة وأدب وفقه وأصول وتوحيد ومصطلح وتفسير وحديث ومنطق وآداب وحكمة إلى غير ذلك مما كان يدرس في الآستانة .

وثالثهم : وهو الشيخ علي زين العابدين الألصوني المولود سنة ١٢٦٨ في الألصونيا حيث تعلم مبادىء العلوم في بلده . ثم رحل إلى استانبول فحضر درس العلامة رجب الارناؤوطي ولما توفي سنة ١٢٨٩ انتقل إلى درس الشيخ أحمد شاكر وبه تخرج في العلوم وأخذ الحديث عن الشيخ حسن القصتموني . وتلقى برهان الكلنبوي وغيره من المحقق الشهير عبد الكريم النادر الألبصاني المتوفى سنة ١٣٠٠ ودرس العلوم في جامع الفاتح وتخرج عنده طبقتان من أهل العلم الأولى نحو مائة عالم والثانية نحو مائة وأربعين عالماً و بعد أن أتم التدريس في الطبقة الثانية تخلى عن مُرتَّبه لبيت مال المسلمين مرتئياً أنه لم يعد يستطيع التدريس فلم يبق وجه لصلته لبيت المال فطار هذا الخبر كل مطار . فكثر الزوار . فتوهم متوهمون مؤامرة سياسية في المترددين إليهم . فأصابه بعض أذى إلى أن أذاع بين محبيه ألا يزوروه فامتنع من مقابلة الزوار لهذا العذر إلى الانقلاب الدستوري في الدولة العثمانية سنة ١٣٢٦ ، ولما أحيل أمر إصلاح المعاهد الدينية إلى العلامة محمد خالص الشرواني المتوفى سنة ١٢٣١ بتعيينه وكيلا للدرس ، اختار المترجم في عداد من اختارهم لمجلس الوكالة فقبل بعد إلحاح شديد ، وعاد إلى ساحة التوظيف بالحكومة ، وفي سنة ١٣٢٩ ، عين وكيلا للدرس ، ومن نصائحه للمترجم عندما تخرج عليه (أن الدرهم

---

١) هو أحمد شاكر الكبير الإسلامبولي بن خليل الزعفرانبولي ، من كبار علماء الأتراك ، كان نشيطاً في نشر العلم ، توفي ١٣١٥ هـ وهو غير أحمد محمد شاكر صاحب إكمال المسند فهذا مصري ، وذاك تركي .

لا يدخل محلا إلا ويخرج منه الإخلاص)[1] ولما توفي الشيخ إبراهيم الأكيني انتقل الأستاذ بوصية منه إلى الألصوني حيث أكمل عليه العلوم ، توفي يوم الجمعة ١٨ صفر الخير سنة ١٣٣٦ ودفن بعد ظهر السبت في مقبرة السلطان محمد الفاتح .

ورابعهم : الشيخ حسن القسطموني المولود في بلدة طاطاي سنة ١٢٤٠ تخرج في العلوم على العلامة أحمد حازم الصغير النوشهري المتوفى سنة ١٢٨١ حفيد أحمد حازم الكبير المتوفى سنة ١١٦٠ وأخذ الحديث والتصوف عن الكمشخانوي وهو من أقدم أصحابه . وشارك شيخه في الأخذ عن السيد أحمد بن سليمان الأرواديِ المتوفى سنة ١٢٧٥ حينما ورد الآستانة سنة ١٢٦٦ . وأقام بها سنتين يدرس الحديث بآياصوفيا .

كما أخذ عن الشيخ عبد الفتاح العقري ، وكان من الموفقين في الإرشاد ونشر الحديث وسمع المترجم عليه الأحاديث وغيره وأجازه سنة ١٣١٨ بما حوى ثبت شيخ المترجم وبمروياته عامة . توفي يوم الخميس ٢٣ من صفر ١٣٢٩ ، عن ٨٩ سنة ودفن قرب شيخه الكمشخانوي في مقبرة السلطان سليمان .

وخامسهم : الشيخ ضياء الدين التكوشي المولود سنة ١٢٤٥ في تكوش بولاية سلانيك ورحل إلى الآستانة ولازم درس العلامة الحافظ سيد السيروزي ، تلميذ محمد أسعد إمام زاده ، ثم تخرج في العلوم على المحقق علي الفكري بن بهرام الياقوري المتوفى سنة ١٢٩٣ تلميذ العلامة سليمان الكريدي المتوفى سنة ١٢٦٨ وللمترجم غير ذلك من المشايخ.[2]

---

١) هذا من كلام الصوفية الذي ليس عليه دليل .

٢) مقدمة مقالات الكوثري . أحمد خيري ٨٠ – ٣٨ بتصرف .

ثانياً : تلامذته

للكوثري تلامذة كثر ، قبل خروجه إلى مصر ، وبعد استقراره بمصر ، حيث إنه لبث يدرس في المدارس والجوامع بتركيا ست عشرة سنة من سنة ١٣٢٥ إلى خروجه منها سنة ١٣٤١ ، ثم التف حوله كثير من الأحناف بمصر وغيرهم ، وتتلمذوا علـــى يديــه ، واستمر على ذلك حتى وفاته ، فكانت المدة التي أخذ عنه الطلاب في مصر ثلاثين ســنة من سنة ١٣٤١ إلى سنة ١٣٧١ .

لكن طلبته في المرحلة الأولى لم يحظوا بتقييد ، فأكثرهم طواهم النسيان ، وأما من تتلمذ على يديه بمصر فكثير ، وأشهر تلامذته :

١- أحمد بن خيري بن يوسف ، كان متأدباً ، حاول الفقه لازمه عندما استقر بمصـــر حتى وفاته وهو أخص طلبته ، وجامع مقالاته ، توفي ١٣٨٧ هـــ

٢- حاجي جمال الألاصوني واعظ في اسطنبول في جامع السلطان بايزيد وهو من تلاميذ الأستاذ قبل هجرته .

٣- حسام الدين القدسي صاحب مكتبة القدسي بمصر ، يقول أحمد خيري :"عرفه الأستاذ في رحلته إلى الشام بعد هجرته ، وتتلمذ عليه وأفاد منه ، ونشر بإشارته كثيراً من الكتب " (١)

لكنه تبرأ من الكوثري بعد ذلك حيث يقول :

" هذا وقد كان الشيخ محمد زاهد الكوثري يصحح الكتاب ويعلق عليه ، ثم أوقفت ذلك في الصفحة (٨٨) لما اطلعت عليه من دخيلة في علمه وعمله ، دفعتني إلى النظر في تعليقاته على التزر من مطبوعاتي بغير العين التي كانت لا تأخذ منه إلا عالماً مخلصاً ، فرأيته في بعضها باحثاً بمادة واسعة ، وتوجيه لم يسبق إليه ، وهو شطر السبب في إعجابي به ، وبما يتأتى إليه من عدم النفاذ إلى أغراضه ، وفي بعضها يحاول الارتجال في التاريخ تعصباً واجتراء ، والباقي تعليق ككل تعليق ، وكلام ككل كلام

---

١) مقالات الكوثري ٩٠

وخيفة أن أشاركه في الإثم إذا أنا سكت عن جهله بعد علمه ، سقت هذه الكلمة الموجزة ، معلناً براءتي مما كان من هذا القبيل .

وأنا ضارب له مثلاً ليقاس عليه ، فإنه قال في (ذيول طبقات الحفاظ) صفحة (٣٠٠) عن الكلوتاتي : (شهدوا له بأنه أكثر معاصريه سماعاً ، ملأ البلاد المصرية رواية) ويقول الأستاذ المحقق السيد أحمد رافع الطهطاوي : (وهذه الشهادة إنما نقلت عن الأميرة تغرى برمش ، وفيها مجازفة ، فكم من كتاب وجزء ومشيخة قرأه أو سمعه الحافظ ابن حجر نقل الكوتاتي ما رآه)

وقال الكوثري أيضاً في (الذيول) (ص : ١٣) وهو يدافع عن مغلطاي في أمور ، إن لم يكن ثابتاً أكثره فبعضها لا تتماسك في دفعة حجة : (وليس هذا الكلام مما يحط من مقدار من تكون إمامته وعلو شأنه ، كما أشرنا إليه ، كما لم يحط من مقدار ابن الجزري كلام من تكلم فيه) .

مع أنه قال في ترجمة ابن الجزري (ص : ٣٧٧) : (لما طلب منه الأمير الكبير النمش ، رفع حساب أوقافه التي كان جعلها تحت نظره أيام قضائه بالشام هرب إلى الروم ، و لم يكن في قضائه محمود السيرة كما ذكره السخاوي وغيره) وسكت .

فلعله كان مبطلاً في النفاح عن مغلطاي ، والوقيعة في الإمام ابن الجزري فتناقض .

وهو يشد من عصبيه في الأكثر لكل من يحسب أنه يتصل بدم جركسي ، سواء أكان حنفياً أم غير حنفي ، فيخلق له من المحاسن والدفاع ما لا يكون على تصديقه التاريخ ، ويعلن بمساوئ غيرهم ، ولو قل النيل منهم والوقيعة فيهم .

ولو أن ابن تيمية أو السيوطي أو غيرهما كان في محل مغلطاي فيما قيل عنه لاستجمع ضروب القول ليثبت تناقضه ، ولو قالوا عن أحدهم ما قاله عن الكلوتاتي (شهدوا له) لسعى لنقده " [1] .

١) ذكر ذلك في تعليقه على كتاب (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء) ٩١ مكتبة القدسي بمصر ط١٣٥٠

٤- الشيخ حسين بن إسماعيل أطاي بكلية الشريعة ببغداد تتلمذ للأستاذ بعد هجرته .

٥- حسين خير الدين ابن بنت السلطان عبد العزيز العثماني المتوفى سنة ١٢٩٣ — كان من تلامذة الأستاذ قبل هجرته

٦- الشيخ عبد الفتاح أبو غدة كان يطلب العلم بالأزهر واشتغل بعد تخرجه بالتدريس في بلدته حلب ، وبلغ من شدة تعلقه به أن نسب نفسه إليه فهو الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الحنفي الكوثري وهو من تلامذته بعد هجرته ودرّس بمدينة الرياض سنين إلى أن توفي بها سنة ١٤٢٠ هـ .

٧- الشيخ عبد الله بن عثمان الحمصي الجركسي الأصل — وهو الذي لازم الأستاذ في أواخر أيامه حتى موته ، ومن المهتمين لجمع ونشر مقالاته ، وكان الأستاذ يزوره في غرفته بمدرسة محمد بك أبي الذهب في ميدان الأزهر — وهو من تلامذته بعد هجرته.

٨- السيد عزت العطار الحسيني ناشر الكتب ، كان يقرأ على الأستاذ تجارب ما ينشره ونشر له من مؤلفاته تأنيب الخطيب ، وهو من تلامذته بعد هجرته .

٩- الشيخ على آق صوى الواعظ في أزمير من تلامذة الأستاذ قبل هجرته كما أفاده القدسي وزاد بأنه كان رئيس الوعاظ ثم صار مفتياً بأندرمه بقرب استنبول .

١٠- الشيخ محمد إبراهيم الختني ثم المدني الشهير باسم الحاج إبراهيم الختني وهو الذي ألف الأستاذ من أجله رسالته في ابن أركماس ، حضر مصر في أواخر أيام الأستاذ واجتمع به ، وكان ممن صلوا عليه وشيعوه ، كان شديد التعلق بالأستاذ وتتلمذ له بالمكاتبة وهو في المدينة المنورة — ثم أراد الله له أن يلقاه قبل موته فلقيه بمصر .

١١- الشيخ محمد إحسان بن عبد العزيز من أقدم تلامذة الأستاذ بعد هجرته كما أفاده القدسي ، وقد عمل مدرساً للغة التركية في جامعة إبراهيم بالقاهرة وشيخ تكية السلطان محمود في درب الجماميز ومعرب كتاب (العاهل العثماني أبو الفتح السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية وحياته العدليه) الذي طبع بمصر سنة ١٣٧٢.

١٢- الأستاذ محمد أمين سراج بن مصطفى في كلية الشريعة بالأزهر الشريف بمصر تركي الأصل وهو من تلامذة الأستاذ بعد هجرته ، وأجازه الأستاذ كما أفاد القدسي .

١٣- الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب بالإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية وهو من تلامذته بعد هجرته .

١٤- الشيخ مصطفى عاصم كان بمصر وأجازه الأستاذ [1] .

---

١) مقدمة المقالات . أحمد خيري ٩٠- ٩٢ بتصرف .

المبحث الثالث :

مؤلفاته

المبحث الثالث :

مؤلفاته

تنقسم مؤلفات الكوثري إلى قسمين :

أولهما : ما ألفه قبل هجرته من الآستانة، والغالب على هذا القسم أنه مخطوط يقول أحمد خيري عنه : " لا يعلم عنها شيئاً سوى إرغام المريد الذي أهدى منه نسخاً لتلامذته ." [1]

وأما القسم الثاني فهو : ما ألفه بعد الهجرة من الاستانة وهو على عكس الأول ، فإنه مطبوع إلا القليل.

القسم الأول :

١) نظم عوامل الإعراب (باللغة الفارسية) وهو أول مؤلفاته . مخطوط .

٢) إزاحة شبهة المعمم عن عبارة المحرم ، مخطوط .

٣) الجواب الوفي في الرد على الواعظ الأوفى ، مخطوط .

٤) تفريح البال بحل تاريخ ابن الكمال ، مخطوط .

٥) الصحف المنشرة في شرح الأصول العشرة لنجم الدين الطامة الكبرى مخطوط .

٦) ترويض القريحة بموازين الفكر الصحيحة في المنطق ، مخطوط .

٧) قرة النواظر في آداب المناظر ، مخطوط .

٨) النظم العتيد في توسل المريد ، مطبوع .

٩) إرغام المريد في شرح النظم العتيد لتوسل المريد ، طبع في الآستانه سنة ١٣٢٨ في ١١٤ صفحة غير الفهرس والتصويبات .

١٠) إصعاد الراقي على المراقي ، مخطوط .

١١) النقد الطامي على العقد النامي على شرح الجامي ، مخطوط .

١٢) الفوائد الكافية في العروض والقافية ، طبع وليس عليه اسم مؤلف .

١٣) تدريب الوصيف على قواعد التصريف ، مخطوط .

---

١) مقالات الكوثري ٥٦

١٤) تدريب الطلاب على قواعد الإعراب ، مخطوط .

١٥) حنين المتفجع وأنين المتوجع قصيدة في ويلات الحرب العظمى الأولى مطبوع .

١٦) إبداء وجه التعدي في كامل ابن عدي ، مخطوط .

١٧) نقد كتاب الضعفاء للعقيلي ، مخطوط .

١٨) التعقب الحثيث لما ينفيه ابن تيمية من الحديث ، مخطوط .

١٩) البحوث الوفية في مفردات ابن تيمية ، مخطوط .

٢٠) (الروض الناضر الوردي في ترجمة الإمام الرباني السرهندي) المتوفى سنة ١٠٣٤ ألفه بقسطموني وهو الكتاب الوحيد الذي ألفه باللغة التركية ، مخطوط .

٢١) المدخل العام لعلوم القرآن ، مخطوط في مجلدين ألفه في الأستانه ويذكرأحمد خيري أنه أهم مؤلفاته مطلقاً لما فيه من التقصي والمقارنه والبحث سواءً من ناحية الموازنة بين المفسرين بالرواية والمفسرين بالدراية ومسالكهم وفيما يتعلق بجمع القرآن في أدواره الثلاثة (النبي عليه الصلاة والسلام / وأبي بكر / وعثمان رضي الله عنهما) وما يتعلق برسم القرآن وقراآته الأربع عشرة وطبقات قرائه والالمام العام بما ألف في القراءة والرسم وتراجم المفسرين وذلك على توالي القرون [1] .

القسم الثاني

١) رفع الريبة عن تخبطات ابن قتيبة ، مخطوط .

٢) صفعات البرهان على صفحات العدوان طبع في دمشق بمطبعة الترقي سنة ١٣٤٨ في ٥٤ صفحة ، يرد به على أحمد شاكر في مسألة الطلاق .

٣) الإشفاق على أحكام الطلاق طبع في مطبعة مجلة الإسلام ط ١٣٥٥ في ١٠٤ صفحة ، وأعيد طبعه (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)المكتبة الأزهرية

١) ذكر ذلك ، أحمد خيري ، انظر مقالات الكوثري ٥٦ — ٥٨

للتراث وطبعة اسلام اباد في ١٢٤ صفحة ويرد فيه على أحمد شاكر ، ويقرر فيه ضلال من يرى أن طلاق الثلاث بلفظ واحد يقع واحدة .

٤) بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد ابن الحسن الشيباني طبع ضمن الرسائل النادرة التي كان يطبعها الخانجي في سنة ١٣٥٥ في ٧٢ صفحة غير الفهارس والتصويبات ، تناول فيه سيرة محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، وانتصر فيه لمذهب الحنفية ، ورد على من ضعف ابن الحسن ، وناقش بعض مسائله الفقهية .

٥) تحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز طبع بمطبعة الأنوار سنة ١٣٦٠ في ٤٧ صفحة ، ذكر فيه إجازاته عن شيوخه في الكتب التي حملها ، وكان يعطيه من رأى فيه الأهلية من أتباع المذهب الحنفي .

٦) تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب طبع سنة ١٣٦١ في ٢٠٠ صفحة ، وطبع عدة طبعات في الهند ومصر وغيرها ، منها طبعة (مكتبة إسلامية) في كويته بالباكستان ١٤٠٣ هـ و طبعة دارالكتاب العربي ، بيروت ١٤٠١ - ١٩٨١ وهو من أشهر كتبه ، تطاول فيه بالرد على الخطيب البغدادي ، بسبب ماروواه في كتابه (تاريخ بغداد) عن أبي حنيفة .

وهذا الكتاب يُظهر مدى تعصب الكوثري ، وغلوه في مذهب الإمام أبي حنيفة ، ومقدار تهجمه على أئمة الحديث ونقاده لأجل رواياتهم ما بلغهم في نقد الرجال .

وقد رد عليه ، ونقض كلامه ، وبين مدى خطأه العلامة عبدالرحمن المعلمي ـ رحمه الله ـ بكتابه (التنكيل بما في تأنيب الخطيب من الأباطيل) وهو كتاب مطبوع مشهور .

٧) إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق طبع بمطبعة الأنوار سنة ١٣٦٠ في ٦٦ صفحة ، وأعيد طبعه مراراً منها طبعة دار المدينة المنورة بالقاهرة ١٤٠٨ -١٩٨٨ وطبعة المكتبة الأزهرية للتراث ١٩٩٨ -١٤١٨.

يرد فيه على كتاب (مغيث الخلق في ترجيح القول الحق) لأبي المعالي الجويني ، والذي انتصر فيه أبو المعالي لمذهب الشافعية وقدم فيه مذهب الشافعي على أبي حنيفة ونقض بعض مسائل أبي حنيفة.

فصنف الكوثري هذا الكتيب انتصاراً للمذهب ورداً على الشافعية ، شنع فيه عليهم ، وجانب الحق في مجادلتهم .

٨) أقوم المسالك في بحث رواية مالك عن أبي حنيفة ورواية أبي حنيفة عن مالك طبع في آخر إحقاق الحق في الصفحات ٦٧ — ٧٢ ، وهي رسالة صغيرة ، قرر فيها أخذ مالك بن أنس العلم والفقه عن أبي حنيفة ، وعدم ثبوت أخذ أبي حنيفة أو روايته عن مالك .

٩) تذهيب التاج اللجيني في ترجمة البدر العيني المتوفى سنة ٨٥٥ لخصها طابع شرحه للبخاري وطبعها بأوله .

١٠) الاهتمام بترجمة ابن الهمام المتوفي سنة ٨٦١ و لم يطبع .

١١) عتب المغترين بدجاجلة المعمرين ، مخطوط .

١٢) تحذير الخلف من مخازي أدعياء السلف ، مخطوط .

١٣) قطرات الغيث من حياة الليث المتوفى سنة ١٧٥ ، مخطوط .

١٤) الحاوى في سيرة الإمام أبي جعفر الطحاوي (المتوفى سنة ٣٢١) طبع بمطبعة الأنوار سنة ١٣٦٨ في ٤٣ صفحة ، ترجم فيه لأبي حعفر الطحاوي ، أحد أئمة الحنفية ، وذكر ثناء العلماء على فقهه ، وعلمه ، وشيوخه ، وتلامذته ثم رد على من قلل من علم الطحاوي في الحديث رواية ، وتهجم فيه عليهم ، كابن حجر العسقلاني وابن تيمية والبيهقي ، و لم ينصفهم ، وعدل عن المجادلة الحسنى إلى الطعن واللمز .

وفي هذا الكتاب يظهر مدى تعصبه للمذهب .

١٥) فصل المقال في بحث الأوعال ثم سماه فصل المقال في تمحيص أحدوثة الأوعال ، مخطوط .

١٦) البحوث السنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوتية . وهو مخطوط ، موجود في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض تحت رقم ١١٨٥

وهو في تراجم بعض الرجال المذكورين في سند هذه الطريقة ، ابتدأه بقوله :

" وبعد ، فهذه بحوث سنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوتية ، قدس الله أسرارهم العلية ، أثبتناها هنا امتثالاً لإشارة مولانا الاستاذ العارف بالله الشيخ عبدالخالق الشبراوي ، أطال الله بقاءه في خير وعافية . " (ورقة رقم ١) لكنه لم يتطرق إلى الكلام عن هذه الطريقة .

١٧) نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام ، مطبعة أمين عبد الرحمن سنة ١٣٦٢ في ٦٧ صفحة غير التصويبات ، وأعيد طبعه عدة طبعات منها طبعة مكتبة القدسي ١٤٠٠ — ١٩٨٠ وهذا الكتاب ردٌّ على بعض علماء مصر الذي أنكر نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان .

أنكر فيه على هؤلاء العلماء ترك نصوص علماء أهل السنة في هذه المسألة ، وبين طريق ثبوت العقيدة ، ثم تناول كلام أهل السنة في آيات الرفع والنزول ، وناقشها ثم بين ثبوت العقيدة عن طريق السنة ، والرد على من أنكر ذلك .

وقد أجاد الكوثري في هذا الكتاب من حيث بيانه حجية السنة ، وأحاديث الآحاد في إثبات أمور العقيدة ، وأصاب الحق في ردوده على منكري ذلك وإن كان قد تناقض في التزام ذلك في باب صفات الله عز وجل .

١٨) نبراس المهتدي في إجتلاء أنباء العارف دمرداش المحمدي (المتوفى سنة ٩٢٩) مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٤ في ٣١ صفحة .

١٩) النكت الطريفةفي التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة ، طبع بمطبعة الأنوار سنة ١٣٦٥ في ٢٧٣ صفحة ، وأعادت طبعه إدارة القران في كراتشي بالباكستان ١٤٠٧ — ١٩٨٧.

وهو مؤلف فقهي ، رد به على الحافظ أبي بكر بن أبي شيبة ، صاحب المصنف .

تناول فيه ما ذكره ابن أبي شيبة من مخالفة أبي حنيفة للأحاديث الصحيحة فتتبع ماذكره ابن أبي شيبة حديثا حديثاً وحاول نقضه .

وإنما سعى في هذا الكتاب أن يبرر للأحناف ماذهبوا إليه و لم يقصد مناقشة المسائل مناقشة علمية بجمع النصوص والترجيح بينها وفق قواعد أهل العلم ، وإن كان الكوثري في رده على ابن أبي شيبة لطيف العبارة على خلاف عادته في ردوده .

وعلى العموم فبعض هذه المسائل التي أثارها الكوثري قد اجتهد في دراستها ، العلامة المعلمي في كتابه (التنكيل) .

٢٠) رفع الاشتباه عن مسألتي كشف الرؤوس ولبس النعال في الصلاة ، طبع سنة ١٣٦٦ في ٢٤ صفحة ، وأعادت طبعها مكتبة الكليات الأزهرية وهي رسالة صغيرة قرر فيها وجوب تغطية الرأس عند الصلاة ونقض قول من خالف ذلك ، و لم يخل من تهكم .

٢١) ترجمة العلامة محمد منيب العنتابي المتوفى سنة ١٢٣٨ ، مخطوط .

٢٢) من عبر التاريخ طبع سنة ١٣٦٧ في ٣٢ صفحة نشره السيد عزت العطار .

٢٣) حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي طبع في مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٨ في ١٠٣ صفحة ، وهو كتاب جمع فيه سيرة أبي يوسف القاضي المتوفى سنة ١٨٢، صاحب أبي حنيفة ، ذكر فيه نسبه وطلبه العلم ، وشيوخه ، ومؤلفاته وقرر صحة رأيه في المسائل التي خالف الحديث فيها .

٢٤) لمحات النظر في سيرة الإمام زفر طبع في مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٨ في ٣٠ صفحة ، جمع فيه سيرة الإمام زفر المتوفى سنة ١٥٨ وناقش آراءه ، ورد على أئمة الحديث في بعض المسائل .

٢٥) الامتاع بسيرة الإمامين الحسن بن زياد وصاحبه محمد بن شجاع طبع بمطبعة الأنوار سنة ١٣٦٨ في ٧٠ صفحة ، جمع فيه سيرة الحسن بن زياد المتوفي سنة ٢٠٤، ومحمد بن شجاع المتوفى سنة ٢٦٦ ، وقرر صحة حديثهما ، خلافاً لأهل النقد من علماء الحديث ، و لم يخل تقريره من تهكم ، ولمز لأئمة الحديث [1] .

---

١) انظر مثلاً ص ١٠ ، ٣٩ ، ٦٣، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨

٢٦) الترحيب بنقد التأنيب نشرته مكتبة الخانجي سنة ١٣٦٩ في ٥٢ صفحة ، وأعيد طبعه مراراً ، وأيضاً ضمن كتابه (تأنيب الخطيب) وهي رسالة صغيرة كتبها رداً على (طليعة التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل) للمعلمي.

حاول فيها أن يرد على مقدمة كتاب التنكيل ، تتبع بعض كلمات للمعلمي — رحمه الله — وترك صلب الموضوع فلم يناقشه تفصيلاً .

٢٧) محق التقول في مسألة التوسل مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٩ في ١٨ صفحة ، وقد ضمنها أحمد خيري المجموع الذي سماه (مقالات الكوثري)[1] وهي رسالة قرر فيها فتح باب الشرك والاستغاثة بغير الله باسم التوسل ، حاول فيها أن يرد على من منع التوسل البدعي .

٢٨) تعطير الأنفاس بذكر سند ابن اركماس طبع ضمن مجموعة سنة ١٣٦٩ مطبعة الأنوار من ص ٩ إلى ص ١١ .

٢٩) الإفصاح عن حكم الإكراه في الطلاق والنكاح طبع ضمن المجموعة السابقة من ص ١٢ إلى ص ١٦ .

٣٠) الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار طبع في مطبعة الأنوار في ذي القعدة سنة ١٣٧٠ وهو آخر ما نشره من مؤلفاته ، ولعله آخرها تأليفاً ،وقد أعيد طبعه سنة ١٤١٥ — ١٩٩٥ من قبل المكتبة الأزهرية للتراث،وهو كتيب صغير ، رد فيه على شيخ الإسلام مصطفى صبري عندما خالف الأخيرُ مذهبَ الحنفية في مسألة فعل المكلف .

٣١) لفت اللحظ إلى ما في الاختلاف في اللفظ وهو مقدمة وتعاليق على كتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة طبعه القدسي بمطبعة السعادة بمصر في ٨٦ صفحة بما في ذلك الفهارس سنة

---

١) انظر ص ٤٥٠ — ٤٦٨

١٣٤٩ ، وقد طبعته دار الكتب العلمية ١٤٠٥ وكانت تعليقاته مناقضة لمراد المصنف .

٣٢) تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم وهو مقدمة وتعاليق على كتاب السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل للسبكي الكبير ، مطبعة السعادة سنة ١٣٥٦ في ١٩٢ صفحة غير الفهارس والتصويبات وكلمة الناشر ، فطبع حاشية على كتاب (السيف الصقيل) لعلي السبكي ، مكتبة زهران .

وطبع مفرداً باسم (تبديد الظلام المخيم على نونية ابن القيم) مطبعة السعادة ١٣٥٦ .

وهو من أوضح ماكتب في بيان معتقده ، ناقض فيه ماقرر ابن القيم — رحمه الله — من معتقد السلف وشنع عليه وعلى شيخه — شيخ الإسلام — وكفرهما فيه .

وقد قال أحمد خيري :

" جاء في ترجمته ، في اول طبقات ابن سعد ، ذكر مؤلفين هما :

١/ تاريخ مذاهب الفقهاء ، وانتشارها .

٢/ تاريخ الفرق وتأثيرها على المجتمع .

و لم يذكرهما المترجم لي ، ولذا لا أدري أين أُلفا ، ولا أعلم شيئاً عنهما. " (١)

قلت : لعل الأول مقدمته لكتاب (نصب الراية) للزيلعي ، والثاني مقدمته لكتاب (تبيين كذب المفتري) ، لابن عساكر .

مقدماته وتعليقاته :

للكوثري مقدمات وتعاليق على الكثير من الكتب :

١) مقدمته على نصب الراية لأحاديث الهداية للحافظ الزيلعي المتوفى سنة ٧٦٢ طبع بمصر سنة ١٣٥٧ وتقع من ص ١٧ إلى ص ٤٩ ثم من ص ٥٧ إلى ص ٦٠ من الجزء الأول ، استهلها بكلمة عن فقه أهل العراق ثم استطرد إلى الرأي والإجتهاد ثم تكلم عن الإستحسان وانتقل إلى شروط قبول الأخبار ثم

---

١) مقالات الكوثري ، لأحمد خيري ٦٣

استعرض مترلة الكوفة من علوم الاجتهاد وذكر ٣٣ حبراً من أصحاب علي رضي الله عنه وابن مسعود بالكوفه ثم انتهى إلى طريقة أبي حنيفة في التفقه وذكر ٩٦ حافظاً من كبار المحدثين الأحناف وانتهى بكلمة في كتب الجرح والتعديل ، وهو في ذلك لم يخرج قيد أنملة عن طريقته في الذب عن المذهب الحنفي ، حيث قرر عدالة الرواة المنسوبين إلى الحنفية كلهم بمن فيهم من تكلم فيه أئمة الحديث [1] .

٢) مقدمته لكتاب المقدمات الخمس والعشرون ...من دلالة الحائرين لابن ميمون الفيلسوف الأسرائيلي المتوفى سنة ٦٠٥ طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٦٩ . ومقدمته تقع من ص ٣ إلى ص ٢٣ وفيها عدة أبحاث خصوصاً عن الشخصيات الإسرائيلية في تاريخ الاسلام مع استطرادات لا تخلوا من فائدة .

٣) تعليقه على مادة (الجركس) في تعريب دائرة المعارف الاسلامية وتقع التعليقة في المجلد السادس ص ٣٤٥ إلى ٣٥٠ أردا بها تصحيح ما ورد في الدائرة المذكورة عن الجركس .

٤) الغرة المنيفة للسراج الغزنوي الهندي في تحقيق نحو مائة وسبعين مسألة رداً على الطريقة البهائية للفخر الرازي .

٥) دفع شبه التشبيه لابن الجوزي .

٦) رسالة أبي داود السجستاني في وصف سننه .

٧) مناقب أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن للذهبي ومعها أيضاً تعليق الأستاذ أبي الوفاء ، طبع عدة طبعات ، آخرها سنة ١٤٠٨ بيروت ، بعناية إحياء المعارف ، حيدر آباد .

٨) ذيول طبقات الحفاظ للحسيني وابن فهد والسيوطي ، طبة دار إحياء التراث العربي .

---

١) انظر مثلاً كلامه في اللؤلؤي (٤١) الثلجي (٤٣) ، وأبي محمد الحارثي (٤٤) وغيرهم .

٩) تبيين كذب المفترى في الذب عن الإمام الأشعري لابن عساكر ، نشرته دار الكتاب العربي ١٣٩٩ — ١٩٧٩ .

تناول في مقدمته ، ترجمة ابن عساكر ، ثم ذكر نبذة تاريخية عن نشأة الفرق ، ودافع فيها بحرارة عن المعتزلة والأشاعرة والماتريدية ، وأغفل جهود أئمة السلف في نشر عقيدة السلف ، بل جعلهم حشوية ومشبهة .[1]

١٠) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين لأبي المظفر الأسفراييني ، طبع سنة ١٣٥٩ — ١٩٤٠ بمطبعة الأنوار .

١١) العالم والمتعلم رواية أبي مقاتل عن أبي حنيفة .

١٢) رسالة أبي حنيفة إلى البتي إمام أهل البصرة في الإرجاء .

١٣) الفقه الأبسط رواية أبي مطيع .

١٤) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي مع ملء الخروم من كلامه وكلام أصحابه .

١٥) التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين الملطي ، وقد طبع ١٤١٨ — ١٩٩٧ المكتبة الأزهرية للتراث .

١٦) اللمعة في الوجود والقدر وأفعال العباد ، لابراهيم بن مصطفى الحلبي المذاري .

١٧) كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك الحمادي ، طبعه عزت العطار سنة ١٩٦٦ هـ .

ذكر في مقدمته نبذة عن تاريخ الفرق الضالة ، وسرداً لتاريخ الباطنية ، وشيئاً من عقائدهم .

---

١) انظر ٩ — ٢٢

١٨) الروض الزاهر للبدر العيني في سيرة الملك الظاهر (طظر) .

١٩) الانتصار والترجيح للمذهب الصحيح لسبط ابن الجوزي ، وقد طبع سنة ١٤١٥ — ١٩٩٥ المكتبة الأزهرية للتراث ترجم فيه للمؤلف ، وأشار لترجيح مذهب الأحناف على غيره .

٢٠) شروط الأئمة الستة لمحمد بن طاهر المقدسي والخمسة للحازمي والتعليقات عليهما مسماة بالتعليقات المهمة على شروط الأئمة ، طبع سنة ١٣٥٧ بالقاهرة بعناية حسام الدين القدسي وأعيد طبعها سنة ١٤٠٥ — ١٩٨٤ بيروت دار الكتب العلمية .

٢١) مراتب الاجماع لابن حزم ونقده لابن تيمية ، طبعته دار الكتب العلمية بيروت .

٢٢) النبذ في أصول المذهب الظاهري لابن حزم .

٢٣) اختلاف الموطآت للدارقطنى .

٢٤) كشف المغطى من فضل الموطأ لابن عساكر ، طبعته والذي قبله في كتاب واحد بتعليق الكوثري ، دار الرعاية الإسلامية بدون تاريخ .

٢٥) العقل وفضله لابن أبي الدنيا .

٢٦) الحدائق الفلسفية ، للبطليوسى .

٢٧) حقيقة الانسان والروح لجلال الدواني .

٢٨) العقيدة النظامية لإمام الحرمين ، وقد طبعته المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٢ — ١٩٩٢ .

٢٩) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به للباقلاني ، وقد طبعته المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٣ — ١٩٩٣ ..

٣٠) خصائص مسند أحمد لأبي موسى المدينى ، وقد طبع سنة ١٣٤٧ بمطبعة دار السعادة وأعيد طبعه مراراً آخرها مكتبة التوبة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ ..

٣١) المصعد الأحمد لابن الجزري ، وقد طبع سنة ١٣٤٧ .

٣٢) زغل العلم للذهبي .

٣٣) الأسماء والصفات للبيهقي ، وطبع مراراً منها ، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٩ – ١٩٩٩ .

وقد أكثر فيه من التعليق بما يناقض مراد البيهقي .

ومما قدم له وكتب فيه كلمة :

١) شرح مقامة (الحور العين) لنشوان الحميري .

٢) نثر الدر المكنون في فضائل اليمن الميمون للسيد محمد الأهدل شيخ رواق اليمن .

٣) الدر الفريد الجامع لمفترقات الأسانيد للسيد عبد الواسع اليماني .

٤) بيان مذهب الباطنية وبطلانه من كتاب قواعد عقائد آل محمد لمحمد بن الحسن الديلمي .

٥) طبقات ابن سعد من الطبعة المصرية .

٦) فتح الملهم في شرح صحيح مسلم للعلامة شبير أحمد العثماني .

٧) ترتيب مسند الإمام الشافعي للحافظ محمد عابد السندي .

٨) أحكام القرآن جمع البيهقي من نصوص الإمام الشافعي رضي الله عنه .

٩) مناقب الإمام الشافعي للحافظ عبد الرحمن بن إبي حاتم الرزاي .

١٠) ذيل الروضتين للحافظ أبي شامة .

١١) فهارس البخاري للأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان .

١٢) إشارات المرام لكمال الدين البياضي .

١٣) كشف الستر عن فرضية الوتر لعبد الغني النابلسي .

١٤) العالم والمتعلم لأبي بكر الوراق الترمذي .

١٥) الأعلام الشرقية للأستاذ زكي مجاهد .

١٦) انتقاد المغنى عن الحفظ والكتاب للأستاذ حسام الدين القدسي .

١٧) النهضة الاصلاحية للأسرة الاسلامية للأستاذ مصطفى الحمامي .

١٨) منتهى آمال الخطباء له أيضاً .

١٩) براهين الكتاب والسنة ، سلامة العزامي .

٢٠) قانون التأويل للغزالي .

٢١) الثمرة البهية للصحابة البدرية لمحمد سالم الحفناوي .

٢٢) كتاب بغداد لابن طيفور .

٢٣) الروض النضير في شرح المجموع الفقهي الكبير للسيلغي الصنعاني .

٢٤) منية الألمعي فيما فات من تخريج أحاديث الهداية للزيلعي للحافظ بن قطلوبغا ، قدم له وحققه ونشره مذيلا بتعليقات الحافظ قاسم ابن قطلوبغا على النصف الثاني من الدراية مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٦٩ .

٢٥) ايضاح الكلام فيما جرى للعز بن عبد السلام في مسالة الكلام طبع بمطبعة الأنوار سنة ١٣٧٠ وصححه وعلق بأوله تعليقة .

٢٦) (الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء) علق عليه لغاية ص ٨٨ والكتاب طبع سنة ١٣٥٠ في ١٩٠ صفحة بما في ذلك مقدمة الناشر والفهارس .

٢٧) وأضيف هنا أن من أهم مايرجع إليه من مصنفات الكوثري ، مقالاته التي جمعها تلميذه أحمد خيري (مقالات الكوثري) وقد طبعت طبعات كثيرة منها ط/ المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٤ — ١٩٩٤ .

وقد قامت دار الثريا بدمشق ، بجمع مقدمات الكوثري في كتاب باسم (مقدمات الإمام الكوثري) أصدرته سنة ١٤١٨ — ١٩٩٧ .[1]

يقول تلميذه الأستاذ أحمد خيري :

" وهناك أشياء من هذا القبيل أخفى الأستاذ فيها نفسه " ثم ذكر منها الآتي :

١) تعليقاته النفسية على تاريخ القوقاز الذي طبع تعريبة بمطبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٤٠ م . وذكرت منسوبة إلى عالم جركسي جليل .

٢) مذكرات الأمير محمد على توفيق عربها وطبع التعريب في مطبعة عناني سنة ١٣٦٦ في ٥٧ صفحة و لم يذكر فيها اسمه .

٣) بيان الخطوط الجميلة المحفوظة في المتحف الذي أنشاه الأمير محمد علي في سراي منيل الروضة المطبوع بمطبعة مصر سنة ١٣٧٠ في ٣٢ صفحة .

٤) بعض وثائق تاريخية من عهد ساكني الجنان اسماعيل باشا وتوفيق باشا انتقاها وأمر بترجمتها الأمير محمد علي وطبعت بمطبعة عناني سنة ١٣٦٧ في ٩٣ صفحة .[2]

---

١) وقد جاء على صدر العنوان ، أن وفاة الكوثري سنة ١٣٧٨ هـ ، وهو خطأ ولا شك ، حيث إن وفاته سنة ١٣٧١ ، كما مر سابقاً في مبحث وفاته ص ٥٦.

٢) مقدمة المقالات لأحمد خيري ٥٥ — ٦٨ بتصرف .

المبحث الرابع :

مذهبه وعقيدته

المبحث الرابع :

مذهبه وعقيدته

من خلال دراسة الشيخ الكوثري ، يتبين لنا بوضوح مذهبه في المعتقد .

ذلك أنه ماتريدي المذهب في باب التوحيد ، وباب الأسماء والصفات وفي باب الإيمان .

فهو يقول عن نفسه :

" إنَّ أهل البلاد لا يشكون في أني ما زلت محتفظاً بمذهبي الفقهي والاعتقادي من غير مساس مني بكبار رجال المذهب من الناحيتين لما في آثاري المنتشرة من البيان الشافي في كلتا الجهتين ، كما أنهم لا يشكون بعد اطلاعهم على (موقف البشر) و (موقف العقل والعلم) أنَّ سماحة الأستاذ [1] تنكر للمذهب [2] بعد حلوله في تركيا الغربية ثم في مصر وتبرأ من مذهب إمام الهدى أبي منصور الماتريدي ، وبدأ يوسع رجاله الكبار انتقاصاً واحتقاراً كما سبق وانتقل إلى مذهب الجبر التام .." [3]

ولذا هو يرى أن اثبات ماجاء عن الله وعن رسوله ﷺ على حقيقته تشبيه وتجسيم .

وهو ينكر على أئمة السلف تصنيفهم الكتب المفردة التي تثبت السنة والتوحيد وصفات الباري – عز وجل – فتراه يسميهم مجسمة ، فيقول :

" وكم بين المجسمة من ألف فيما يسمونه التوحيد [4] أو السنة [5] أو الصفات ، أبواباً في اليد والعين والساعد والإصبع واليمين والذراع والكف والجنب والقدم والحقو والصدر ونحوها " . [1]

---

١) يريد مصطفى صبري (شيخ الاسلام في الدولة العثمانية) انظر لترجمته : الأعلام للزركلي ٧ / ٢٣٦ ، و (الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد) د/مفرح القوسي ، مركز الملك فيصل ، ط/الأولى ١٤١٨ .

٢) يريد المذهب الماتريدي .

٣) الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار ٢٩ .

٤) ككتاب التوحيد لابن خزيمة .

٥) ككتاب السنة للإمام عبد الله بن أحمد .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، وإنما ألف أئمة السلف مثل هذه الكتب برواية الخبر عن المعصوم ﷺ كما وصلتهم دون تقعر المتأخرين ، و لم يضيفوا من آرائهم وعقولهم شيئاً ، بل اقتصروا في سرد الأحاديث بأسانيدها ليظهر لأهل العلم ما صح منها فيؤمنوا به .

ثم إن الكوثري قد افترى ، فأين من أئمة السلف من أثبت لله الساعد والذراع والصدر ؟

فإدخاله هذه الأمور مع اليد واليمين والعين ، تلبيس وتشنيع وظلم وافتراء .[1]

ومما يبين جانباً من عقيدة الكوثري ، موقفه تجاه الصوفية .

موقفه من الصوفية :

يظهر لنا حال الكوثري من الصوفية من خلال شيوخه الذين درس عليهم ، ومن خلال بعض ما كتب .

فالكوثري قد أثرت فيه بيئته ، وأئمة مذهبه فهو يقول ناقلاً عن الرازي :

" ثم قال : أنا كنت صبياً في أول التعليم وكنت أقرأ جوادث لا أول لها فرأيت في المنام أبي فقال لي : أجود الدلائل أن يقال الحركة انتقال من حالة إلى حالة فهي تقتضي بحسب ماهيتها مسبوقيتها بالغير والأزل ينافي كونه مسبوقا بالغير فوجب أن يكون الجمع بينهما محالاً "[2]

ثم قال الكوثري :" قال المصنف: والظاهر أن هذا الوجه أحسن من كل ما قيل في هذه المسألة ، وأيضاً سمعت أن الفردوسي الشاعر لما صنف كتابه المسمى بشاهنامه على اسم السلطان محمود بن سبكتكين ، و لم يقض حقه كما يجب وما راعاه كما يليق بذلك الكتاب ضاق قلب الفردوسي فرأى في المنام (رستم) فقال له : (قد مدحتني في هذا الكتاب كثيرا وأنا في زمرة الأموات فلا أقدر على قضاء حقك ولكن اذهب إلى الموضع

---

١) وانظر مثل هذا التشنيع في حاشية السيف الصقيل ١٩٢،١٤٧،١٤٦-١٩٤ وغيرها كثير .

٢) مقالات الكوثري ٤٥٤

الفلاني واحفره فإنك تجد فيه دفينا فخذه ، فكان الفردوسي يقول إن رستم بعد موته أكثر كرماً من محمود حال حياته) " [1]

فهنا ينقل الكوثري عن الرازي الاحتجاج بالمنامات التي هي من خرافات الصوفية .

هذا وقد صنف الكوثري كتاباً باسم " البحوث السنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوتية" (مخطوط) تناول فيه ترجمة بعض رجال هذه الطريقة الصوفية ، فقد ترجم فيه لثلاثة عشر شيخ من شيوخ الصوفية ، أثنى عليهم وأقر معتقداتهم وبدعهم ، مما هو من أوثق الأدلة على صوفيته .

يقول في استهلاله :

" الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وما توفيقي الا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وبعد فهذه بحوث سنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوتية قدس الله أسرارهم العلية " [2] يقول الكوثري في كتابه هذا : ومشاهير أصحاب النجيب هم ابن أخيه صاحب الخوارق شهاب الدين عمر السهرودي " [3]

وجاء أيضاً قوله عن بعض مشايخ الطريقة :

" وعلى قبره شجر بلوط مشهور بالشفاء من الحمى يقصده المحمومون وينامون تحته ويمضغون من ورقه وأغصانه فينالون الشفاء بإذن الله تعالى " [4]

هذا حال الكوثري مع سعة اطلاعه على السنة التي شبه فيها الرسول ﷺ هذه الحال بحال اليهود الذين سألوا موسى إله غير الله .

ويقول الكوثري عن أحد الصوفية :

" إن صوته بالذكر في خوارزم كان يسمع من أربع فراسخ كما في ترجمة (النفحات) " [5]

ومثل هذا من خرافاقم يقول عند ترجمة المسمى (عليا علاء الدين الأطول):

---

1) مقالات الكوثري ٤٥٤

2) البحوث السنية ١ مخطوط ، ميكروفيلم برقم ١١٨٥ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

3) البحوث السنية ١ مخطوط ، ميكروفيلم برقم ١١٨٥ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

4) البحوث السنية ٣

5) البحوث السنية ٣

" وأشير إلى هذا الولي الكامل في (الفتوحات الموصلية) للشيخ الأكبر "

فقوله " أشير إلى هذا الولي الكامل في (الفتوحات الموصلية للشيخ الأكبر) بينه الكوثري في الرسالة التي أرسلها إلى تلميذه أحمد خيري حيث علق على هذا الموضع بأنه جاء في الكتاب المذكور عن ابن عربي : (بعد النبي المصطفى الأعظم العلي الأطول الأكرم الأحسم غنم ختم (وهو يختم الزمان) يقول الكوثري : " وفيه إشارة إلى ظهور الشيخ علي الأطول المذكور ، وختم (١٠٤٠) تاريخ خلافته وغنم (١٠٩٠) تاريخ نفيه والأطول (٧٧) مدة عمره والأكرم (٦٥٨) عدد خلفائه " [١]

فانظر لمثل هذ الخرافات التي نقلها الكوثري حيث زعم إن ابن عربي أخبر بظهور أحد مشايخهم المسمى علياً الأطول ، وأنه رمز لذلك بحساب الجمل .

ولا تقف خرافات الكوثري عند هذا بل نراه يقر ما عليه القبورية ويسمي ما يقع عند قبورهم كرامات ، فهو يقول عن قبر المسمى شعبان القسطموني :

" وجدده محمود سري باشا الجركسي زوج البرنسس فاطمة المصرية حوالي سنة ١٣١٢ هـ لكرامة ظهرت له ــ وهي مشهورة هناك تتناقلها الألسن ــ ووقف له أوقافاً دارة " [٢]

ويشرح الكوثري هذه الكرامة التي للقبر بقوله :

" هي أنه [٣] كان في مبدأ أمره في قسطموني في تعقب بعض المهربين ، فأصاب بعضَهم إصابة تؤدي به إلى المحاكمة فالتجأ إلى شعبان [٤] الوليْ ، ونذر أنه إذا أنجده في إنقاذه يخدم ضريحه بما يستطيع ، فرآه في النوم يقول له : سر على بركة الله إلى مصر وهناك تنجد ، ففعل فأصبح من أصهار العائلة المالكة بمصر و لم يكن في الحسبان ، فوفى بنذره " [٥]

هذه الاستغاثة بالأموات ، والنذر لهم ، يذكرها الكوثري ويسميها كرامات الأولياء .

---

١) حاشية البحوث السنية ١٠

٢) البحوث السنية ٩

٣) يريد هذا الباشا .

٤) يريد التجأ إلى قبره حيث توفي شعبان سنة ٩٧٦ هـ ، والقصة وقعت في ١٣١٢هـ انظر (البحوث السنية ٩)

٥) حاشية البحوث السنية ٩

ومما يوضح معتقد الكوثري ، وبعده عن معتقد أهل السنة مقدمته التي قدم بها كتاب (تبيين كذب المفتري) لابن عساكر ، فإنه يقول فيها :

" وكان عدة من أحبار اليهود ورهبان النصارى ومؤابذة المجوس أظهروا الاسلام في عهد الراشدين ثم أخذوا بعدهم في بث ما عندهم من الاساطير بين من تروج عليهم ممن لم يتهذب بالعلم من أعراب الرواة وبسطاء مواليهم فتلقفوها منهم ورووها لآخرين بسلامة باطن معتقدين ما في أخبارهم في جانب الله من التجسيم والتشبيه ومستأنسين بما كانوا عليه من الاعتقاد في جاهليتهم وقد يرفعونها افتراء الى الرسول ﷺ أو خطأ فأخذ التشبيه يتسرب الى معتقد الطوائف " [1]

فيظهر لنا النص رأي الكوثري في نصوص الصفات الوارة في السنة والتي تثبت الصفات الخبرية كالعين و اليد ، فهي مما استطاع اليهود إدخاله في عقيدة المسلمين !

ويقول عن فترة المتوكل العباسي :

" و لم يكن للمتوكل ما يحمد عليه غير رفعه المحنة ومنع الناس عن المناظرات في الآراء والمذاهب . وكان ناصبياً يبغض علياً كرم الله وجهه وله من الأفعال مالا يخطر بالبال . ثم ابتدأ رد الفعل يأخذ سيره الطبيعي من ارتفاع شأن الحشوية والنواصب وانقماع أهل النظر والمعتزلة . " [2]

هذا رأيه في تلك الفترة التي عدها أهل السنة نصراً لمعتقد السف الصالح بعد فترة الابتلاء .

وهكذا يسير الكوثري في تطويع الوقائع التاريخية لتوافق ما عليه من معتقد .

ويقول : " وكان جماعة من المقادسة الحنابلة ممن ورثوا بعض آراء ابن كرام الذي عشش بالقدس وباض وترك أصحاباً له متقشفين يتوارثها منهم من بعدهم هاجروا منها لما احتلها النصارى وحملوا بدع التشبيه الى الشام " [3]

ويقول : "الأشعرية هم العدل الوسط بين المعتزلة والحشوية لا ابتعدوا عن النقل كما فعل المعتزلة ولا عن العقل كعادة الحشوية " [4]

---

١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٠

٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٤

٣) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٦

٤) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٩

ويقول عن الحنابلة : " غالبهم على تعاقب القرون حشوية على الطريقة السالمية والكرامية الى أن جعل الظاهر بيبرس قضاء القضاة في المذاهب الأربعة لأول مرة فاتصلوا بعلماء أهل السنة يفاوضوهم في العلم فأخذت تزول أمراضهم البدعية وكاد أن لا يبقى بينهم حشوي لولا جالية حران بعد نكبة بغداد حطوا رحلهم بالشام " [1]

ويقول : " والماتريدية هم الوسط بين الأشاعرة والمعتزلة وقلما يوجد بينهم متصوف فالأشعري والماتريدي هما أماما أهل السنة والجماعة في مشارق الأرض ومغاربها " [2]

ويقول : " والحشوية هم الذين حادوا عن التتريه وتقولوا في الله بأفهامهم المعوجة وأوهامهم المموجحة ، وهم مهما تظاهروا باتباع السلف إنما يتابعون السلف الطالح دون السلف الصالح " [3]

ويقول " فمن قال إنه استقر بذاته على العرش ويترل بذاته من العرش ، ويقعد الرسول ﷺ على العرش معه في جنبه وإن كلامه القائم بذاته صوت وإن نزوله بالحركة والنقلة وبالذات وإن له ثقلا يثقل على حملة العرش ، وأنه متمكن بالسماء أو العرش ، وأن له جهة وحداً وغاية ومكاناً ، وأن الحوادث تقوم به وأنه يماس العرش أو أحداً من خلقه ونحو ذلك من المخازي فلا نشك في زيغه وخروجه وبعده عما يجوز في الله سبحانه ، وهذا مكشوف جداً فلا يمكن ستر مثل تلك المخازي بدعوى السلفية ، والذين يدينون بها هم الذين نستنكر عقائدهم ونستسخف أحلامهم ، ونذكرهم بأنهم نوابت الحشوية " [4]

ويزعم الكوثري أن مالكا والشافعي وأبا حنيفة وأبا يوسف وأحمد وابن المبارك كلهم يقولون بالاستواء دون " الفوقية الحسية " أو " الجهة " ، واعتقاد الشافعي المنقول في ثبت الكوراني كذب موضوع . وأما ابن خزيمة فجاهل بعلم أصول الدين ؟ يعني لا يفقه العلو ! وكتابه (التوحيد) كتاب شرك كما ينقل الرازي ! وهو خفيف العقل والفهم ، وليس هو ممن أخذ عن المزني بل زاغ عن السبيل ، وهو يخطئ في المعتقد مرات ، وأما ابن

---

١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٧

٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٩

٣) حاشية السيف الصقيل ١٥

٤) حاشية السيف الصقيل ١٦

وليس هو ممن أخذ عن المزني بل زاغ عن السبيل ، وهو يخطئ في المعتقد مرات ، وأما ابن عبد البر الذي صرح بنقل الإجماع على العلو والفوقية إنما يصح نقله في علـــو التنـــزه والقهر والغلبة لا بمعنى إثبات المكان له تعالى ؟ وابن أبي زيد والكرخي مجسم صـــريح ، وأما الدارمي عثمان بن سعيد فله الويل والثبور حاله كحال حرب بن إسماعيل الكرمـــاني وحشيش بن أصرم منحرف عن الاستقامة ، وعبد الله بن أحمد فلا حـــب ولا كرامـــة فكيف يروي كتاب السنة ؟ وابن أبي حاتم جاهل بعلم الكلام والذي هو علـــم أصـــول الدين ؟ ومحمد بن أبي شيبة مشبه كذّاب ، وابن أبي داود يكفي كلام أبيه فيـــه ، وابـــن أسباط لا يحتج به في الرواية فضلاً عن الصفات ، واللالكائي والطلمنكي سامحهم الله [1] .

ومن الجوانب التي تكشف لنا عقيدة الكوثري ؛ موقفه المنحرف تجاه أئمة السلف ، فلأجل ما بينه وبينهم من اختلاف ، أكثر من التعرض لهم ، والطعن عليهم ، وأنا ذاكر — إن شاء الله — شيئاً من ذلك .

الإمام أبو إسحاق إبراهيم الفزاري (ت ١٨٨) :

يقول الكوثري عن هذا الإمام :

" ومع كثرة غلط الفزاري في علمه كما نص على ذلك ابن سعد في " طبقاته" وابن قتيبة في " المعارف " (ص ١٧٥) كنا نلتفت إلى كلامه لو كان ذكر الحديثين رغـــم كثـــرة أغلاطه في الرواية وجمود قريحته في الدراية لكن لم يفعل فسقط كلامه بنفسه " [2]

الإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ – ٢٠٤):

يغمز الكوثري من منزلة هذا الإمام فيقول :

١) انظر نص هذه العبارات على حاشية السيف الصقيل ٢٢٤ — ٢٢٥ بتصرف .

٢) تأنيب الخطيب ١١٢ ، ومثله ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٤ ، وقد غند ذلك المعلمي ٢٨٦ — ٢٩٤

" وتتبين حال الشافعي في اللغة من سبب انتقال ابن فارس من مذهبه ومن مسعى ابن دريد ، والازهري في تقويم تلك الكلمات المعروفة ، ومن قول إمام الحرمين في البرهان في لغة الشافعي . " [1]

وقال : " ومن تابع الشافعي قائلاً إنه قرشي فله ذلك لكن هذه الميزة لا توجب الرجحان في العلم وفي صحيح مسلم (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه) على أن هناك من العلماء من هو قرشي بالاتفاق فيفضل على من في قرشيته خلاف لو كان هذا الأمر بالنسب " [2]

وقال : " وكان الشافعي يعضه فقر مدقع في نشأته كما في كتب المناقب ، والصليب في قريش كان يتناول الديوان في ذلك العصر ما يقيم به أوده " [3]

وقال : " ولو لم يطل عمر أبي حنيفة ، ولم يكن له سعة ذات اليد ، واستبد ببحوثه ، ولم تكن عنده يقظة بالغة باعتراف الخصوم لكان يترنح في خمس سنوات تعقبها خمس سنوات في قديم وجديد بحيث يدع أصحابه في اضطراب" [4]

وقال : " بل الشافعي أيضاً ليس بقرشي في بعض الروايات " [5]

وقال عن نسبه :

" وقد توارد الناس على سوق هذا النسب إلا أن اختلاف الروايات في مسقط رأس الإمام الشافعي رحمه الله هل هو غزة أم عسقلان أم الرملة أم اليمن ؟ وعدم ذكر ترجمة لوالديه ولا تاريخ لوفاتهما في كتب الثقات مما يدعو إلى التثبت في الأمر " [6]

المحدث عبد الله بن الزبير الحميدي (ت ٢١٩) :

يقول الكوثري عنه : " الحميدي كذّبه محمد بن عبد الله بن الحكم في كلامه في الناس ، راجع طبقات السبكي (١- ٢٢٤) وهو شديد التعصب وقاع مضطرب " [7]

---

١) تأنيب الخطيب للكوثري ٤٠
٢) تأنيب الخطيب للكوثري ٨
٣) تأنيب الخطيب للكوثري ١٤٦ حاشية
٤) إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق ٢٥
٥) إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق ١٩
٦) إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق ١٩ الحاشية .
٧) تأنيب الخطيب للكوثري ٥٤

وقال : " ولولا أنه كان راوية ابن عيينة لكان الناس استغنوا عنه وعن حديثه لبذاءة لسانه ، وتعصبه الشديد ولعل الإمام الشافعي رضي الله عنه أراده حينما تمثل بشعر ابن المبارك " (١)

الإمام المحدث علي بن المديني (١٦١ - ٢٣٤) :

و لم يسلم ابن المديني من طعن الكوثري فهو يقول عنه : " ولو فكر ابن المديني في مسايرته لابن أبي دؤاد - كما شُرح في (مناقب أحمد) لابن الجوزي وغيره - وسعى في إعداد الجواب عن تلك المسايرة لكان أحسن له ونحسبه أنه لم يعد ولن يعد جواباً عن ذلك وأما فقيه الملة فجوابه عن تلك المسألة في متناول أيدينا بحيث ينشرح صدر كل منصف إلى أدلته الناصعة " (٢)

وقال أيضاً :

" وليس بقليل ما ذكره الخطيب عن ابن المديني في تاريخه ومن جملة ذلك صلته الوثيقة بأحمد بن أبي دؤاد في محنة أهل الحديث ومما قيل فيه :

يا بن المديني الذي شرعت له دنيا فجاد بدينه ينالها

ماذا دعاك إلى اعتقاد مقالة قد كان عندك كافراً من قالها

إلى آخر الأبيات المذكورة في (١١ -٤٦٩) وقد ترك أبو زرعة وأحمد الرواية عنه بعد المحنة " (٣)

إمام السنة الفقيه أحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١) :

وحتى الإمام أحمد نرى الكوثري يقلل من علمه فهو يقول : " ومن تابع أحمد بن حنبل وذكره بكثرة الحديث فله ذلك ، لكن كثرة الحديث بمجردها إذا لم تكن مقرونة بالتمحيص والغوص تكون قليلة الجدوى " (٤)

وقال :

---

١) تأنيب الخطيب للكوثري ١٩١

٢) تأنيب الخطيب للكوثري ١٢١

٣) تأنيب الخطيب للكوثري ٢٤٨

٤) تأنيب الخطيب للكوثري ٨

" وليس بقليل بين الفقهاء من لم يرض تدوين أقوال أحمد في عداد أقوال الفقهاء باعتبار أنه محدث غير فقيه عنده وأين لغير الفقيه إبداء رأي متزن في فقه الفقهاء ؟ " [1]

الإمام عثمان بن سعيد الدارمي (٢٠٠ – ٢٨٠)

وأما الإمام الدرامي فقد ناله من الكوثري أكثر الطعن والشتم ، وما ذلك إلاّ لأجل كتب الردود على نفاة الصفاة يقول الكوثري :" نشر أحد علماء هذا المعهد كتاب (النقض) للدارمي المجسم " [2]

ويقول عنه وعن كتابه :" وحيث لا يجوز إغفال ما يمس العقيدة فإني أعرض لأنظار أهل الدين بعض نماذج مما في الكتاب ليعلموا علماً لا لبس فيه مبلغ إمعان مؤلفه في عقيدة التجسيم " [3]

ويقول عن كتاب (النقض) له :

" فيا ترى هل يوجد في البسيطة من يكفر هذا الكفر الأخرق سوى صاحب (النقض) ومتابيعه " [4]

ويقول عنه " ويرى هذا المجسم المسكين " [5]

بل ويذهب الكوثري إلى تكفيره فيقول : فظهر أن علمه بالحديث كعلمه بعقيدة أهل الحق على حد سواء فلا وجه لإطرائه تقليداً للمطرين ، ولا عذر مطلقاً لمن يدون مثل ما في كتابه من الجاهلية الجهلاء ولا لمن ينشره ويروجه ، وإن كان العز بن عبد السلام يعذر – في قواعده – من بدرت منه كلمة موهمة لكنه يريد بذلك العامي الذي تخفى عليه مدلولات الألفاظ وتعلو على مداركه دقائق علم أصول الدين ويتهيب الولوج في هذه المضايق ، لا من ألف وقام يدعو الناس إلى عقيدة التجسيم بهذه الصراحة فيجب إلزامه مقتضى كلامه بدون توقف ، بل يقول القرطبي المفسر في (التذكار) إن المجسم عابد

---

١) تأنيب الخطيب للكوثري ٢٠٦

٢) مقالات الكوثري ٣٥٩

٣) مقالات الكوثري ٣٦١

٤) مقالات الكوثري ٣٦٢

٥) مقالات الكوثري ٣٦٣

صنم . والمقبلي يرد على ابن عبد السلام رأيه ، ويقول إنه رأى منه لا دليل عليه وليس أحد يعذر فيما يوجب الكفر "[1]

وقال :

" وثناء السبكي على الدارمي المجسم ناشئ من تقليد الذهبي ونحوه من الحشوية في إطرائه بدون أن يعلم حاله ، وحاشاه أن يثني عليه وهو يعلم حاله بل لو كان أطلع على بعض مخازيه المدونة في كتابه هذا لنبذه نبذ النواة وسل عليه سيف جهاده المصلت على رقاب المبطلين "[2]

الإمام ابن الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل (٢١٣ - ٢٩٠)

يقول الكوثري عنه وعن كتابه (السنة) : " وعبد الله بن احمد هذا قد ورث من أبيه مكانته في قلوب الرواة ، إلا أنه لم يتمكن من المضي على سيرة أبيه ، من عدم التدخل فيما لا يعنيه ، حتى ألف هذا الكتاب تحت ضغط تيار الحشوية بعد وفاة والده وأدخل فيه بكل أسف ما يجافي دين الله وينافي الإيمان بالله ، من وصف الله بما لا يجوز ، فضل به أصحابه .

وكان أهل العلم يأبون إظهار هذا الكتاب ستراً لفضائحه عن الأعين . "[3]

ويقول : " وتعصب عبد الله وانحرافه عن الجادة مما لا حاجة إلى دليل عليه سوى كتاب (السنة) "[4]

الإمام محمد بن إسحاق ، ابن خزيمة (٣١١) :

وهذا الإمام العظيم يقول الكوثري عنه وعن اعتقاده :

" واعتقاد ابن خزيمة يظهر من كتاب التوحيد المطبوع بمصر قبل سنتين ، وعنه يقول صاحب التفسير الكبير في تفسير قوله تعالى (ليس كمثله شيء) إنه كتاب الشرك "[5]

١) مقالات الكوثري ٣٦٥

٢) مقالات الكوثري ٣٦٦

٣) مقالات الكوثري ٣٩٩

٤) مقالات الكوثري ٩٥

٥) تأنيب الخطيب للكوثري ٢٩

ويقول :

" وابن خزيمة على سعته في الفقه والحديث جاهل بعلم أصول الدين وقد اعترف بـــذلك هو نفسه كما في الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٠٠) وكتاب التوحيد له يعده الرازي كتاباً في الشرك ، ويستخف عقله وفهمه في تفسير قوله تعالى (ليس كمثله شيء) وينقل جزءاً من سخفه ويرد عليه "

إلى أن يقول : " وعلى فرض أنه شافعي لا محاباة في المعتقد أياً كان مذهب من زاغ عـــن السبيل ، وهذا المسكين ممن إذا أصاب مرة في المعتقد يخطئ فيه مرات " (١)

وقال إنكاراً عليه عند ذكر الإصبع وضحك الرسول ﷺ تصديقاً : " توهم ابن خزيمـــة كونه تصديقاً لزيغ مشهور في معتقده " (٢)

الإمام المحدث عبد الرحمن بن أبي حاتم (٢٤٠ – ٣٢٧):

يقول الكوثري عنه وعن كتابه (الجرح والتعديل) : " هو من المتسولين علـــى بضـــائع الناس ، و لم يزد فيما زاد محض خير " (٣)

ويقول : " لكن ابن أبي حاتم المسكين ، الذي يقال عنه أنه ما كتب كاتبُ الشمال شيئاً عليه.

أفسده حرب بن إسماعيل السيرجاني في المعتقد حتى أصبح ينطوي على العداء لمتكلمـــي أهل الحق " إلى أن قال :" ومع ذلك تراه يدخل في مضايق علم أصول الـــدين مباعـــداً التفويض والتتريه فتزل قدمه " (٤)

ثم قال : " ولو كشفنا الستار عما ينطوي ابن أبي حاتم عليه من الاعتقاد الرديء الحامل له على عداء أهل الحق لطال بنا الكلام ، فلنتكف بهذه الأشارة (٥)

---

١)حاشية السيف الصقيل ١٢٤

٢) حاشية السيف الصقيل ٥٦

٣) مقالات الكوثري ٤٠٧

٤) تأنيب الخطيب للكوثري ١٦٧

٥) تأنيب الخطيب للكوثري ١٦٨

الإمام محمد بن الحسين الآجري (ت ٣٦٠) :

يرمي الكوثري هذا الإمام بالتشبيه فهو يقول عمن يسميهم حشوية :

" ومن هذا الطراز الآجري صاحب كتاب الشريعة قبلهما ، ويرثى لحال من يميل إلى التشبيه "[١]

المحدث الكبير أبو الشيخ عبدالله بن محمد الإصبهاني (ت ٣٦٩)

قال عنه :

" أبو الشيخ ضعّفه بلديه أبو أحمد العسال ، وله ميل إلى التجسيم "[٢]

وقال :

" وأبو محمد بن حيان ، هو أبو الشيخ صاحب كتاب (العظمة) وكتاب (السنة) وفيهما من الأخبار التالفة ما لا آخر له وقد ضعفه الحافظ العسال بحق "[٣]

الإمام المحدث علي بن عمر الدار قطني (٣٠٦ - ٣٨٥) :

يقول الكوثري عن هذا الإمام : " والدارقطني هو الذي يهذي في أبي يوسف بقوله : (أعور بين عميان) وهو الأعمى المسكين بين عور حيث ضل في المعتقد وتابع الهوى في الكلام على الأحاديث "[٤]

وقد روى الخطيب عن الدار قطني قوله في أبي يوسف : (أعور بين عميان) فيرد الكوثري بقوله :

" قوله هذ هذياناً بحتاً وسفهاً صرفاً فلو عارضه أحد أصحابنا قائلاً :(هو الأعمى بين عور) ما بعد عن الصواب لأن الله سبحانه أعمى بصيرة هذا المتسافه في صفات الله

---

١) حاشية السيف الصقيل ٢٢

٢) تأنيب الخطيب للكوثري ١٠٢ وقبله في حاشية السيف ٢٠٥ ومثله في حاشية الأسماء والصفات ٣٣٣

٣) تأنيب الخطيب للكوثري ٧٣

٤) تأنيب الخطيب للكوثري ٢٤٤

سبحانه حتى دون في صفات الله سبحانه ما لا يدونه إلا مجسم – وهو حديث الشاب الجعد القطط ، وحديث الإقعاد الذي يلهج هو به – كما أعمى بصيرة كثير من زملائه وهو معهم في الفروع ، ومن يكون فاقد البصرين يكون هو الأعمى بين أناس عور " [١]

الإمام ابن بطة ، عبد الله بن محمد العكبري (٣٠٤ – ٣٨٧) :

يقول الكوثري :

" العكبري وهو ابن بطة الحنبلي صاحب (الإبانة) كان من أجلاد الحشوية له مقام عندهم إلا أنه لا يساوي فلساً "

إلى أن قال :

" وكتبه من شر الكتب وله طامات فلا تعويل على روايته " [٢]

الإمام أبي نصر ، عبدالله بن سعيد السجزي (ت ٤٤٤):

وقد أفحش الكوثري القول على أبي نصر فهو يقول :

" وهذا السجزي هو أبو نصر الوائلي ، مؤلف الإبانة المتوفى ٤٤٤ هـ وصاحبه السعد الزنجاني بمكة مثله في التشبيه مع أنهما ينتحلان مذهب الشافعي ، ومن هذا الطراز الآجري صاحب كتاب الشريعة قبلهما ويرثى لحال من يميل إلى التشبيه مع جلالة مقداره في الحديث ونحن لا نعول على الرجل إلا في العلم الذي يتقنه دون سائر العلوم فكم بين أهل الحديث من هو أنزل منزلة من العامي في علم أصول الدين والفقه " [٣]

وقال أيضاً :

" وعن هذا السجزي يقول أبو جعفر اللبلي الأندلسي في فهرسته : وكذلك اللعين المعروف بالسجزي فإنه تصدى أيضاً للوقوع في أعيان الأئمة وسرج الأمة بتأليف تالف وهو على قلة مقداره وكثرة عواره ينسب أئمة الحقائق وأحبار الأمة وبحور العلوم

---

١) تأنيب الخطيب للكوثري ٢٦١

٢) تأنيب الخطيب للكوثري ٢١٦

٣)حاشية السيف الصقيل ٢٢

إلى التلبيس والمراوغة والتدليس وهذا الرذل الخسيس أحقر من أن يكترث به ذما ولا يضر البحر الخضم ولغة كلب

ما يضر البحر أمسى زاخرا   أن رمى فيه غلام بحجر

فمما ذكر هذا المنافق الحائد بجهله عن الحقائق أن من مذهب الأشعرية أن النبوة عرض من الأعراض والعرض لا يبقى زمانين وإذا مات النبي زالت نبوته وانقطعت دعوته ، وهذه من جملة حكاياته وتقولاته المستبعدة ا هـ وسيأتي الرد على هذا الهذيان ، وقد وفاه اللبلبي الكيل صاع بصاع " [1]

شيخ الإسلام ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ – ٧٢٨) :

أما شيخ الإسلام فقد افترى عليه الكوثري افتراء عظيماً ، وأكثر الطعن عليه وكال الشتم له ، بل ولعنه وكفره – الله حسيبه ويجازيه على ظلمه – فهو يقول :

" إلى أن نبغ في أواخر القرن السابع بدمشق حراني تجرد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء متظاهراً بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب بدون أستاذ يرشده في مواطن الزلل ، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتضافرا في الدفاع عن تخريف السخفاء إلا إذا كان العقل عقل صابيء والنقل نقل صبي ، وكم انخدع بخزعبلاته أناس ليسوا من التتأهل للجمع بين الرواية والدراية في شيء وله مع خلطائه هؤلاء موقف في يوم القيامة لا يغبط عليه " [2]

وقال :

" وكل ما في الرجل أنه كان له لسان طلق ، وقلم سيال ، وحافظة جيدة ، قلّب – بنفسه بدون أستاذ رشيد – صفحات كتب كثيرة جداً من كتب النحل التي كانت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل من استيلاء المغول على بلاد الشرق ، فاغتر بما فهمه من تلك الكتب من الوساوس والهواجس ، حتى طمحت نفسه إلى أن يكون قدوة في المعتقد والأحكام العملية ففاه في القبيلين بما لم يفه به أحد من العالمين مما هو وصمة عار وأمارة

---

١) حاشية السيف الصقيل ٢١ – ٢٢

٢) حاشية السيف الصقيل ٦

مروق في نظر الناظرين فانفض من حوله أناس كانوا تعجلوا في إطرائه بادئ بدء قبل تجريبه وتخلوا عنه واحداً إثر واحد على تعاقب فتنه المدونة في كتب التاريخ و لم يبق معه إلا أهل مذهبه في الحشو من جهلة المقلدة ، ومن ظن أن علماء عصره صاروا كلهم إلباً واحداً ضده حسداً من عند أنفسهم فليتهم عقله وإدراكه قبل اتهام الآخرين ، بعد أن درس مبلغ بشاعة شواذه في الاعتقاد والعمل وهو لم يزل يستتاب استتابة إثر استتابة ، وينقل من سجن إلى سجن إلى أن أفضى إلى ما عمل وهو مسجون فقبر هو وأهواؤه في البابين بموته وبردود العلماء عليه وما هي ببعيدة عن متناول رواد الحقائق "

ويقول عنه أيضاً :

" وكم استتب وأخذ خطه بالتوبة ثم نقض مواثيقه " [1]

ويقول عن بعض ما صدر ضده من فرية سلطانية بعد أن وصفه بالزائغ :

" وقد تليت تلك المراسيم على المنابر نصحا للأمة وإفهاما لها أن ذلك الرجل مجسم زائغ اعتقاداً وعملا فلا يجوز الاغترار به " [2]

ويقول عنه وعن ابن القيم :

" كأنه وشيخه كانا يحاولان القضاء على البقية الباقية من الإسلام ، ومن علوم الإسلام ، إتماماً لما لم يتم بأيدي المغول ، لكنهما قضيا على أنفسهما ومداركهما قبل أن يقضيا على السنة باسم السنة وعلى عقول الناس باسم النظر عاملهما الله سبحانه بعدله " [3]

ويقول عنه :

" هو وارث علوم صابئة حران حقاً ، والمستلف من السلف ما يكسوها كسوة الخيانة والتلبيس ، وعن هذا الحراني _ الذي اتخذه الناظم إماماً _ يقول ابن حجر في الدرر الكامنة في ترجمته : " واستشعر أنه مجتهد فصار يرد على صغير العلماء وكبيرهم ، قديمهم وحديثهم ، حتى انتهى إلى عمر (بن الخطاب رضي الله عنه) فخطأه " [4]

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٨

٢) حاشية السيف الصقيل ١٩

٣) حاشية السيف الصقيل ٤٤

٤) حاشية السيف الصقيل ٩١

ثم ختم هذا النقل بقوله : " وهذا كلام ابن حجر في هذا الزائغ مع أنه لم يطلع على جميع مخازيه ، ومن أثنى عليه من أهل السنة في مبدأ أمره قبل انكشاف الستر عن بدعه الطامة إنما أثنى عليه تشجيعاً له على العلم لما كانوا يرون فيه فيه في مبدأ نشأته من القابلية للعلم كما كانوا يفعلون مثل ذلك مع كل ناشئ لكن لما تشعبت هموم ابن تيمية وتوزعت مواهبه في مختلف الأهواء وضاع صوابه بين أمواج البدع التي ارتضاها لنفسه تراجع كل من أثنى عليه من هؤلاء على توالي فتنه بين الأمة وتعاقب أهوائه المخزية وانقلبوا ضده ، ولولا مغامراته في شتى العلوم التي يكفي واحد منها ليختص فيه أذكى العلماء ؛ لربما برع في علم يتفرع له بعزيمة صادقة لكن جنى علىنفسه بتشتيت مساعيه وراء أهواء بشعة فأصبح في موضع هزء البارعين" [1]

أقول : ما نقله ونسبه إلى ابن حجر في الدرر الكامنة في ترجمة شيخ الإسلام ، ليس كلامه وإنما هو كلام الطوفي عنه ، مع أن الطوفي أثنى عليه آخر كلامه .

وقال عن ابن تيمية أيضاً عند ابتلاء الشيخ :

" لكن لم تمض مدة على ذلك حتى نقض ابن تيمية عهوده ومواثيقه ، كما هي عادة أئمة الضلال ، وعاد إلى دعوته الضالة ورجع إلى عادته القديمة في الإضلال وكم له من فتن في مختلف التواريخ في سني ٦٩٨ و٧٠٥ و٧١٨ و ٧٢١ و ٧٢٢ و ٧٢٦ وهي مدونة في كتب التواريخ وفي كتب خاصة ، ومجرد تصور شواذه التي ألممنا ببعضها في هذا الكتاب يدل المسترشد المنصف على ما ينطوي عليه من الزيغ وإضلال الأمة ، والله سبحانه ينتقم منه .

والغريب أن أتباع هذا الرجل يسيرون وراءه ويتشبهون به في إثارة القلاقل والفتن بين الأمة بمواجهتها بالحكم على أفرادها بالشرك والزيغ وعبادة الأوثان والطواغيت ، يعنون أحباب الله الأنبياء والأولياء يقولون إن من يزورهم يكون عابد الأوثان والطواغيت ومن هذا الطراز في زمننا كثير نراهم بأعيننا ونسمعهم بآذاننا ، طهر الله الأرض منهم وأراح العباد من شرهم " [2] .

ويقول :

---

١)حاشية السيف الصقيل ٩٢

٢) حاشية السيف الصقيل ٩٦.

" وهذا مما يدل على وقاحته البالغة وقلة دينه ، وهل أدل على قلة عقل الرجل من تناقضه في كتاب واحد والله ينتقم منه " (١)

ويقول :

" فماذا علينا من عداء مثل هذا الفاتن المفتون ، ومن أحاط علماً بما نقلناه في هذا الكتاب وغيره من نصوص عباراته وتأكد من الأصول صدق النقل واستمر على مشايعته وعلى عده شيخ الأسلام فعليه مقت الله وغضبه ، ومن اشتبه في شيء مما نقلناه فنحن على استعداد أن نسهل عليه سبيل الاطلاع على الأصول إن كان لا يكفيه ما يراه بنفسه في منهاجه ومعقوله ونحوهما من كتبه المطبوعة والله سبحانه هو الهادي إلى سواء السبيل " (٢)

ويقول عنه وعن ابن القيم :

" والناظم وشيخه يدعيان الانتماء إلى أحمد ولا يتابعانه في التتريه كما رأيت نصوص أهل العلم عن أحمد فلا ينخدعن الموفق بثرثرتهما المفضوحة وتمويليهما المصطنع وإنما ذلك وقاحة منهما قاتلهما الله ، ما أجرأهما على الله تعالى " (٣)

وقال عنه :

" وكم أضل من خلطائه ولهم معه موقف يوم القيامة لا يغبط عليه " (٤)

ويقول :

" فسعيه في منع الناس من زيارته ﷺ يدل على ضغينة كامنة في نحو الرسول ﷺ " (٥)

ويقول :

" ومثل هذا الضال المضل اتخذه الناظم قدوة في فتنه عاملهما الله تعالى بعدله . و لم يكن بغض علماء أهل الحق لهما إلا بغضاً في الله شأنهم مع كل زائغ ، ومن حمل ذلك على الحسد لم يعرف سيرة الرادين عليه ولا مبلغ زيغ الناظم وشيخه فمثل هذا القول ينبئ عن جهل قائله أو زيغه " (٦)

---

١)حاشية السيف الصقيل ١٠٦

٢) حاشية السيف الصقيل ١٣٥

٣) حاشية السيف الصقيل ١٣٨

٤) حاشية السيف الصقيل ١٦١

٥) حاشية السيف الصقيل ١٧٩

٦) حاشية السيف الصقيل ١٩٠

ويقول عنه :

" فضح نفسه وأذنابه وقادته وأصارهم تحت نعال أهل الحق بجهله وخرقه و لم يزل ينقل من محبس إلى محبس ومن هوان إلى هوان حتى أفضى إلى ما عمل وخلف شواذه وصمة الأبد ، لكن قاتل الله الوقاحة تحاول قلب الحقائق .

وقال : " أهكذا يكون التقي المتحري أم الماجن المتجري ، وشواذه في الفروع من هذا القبيل ، ولا تسل عن مفرداته في المعتقد فهو آية في التضليل " [1]

وقال :

" وقد بلونا الكذب كثيراً فيما ينقله ابن تيمية ، فإذا كذب على جده هذا الكذب المكشوف لا يصعب عليه أن يكذب على الآخرين نسأل الله السلامة " [2]

قال : " ولو قلنا لم يبل الاسلام في الأدوار الأخيرة بمن هو أضر من ابن تيمية في تفريق كلمة المسلمين لما كنا مبالغين في ذلك ، وهو سهل متسامح مع اليهود والنصارى " [3]

وقال :

" وكم لا بن تيمية من فتن مشروحة في كتب التاريخ وفي كتب خاصة وهو ليس بثقة في نقله " [4]

وقال :

" ومع هذا كله إن كان هو لا يزال يعد شيخ الإسلام ، فعلى الإسلام السلام " [5]

الإمام ابن القيم محمد بن أبي بكر ، (٦٩١ - ٧٦٩)

وكلامه كثير ، وحال الكوثري مع ابن القيم كحاله مع شيخ الإسلام من الطعن والشتم والتسنيع فهو يقول عنه :

---

١) حاشية ذيل طبقات الحفاظ ١٨٧ - ١٨٨

٢)الإشفاق على أحكام الطلاق ٣٥

٣) الأشفاق على أحكام الطلاق ٦٧

٤) الإشفاق على أحكام الطلاق ٦٨

٥) الإشفاق على أحكام الطلاق ٧٠

" وكم استتيب

" إنه استمر على هذا المعتقد الباطل إلى أواخر عمره " (١)

ويقول :

" وهو ابن زفيل الزرعي بابن قيم الجوزية كان بمتناول يده من كتب الفرق التي كانـــت دمشق امتلأت بها بعد نكبة بغداد ونكبة البلاد الشرقية باستيلاء المغول عليها ما يزداد به غواية إلى غوايته " (٢)

ويقول : " وستكشف الستار عن وجوه تضليله وتدجيله " (٣)

ويقول : " ترى المؤلف (٤) على ورعه البالغ يستترل اللعنات على الناظم في كثير مــن مواضع هذا الكتاب ، وهو يستحق تلك اللعنات من حيث خروجه على معتقد المسلمين بتلك المخازي " (٥)

ويقول عنه :

" قاتله الله ما أجرأه على الله وما أوقحه " (٦)

وقال :

" ليقل لي حضرات المغرورين بابن القيم كيف يكون نظرهم إليه في الحقارة والصغار وهم يسمعون إماما كبيراً لا ينسب إمامهم إلى الخيانة في النقل عن فريق العلماء جميعاً بل ينسبه إلى الخيانة في النقل عن الله ورسوله ﷺ يقول عنه إنه يكذب عليهما ويسند إليهما مـــا لم يقله كتاب ولا سنة أمع هذا يبقون على غرورهم وإفراطهم في تعظيم ذلك الرجل " (٧)

وقال :

" وإني أعيذهم بالله من احترام رجل لا يزيد عنه في الخروج على الإسلام والمســـلمين لا الزنادقة ولا الملاحدة ولا الطاعنون في الشريعة ، إني أرجو إخواننا المغرورين بابن القيم أن

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٩

٢) حاشية السيف الصقيل ٢٠

٣) حاشية السيف الصقيل ٢٥

٤) يريد السبكي

٥) حاشية السيف الصقيل ٤١

٦) حاشية السيف الصقيل ٥٣

٧) حاشية السيف الصقيل ٦٤

يفهموا ليغلموا هذا جيداً ثم ليوقنوا أن الذي يكذب في الأصول هين جداً عنده أن يكذب في الفروع وإذن ترتفع بكل معناها عن ابن القيم فلا يجوز لمسلم أن يعتمد عليه في نقل لا في أصول ديننا ولا في فروعه وهو على هذه الحالة سيئة واحدة من سيئات شيخه الكبير إمامكم العظيم لا في هذا ولا عشر نظركم ابن تيمية " [1]

وقال :

" وكيف يرضى العاقل أن يعد العلماء _ وهم أمناء الله في أرضه _ رجلاً كثير الغش لأمة محمد س كثرة يتعجب منها أئمة الإسلام وليس هذا الغش في أمر من أمور الدنيا ولو كان هذا لهان الأمر ولكنه غش في صميم الإسلام فليعرف ذلك المغرورون بابن القيم ثم ليعرفوه "

ويقول :

" وهذا الناظم وشيخه قد جددا الكرة بسلاح جديد بتلبيس معتقدهما الزائغ " [2]

يقول :

" هذا من الدليل على أنه من ورثة علوم الصابئة عبدة الإجرام العلوية كاد أن يبوح بما عنده من عزائم الكواكب " [3]

وقال عنه :

" والله سبحانه ينتقم منه " [4]

ويقول :

" مع أن الناظم يقول في كثير من كتبه بنفي الخلود للكفار في النار وبهذا حكم على نفسه بالكفر ، انظر كلامه فيمن لا يرى قيام الحوادث بالله والفوقية المكانية له تعالى . وجعل العمل جزءاً من الإيمان حقيقة مؤد إلى تكفير مرتكبي الكبائر كما هو مذهب الخوارج . ونفي قيام الأفعال الحادثة به تعالى بعده نفي الصفات والله ينتقم منه " [5]

---

١) حاشية السيف الصقيل ٦٤

٢) حاشية السيف الصقيل ١٣٧

٣) حاشية السيف الصقيل ١٧١

٤) حاشية السيف الصقيل ١٧٢

٥) حاشية السيف الصقيل ١٩٤

وقال عنه :

" قاتله الله " [1]

أقول : الله حسيب الكوثري على ظلمه وافترائه ، وأما هؤلاء الأئمة الهداة فلم يضـــرهم طعن المبتدعة ، بل أظهر الله دعوتهم ونشر علمهم وتبين لكل منصف حقيقة حالهم ، والله المستعان .

---

١) حاشية السيف الصقيل ٢٠٨

الباب الثاني

آراؤه الاعتقادية

الفصل الأول :

المعرفة

المبحث الأول :

رأي الكوثري في معرفة الله عز وجل

المبحث الأول :

رأي الكوثري في معرفة الله عز وجل

يقرر الكوثري في هذا الباب ما يقرره الماتريدية من أن معرفة الله ، ووجوبها وجوب عقلي ، وإنما تحصل بالنظر حيث " يجب بمجرد العقل في مدة الاستدلال ، معرفة وجوده – تعالى – ووحدته وعلمه ، وقدرته وكلامه ، وإرادته وحدوث العالم " .[1]

وسبب ذلك أن الدين جاء به النقل (السمع) ولا يخلو بشر من انتحال دين يستند فيه إلى السمع ، وكثير من أصحاب الأديان على الباطل ، أما العقل فلأن الحكمة تدل على معرفة الله عز وجل .[2]

فمعرفة الله ، والإيمان به ، وتصديق ما جاء به عنه تجب على المكلف ، عقلاً وإن لم يبلغه الخبر .

وهذا الذي تقرر هو الأصل عندهم .

لذا وجب على المكلف ابتداءً النظر ، أو قصد النظر ليتوصل إلى معرفة الله عز وجل .

يقول الكوثري عن قوله تعالى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ) .[3]

" أي دلالة يعبر وينتقل بها من الجهل بالله إلى معرفته – جل جلاله " .[4]

فالنظر فيه استبصار دلائل معرفة الله ، فبالنظر يزول الجهل ، وتكون المعرفة بالله .

وإنما وجبت بهذا السبيل " لأن إتقان المصنوع يدل على إتقان الصانع جل جلاله " .[5]

---

١) إشارات المرام من عبارات الإمام ٥٣ .

٢) انظر كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي ٤ .

٣) النحل ٦٦-٦٧ .

٤) حاشية النبذ في أصول الفقه الظاهري لابن حزم ٤٥ .

٥) نفسه ٤٥ .

وهذا الوجوب إنما هو لمعرفة وجود الله ، وخلقه الخلق ، وعظيم إتقانه للمصنوع !

وهذه الطريق العقلية – عنده – هي الحجة التي آتاها الله نبيه إبراهيم .

" القول بأن الجسم لا يخلو من حادث ، في الاحتجاج على حدوث العالم وانتهائه إلى محدث ، واجب الوجود منزه عن الجسمية ، والجسمانيات ، وهو حجة الله التي آتاها إبراهيم [1] مهما تقولت المجسمة ، وهذت في ذلك " . [2]

فإبراهيم إنما توصل إلى معرفة الله عن طريق العقل ، بالنظر إلى الشمس والقمر والنجم ، فاستدل من حدوثهما على وجود المحدث !

وهذا يعني أنه لم يكن يحاج قومه ، وإنما كان يتطلب المعرفة !

وذا كلام فاسد ، " وكذب ظاهر على إبراهيم ، فإن الأفول هو التغيب والاحتجاب باتفاق أهل اللغة والتفسير ، وهو من الأمور الظاهرة في اللغة ، وسواء أريد بالأفول ذهاب ضوء القمر والكواكب بطلوع الشمس أو أريد سقوطه من جانب المغرب فإنه إذا طلعت الشمس يقال : إنها غابت الكواكب واحتجبت ، وإن كانت موجودة في السماء ، ولكن طمس ضوء الشمس نورها " .

و" قصة إبراهيم حجة عليهم ، فإنه لم يجعل بزوغه وحركته في السماء إلى حين المغيب دليلاً على نفي ذلك ، بل إنما جعل الدليل مغيبه " . [3]

---

١) يشير إلى قوله تعالى : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) الأنعام ٧٦-٧٩ .

٢) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٨٦ .

٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٥٤٨ .

" لكن الحق إن إبراهيم لم يقصد هذا ، ولا كان قوله (هذا ربي) إنه رب العالمين ، ولا اعتقد أحد من بني آدم أن كوكباً من الكواكب خلق السماوات والأرض وكذلك الشمس والقمر ، ولا كان المشركون قوم إبراهيم يعتقدون ذلك ، بل كانوا مشركين بالله يعبدون الكواكب ، ويدعونها . "[1]

" وقوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع ، ولهذا قال لهم إبراهيم الخليل (قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .[2]

فعادى كل مايعبدونه إلا رب العالمين . "[3]

وهذا الكلام يبرز لنا أن إبراهيم _ عليه السلام _ كان يحاج قومه في وجوب عبادة الله _ عز وجل _ وليست محاجته لهم في إثبات وجوده ، إذ هم مقرين بذلك ، كما هو معلوم من حال عبدة الكواكب .

وهذه المحاجة من الاستدلال بالربوبية على لزوم إفراد الله بالعبادة ، وهي قريبة من محاجة الله _ عز وجل _ لمشركي العرب حيه قال سبحانه (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)[4]

فليس في محاجة إبراهيم الاستدلال على وجود الله بطريق ما يسمى دليل الحدوث فكيف يقال إنه حاجهم ليثبت لهم الصانع ، وهم كانوا يقرُّون به ، بل ويعبدونه مع آلهتهم ؟

والكوثري يرى وجوب معرفة الله عقلاً ، وقبل ورود الشرع فهو يقول :

" المرضي عند محققي الأشاعرة وجوب معرفة الله قبل ورود الشرع كقول الماتريدية على حد سواء . "[5]

---

١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٥٤٨ .

٢) الشعراء ٧٥-٧٧ .

٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٥٤٩ .

٤) البقرة ٢١

٥) حاشية التبصير في الدين للاسفراييني ١٠٥ .

وهو بهذا الكلام يرد على أبي المظفر الاسفراييني – وهو أحد علماء الأشاعرة – الذي قرر أن وجوب المعرفة ، إنما هو وجوب شرعي .

وكلام الكوثري ونسبته الواجب العقلي لمحققي الأشاعرة غير صحيح ، بل هو من تعصبه للماتريدية حتى أمام الأشاعرة – موافقيهم في أصول المعتقد – فالمشهور والمتقرر عند الأشاعرة أن هذا الواجب لا يجب إلا بورود الشرع بخلاف ما ذكره الكوثري .

يقول الشهرستاني [1] :

" وأما السمع والعقل ، فقال أهل السنة الواجبات كلها بالسمع ، والمعارف كلها بالعقل .

فالعقل لا يحسن ولا يقبح ولا يقتضي ولا يوجب " . [2]

فنسبة الكوثري لهم ليست صحيحة ، ولا سديدة .

والقول بوجوب المعرفة ، والإيمان بالعقل ، مما يخالف نص الكتاب والسنة ، ومعتقد السلف لصالح .

نعم من المقطوع به أن للعقل القدرة على التوصل إلى معرفة الله ، والإيمان به في الجملة ، لكن كونه قادراً على ذلك شيء ، ووجوبه عليه بدون موجب الشرع شيء آخر .

فإن الله – من رحمته – لم يكل العبد إلى عقله ، فلم يوجب عليه ما دله عليه عقله ، بل إنما جعل الوجوب الذي يترتب عليه حكمه في الدنيا بورود الشرع .

وهنا أمر في غاية الأهمية ، وهو أن حجة الله على العبد إنما تقوم بالتمكن من العلم ، والقدرة على بلوغ السمع ، سواء سمع أم لم يسمع .

---

١) (الشهر ستاني) محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهر ستاني ، أبو الفتح ، شيخ أهل الكلام والحكمة . ولد سنة (٤٦٧هـ) برع في الفقه على الإمام أحمد الخوافي الشافعي ،وقرأ الأصول على أبي نصر بن القشيري ، وعلى أبي القاسم الأنصاري . صنف كتاب (نهاية الإقدام) وكتاب (الملل والنحل) مات سنة (٥٤٨هـ) . [وفيات الأعيان ٢٧٣/٤،تذكرة الحفاظ ١٣١٣/٤، طبقات السبكي ١٢٨/٦، السير ٢٨٧/٢٠] .

٢) الملل والنحل للشهرستاني ٥٣/١ .

فحجة الله " برسله قامت بالتمكن من العلم ، فليس من شرط حجة الله تعالى علم المدعوين بها .

ولهذا لم يكن إعراض الكفار عن استماع القرآن ، وتدبره مانعاً من قيام حجة الله تعالى عليهم .

وكذلك إعراضهم عن استماع المنقول عن الأنبياء ، وقراءة الآثار المأثورة عنهم ، لا يمنع الحجة ، إذ المكنة حاصلة " . (١)

فلذلك قال تعالى : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . (٢)

وقال تعـــالى (وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ) (٣) .

" فإن هؤلاء يقولون : هذه غير معلومة لنا .

كما يقول من يقول من الكفار ، إن معجزات الأنبياء غير معلومة لهم .

وهذا لكونهم لم يطلبوا السبب الموجب للعلم بذلك " . (٤)

والله قد قال : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ) . (٥)

وقال (وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) . (٦)

---

١) الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩٩ .

٢) لقمان ٧ .

٣) فصلت ٥ .

٤) الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٠٠ .

٥) النساء ١٦٥ .

٦) الإسراء ١٥ .

يقول أبو المظفر السمعاني [١] :

" إن العقل لا يوجب شيئاً ، ولا يحرم شيئاً ... ونحن لا ننكر أن العقل يرشد إلى التوحيد ، وإنما ننكر أنه يستقل بإيجاب ذلك " . [٢]

---

١) (أبو المظفَّر السمعاني) منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد ، التميمي ، السمعاني ، المـــروزي ، الحنفي ثم الشافعي . الإمام العلامة ، مفتي ، خراسان ، شيخ الشافعية . ولد سنة (٤٢٦هـ) . تفقه بأبيه على مذهب أبي حنيفة ، صنف كتاب (الإصطلاح) و (البرهان) ولـــه (الأمـــالي) في الحـــديث ،وتعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة ،وكان شوكاً في أعين المخالفين ،وحجة لأهل السنة ،مات سنة (٤٨٩هـ) ، [الأنساب ١٣٩/٧، وفيات الأعيان ٣٢١١، طبقات السبكي ٣٣٥/٥ ، السير ١١٤/١٩] .

٢) فتح الباري ٣٥٣/١٣ .

المبحث الثاني :

رأي الكوثري في تسلسل الحوادث وحدوث الأجسام ونقده

المبحث الثاني :

رأي الكوثري في تسلسل الحوادث وحدوث الأجسام ونقده

تمهيد

إنَّ من الأمور الفطرية ، التي لا تحتاج إلى كبير استدلال مسألة إثبات وجود الباري ، وأنه الخالق لكل شيء .

فقد قر في نفوس الخلق أجمعين ، الاقرار بالصانع ، مما يعد من العلوم الضرورية .

قال الله تعالى (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) .[1]

وقال عز وجل — (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ) .[2]

ومع بيان هذا وجلائه فإن الأشاعرة ، ومن تبعهم من الماتريدية يجعلون إثبات هذا من أهم الأمور .

وأطالوا الكلام في لزوم النظر في أدلة إثبات الصانع ، ومن أشهر أدلتهم ما سموه دليل حدوث الأجسام .

وهو مسلك مشهور لديهم .

فعندهم لا يعرف صدق النبي صلى الله عليه وسلم حتى يعرف ثبوت الصانع ولا يعرف إثباته إلا بثبوت حدوث العالم ، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بإثبات حدوث الأجسام .

يقول الباقلاني :

" إن العالم محدث ، وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى .

---

١) إبراهيم ١٠ .

٢) الروم ٣٠ .

والدليل على حدوثه تغيره من حال إلى حال .... وإذا صح حدوث العالم ، فلا بد له من محدث أحدثه ، ومصور صوره " .[1]

والكوثري ممن يستدل بدليل الحدوث هذا حيث يقول :

" القول بأن الجسم لا يخلو من حادث في الاحتجاج على حدوث العالم وانتهائه إلى محدث واجب الوجود ، متره عن الجسمية والجسمانيات ، وهو حجة الله التي آتاها إبراهيم " [2] .

والاستدلال بقصة إبراهيم عليه السلام استدلال قد سبق الكوثري به أئمة المتكلمين ، فالباقلاني يرى أن إبراهيم استدل على حدوث العالم بأفول الكواكب ، فهو يقول :

" وكذلك كان الخليل عليه السلام ، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة ، لأنه لما رأى الكوكب قال : هذا ربي " . [3]

فعندهم أن الأفول هو التغير ، والتغير حركة ، فلزم أن كل متغير حادث ، والحادث لا يكون خالقاً .

وهذا من " تحريف الكلم عن مواضعه ، وإنما الأفول هو المغيب والاحتجاب ، ليس هو الإمكان ولا الحركة .

وإبراهيم الخليل لم يحتج بذلك على حدوث الكواكب ولا على إثبات الصانع ، وإنما احتج بالأفول على بطلان عبادتها ، فإن قومه كانوا مشركين ، يعبدون الكواكب ، ويدعونها من دون الله ، لم يكونوا يقولون : إنها هي التي خلقت السموات والأرض ، فإن هذا لا يقوله عاقل ، ولهذا قال : (إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) [4] " . [5]

وهذا الاستدلال من الاستدلالات المبتدعة التي لم يقل بها به أحد من علماء السلف ، ولا أحد من أهل التفسير بالأثر ، ولا أحد من أهل العربية .

---

١) الانصاف للباقلاني ٣٠ .

٢) حاشية السيف الصقيل ٨٦ .

٣) الانصاف للباقلاني ٣٠ .

٤) الانعام ٧٦ .

٥) منهاج السنة النبوية ١/٢٠٢- ٢٠٣ .

ثم إن هذا الاستدلال — وإن كان المستدل عليه أمراً فطرياً — استدلال بدعي ليس من دلائل الله في كتابه ، ولا أرشد إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

و لم يدع إليه الصحابة ولا أحد من أئمة السلف المهديين .

والعجب أن تجعل هذه الطريقة هي أصل الدين ، الذي لا يعرف إلا بها .

والحق أن هذه من البدع التي أخذها متكلموا الأشاعرة والماتريدية من المعتزلة الجهمية

يقول أبوجعفر السمناني :

" إن هذه المسألة بقيت في مقالة الأشعري من مسائل المعتزلة ، وتفرع عليها أن الواجب على كل أحد معرفة الله . "[1]

ونتج عن دليل حدوث الأجسام ، تسلسل الحوادث ، وهي مسألة مبتدعة دخل من خلالها الدهرية ، وأنكروا الخالق .

يقول شيخ الإسلام :

" الكلام في حدوث العالم ، والكلام في كلام الله و أفعاله ، والكلام في هذين الأصلين من محارات العقول . "[2]

ومراده هنا التعمق فيها ، والخوض مع الفلاسفة فيها ، وإلا فإثبات الرب ، وأنه الخالق ، وغيره المخلوق المحدث من الأمور البدهية التي لا تحار فيها العقول .

وقد سعى المتكلمون إلى نقض كلام الفلاسفة القائلين بقدم العالم ، فأصلوا الكلام في الاستدلال على حدوث العالم بدليل الحوادث المشهور ، فقالوا بامتناع حوادث لا أول لها لامتناع التسلسل .

ولولا ذلك لبطل دليلهم الذي استندوا إليه من خلال التقرير الذي سبق من امتناع حوادث لا أول لها ، بناء على أن التسلسل ممتنع ، نفوا صفات الباري عز وجل — بناء على أنها حوادث وما حلت به الحوادث فهو حادث .

وهذا المعنى هو ما يقرره الكوثري ، ويرد به كثيراً على شيخ الإسلام ويفتري عليه بنسبة قول الدهرية إليه .

---

١) فتح الباري ١٣/ ٣٤٩

٢) منهاج السنة النبوية ١/ ٢٩٩ .

فالمتكلمون ـــ والماتريدية تبع لهم ـــ أسسوا أصلاً جعلوه أصل الـــدين ، وبرهـــان إثبات الصانع ، الذي بدونه ، لا دليل على إثباته ـ عز وجل ـ ، وهو أن إثبات الصانع لا يمكن إلا بإثبات حدوث العالم ، وإثبات حدوث العالم لا يكون إلا بإثبات حـــدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام إنما يكون بـــالأعراض كالحركـــة والـــتغير والإفتراق وغيرها .

وبناء عليه نفوا أفعال الله ـــ عز وجل ـــ لأنها حوادث ، والله ليس محلاً للحوادث ، ليسلم لهم الاستدلال بإثبات وجود الصانع تجاه الدهرية والفلاسفة .

ولذلك قالوا بامتناع التسلسل في الماضي ، لأن الحوادث يمتنع عقلاً ألا يكون لهـــا أول .

وقد رد شيخ الاسلام ـــ رحمه الله ـــ على هذا الباطل كثيراً وبين أن التسلل في أفعال الله ليس ممتنعاً ، لا عقلاً ولا شرعاً إذ إن التسلسل الممتنع عقلاً وشرعاً هو التسلسل في الفاعلين ، الذي أشار إليه النبي ﷺ " يأتي الشيطان أحدكم ، فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته " (١)

أما التسلسل في الأفعال ، فليس في الشرع ولا العقل مايدل على امتناعه على الله فالله مازال ولا يزال موصوفاً بالفعل أزلاً وأبداً ، فلم تحدث له أفعال بعد أن لم تكن هذا ماقرره ابن تيمية ـ رحمه الله ـ موافقاً للكتاب والسنة ومذهب السلف .

ولما كان الأمر كذلك شنع الكوثري عليه ، بل وشتمه وعابه ونسبه للإلحاد ، وزعم أنه قائل بقول الفلاسفة الدهريين .

يقول :

" العجب كل العجب اجتراء ابن تيمية هنا على القول بحوادث لا أول لها والقـــول بالقدم النوعي في العالم وبقيام الحوادث به سبحانه ، متعاميا عن حجة إبراهيم المـــذكورة في القرآن الكريم ومنكرا لما يعزوه لصحيح البخاري (كان الله ولا شيء معه) مع أنه هو القائل بأن ما في الصحيحين يفيد العلم ـــ يعني اليقين إجراء له مجرى الخـــبر المتـــواتر ـــ

---

١) رواه البخاري في بدء الخلق باب صفة إبليس رقم ٣٠٣٤ ، ومسلم في الإيمان رقم ١٩٠

ومخالفا للإجماع اليقيني في ذلك ، وأنى يتصور قدم للنوع الذي لا وجود له إلا في الذهن وعدم تناهي مادخل بالفعل تحت الوجود لا يتصوره إلا عقل عليل ، وعلى فرض وجود النوع في الخارج لا يكون موجودا إلا في ضمن أفراده ، وأنى يكون للنـــوع قـــدم مـــع حدوث أفراده ؟ !! ودعوى (أن الله لم يزل ومعه شيء) توازن في البشاعة القول بقدم شيء بعينه سواه تعالى بل القول بالقدم النوعي كالقول بالقدم الشخصي في البطلان بـــل ذاك أسقط من هذا وكلاهما يستلزم نفي الإرادة عن الله سبحانه "[1]

والجواب عن هذا الكلام أن تقال :

أولاً / شيخ الاسلام لا يقول بجواز حوادث لا أول لها ، بل يقول : بجواز أفعال الله لا أول لها ، فكما أن حياة الله لا أول لها ، فكذا كلامه ، ومحبته ، وخلقه .

ثانياً / قوله بقيام الحوادث به سبحانه ، ـــ سيأتي الكلام عليه[2] ـــ ، وذلك أن أئمة السلف لا يرون إثبات هذه الألفاظ ولا نفيها ، وإنما يثبتون قيام أفعال الله به ـــ سبحانه ـــ وإن سماها أهل البدع حوادث ، يمتنع أن تقوم بالرب .

ثالثاً / قوله " ودعوى أن الله لم يزل ومعه شيء، توازن ......" فهو تشنيع مردود عليه ، فليس فعله شيء منفصل عنه ، حتى يقال إنها كالقول بقدم شيء بعينه سواه تعالى ، فالله لم يزل ، وقدرته على الفعل لم تزل ليس سواه ـــ عز وجل ـــ .

رابعاً / قوله (وكلاهما يستلزم نفي الإرادة عن الله سبحانه) فهذا اللازم باطل ، إذ كيف يلزم من إثبات دوام فعل الرب ، نفي إرادته ؟ هذا لا يتصور ولا يلزم من إثبـــات أحدهما نفي الآخر .

ويقول عن ابن القيم :

" وهذا تصريح منه بأن الله سبحانه فاعل بالإيجاب انخداعا منه بقـــول الفلاســـفة القائلين بقدم العالم وقد أتى أهل الحق بنيانهم من القواعد ، وإن كان الناظم المسكين بعيداً عن فهم أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء ، ثم يناقض الناظم نفسه ويثبت لله الاختيار وهـــو في الحالتين غير شاعر بما يقول ، تعالى الله عما يقول ، وأرجو أن يفهم القارئ هنا معـــنى لا

---

١) حاشية الإجماع لابن حزم ص ١٦٩

٢) انظر صفحة ٢٩٩

بد من اعتقاده وهو ان القائل بأن الله فاعل بالإيجاب في ناحية، ودين الإسلام كله في ناحية ، وأي مسلم يستطيع أن يقول إن ربنا مرغم على فعل ما يفعله ؟ "(١)

والجواب عليه أن الكوثري متحامل على أئمة السلف ، فابن القيم رحمه الله ، إنما أراد الإيجاب المتعلق بالمشيئة لوجوب اتصافه بالكمال ، لا أنه بلا إرادة .

يقول شيخ الإسلام :

" ولفظ الموجب بالذات فيه إجمال . فإن أريد به أنه يوجب ما يحدثه بمشيئته وقدرته ، فلا منافاة بين كونه فاعلا بالقدرة والاختيار ، وبين كونه موجبا بالذات بهذا التفسير . وإن أريد بالموجب بالذات أنه يوجب شيئاً من الأشياء بذات مجردة عن القدرة والاختيار ، فهذا باطل ممتنع . (وإن أريد أنه علة تامة أزلية تستلزم معلولها الأزلي ، بحيث يكون من العالم ماهو قديم بقدمه ، لازم لذاته ، أزلا وأبداً ـ الفلك أوغيره ـ فهذا أيضاً باطل)

فالموجب بالذات إذا فسر بما يقتضي قدم شيء من العالم مع الله ، أو فسر بما يقتضي سلب صفات الكمال عن الله ، فهو باطل . وإن فسر بما يقتضي أنه ما شاء كان وما لم يسأ لم يكن فهو حق . فإن ماشاء وجوده فقد وجب وجوده بقدرته ومشيئته " (٢)

ويعلق الكوثري على كلام لابن القيم فيقول :

" عدم فناء النوع في الأزل بمعنى قدمه ، وأين قدم النوع مع حدوث أفراده ؟ وهذا لا يصدر إلا ممن به مس بخلاف المستقبل وقد سبق بيان ذلك وقال أبو يعلى الحنبلي في المعتمد : " والحوادث لها أول ابتدأت منه خلافا للملحدة " وهو من أئمة الناظم فيكون هو وشيخه من الملاحدة على رأي أبي يعلى هذا فيكونان أسوأ حالا منه في الزيغ نسأل الله السلامة "(٣)

وهذا ظلم وأي ظلم ! ، فأين كلام أئمة السلف من كلام الملاحدة ؟

وكم افترى الكوثري على شيخ الاسلام في هذه المسألة ، متابعاً لمن قبله ، مردداً مقولة كاذبة بلا تثبت ولا تقوى .

---

١) حاشية السيف الصقيل ص ٨٢

٢) منهاج السنة ١ / ١٦٤

٣) حاشية السيف الصقيل ٨٤

فشيخ الاسلام رحمه الله بريء من معتقد الملاحدة الكفرة ، وليس قوله في هذه المسألة من قولهم في شيء .

فهو يقول رحمه الله :

" ولكن الفلاسفة يدعون قدم الأفلاك . وان حركات الفلك لا بداية لها ، ولا نهاية لها . هذا كفر مخالف لدين الرسل . وهو باطل بصريح المعقول ، وكذلك القول : بأن الرب لم يكن يمكنه ان يتكلم ولا يفعل بمشيئته ، ثم صار يمكنه الكلام والفعل بمشيئته كما يقول ذلك الجهمية والقدرية . ومن وافقهم من أهل الكلام "(١)

فانظر إلى شيخ الاسلام يفرق بين قول الملاحدة ـ الذين كفّرهم ـ وبين قول المبتدعة .

ويقول في معرض ذكره للفلاسفة :

" وجمهورهم يقولون بحدوث هذا العالم ، وإنما عرف القول بقدمه من أرسطو (٢) ومتبعيه ، وقد رأيت كلام أرسطو في ذلك في (مقالة اللاّم) (٣) ، وهي آخر العلم الإلهي ومنتهى فلسفته ، وتكلمنا على ما ذكره هو وغيره من الفلاسفة ، وبينا أن ما قاله خالف فيه جمهور الفلاسفة ، وأساطينهم ، وليس معه قط دليل يدل على قدم شيء من العالم . " (٤)

ويقول :

" وأصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزلية ، وان الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته في ستة أيام كما اخبرت به الأنبياء ، بل يقولون : ان الله لا يعلم الجزئيات ، فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الأمور الباهرة جعلوا يتأولون ذلك تأويلات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه ، ويريدون أن يجمعوا بينها وبين أقوال سلفهم الملاحدة ، فقالوا مثل ذلك . وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى ، وهم كثيروا التناقض ، كقولهم إن الصفة هي

---

١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٨ /٣٨٠ .

٢) انظر نسبة مقالته في كتاب ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ليوسف كرم ١٤٥ - ١٤٧ .

٣) هي مقالة من كتابه الإلهيات ، ويسمى بالفلسفة الأولى أيضاً وهي المقالة الحادية عشرة (تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ١١٥) .

٤) الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ٢٦٨ . .

الموصوف ، وهذه هي الأخرى فيقولون : هو عقل وعاقل ومعقول ، ولذيذ وملتذ ولذة ، وعاشق ومعشوق وعشق ، وقد يعبرون عن ذلك بانه حي عالم معلوم ، محب محبوب ، ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة ، وهو نفس القدرة ، ونفس العلم هو نفس العالم ، ونفس المحبة هي نفس المحبوب .

ويقولون إنه علة تامة في الأزل ، فيجب أن يقارنها معلولها في الأزل في الزمن وإن كان متقدماً عليها بالعلة لا بالزمان . ويقولون إن العلة التامة ومعلولها يقترنان في الزمان ويتلازمان . فلا يوجد معلول إلا بعلة تامة ، ولا تكون علة تامة إلا مع معلولها في الزمان ثم يعترفون بأن حوادث العلم حدثت شيئاً بعد شيء من غير أن يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة ، بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا محدث ، وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم " [1]

ويقول :

" لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك في حركات الفلك ، ويقولون إنه قديم أزلي ، وخالفوا في ذلك جمهور الفلاسفة ، مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء . فإنهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض ، بل هو خالق كل شيء ، وكل ماسوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن . وإن القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات الكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ؛ بل من قال عبدت الله ودعوت الله فانما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التي تستحقها ، ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها . " [2]

ويقول في معرض رده على ابن القيم :

" اتفقت فرق المسلمين سوى الكرامية [3]

---

١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٢/ ٤٢ — ٤٣

٢) . مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٢/ ٤٥ — ٤٦

٣) نسبة إلى (ابن كرام) هو محمد بن كرام المتوفى سنة (٢٥٥هـ) ، بدأ صفاتياً ثم غلا في إثبات الصفات ، حتى انتهى إلى التشبيه والتجسيم وينسب إليه الكرّامية . قال الذهبي في الميزان ومن بدع الكرامية قولهم في المعبود تعالى : إنه جسم كالأجسام [ميزان الاعتدال ٤/٢١، لسان الميزان (٣٥٣/٥)]

، وصنوف المجسمة على أن الله – سبحانه – مترّه من أن تقوم به الحوادث ، وأن تحل به الحوادث ، وأن يحل في شيء من الحوادث ".

والمقصود من هذا الكلام نفي الصفات المتعلقة بمشيئته – عز وجل – ، فالله – عنده – لا يتصف بالترول حقيقة ، لأن الترول نقله وحركة وهي حوادث والله " مترّه من أن تقوم به الحوادث ".

والقرآن الكريم ليس كلام الله حقيقة بهذه الحروف المجموعة بل هو عبارة عن كلام الله ، لأن الكلام بحرف وصوت ، حوادث والله مترّه " أن تحل به الحوادث " .

والله ليس في السماء ، لأن السماء حادثة ، والله مترّه " أن يحل في شيء من الحوادث " !

وهذا التقرير مأخوذ من كلامه في نفي هذه الصفات يقول رداً على ابن القيم عند وصف القرآن بأنه كلمات متعاقبات :

" فيكون محلاً للحوادث ـــ تعالى الله عن ذلك ـــ " .[1]

واستمع إليه يقول :

" إثبات الحرف والصوت لله تشبيه له بالانسان ، وتشبيه الله بالمخلوق كفر . والصوت عرض سيال ، محال أن يقوم بالله سبحانه "[2]

" فأحاديث الترول مثلاً إبعادها عن معان توجب التشبيه والنقلة . "[3]

" وجل الاله سبحانه من أن يكون له مكان يحويه فلا يقال إن السماء ظرف له "[4]

ولأجل استناد الأشاعرة والماتريدية على هذه الشبهة في نفي الصفات المتعلقة بالمشيئة وصفهم أئمة السلف بالتجهم والجهمية .[5]

والكوثري يعلم ذلك ، فإنه يقول :

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٧ .

٢) نفسه ٧٤ .

٣) نفسه ١٥١ .

٤) نفسه ٢٧ .

٥) انظر منهاج السنة النبوية لشيخ الاسلام ٣٠٩/١ .

" وأما التجهم الذي يذكره فمراده به نفي حلول الحوادث يه سبحانه ، كما هو مذهب أهل الحق ." [1]

" والاستدلال بهذه الطريق أوجب نفي صفات الله القائمة به ، ونفي أفعاله القائمة به .

وأوجبت من بدع الجهمية ما هو معروف عند سلف الأمة وسلطت بذلك الدهرية على القدح فيما جاءت به الرسل عن الله ." [2]

وهذه الطريق إنما هي طريقة الجهمية الذين يقولون : " إن الرب لا تقوم به الصفات ولا الأفعال ، فإنها أعراض وحوادث ، وهذه لا تقوم إلا بجسم ، والأجسام محدثة .

فيلزم أن لا يقوم بالرب علم ولا قدرة ولا كلام ولا مشيئة ولا رحمة ولا رضا ولا غضب ولا غير ذلك من الصفات بل جميع ما يوصف به من ذلك فإنما هو مخلوق ، منفصل عنه " . [3]

فهم : " يصفونه بأنه خالق ورازق ، ومحي ومميت وعادل محسن ، من غير أن يقوم به شيء من هذه المعاني ، بل يقوم بغيره ·

فإن الخلق عندهم هو المخلوق ، والإحياء هو وجود الحياة في الحي من غير فعل يقوم بالرب " . [4]

والكوثري كأسلافه النفاة ، اضطرب في هذه المسألة ، فلم ينف الصفات كلها بدعوى ـــ حلول الحوادث ـــ و لم يثبتها كلها مع نفي قيام الحوادث به عز وجل .

فإن الماتريدية يثبتون صفة العلم لله ، والقدرة ولا يجعلون ذلك من حلول الحوادث .

وهذا ما جعله قائلاً بأن هذه الصفات من لوازم الذات ،منعاً للتسلسل يقول منكراً على ابن القيم :

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٧١ – ١٧٢ .

٢) منهاج السنة النبوية ١/ ٣٠٤ .

٣) نفسه ١/ ٣١١ .

٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/ ٣١٧ .

"علم من هذا الكلام بأن الحوادث لا أول لها في نظر هذا الناظم لأن حيـــاة الله لا أول ، فيكون فعله لا أول له ، وهذه المسألة من المسائل التي كفـــر علمـــاء الاســـلام الفلاسفة بها " . (1)

هو يرد على ابن القيم إذ قال :

وكـــذا الإمـــام الـــدارمي فإنـــه | قـــد قـــال مـــا فيـــه هـــدى الحـــيران
قال الحياة مع الفعال كلاهمـــــا | متـــــلازمـــــان فليس يفـــــترقان

فالكوثري يزعم أنه يرد على السلف الذين يرون جواز التسلسل في أفعال الله بدليل لزوم كون الحي فاعلاً ، بالتشنيع عليهم أن القول بهذا كفّر به علماء الاسلام ، لأنه قول الفلاسفة !

فأين قول من قال : إن دوام الفعل من لوازم دوام الحياة ، من قول الفلاسفة بقـــدم المفعولات والمخلوقات ؟!

سبحانك هذا بهتان عظيم .

فإن الفعل لازم الحياة ، فكل حي فعال ، ومالیس بفعال فليس بحي ، فالحياة والفعل متلازمان في الوجود إلا إن وجد مانع يمنع قيام الفعل بالحي لآفة أو قاهر أو نحوه ، وهذا لا يتصـــور في حـــق البـــاري ــ عـــزو وجـــل ــ فلـــزم وصـــفه بـــدوام الفعـــل .

---

1) حاشية السيف الصقيل ٨١ .

المبحث الثالث :

القدر

المطلب الأول :

رأي الكوثري في القدر

المبحث الأول

المطلب الأول : رأي الكوثري في القدر

تمهيد

كانت مسائل القدر من أول القضايا التي تنازعت فيها الأمة ، وهي من أدق القضايا التي كثر فيها الضلال .

يقول شيخ الاسلام :

" وبدعة القدرية حدثت قبل ذلك بعد موت معاوية ؛ ولهذا تكلم فيهم ابن عمر وابن عباس وغيرهما ؛ وابن عباس مات قبل ابن الزبير ؛ وابن عمر مات عقب موته ، وعقب ذلك تولى الحجاج العراق سنة بضع وسبعين ؛ فبقي الناس يخوضون في القدر بالحجاز والشام والعراق ، وأكثره كان بالشام والعراق والبصرة ، وأقله كان بالحجاز " [1]

وكثير ممن خاض في القدر خاض فيه بلا علم ، والله عز وجل قد قـال : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا) [2]

وقد حذر النبي ﷺ من الخوض في القدر حيث خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر . فكأنما فقأ في وجهه حب الرمان من الغضب . فقـال " بهـذا أمرتم أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض . بهذا هلكت الأمم قبلكم " [3]

---

١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، ص ٢٢٨

٢) الإسراء ٣٦ .

٣) رواه ابن ماجه في كتاب القدر ١/ ٣٣ ، وصححه الألباني [ضلال السنة ١ / ١٧٧ ح ٤٠٦] ، وأخرجه بنحوه أحمد في المسند ٢ / ١٧٨ ، و ١٨١ ، عبدالرزاق في المصنف ١١ / ٢١٦ ح ٢٠٣٦٧ ، وأبن أبي عاصم في السنة ١ / ١٧٧ .

وقد جاء عن ابن مسعود : " ماكان كفر بعد نبوة قط إلا كان مفتاحه التكذيب بالقدر "[1]

وقد جاءت النصوص الكثيرة في وجوب الإيمان بالقدر .

قال ابن بطة[2] : "القدرية أنكروا قضاء الله وقدره ، وجحدوا علمه ومشيئته ، وليس لهم فيما ابتدعوه ولا في عظيم ما اقترفوه ، كتاب يؤمنونه "[3]

وقال الحسن : " لأن أسقط من السماء إلى الأرض أحب إليّ من أن أقول إن الامر في يدي أصنع به ما شئت "[4]

وعنه قال في قوله تعالى (ولذلك خلقهم) : "خلق هولاء لهذه وخلق هولاء لهذه "[5]

والإيمان بالقدر أصل من أصول الدين ، وأحد أركان الإيمان وقد ثبت في الصحيحين من حديث جبريل المشهور أنه سأله عن الإيمان فقال ﷺ : " أن تؤمن بالله وملائكته ورسله وكتبه ، وتؤمن بالقدر خيره وشره "[6]

والقدر مأخوذ من قدرة الله ، قال ابن القيم :

" قال الإمام أحمد : القدر ، قدرة الله ، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً ، وقال : هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين . وهو كما قال أبو الوفاء ، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها ،

---

١) الإبانة لابن بطة ٢/ ١٤٩

٢) (ابن بَطّة) أبو عبد الله ، عُبيد الله بن محمد العُكبَريّ الحنبلي ، ابن بطّة ، الإمام القدوة ، العابد الفقيه المحدث ، شيخ العراق ، ولد سنة (٣٠٤هـ) ، روى عن: أبي القاسم البغوي ، وابن صاعد ، وجماعة ، حدث عنه : أبو الفتح بن أبي القوارس ، وأبو نعيم الأصفهاني ،وآخرون . قال الذهبي : مع فضله له أوهام وغلط : يعني في بعض الأسانيد ، له مصنف (الإبانة الكبرى) مات سنة (٣٨٧هـ) ، [تاريخ بغداد ٣٧١/١٠، العبر ٣٥/٣، ميزان الاعتدال ١٥/٣ ، البداية والنهاية ٣٢١/١١، السير ٥٢٩/١٦] .

٣) الأبانة لابن بطة ٢/ ١٧٩

٤) الأبانة لابن بطة ٢/ ١٨٠

٥) الأبانة لابن بطة ٢/ ١٨٠

٦) رواه البخاري في الإيمان ، باب سؤال جبريل رقم ٤٧ ، ومسلم في الإيمان ، ك/ بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ٩ .

وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها ، وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهـــم ، وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله " [1]

" القدر مصدر ، تقول : قدرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أَقْـــدِره بالكســـر والفتح قَدْراً وقَدَراً ، إذا أحطت بمقداره " [2]

" المراد أن الله ـــ تعالى ـــ علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد ، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته " [3]

والسلف على إثبات القدر بمراتبه [4] .

يقول الطحاوي :

" ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رقم " " اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى أنه كائن ، ليجعلوه كائناً ، لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كـــائن إلى يوم القيامة " [5]

ويقول الآجري : " الإيمان بالقدر خيره وشره ، واجب قضاء وقدر ، وماقدر يكن ، وما لم يقدر لم يكن " [6]

يقول ابن قتيبة :

" ونحن نجمع تصديقاً بالقدر ، وأخذاً بالحزم " [7]

ويقول النووي عن أحاديث القدر :

" وفي هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر ، وأن جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره ، خيرها وشرها " [8]

ويقول ابن حجر العسقلاني :

---

١) شفاء العليل ج/٢ ، ص / ٨٨

٢) فتح الباري لابن حجر ١/ ١١٨ .

٣) نفسه ، ١/ ١١٨

٤) كما سيأتي .

٥) شرح العقيدة للطحاوية ٢/ ٣٤٤ ، ٣٤٦ .

٦) الشريعة للآجري ٦٩٩/٢ .

٧) تأويل مختلف الحديث ٢٤ .

٨) شرح مسلم للنووي ١٦ / ١٩٥ .

" مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى " [1]

وقد كان الصحابة وأتباعهم بإحسان ، مجمعين على الإيمان بالقدر ، ولم يرد عن أحد منهم النزاع أو التكذيب بالقدر .

افتراق الناس في القدر :

وقد خالف أهل البدع مذهب السلف في القدر فانقسموا إلى فرقتين :

الأولى : وهي طائفة القدرية ، النفاة ، وهم أشهر الفرق حيث زعموا انفراد العبد بقدرته ، وأن الأمر أنف .

" وسموا بذلك لأنهم أثبتو للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها ، دون الله تعالى ، ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله ، وقضائه " [2]

وهم لا ينكرون علم الله السابق ، وكتابته لذلك وفق علمه وإنما ينفون مشيئة الله في فعل العبد .

وإن كان هناك من غلاتهم من أنكر العلم السابق مثل أوائل القدرية النفاة .

الثانية : القدرية الجبرية ، وهم الذين قابلوا بدعة أولئك ببدعة أخرى ، وهي الزعم بأن العبد مجبر على فعله ، ليس له إرادة ولا اختيار .

وهؤلاء وأولئك على طرفي نقيض ، بعيدون عن الحق ، الذي هدى الله إليه أئمة السلف ، من أن الله على كل شيء قدير لا يخرج شيء عن إرادته وقدرته ، وأن العبد مع ذلك فاعل حقيقة ، له مشيئة وإرادة — تحت إرادة الله — بها يختار ، ويكلف ، وعليها يسئل ويحاسب .

وأهل السنة والجماعة ، يرون أن الإيمان بالقدر يتضمن أموراً أربعة ويسمونها مراتب القدر :

المرتبة الأولى

---

١) فتح الباري ١١/ ٤٧٨ .

٢) جامع الأصول لابن الأثير ١٠ / ١٢٨ .

الإيمان بعلم الله لجميع الكائنات قبل كونها والدليل على ذلك عموم الأدلة التي تثبت العلم لله ، فعلمه — عز وجل — بالمقدورات هو بعض علمه الواسع كقوله تعالى (وَ كَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً)[1] وغيرها كثير .

وهناك أدلة خاصة تدل على علم الله للمقدورات قبل كونها مثل قوله تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ)[2]

فالله يعلم ماكان ، وما سيكون ، ومالم يكن لو كان كيف سيكون ، فيعلم الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، ومالم يكن ، لو فرض كونه ، على أية حالة يكون .

فأما علمه الماضي ، فمثل إخباره بعلوم الأحوال السابقة ، والسنين الماضية ، من أخبار الخلق والأرض ، وأنبياء الأمم السابقين ، مما لا شك في وقوعه .

وأما علمه بالحاضر فكثير كقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)[3]

يقول ابن كثير : " أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم " . إلى أن قال : "ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولاشك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم "[4]

وأما علمه بالمستقبل فأكثر من أن يحصى ، فقد أخبر الله عن أمور ، فوقعت على عين ما أخبر به ، وهي كثيرة — يشق حصرها — مثل إخباره عثة النبي ﷺ ، ونصره له ، وإظهار دينه ، وما أخبر به من أشراط الساعة التي ظهر معظم أصغرها .

---

١) الفتح ٤

٢) لقمان ٣٤

٣) المجادلة ٧ .

٤) ابن كثير ٤/ ٣٢٢ .

وأما إخباره ـــ بالمعدوم ـــ فكثير ، كقوله تعالى (وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ) (1)

وقد سئل ﷺ عن أولاد المشركين فقال :" الله أعلم بما كانوا عاملين "(2)

وهذه المرتبة ـ مما يتضمنه الإيمان بالقدر ـ لا يوجد من يكذب بها مـــن أهـــل الأهواء هي ومرتبة الكتابة الآتية ، إلا ما نقل عن القدرية الخلص من نفاة القدر ، والذين كانوا قديماً في أواخر عصر الصحابة فإن عموم نفاة القدر ، والذي استقر عليـــه رأيهـــم الإقرار بمرتبة العلم ومرتبة الكتابة .

الثانية

الإيمان بأن الله بعد علمه بالمقدورات ، كتب ذلك في اللوح المحفوظ كما قـــال سبحانه (وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ) (3)

وقوله (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ) (4)

وجاء عنه ﷺ أنه قال : " كان الله و لم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء " (5)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رســـول الله ﷺ يقـــول : " كتب الله مقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وكان عرشه على الماء " (6)

---

1) الأنعام 28 ، وكذا مثله في قصة موسى من حال الغلام الذي قتله الخضر حيث قال : (وأما الغلام فكـــان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا) ، ومثله الآيات 109 الأنعام ، 13 يونس ، 53 الأنعام ، 32 الدخان .

2) فتح الباري ج/ 11 ، ص/ 493 باب الله أعلم بما كانوا عاملين .

3) يس 12

4) الحديد 22

5) صحيح البخاري 8/ 175 ك / التوحيد .

6) مسلم 16 / 203 ك القدر ، باب حجاج آدم وموسى

ويقول ابن حجر :

" وفيه [1] إشارة إلى أن كتابة ذلك انقضت من أمد بعيد " [2]

والكتابة والعلم مما يقر به القدرية النفاة ، إلا غلاتهم ، يقول شيخ الأسلام :

" وغلاة القدرية ، ينكرون علمه المتقدم ، وكتابته السابقة ، ويزعمون أنه الأمر والنهي ، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه ، بل الأمر أنف ، أي مستأنف " [3]

الثالثة

الأيمان بأن كل ما وقع ، وما سيقع ، إنما وقع بمشيئة الله — عز وجل — ليس من شيء خارج عن مشيئته .

ومرتبة المشيئة هي أحدى مراتب القدر ، وركن من أركانه والمراد بها الإرادة القدرية ، والإرادة الدينية إذا تعلقت بها الإرادة الكونية .

وهي أن كل ما وقع وما سيقع في الوجود — صغيراً كان أو كبيراً — إنما وقع بمشيئة الله .

يقول شيخ الأسلام :

" أنه سبحانه ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون شيء في الوجود إلا بمشيئته وقدرته " [4]

وليس معنى إثبات المشيئة ، إجبار الخلق على الفعل ، قيل لأحمد بن حنبل : "الجهم [5] يقول : إن الله أجبر العباد . فقال لانقول ، وأنكر هذا ، وقال : (يضل من يشاء ويهدي من يشاء)" [6]

---

١) يشير إلى حديث " جف القلم بما هو كائن ".

٢) فتح الباري ١١ / ٤٩١ .

٣) مجموع الفتاوى ٨ / ٤٥٠

٤) الفتاوى ٨/ ٤٤٩ .

٥) جهم بن صفوان ، أبو محرز الراسبي ، مولاهم ، السمرقندي . كاتب المتكلم ، أسّ الضلالة ، ورأس الجهمية . كان صاحب ذكاء وجدال ، وكان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه ، ويقول بخلق القرآن ، ويقول : أن الله في الأمكنة كلها . قيل : إن سلم بن أحوز قتل الجهم بن صفوان ،لإنكاره أن الله كلم موسى ، [ميزان الاعتدال ١/٤٢٦، السير ٦/٢٦] .

٦) الإبانة لابن بطة ٢/ ٣٢٠

وسأل رجل يحيَ بن سعيد عن السحر أهو من خزائن الله ؟ فسبح الله متعجبـــاً ، فقال عبد الله بن أبي حبيبة : " إن أبا محمد ليس بصاحب خصومة ، ولكن عليّ فأقبل ، فأنا أقول : إن السحر لا يضر إلا بإذن الله أفتقول أنت غير ذلك ؟ فسكت ، فكأنما سقط من جبل " [1]

وكما سبق بيانه أن هذه المشيئة في هذه المرتبة إنما هي المشيئة أو الإرادة الكونية ، ولهذا يسميها بعض العلماء الإرادة القدرية وهي التي تستلزم الوقوع ، ولا تستلزم محبة ولا رضى .

يقول شيخ الإسلام لما سئل :" هل أراد الله المعصية أم لا ؟

فقال : لفظ الإرادة مجمل لها معنيان ، فيقصد به المشيئة لما خلقه ، ويقصد به المحبة والرضا لما أمر به .

فإن كان مقصود السائل ، أنه أحب المعاصي ورضيها وأمر بها فلم يردهـــا بهـــذا المعنى ، فإن الله لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يأمر بالفحشاء ، بل قال لما نهى عنه (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها)

وإن أراد أنها من جملة ماشاءه خلقه ، فالله خالق كل شيء ، وماشاء كان ومـــا لم يشأ لم يكن ، ولا يكون في الوجود إلاما شاء .

وقد ذكر الله في موضع أنه يريدها ، وفي موضع أنه لا يريدها والمراد بالأول أنـــه شاءها خلقاً ، وبالثاني أنه لا يحبها ولا يرضاها أمراً " [2]

فإثبات هذه المرتبة ، لا يلزم منه ـــ عند أهـــل الســـنة والجماعـــة ـــ أن جميـــع المقدورات محبوبة عند الله ، وراض بها .

بل إنما يستلزم أنه أراد وقوعها ، لتعلقها بحكمته ، وعموم علمه لا بمحبته ورضاه. وهذه المرتبة ، هي التي ينكرها القدرية النفاة ، وأشهر من عرف عنه إنكار أن الله شاء الأفعال من الخلق هم المعتزلة ، والناس تبع لهم في انكار القدر ، فإن عموم متـــأخري

---

١) نفسه ٢/ ٣٢٠ .

٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٨/ ١٥٩ .

فرق الشيعة نفاة للقدر ، وإنما أخذوه من المعتزلة ، فإن متقدميهم كانوا مثبتــة لــه ، أو يقولون بقول الجبرية ، كما ذكر ذلك الأشعري [1]

وكذلك الخوارج .

وأما المرجئة فإنهم مقلدون للمعتزلة [2]

" وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، وجميع الكتــب المنزلة من عند الله ، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه ، وأدلة العقول والعيان ، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة الله وحده ،فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن " [3]

وأدلة هذه المرتبة كثيرة من كتاب الله ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم أذكــر جملة منها هنا كقوله ــ تعــالى ــ (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ) [4] وقوله : (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ، إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ..) [5] وقولــــه : (قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ) [6]

وغيرها كثير في كتاب الله تقيد إطلاق مشيئة الرب ـ عز وجل ــ لكل شيء فما كــان إنما وقع لأنه أراده ، وما لم يكن لم يشأ وقوعه فإذا شاء وقع .

فما شاءه كان بقدرته الشاملة وما لم يشأ لم يكن لعدم مشيئته لا لعدم قدرته فهو على كل شيء قدير .

كمــــا قــــال (وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ) [7] وقولـــــــه : (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

---

١) انظر مقالات الإسلاميين ص ٤٠ – ٤١ .

٢) المصدر نفسه .

٣) شفاء العليل ١/ ١٢٥ .

٤) يونس ٩٩

٥) الكهف ٧٣ – ٧٥ .

٦) يونس ١٦ .

٧) يس ٦٦

ٱلۡجَـٰهِلِينَ) [1] وقوله : (وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلاً) [2]

فهو عز وجل قادر على أن يذهب بالوحي الذي أنزله على صدر النبي ﷺ لكنه لا يشاء فعل هذا لحكمته وعلمه ، وفضله ، ولهذا لم يقع .

أما السنة فكقوله ﷺ في حديث الجنين : "فيقضي ربك مايشاء ، ويكتب الملك " [3]

وقال ﷺ : " ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه " [4]

وقال ﷺ : " لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، وارحمني إن شئت ، وارزقني إن شئت ، ليعزم مسألته ، إنه يفعل مايشاء لا مكره له " [5]

وفي حديث النبي سليمان بن داود — عليهما السلام — حيث أخبر عنه أنه قال : " لأطوفن على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله ، فقيل له قل : ان شاء الله ، فنسي فلم يقل ، فطاف عليهن جميعاً ، فلم تحمل منهن إلا امرأة جاءت بشق انسان " [6]

الرابعة

أن الله هو خالق أفعال العباد كلها ، من الخير والشر .

والمراد من هذه المرتبة إثبات أن الله خالق لأفعال العباد حقيقة وإن كانوا هم فاعلين لها أيضاً حقيقة .

---

١) الأنعام ٣٥

٢) الإسراء ٨٦

٣) رواه مسلم في ك / القدر ، باب/ كيفية الخلق في بطن أمه ١٦ / ١٩٤.

٤) أحمد ٤/ ١٤٢ وابن ماجة ١٩٩ ، والحاكم ٤ / ٣٢١ وقال : صحيح على شرط مسلم . وأقره الذهبي وروى نحوه مسلم ٤ / ٢٠٤٥ ، وأحمد ٢ / ١٦٨

٥) رواه البخاري ٧/ ١٥٣ ، ك / الدعوات ، باب / ليعزم المسألة ، ومسلم ١٧ / ٧ ك / الذكر والدعاء ، باب / العزم في الدعاء

٦) انظر الحديث في البخاري ٨/ ١٩١ ك / التوحيد ، ب/ المشيئة والإرادة ، وفي مسلم ١١ / ١١٨ ك / الأيمان ب/ الأستثناء وغيرهما .

والأدلة على هذه المرتبة كثيرة أذكر منها :

قوله تعالى : (ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ)[1]

والأفعال شيء وهي غير الله ـــ عز وجل ـــ فدخلت في خلقه سبحانه

" أي الله خالق كل شيء مخلوق ، فدخلت أفعال العباد في عموم (كل) "[2]

يقول ابن القيم رحمه الله :" وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته . "[3]

وقال تعالى (أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ)[4] :

يقول ابن حجر عن هذه الآية : "فنفى أن يكون خالق غيره ، ونفى أن يكون شيء سواه غير مخلوق ، فلو كانت الأفعال غير مخلوقة له لكان خالق بعض الأشياء ، لا خالق كل شيء ، وهو بخلاف الآية . "[5]

وكذلك قوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ)[6] وهذه الاية نص في خلق الله لأفعال الخلق ، فإنه عز وجل نص على خلقه لكل شيء بمقدار ، ودخلت أعمال العباد في هذا العموم .

يقول ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ :" وقوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ) كقوله (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وكقوله تعالى (سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه ولهذا

---

١) الزمر ٦٢

٢) شرح الطحاوية ٢/ ٦٤٣ .

٣) شفاء العليل ١ / ١٥٤ .

٤) الرعد ١٦

٥) فتح الباري ١٣ / ٥٢٩

٦) القمر ٤٩

يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علمه الأشـــياء قبل كونها و كتابته لها قبل برئها . " (١)

ومن أعظم الأدلة التي يستدل بها السلف على هذه المرتبة قوله تعالى : (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (٢)

وهذه الآية دليل على خلق الله للخلق ولأعمالهم سواء كانت مـــا مصـــدرية أو موصولة

" فإن كانت "ما" مصدرية كما قدره بعضهم فالاستدلال ظاهر "(٣)

وإن كانت موصولة بمعنى : والله خلقكم وخلق الذي تعبدونه " ففيها أيضاً دلالة على خلق الله لأعمالهم فإن معبوداتهم كان سبب وجودها خلقهم لها ، والله خـــالقهم ، وخالق السبب خالقٌ للمسبب من باب أولى (٤)

وقد جعل البخاري — رحمه الله — هذه الآية باباً في كتابه (٥)

فقال ابن حجر :

" ذكر ابن بطال عن المهلب أن غرض البخاري بهذه الترجمة إثبـــات أن أفعـــال العباد وأقوالهم مخلوقة لله تعالى ." (٦)

وقال أيضاً عن الآية : ففي الآية دلالة على أنه تعالى خلق أفعالهم القائمـــة بهـــم وخلق ما تولد عنها . (٧)

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) (٨)

---

١) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٧

٢) الصافات ٩٦

٣) شفاء العليل ١/ ١٥٧

٤) انظر منهاج السنة ٣ / ٦١ .

٥) فتح الباري ١٣ / ٥٢٧ ، ك / التوحيد ، ب / قول الله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

٦) فتح الباري ١٣/ ٥٢٨

٧) فتح الباري ١٣ / ٥٣١

٨) الفلق ١ — ٢

وهذا نص في خلق الله للأفعال كلها ، ما كان منها خيراً ، وما كان منها شراً .

وأما السنة فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله يصنع كل صانع وصنعته ".[1]

أخرج عبد الله بن أحمد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطأة : أما بعد ، فإن استعمالك سعد بن مسعود ، على عمان من الخطايا التي قدر الله — عز وجل — عليك وقدر أن تبتلى بها. "[2]

وقال أبو بكر المروذي :" سئل أبو عبد الله عن الزنا بقدر ؟ فقال الخير والشر بقدر ثم قال : الزنا والسرقة بقدر "[3]

وعن طاوس قال إن رجلاً قال لابن عباس : إن ناساً يقولون : إن الشر ليس بقدر فقال ابن عباس : فبيننا وبين أهل القدر هذه الآية (سيقول الذين أشركو ...)"[4]

وقال ابن عباس :" الزنا بقدر ، وشرب الخمر بقدر ، والسرقة بقدر . "[5]

سأل رجل سفيان[6] الثوري فقال :" ماتقول في رجل قال الخير بقدر ، والشر ليس بقدر ؟ فقال : هذه مقالة المجوس "[7]

---

١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ٣٦٢ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ٧٣ ، وأبن أبي عاصم في السنة ١ / ١٥٨ ح ٣٥٧ ، والحاكم ١ / ٣١-٣٢ وقال : صحيح على شرط مسلم . وأقره الذهبي .

٢) السنة لعبدالله بن أحمد ٢ / ٤٥٢ رقم ٩٣٥

٣) السنة للخلال ٣ / ٥٤٠ .

٤) الأبانة لابن بطة ٢ / ١٥٨ .

٥) الأدلة ٢ / ١٦٣

٦) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أبو عبدالله الكوفي (١٦١هـ). روى عن: معاوية بن إسحاق، وعبدالله بن عمر العمري، وأبي إسحاق السبيعي، والأعمش، ومنصور، وحميد، وأيوب، وغيرهم. وعنه : قبيصة، وعبدالله بن الوليد العدني، ومحمد بن كثير، وشعبة، والأوزاعي، ومالك، وخلق لا يحصون. قال شعبة، وابن عيينة، وأبو عاصم، وابن معين، وغير واحد من العلماء : سفيان أمير المؤمنين في الحديث، وقال النسائي :هو أجل من أن يقال فيه ثقة ، قال في التقريب (٢٤٤): ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة ، وكان ربما دلّس .
[الجرح (٢٢٢/٤)- تهذيب الكمال (١٥٤/١١)- التهذيب (٩٩/٤)].

٧) الأبانة لابن بطة ٢/ ٢٥٧ .

يقول ابن حجر : " أنه سبحانه مريد لجميع الكائنات ، بمعنى أنه خالقها ومقدرها لا أنه يحبها ويرضاها ، وفيه أن جميع الخير والشر بتقدير الله تعالى وإيجاده [1] .

وخالف في ذلك القدرية والجبرية ، فذهبت القدرية إلى أن فعل العبد من قبل نفسه ، ومنهم من فرق بين الخير والشر ، فنسب إلى الله الخير ونفى عنه خلق الشر ، وقيل إنه لا يعرف قائله ، وإن كان قد اشتهر ذلك ،وإنما هذا رأي المجوس ، وذهبت الجبرية إلى أن الكل فعل الله ، وليس للمخلوق فيه تأثير أصلاً " [2]

تقرير رأي الكوثري في القدر

إذا أردنا أن نطلع على رأي الكوثري في القدر ، يلزمنا أولاً ، الإطلاع على معتقد الماتريدية في هذا الباب .

و الماتريدية وافقوا السلف في القدر مجملاً ، ولهذا كثرت خصومتهم للأشاعرة ، وباينوهم في هذا .

يقول النسفي " والله تعالى خالق لأفعال العباد كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان " ويقول " وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ، ويعاقبون عليها " [3] .

ويقول السعد " زعمت الجبرية من أنه لا فعل للعبد أصلاً ، وأن حركاته بمنزلة حركات الجمادات لا قدرة للعبد عليها ولا قصد ولا اختيار . وهذا باطل " [4] .

ويقول " زعمت المعتزلة أن العبد خالق لأفعاله " [5] .

وعقد الإيجي فصلاً فقال " أنه تعالى مريد لجميع الكائنات غير مريد لما لا يكون . وهذا مذهب أهل الحق " [6] .

---

١) انظر لهذه المراتب الأربع كتاب (شفاء العليل) لابن القيم ١ / ٩١ – ١٤٥ .

٢) فتح الباري ١١ / ٤٩٠ .

٣) شرح العقائد النسفية٥٤،٥٧ .

٤) شرح العقائد النسفية ٥٧ .

٥) شرح العقائد النسفية ٥٤ .

٦) المواقف للإيجي ٣٢٠ .

ولهذا فعند الماتريدية " الاستطاعة التي يجب بها الفصل من نحو التوفيق الذي لا يوصف المخلوق به تكون مع الفعل ، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكين وسلامة الآلات فهي قبل الفعل ، وبها يتعلق الخطاب " [١] .

وهذا كما ترى بيّن في إثبات خلق الله لكل شئ ، وفي إثبات قدرة العبد ، وهذا موافق لأهل السنة .

والشيخ الكوثري لم يخرج عن هذا ، ففي كل المسائل التي تكلم فيها الماتريدية المتعلقة بالقدر ، نجده يقرر مذهبهم ، ويرد على مخالفهم .

يقول عن نفسه " إني مازلت محتفظاً بمذهبي الفقهي والاعتقادي من غير مساس مني بكبار رجال المذهب من الناحيتين لما في آثاري المنتشرة من البيان " [٢] .

ولهذا نرى الشيخ الكوثري يقول عن قصة احتجاج آدم مع موسى " لأنه لا لام آدم على أمر لم يفعله ، وهو خروج الناس من الجنة وإنما هذا فعل الله تعالى ، ولو أن موسى لام آدم على أكله الشجرة الموجب لذلك لكان واضعاً الملامة موضعها ، ولكان آدم محجوجاً ، وليس أحد ملوماً إلا على ما يفعله لا على ما تولد من فعله مما فعله غيره " [٣] .

فهو هنا يقرر بوضوح إثبات القدر من العلم والقدرة ، فتراه يقر بوجوب تحميل العبد مسئولية عمله حيث يقول " ولو أن موسى لام آدم على أكله الشجرة الموجب لذلك لكان واضعاً الملامة موضعها " هذا في جانب قدرة العبد ، أما في جانب علم الله فيقول " إن القضاء والقدر في أفعال العباد على طِبق علم الله " [٤] .

على أن الكوثري أساء في لفظه عندما قال (ولو أن موسى لام آدم على ...الخ)وكان الأولى التأدب مع نبي الله ﷺ .

والكوثري يستشهد بقول القائل :

تنكب عن طريق الجبر واحذر وقوعك في مهاوي الاعتزال

---

١) الطحاوية مع شرحها ٦٣٣/٢ .

٢) الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار ٢٩ .

٣)حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٢١ .

٤)حاشية العقيدة النظامية للجويني ٤٧ .

وسر وسطاً طريقاً مستقيماً كما سار الإمام أبو المعالي [١]

وهذا الاستشهاد منه موافقة لما قرره أبو المعالي من إثبات القدر مخالفاً للأشاعرة .

يقول ابن القيم :

" الذي قاله الإمام في (النظامية) أقرب إلى الحق مما قاله الأشعري ، وابن الباقلاني " [٢]

يقول الكوثري " استقر رأي أهل الحق على أن القضاء والقدر في أفعال العباد على طبق علم الله التابع للمعلوم ، والعلم المتعلق باختيار العبد يحقق اختياره ولا ينافيه ، فـــلا قدر يجبره على أفعاله الاختيارية " [٣] .

وهذا التقرير – كما ترى وإن خالف فيه الجبرية – فليس موافقاً لمعتقد السلف كما سيأتي في الكلام على قدرة العبد بما يسميه الإرادة الجزئية [٤] .

---

١) أنظر حاشية العقيدة النظامية للجويني ٤٣ .

٢) شفاء العليل ١ / ٣١٥ .

٣) حاشية العقيدة النظامية ٤٧ .

٤) انظر ص ١٥٤.

المطلب الثاني :

رأي الكوثري في الحكمة وتعليل الأفعال ونقده

المطلب الثاني

رأي الكوثري في الحكمة وتعليل الأفعال

" أجمع المسلمون على أن الله تعالى موصوف بالحكمة ، لكن تنازعوا في تفسير ذلك .

فقالت طائفة : الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده و لم يثبتوا إلا العلم .

وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم : بل هو الحكيم في خلقه وأمره ، والحكمة ليست مطلق المشيئة [(١)] .

والكوثري في هذا لا يخرج عن قول الأحناف الماتريدية من حيث نفي تعليل أفعال الله .

يقول العضد في المواقف " أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض إليه ذهب الأشاعرة ، وخالفهم فيه المعتزلة " [(٢)] .

يقول البياضي الحنفي [(٣)] " كون أفعاله تعالى وأحكامه معللة بالأغراض ، وهو فاسد " [(٤)] .

لذا يقول الكوثري " أفعال الله لا تعلل بالأغراض عند أهل الحق " [(٥)] .

والكوثري كسائر النفاة يثبت الحكمة مع نفي تعليل فعل الله ، فابن القيم رحمهُ الله عندما نسب نفي الحكمة الى الاشاعرة عقب عليه الكوثري قائلاً : " ولا قائل بذلك

---

١) أنظر منهاج السنة النبوية ١٤١/١ بتصرف .

٢) المواقف للإيجي ٣٣١ .

٣) هو أحمد بن حسن البياضي ، كمال الدين ، ولد في استانبول ، وولي قضاء حلب ، وبروسة ، ومكة ، واستانبول ، وهو أحد أئمة الأحناف ، توفي سنة ١٠٩٨ هـ [الأعلام للزركلي ١ / ١١٢ ، ومقدمة إشارات المرام ٨].

٤) إشارات المرام ٢٢٨ .

٥) إحقاق الحق ببيان الباطل في مغيث الخلق للكوثري ٦٥ .

مطلقاً بين فرق المسلمين الذين علموا من الدين بالضرورة أن الله عزيز حكيم ، أما كون أفعال الله سبحانه غير معللة بالأغراض ، فليس من نفي الحكمة في شئ " [1] .

وهو في هذا لم يخرج عن نفاة الحكمة لا في قولهم ، ولا في استدلالهم ، فهو يقول :

" القول بأن هناك غرضاً يحمل الله سبحانه على الفعل استحصالاً لذلك الغرض الذي لا يحصل إلا بذلك الفعل ، ولا يخفى أن هذا مما يجب الاحتراز منه " [2]

ويعلل : " لعدم ورود إطلاق ذلك في الكتاب والسنة ولما في ذلك من الاستكمال بالغير " [3] .

وهي حجة قديمة يقول الرازي : لا يجوز أن يفعل الله شيئاً لغرض خلافاً للمعتزلة ولأكثر الفقهاء ، لنا أن كل من كان كذلك كان مستكملاً بفعل ذلك الشيء المستكمل بغيره ناقص لذاته " [4] .

واستدل بها الشهرستاني أيضاً .

إذ لو كان الله " محتاجاً من وجه ، كان من ذلك الوجه مفتقراً إلى من يزيل حاجته " [5] .

وهذا الكلام خلافاً لما تقرر عن أهل السنة أتباع السلف الذين يعتقدون " أن الله تعالى يخلق لحكمة ويأمر لحكمة " [6] .

فأثبتوا حكمة " تعود إلى الرب ، لكن بحسب علمه فقالوا : خلقهم ليعبدوه ويحمدوه ويثنوا عليه ويمجدوه ، وهم من خلقه لذلك ، وهم من وجد منه ذلك فهو مخلوق لذلك ، وهم المؤمنون " [7] .

---

١) حاشية السيف الصقيل ٢٩ .

٢) نفسه ٢٨ .

٣) نفسه ٢٨ .

٤) محصل أفكار المتقدمين للرازي ٢٠٥ .

٥) نهاية الأقدام للشهرستاني ٣٩٩ .

٦) مجموع الفتاوى ٨ / ٣٧٧ .

٧) مجموع الفتاوى ٨/ ٣٩ .

وهؤلاء الذين ينفون تعليل أفعال الله يأبون أن يوصفوا بأنهم نفاة لحكمة الله ، وقد مر بنا قول الكوثري بأنه لا يوجد من يقول بنفي حكمة الله مع أن عين ما ينفونه — الذي يسمونه علة وغرضاً — هو الذي استحق به — عز وجل — اسم الحكيم وإن كانوا لا يصرحون بنفي حكمة الله ، ويتحاشون ذلك لما في ذلك من البشاعة ومخالفتهم النصوص .

فهم يقولون بأن الله حكيم ، لكنهم يرون أنما هي المشيئة فراراً بزعمهم من التعليل .

يقول شيخ الإسلام :

" وكذلك الحكمة ، أجمع المسلمون على أن الله تعالى موصوف بالحكمة ، لكن تنازعوا في تفسير ذلك

فقالت طائفة : الحكمة ترجع إلى علمه بأفعال العباد وإيقاعها على الوجه الذي أراده ، ولم يثبتوا إلا العلم والإرادة والقدرة " [(١)]

فالكوثري عندما قال _ منكراً على ابن القيم نسبته نفي الحكمة إلى الأشاعرة _ : " ولا قائل بذلك مطلقاً بين فرق المسلمين الذين علموا من الدين بالضرورة أن الله عزيز حكيم " [(٢)]

أقول عندما قال الكوثري هذا ليس دليلاً على إثباته لحقيقة الحكمة ، وإنما أراد مطلق المشيئة ، والعلم السابق ولذا نرى الكوثري يقول : " جرت عادة الله بمحض فضله على خلق مراد العبد بعد تعلق إرادة العبد به " [(٣)]

وأيضاً ينقل عن التفتزاني قوله :

" لكنه أجرى عادته بأنه لا يخلق إلا إذا صرف العبد قدرته التابعة لإرادته إليه ..."[(٤)]

---

١) منهاج السنة النبوية ١٤١/١

٢) حاشية السيف الصقيل ٢٩٠

٣) حاشية العقيدة النظامية ٤٣

٤) الستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار ، للكوثري ١٥

فهو يرى ألاّ تعليل لفعله ـ عز وجل ـ وإنما هي مجرد العادة والسنة المتعلقة بمشيئته !

وأما اعتراضه على ابن القيم في نسبته نفي الحكمة إلى الأشاعرة وأتباعهم وتكذيبه في ذلك ، فلا شك في أن الكوثري يكابر في هذا ، فمسألة نفي التعليل والحكمة ثابت لدى الأشاعرة كما نقلت [1] ، وهو أشهر من أن يستشهد عليه .

ورأي الكوثري هنا مخالف لدلالة القرآن ، ودلالة السنة ، ودلالة العقل الصحيح .

أما دلالة القرآن فإن الله ذكر في كتابه أفعاله وعللها كقوله تعالى (وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ) [2] .

وقوله (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [3] .

بل قد أنكر عز وجل على من جعل فعله بلا غاية وسبب ، فقال (وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ) [4] .

فيلزم لمن نفى التعليل ، مخالفة ظاهر الآية وإن لم يقل به .

وقال عن البعث والحساب (لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ)[5]، وقال (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[6] (وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ)[7] .

---

١) وانظر أيضاً الإرشاد للجويني ٢٦٨ ، والفِصل لابن حزم ١٧٤/٣ .

٢) الإسراء ١٢ .

٣)الذاريات آية ٥٦

٤) سورة ص ٢٧

٥) إبراهيم آية ٥١

٦) البقرة آية ١٨٣

٧) يونس آية ٥

و سمى نفسه حكيماً دالاً على فعله وأمره (قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ)[1] والآيات في هذا كثيرة .

أما دلالة العقل ، فإن بني آدم إنما يكملون ويتفاضلون فيما بينهم وفيما بين غيرهم ، على قدر حكمة أفعالهم ولله المثل الأعلى ، فهو أحق بهذا الكمال .

والله لا مكره له ، و لم يستفد حكمته من غيره ، ولا احتاج لأحد من خلقه ، فقولهم : إن هذا يوجب أن يستكمل بغيره من أبطل الباطل ، فإن أفعاله إنما حصلت " بقدرته ومشيئته لا شريك له في ذلك ، فلم يكن في ذلك محتاجاً إلى غيره "[2] .

وأما القول بأن تعليل فعله ـ عز وجل ـ يلزم منه احتياجه لتحصيل ذلك الغرض ، فهو باطل إذ إنه ـ عز وجل ـ إما يفعل ذلك الأمر هو أحب إليه من عدمه ، فيلزم منه حصول مراده ، وهذا غاية الكمال بل عدمه هو النقص ، فإن من كان قادراً على تحصيل ما يحبه ، وفعله في الوقت الذي يحب فهو الكامل حقاً .

وأيضاً مامن محذور يلزم من تجويز فعله لحكمة إلا والمحاذير التي يلزم من كونه يفعل لا لحكمة أعظم امتناعاً . فإن كانت تلك المحاذير غير ممتنعة كانت محاذير إثبات الحكمة أولى بعدم الامتناع . وإن كانت محاذير إثبات الحكمة ممتنعة فمحاذير نفيها أولى بالامتناع[3] .

والله قد خص شيئاً عن شيء ، وهي من أدل شيء على كمال حكمته ولولاها لم يظهر فضله ، ومنه قال تعالى (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ

---

١) الأنعام آية ١٤٩

٢) مجموع الفتاوى ١٤٦/٨ .

٣) شفاء العليل ٢ / ١٣٢

وَنِعْمَةً) [1] ، والله عليم بمن يصلح لهذه النعمة ، حكيم في وضعها عند أهلها ومنعها غير أهلها .

وقال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) [2]

وقال تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ) [3]

وقال تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) [4]

وقالت الرسل لقومهم : (إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ) [5]

---

١) الحجرات ٧ .

٢) الحديد ٢٨ ، ٢٩ .

٣) الجمعة ٢ — ٤

٤) المائدة ٥٤

٥) إبراهيم ١١

وقال تعـــالى : (وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ)[1]

وفي حديث مثل المؤمنين واليهود والنصارى قال تعالى لأهـــل الكتـــاب : هـــل ظلمتكم من حقكم من شيء ؟ قالوا : لا ، فهو فضلي أوتيه من أشاء .

وقال تعـــالى : (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا)[2]

أي يعلم أين يضع فضله ومن يصلح له ممن لا يصلح ، بل يمنعه غير أهلـــه ، ولا يضعه عند غير أهله . وهذا كثير في القرآن يذكر أن تخصيصه هو فضله ورحمته فلو ساوى بين الخلائق لم يعرف قدر فضله ونعمته ورحمته[3] .

وقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن أقام في هذا العالم لكل حـــق جاحـــداً ، ولكل صواب معانداً ، كما أقام لكل نعمة حاسداً ، ولكل شر رائداً ، وهذا مـــن تمـــام حكمته الباهرة وقدرته القاهرة ، ليتم عليهم كلمته ، وينفذ فيهم مشيئته ، ويظهر فـــيهم آثار صفاته العليا وأسمائه الحسنى ، ويتبين لأوليائه وأعدائه يوم القيامة أنه لم يخل الحكمة ، ولم يخلق خلقه عبثاً ، ولا يتركهم سدى ، وأنه لم يخلق السموات والأرض وما بينـــهما باطلاً ، وأن له الحمد التام الكامل على جميع ما خلقه وقدره وقضاه وعلى ما أمر به ونهى عنه ، وعلى ثوابه وعقابه ، وأنه لم يضع من ذلك شيئاً إلا في محله الذي لا يليق به سواه .

والله سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله . وله في جميع ما ذكرتم وغيره حكمة ليست من جنس الحكمة التي للمخلوقين ، كما أن فعلـــه لـــيس مماثلاً فعلهم ، ولا قدرته وإرادته ومشيئته ومحبته ورضاه وغضبه مماثلاً لصفات المخلوقين[4]

---

١) الزخرف ٣١

٢) النساء ٦٩ ، ٧٠

٣) شفاء العليل ٢ / ١٣٧ ، ١٣٨

٤) شفاء العليل ٢ / ١٤٨ .

وحكمة الرب تابعة للعلم والقدرة ، فمن كان أعلم وأقدر كانت أفعاله أحكم وأكمل ، والرب منفرد بكمال العلم والقدرة . فحكمته بحسب علمه وقدرته ، كما تقدم تقريره ، فحكمته متعلقة بكل ما تعلق به علمه وقدرته (١) .

وقد قامت الأدلة القاطعة على أنه حكيم في أفعاله وأحكامه ، فيجب القول بموجبها . وعدم العلم بحكمته في الصور المذكورة (٢) لا يكون مسوغاً لمخالفة تلك الأدلة القاطعة ، لا سيما وعدم العلم بالشيء لا يستلزم العلم بعدمه . (٣)

وكذا يقال إن مجرد الفعل من غير قصد ولا حكمة ولا مصلحة يقصده الفاعل لأجلها لا يكون متعلقاً للحمد ، فلا يحمد عليه ، حتى لو حصلت به مصلحة من غير قصد الفاعل لحصولها لم يستحق الحمد عليها ، كما تقدم تقريره . بل الذي يقصد الفعل لمصلحة وحكمة وغاية محمودة وهو عاجز عن تنفيذ مراده أحق بالحمد من قادر لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لقصد الإحسان .

وهذا المستقر في فطر الخلق ، والرب سبحانه حمده قد ملأ السموات والأرض وما بينهما وما بعد ذلك . فملأ العالم العلوي والسفلي والدنيا والآخرة ووسع حمده ما وسع علمه ، فله الحمد التام على جميع خلقه . ولا حكم يحكم إلا بحمده ، ولا قامت السموات والأرض إلا بحمده ، ولا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار إلا بحمده ، كما قال الحسن رحمة الله عليه : " لقد دخل أهل النار النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلا " .

وهو سبحانه إنما أنزل الكتاب بحمده ، وأرسل الرسل بحمده ، وأمات خلقه بحمده ، ويحييهم بحمده . ولهذا حمد نفسه على ربوبيته الشاملة لذلك كله : (وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) (٤)

---

١) شفاء العليل ٢ / ١٤٩

٢) يريد ما ذكره النفاة للحكمة من عدم العلم بحكمة خلق الشياطين وإيلام الحيوان ...الخ .

٣) شفاء العليل ٢ / ١٤٩

٤) الأنعام ٤٥ .

وحمد نفسه على إنزال كتبه فـ : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ) [1]

وحمد نفسه على خلق السموات والأرض : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ) [2]

وحمد نفسه على كمال ملكه : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ) [3]

فحمده ملأ الزمان والمكان والأعيان وعمّ الأكوان كلها : (فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ) [4]

وكيف لا يحمد على خلقه كله وهو : (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ) [5]

وعلى صنعه وقد أتقنه : (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) [6] ، وعلى أمره وكله حكمة ورحمة ، وعدل ومصلحة ، وعلى نهيه وكل ما نهى عنه شر وفساد ، وعلى ثوابه وكله رحمة وإحسان ، وعلى عقابه وكله عدل وحق ، فلله الحمد كله ، وله الملك كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله .

والمقصود أنه كلما كان الفاعل أعظم حكمة كان أعظم حمداً ، وإذا عَدِمَ الحكمة ولم يقصدها بفعله وأمره عَدِمَ الحمد [7] .

---

١) الكهف ١

٢) الأنعام ١

٣) سبأ ١

٤) الروم ١٧ ، ١٨

٥) السجدة ٧

٦) النمل ٨٨

٧) شفاء العليل لابن القيم بتصرف ٢/ ١٥٣ – ١٥٥ وقد توسع ابن القيم في ذلك مما لا مزيد عليه فانظره ٢/ ١٢٧ – ٢٥٥

ثم من فعل فعلاً لا لحكمة ، أنقص ممن فعل فعلاً لحكمة وهو عز وجل أحق من نُفي عنه كل نقص ، فلزم وصف أفعاله بالحكمة .

ونفاة الحكمة قاسوا الله عز وجل بخلقه ، حيث أفعالهم لا تقوم إلا بانتفاع بعضهم ببعض ، فهم محتاجون كلٌ بغيره ، وفعل الله " لا يوجب احتياجه لغيره أو شيء من مخلوقاته ، فهو ممنوع وباطل ، فإن كل ما سواه محتاج إليه من كل وجه وهو الصمد الغني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه محتاج إليه ، وهو القيوم القائم بنفسه ، المقيم لكل ما سواه " (١) .

فكيف تنفي حكمته ، وهو لايقاس بغيره ؟

---

١) نفسه ١٦ / ١٣٢ .

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في خلق الأفعال ونقده

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في خلق أفعال العباد ونقده

للكوثري كلام كثير في خلق أفعال العباد بثه في كتبه وتعليقاته ، لكنه توسع فيه في كتابه " الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار " لم يخرج فيه عن رأي الماتريدية .

والماتريدية في ذلك متفقون مع السلف على أن الله خالق فعل العبد " فالله تعالى خالق لأفعال العباد ، كلها من الكفر والإيمان ، والطاعة والعصيان " [1] .

وهذا لا يعني نفي اختيار المكلف في فعله ، ووجود استطاعة بها يقوم بالفعل والتكليف ، فللعباد " (أفعال اختيارية يثابون بها) إن كانت طاعة (ويعاقبون عليها) إن كانت معصية لا كما زعمت الجبرية من أنه لا فعل للعبد أصلاً " [2] .

والكوثري متابعهم في هذا كله كما سيأتي .

فيقول في إثبات خلق الله لأفعال الخلق : " الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [3] ، وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [4] " [5] .

ويزيد وضوحاً فيقول : " قد طال الجدل بين الطوائف في أنَّ المكلفين مختارون في أفعالهم أم مجبورون ، فالقول بأنَّ للعباد أفعالاً اختيارية يثابون بها ، ويعاقبون عليها ، اعتقاد جماهير أهل السنة من محدثين وفقهاء ومتكلمين ، والقول بأنه لا اختيار لهم فيها بل مجبورون نحلة أهل الزيغ " [6] .

" بل اختيار العبد تضافرت عليه الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والمعقول ، ويشعر به كل وجدان " [7] .

---

١) شرح العقائد النسفية ٥٤ ، وانظر إشارات المرام ٢٥٢-٢٥٤ .

٢) شرح العقائد النسفية ٥٧ .

٣) الصافات ٩٦ .

٤) الزمر ٦٢ .

٥)حاشية السيف الصقيل ٦٦ .

٦) الاستبصار ٥ ، وانظر أيضاً حاشية العقيدة النظامية ٥١-٥٢ .

٧) الاستبصار ٥ ، وانظر أيضاً حاشية العقيدة النظامية ٥١-٥٢ .

وينسب لأهل السنة – ويعني بهم الماتريدية – اتفاقهم " على أنه لا حجة للعاصي في الاستناد في معصيته على مشيئة الله ، وأن للعباد أفعالاً اختيارية بها يثابون وعليها يعاقبون ، وأنَّ مشيئة الله ليست بسالبة لاختيارهم وإرادتهم " [1] .

لكن ما علاقة فعل العبد – الذي هو مخلوق – بهذا الاختيار ؟ الجواب عند الكوثري هو ما يراه الماتريدية بأنَّ هذا الاختيار هو عبارة عن إرادة يسمونها الإرادة الجزئية .

يقول الكوثري : " وصفوة القول أنَّ الله سبحانه منح عباده قدرة وإرادة ، يوجهونها بإذنه إلى فعل ما أمرهم به " [2] .

فهذه الإرادة عنده ممنوحة له ، وهي بذلك في يده يوجهها هو ، فيخلق الله الفعل بعد هذه الإرادة .

يقول : " وأما إرادة العبد للفعل فهي مدار تكليفه ، وهي بيده ، جعلها الله هكذا " [3] .

وعند الكوثري " جرت عادة الله [4] بمحض فضله على خلق مراد العبد بعد تعلق إرادة العبد به ، بعدية ذاتية تحقيقاً لاختياره ومسؤوليته ، حيث رتب الله سبحانه وتعالى في كتابه أفعال العباد على إرادة العبد نفسه ، وقال في الحديث القدسي : " كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني " [5] فعلق الهداية على الاستهداء وهو طلب الهداية وإرادتها ، فيخلق الله سبحانه الهداية إذا طلبها العبد وأرادها على مقتضى وعده الكريم ، وهو لا يخلف الميعاد ، وهو مذهب الماتريدية " [6] .

---

١) حاشية الاختلاف في اللفظ ١٦ .

٢) الاستبصار ٣٥ .

٣) حاشية الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني ١٥٣ .

٤) وصف الله بالعادة لا أصل له ، ولا ينبغي إطلاقه عليه – عز وجل – حتى على باب الحكاية والخبر لما في معنى العادة من عدم الكمال ، ولما يتضمنه من نفي الحكمة والتعليل ، والأولى قول (أراد الله بحكمته) أو نحو ذلك .

٥) رواه مسلم – رقم الحديث ٤٦٧٤ – كتاب البر و الصلة و الآداب ، باب تحريم الظلم ، ورواه أحمد ٥ / ١٦٠ ، والحاكم في المستدرك ٤ / ٢٧٠ و وابن حبان ٢ / ٣٨٦.

٦) حاشية العقيدة النظامية ٤٣ .

وهذا الكلام هو عين ما يقرره أئمة الماتريدية .

يقول السعد : " الله تعالى خالق كل شيء ، والعبد كاسب ، وتحقيقه أنَّ صرف العبد قدرته وإرادته إلى الفعل كسب ، وإيجاد الله تعالى للفعل عقيب ذلك ، خلق . والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين ، لكن بجهتين مختلفتين ، فالفعل مقدور الله بجهة الإيجاد ، ومقدور العبد بجهة الكسب " [1] .

وهم يعلمون أن هذه القدرة أو الإرادة الجزئية من تقريرهم الذي لم يسبقوا إليه ، ولا يستند على دليل عقلي صريح ، ولهذا نرى الكوثري يقول : " وليس كل ذهن يتسع لتصور قدرة لا أثر لها ، والله أعلم " [2] .

وكلهم عاجزون عن تفسير هذه الإرادة ، حتى إنَّ السعد – على منزلته في مباحث الكلام – وجد هذا في نفسه ، فبعد أن قرر هذه الإرادة قال : وهذا القدْر من المعنى ضروري ، وإن لم نقدر على أزيد من ذلك في تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله تعالى ، وإيجاده ، مع ما فيه للعبد من القدرة والاختيار " ! [3]

ويضاف لذلك أنَّ السعد لما ذكر الفرق بين القدرتين نسب الفروق بقوله : ولهم في الفرق بينهما عبارات مثل : أن الكسب ما وقع بآلة ، والخلق لا بآلة . والكسب مقدور وقع في محل قدرته ، والخلق مقدور وقع لا في محل قدرته . والكسب لا يصح انفراد القادر به ، والخلق يصح انفراده . " [4] والملفت للانتباه أن السعد لم يعقب . !

وينقل الكوثري عن السعد فيقول : " وقال السعد في التلويح : الفعل وإن كان مخلوقاً بقدرة الله تعالى ، لكنه أجرى عادته بأنه لا يخلق إلا إذا صرف العبد قدرته التابعة لإرادته إليه ، فكان الصرف متوقفاً عليه ، وهو فعل العبد ، وليس بمخلوق لله تعالى ، لأنه أمر اعتباري ، والأمور الاعتبارية لا يمكن وجودها في الخارج " !

فتأمل التصريح بقوله : وهو فعل العبد ، وليس بمخلوق لله ! أليس هذا هو عين قول القدرية ؟ ولذا بادر بقوله : هو أمر اعتباري ... الخ فراراً من الإلزام .

---

١) شرح العقائد النسفية ٥٨-٥٩ .

٢) حاشية العقيدة النظامية ٤٩ .

٣) شرح العقائد النسفية ٥٩ .

٤) شرح العقائد النسفية ٥٩ .

ولا يُظن أنَّ ما يسمونه الإرادة الجزئية وأن كانت إلى العبد – كما مضى – مخلوقة لله .

يقول الكوثري : " فلا تكون الإرادة الجزئية اضطرارية ، بل الاضطراري هو صفة الاختيار فقط وهو الإرادة الكلية " [(١)] .

وهذا معناه أنَّ العبد مضطر أن يختار – وهي الإرادة الكلية التي لله – أما نوع الاختيار فهو غير اضطراري بل إلى العبد !

وهذا ما يفسر ورود اسم الجبر عند بعض أئمة الماتريدية ويعنون به جبر المكلف على الاختيار ، وهذا ما يزيده الكوثري وضوحاً عندما قال بعض الحنفية " العبد مختار مجبور في اختياره " فيقول : " المراد أنَّ العبد مختار ، مجبور في صفة الاختيار " [(٢)] .

وإذا تأملنا هذا الكلام وموافقة الكوثري له – فيما يسمونه الإرادة الجزئية – ظهر لنا ميل الماتريدية – والكوثري مقرر وتابع لهم – إلى رأي المعتزلة .

ولهذا نرى المقبلي ، يرى أن الماتريدية معتزلة في باب القدر حيث يقول بعد أن نقل عن البياضي الحنفي :

" ووضح لك أن الماتريدية معتزلة إلا أنهم خالفوهم في بعض الشيء " [(٣)] .

ولعل هذا هو السبب الذي جعل الكوثري يلين مع القدرية النفاة ، ويشتد مع الجبرية ، فيقول في حق معبد الجهني [(٤)] : " وأول من نفى القدر هو " معبد بن خالد الجهني " حيث قال " لا قدر والأمر أنف " يريد به الرد على من تعلل في العصيان بالقدر من

---

١) الاستبصار ٢٤ .

٢) الاستبصار ٢٤ .

٣) العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ ٣٤٨ .

٤) (معبد الجهني) مَعْبَد بن عبد الله بن عويمر بن حُكيم الجُهمي ، نزيل البصرة ، وأول من تكلم بالقدر في زمن الصحابة . حدث عن : عمران بن حصي ، ومعاوية ،وابن عباس ، وابن عمر ، وطائفة . وحدث عنه: معاوية بن قرّة ، وقتادة ،ومالك بن دينار ، وآخرون . كان من علماء الوقت على بدعته ، قال الجورجاني : احتمل الناس حديثه لاجتهاده في الدين والصدق والأمانة ، ولم يتوهم عليه الكذب ، قال الأوزاعي : أول من نطق في القدر سوسن بالعراق ، كان نصرانياً ، أسلم ثم تنصّر ، فأخذ عنه معبد ، وأخذ غيلان القدري عن معبد . [الميزان ١٤١/٤، تهذيب التهذيب ٢٢٥/١٠، السير ١٨٥/٤] .

الجبرية ببيان أنه ليس هناك قدر يعطل اختيار العبد في الأفعال التي كلف بها ، لكن ضاقت عبارته فعمت كلمته فضللوه "[1] .

فليس العجب هنا من بيان مراد معبد ، وإنما التعجب من قوله " فضللوه " ؟ فهل هو على سبيل الإنكار أم الإقرار ؟ فلاشك في ضلال معبد وأصحابه ، ومن الجرأة بيان قصده ومراده بلا سند .

وهو ينكر ما ينسب للمعتزلة ، نفيهم للقدر ، وزعمهم استقلال العبد بالفعل ، فيقول :

" لم نر ذلك في كتبهم ، ولعل عزو ذلك إليهم بطريق الإلزام ، ولو ثبت عنهم ادعاء أنَّ قدرة العبد مستقلة غير مستمرة كانوا أبعدوا النجعة في الضلال "[2] .

ومما يزيد ميل الكوثري للمعتزلة القدرية قوله : " قال الله تعالى : (فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ)[3] . وهذا نص لا يحتمل سوى أنَّ الإيمان والكفر إلى مشيئة المكلف ، كما أن قوله تعالى : (فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا)[4] نص أيضاً على أنَّ اتخاذ السبيل إلى مشيئة المكلف إلى غير ذلك من آيات كثيرة "[5] . وهذا نقل بين في مراده .

ولعل قائلاً يقول : لكن هذا الكلام جاء في معرض الرد على من يراهم الكوثري جبرية ، فجاء التشدد في إثبات ما نفوه من إرادة المكلف ؟!

والجواب أنه كرر هذا المعنى كثيراً[6]

---

١) حاشية العقيدة النظامية ٤٧ .

٢) حاشية العقيدة النظامية ٤٩ .

٣) الكهف ٢٦ .

٤) الإنسان ٢٩ .

٥) الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار ٦-٧ .

٦) انظر مثلاً حاشية السيف ٦٦ ، و الاستبصار ١٥ .

ولا شك أن مسألة قدرة العبد من أكثر المسائل التي وقع الخلاف فيها بين أهل القبلة فإن الجبرية إنما أقاموا أدلتهم على إثبات قدرة الله ، وخلقه وإرادته النافذة ، فأدلتهم صحيحة على القدرية النفاة ، وكذا القدرية إنما أقاموا أدلتهم على إثبات قدرة العبد وإرادته وأن لها تأثيراً في فعله ، فأدلتهم صحيحة على الجبرية .

ولذا الحق في هذه المسألة لمن جمع الحق الذي عند الطائفتين ، وهو إثبات خلق الله لكل شيء وعموم إرادته ، وكذا إثبات إرادة العبد وتأثيرها في وجود فعله .

يقول ابن القيم عن معتقد السلف في هذه المسألة : " وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول كما حكاه عنهم البغوي وغيره ، فحركاهم واعتقاداهم أفعال لهم حقيقة وهي مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة ، والذي قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه ، والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاهم وسكناهم ، فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة ، وهو سبحانه هو المقدر لهم على ذلك ، القادر عليه ، الذي شاءه منهم وخلقه لهم ، ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته ، فما يشاؤون إلا أن يشاء الله ، وما يفعلون إلا أن يشاء الله "[1]

لكن ما جواب الكوثري عن النصوص القرآنية ، التي تدل على الطمس ، والختم ، والإضلال والهداية ؟ وما رأيه فيها ؟

كل هذه يرجعها إلى الإرادة الجزئية – أو القدرة الجزئية – التي ترجع إلى المكلف .

يقول : " وقوله تعالى : (وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ)[2] بمعنى ولكن يضل من يشاء الضلالة ، ويهدي من يشاء الهداية ، بإرجاع الضمير ين المستترين في (يشاء) إلى القريبين وهما (من) لا البعيد ، وهو كلمة (الله) "[3] .

ويقول عن الحديث القدسي (كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم)[4] :

---

١) شفاء العليل لابن القيم ١ / ١٥٢

٢) النحل ٩٣ .

٣) الاستبصار ١٠ .

٤) رواه مسلم – رقم الحديث ٤٦٧٤ – كتاب البر و الصلة و الآداب ، باب تحريم الظلم .

"رتب الله سبحانه هدايته للعبد على استهداء العبد نفسه وإرادته إياها وطلبه لها " [1] .

وهذا يعني أنَّ الهداية مطلقاً ليست منة من الله ، وتفضلاً إذ هي معلقة بإرادة العبد ، ويقول منكراً على من يسميهم الجبرية : " ومذهب أهل الحق أنَّ العبد يريد الهداية ، والله سبحانه يخلقها له ، وعند أهل الجبر ليست الهداية مترتبة على الاستهداء بل منحة مباشرة منه " [2] .

وهذا الكلام فيه خلط ، فهداية الله للعبد منها ما هو مترتب بعد طلبها من قبل العبد ، ومنها ما كان بدون طلب ابتداء منه عز وجل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكلا النوعين فضل ومنة من الله .

والكوثري يرى أن الهداية محصورة لمن طلبها ، وتعرض لأسبابها ، فهي متعلقة بإرادته ، فلا معنى للتوفيق ، ولا للتيسير ، ولا لضدهما ، فأسباب التوفيق ، وأسباب الخذلان من الله عند الكوثري " تؤدي إلى تيسير الشر في أناس ، وتيسير الخير في أناس ، والأسباب التي يتلبس بها العبد تؤديه إلى مقتضاها ، وإن كانت تفاصيل ذلك مجهولة عند العبد ، فيعود الأمر إلى حسن اختيار العبد أو سوء اختياره " [3] !

وهذا نص بين واضح لا يحتاج إلى بيان .

لكن ليست المسألة فيمن تعرض لأسباب التوفيق أو أسباب الضلال وإنما المسألة هل يهب الله أحداً الهداية بدون التعرض لأسبابها ؟ .

فالكوثري يقطع بأن كل مهتدي قد تلبس بأسبابها ، فلا مهتدي إلا واهتدى بإرادته حيث اختار أسباب الهداية ، وهذا معارض لنصوص القرآن والسنة ، التي علقت الهداية والضلال بإرادة الله ، وبحكمته (وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ) [4]

---

١) الإستبصار ٧ .

٢) الاستبصار ١٨ .

٣) حاشية الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للباقلاني ١٦١ .

٤) النحل ٩٣ .

(وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً)[1] ، (وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ)[2] ، (وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا)[3] ، (قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ)[4] ، (ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ)[5] ، (كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ)[6] ، (مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)[7] .

وغيرها كثير جداً في كتاب الله .

أما السنة فكثير ، منها قوله ﷺ : "ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه "[8] وكان ﷺ كثيراً ما يسأل الله الثبات ويقول : " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك "[9] .

وهذه النصوص كلها ترجع الهداية والإضلال لمطلق إرادة الله النافذة المتعلقة بحكمته عز وجل .

١) النحل ٩٣ .

٢) الأنعام ٣٥ .

٣) يونس ٩٩ .

٤) آل عمران ٧٣ .

٥) الأنعام ٨٨ .

٦) المدثر ٣١ .

٧) الأنعام ٣٩.

٨) رواه أحمد ٤/ ١٤٢ وابن ماجة ١٩٩ .

٩) رواه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ١٦ / ٢٠٤ ، وأحمد في مسنده ٢ / ١٦٨ ، ووالدارمي في الرد على الميسي ٤١٩ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ١٤٦ ، وابن حبان ٣ / ١٨٥.

ومن أوضح الحجج قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [1] ، فما قول الكوثري تجاه هذا النص الذي يعارض رأي الماتريدية ورأيه في هذا ؟

يرى الكوثري أن منة الله في هذه القصة لا تزيد على أن أرسل نبيه محمداً ﷺ داعياً للإيمان ! فهي مثل قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ﴾ [2] .

يقول عن آية سورة الحجرات : " بأن بعث فيكم من ينادي للإيمان آمنوا بربكم ، فآمنتم به " [3] .

والحقيقة أنَّ هذا تحريف للمعنى الظاهر للآية ، ويلزم منه نفي الاختصاص لهؤلاء بتيسير الإيمان وقبوله لديهم – وهي منة الله عليهم – .

ولو كان معنى الآية ما ذكره لتساوي من آمن به من الأعراب بمن كفر وأعرض ؟ فما الفرق بين مؤمني بني تميم وبين أبي جهل وأمية بن خلف ؟ .

فكلهم بُعث فيه منادياً يدعو للإيمان ؟ فما زيادة فضل أولئك على هؤلاء ؟

والكوثري موافق لرأي السلف في مسألة الاستطاعة من حيث إنها على نوعين ، ما كانت بمعنى السلامة والوسع ، والتمكن وسلامة الآلات . والثاني التي يجب معها وجود الفعل من العبد . ومذهب أهل السنة أتباع السلف أن الاستطاعة بالمعنى الأول تكون قبل الفعل ، وهي مناط التكليف ، وأما الاستطاعة بالمعنى الثاني فإنها لا تكون قبل الفعل ولا بعده ، بل معه ، مقارنة له في وجوده .

---

١) الحجرات ١٧ .

٢) آل عمران ١٩٣ .

٣) الاستبصار ١٨ .

والكوثري لا يخرج عن هذا ، فهو يرى أنَّ كون الاستطاعة مع الفعل " ليس بمعنى عدم سبق وجود القوى الجسمانية والملكات والصفات النفسية في الإنسان على الفعل ، بل بمعنى كون مجموع القوى المؤثرة مع الفعل " [1] .

فهو يفرق هنا بين الاستطاعة التي قبل الفعل ، والاستطاعة التي مع الفعل ، فالأولى عنده وهي القوى الجسمانية والملكات والصفات النفسية ، تسبق الفعل ، وأما الثانية (مجموع القوى المؤثرة) فهي مع الفعل .

يقول دفاعاً عن الأشعري : " أن الأشعري لا ينكر أنَّ للعبد قدرة موجودة فيه قبل الفعل ، إذ قدرة العبد عبارة عن القوة المنبثة في أعضائه ، المعبر عنها بسلامة الأسباب والآلات ، وهي متحققة [2] بلا شبهة " [3] .

---

١) الاستبصار ٢١ .

٢) يعني متحقق وجودها في الإنسان قبل الفعل .

٣) الاستبصار ٢٢ .

الفصل الثاني :

توحيد الألوهية

المبحث الأول :

تعريفه ومعناه

المطلب الأول :

تعريف توحيد الألوهية وحقيقته عند أهل السنة

المطلب الأول :

تعريف توحيد الألوهية وحقيقته عند أهل السنة .

لا يخفى أن الله عز وجل قد اختار لعباده دين الإسلام ، دين الصدق والعدل ، وأساس هذا الدين القيم هو توحيد الله تعالى ، وعبادته وحده لاشريك له ، وهذا هو المقصد الأعلى والهدف الأسمى والغاية العظمى .

ومنزلة هذا التوحيد عند أهل السنة وأتباع السلف الصالح كمنزلة الأساس للمبنى ، فكما أنَّ فساد الأساس يستلزم فساد المبنى ، كذلك الشأن لهذا التوحيد بالنسبة لبقية الدين .

والتوحيد مصدر بمعنى الانفراد [1] ، أي أفرده ، يقال : وحده وأحَّده بتشديد الحاء فيهما ، كما يقال : ثنَّاه وثلَّثه [2] .

والمقصود جعله واحداً ، كما يقال ثنَّاه ، جعله اثنين ، وثلَّثه جعله ثلاثة .

يقول صاحب القاموس : " وحَّده توحيداً : جعله واحداً " [3] .

وهذا يشير إلى معنى توحيد الألوهية في اللغة .

" والتوحيد في اللغة : الحكم بأن الشيء واحد ، والعلم بأنه واحد " [4] .

فمعناه يدور على العلم والحكم ، فالعلم أن الشيء واحد نقيض الاثنين والثلاثة .. الخ والحكم بذلك ، وهذا يشير إلى معنى توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات في اللغة .

ولذا فالتوحيد عند السلف الصالح ينقسم إلى قسمين [5] :

توحيد المعرفة والإثبات ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات . وهذا القسم الأول .

---

١) مختار الصحاح للرازي ٢٩٦ .

٢) نفسه ٢٩٦ .

٣) القاموس المحيط ٤١٤ ، وانظر كذلك (تاج العروس) للزبيدي ٢ / ٥٢٥ .

٤) التعريفات للجرجاني ٩٦ .

٥) هذا التقسيم عند أهل السنة مبني على السبر والتتبع .

وأما القسم الثاني فهو توحيد الطلب والقصد ، وهو توحيد الألوهية والعبادة ، وهو موضوع بحثنا ، وهذا التوحيد مبني على إخلاص العبادة لله من المحبة والخوف والرجاء والتوكل ، والرغبة والرهبة والدعاء لله وحده ، وينبني على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لاشريك له ، لا يجعل فيها شيء لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا لنبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما .

وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[1] ، وقوله تعالى : (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[2] ، وقوله تعالى : (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)[3] ، وقوله تعالى : (رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)[4] ، وقوله تعالى : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)[5] ، وقوله تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا)[6] ، وقوله تعالى : (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)[7] .

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل وآخرها ، وهو معنى قول لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة ، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار ، وسعداء أهل الجنة ،

---

١) الفاتحة ٥ .

٢) هود ١٢٣ .

٣) التوبة ١٢٩ .

٤) مريم ٦٥ .

٥) الشورى ١٠ .

٦) الفرقان ٥٨ .

٧) الحجر ٩٩ .

وأشقياء أهل النار ، قال الله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ) [1] ، فهذا أول أمر في القرآن .

وقال تعالى : (لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ) [2] ، فهذا دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك ، وقال هود لقومه (ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ) [3] ، وقال صالح لقومه ، (ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ) [4] ، وقال شعيب لقومه (ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ) [5] ، وقال إبراهيم عليه السلام لقومه : (إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ) [6] ، وقال تعالى : (وماأَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ) [7] ، وقال تعالى : (وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ) [8] ، وقال تعالى : (وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ) [9] .

وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم ؟ قال : يقول : (اعبدوا الله ، ولاتشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم) [10] .

---

١) البقرة ٢١ .

٢) الأعراف ٥٩ .

٣) الأعراف ٦٥ .

٤) الأعراف ٧٣ .

٥) الأعراف ٨٥ .

٦) الأنعام ٧٩ .

٧) الأنبياء ٢٥ .

٨) الزخرف ٤٥ .

٩) الذاريات ٥٦ .

١٠) رواه البخاري في ك / بدء الوحي ١ / ٦ ح ٧ ، ورواه مسلم في ك / الجهاد والسير باب / كتب النبي ١٢ / ١٠٣ ، وأبوداود في ك / الأدب ٤ / ٣٣٥ ح ٥١٣٦ ، والترمذي في ك / التفسير ٣ / ٢١٧ ، وأحمد في المسند ٤ / ٣٧٩ .

وقال النبي ﷺ : " إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعهم إليه شهادة أن لا إلـــــــه إلا الله " [1] وفي روايـــــــــة : " أن يوحـــــــدوا الله " وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف ، وآخر واجب ، وأول مـــا يـــدخل بـــه الإسلام وآخر ما يخرج من الدنيا .

وقوله ﷺ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمـــداً رسول الله " . [2]

وقد أبان الله في كتابه الكريم هذا النوع أوضح بيان ، وضرب لذلك الأمثال ، ولم تخل سورة من سور القرآن الكريم إلا وفيها الإشارة إلى هذا التوحيد ، وإنما سمي هذا النوع بتوحيد الألوهية ، لأنه مبني على إخلاص التأله ، وهو أشد المحبة لله وحده ، وذلك يستلزم إخلاص العبادة ، وتوحيد العبادة لذلك ، وتوحيد الإرادة ، لأنه مبني علـــى إرادة وجه الله بالأعمال ، وتوحيد القصد لأنه مبني على إخلاص القصد المســـتلزم لإخـــلاص العبادة لله وحده ، وتوحيد العمل لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده ، قال تعـــالى : (فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ) [3] ، وقـــال : (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ) [4] ، وقال (قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ) [5] .

---

١) صحيح البخاري – رقم الحديث ٦٨٢٤ – كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى التوحيد ، ورواه مسلم ١ / ٥١ ، وأبو داود ٢ / ١٠٥ ، والترمذي ٣ / ٢٢ و وابن ماجه ١ / ٥٦٨ و وأحمد ١ / ٢٣٣ ، وابن حبان ١ / ٣٧١ .

٢) صحيح البخاري – رقم الحديث ٢٤ – كتاب الإيمان ، باب (فإن تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فخلوا ...) الآية ، ورواه مسلم ١ / ٥٢ ، والترمذي ٥ / ٣ ، وأحمـــد ١ / ١١ و ١٩ ، ٢ / ٣١٤ ، ٣٤٥ ، ٣٧٧ ، ٥٠٢ ، ٣ / ١٩٩ ، ٢٩٥ ــ ٣٠٠ ، وابن حبان ١ / ٤٥٠ ــ ٤٥٣.

٣) الزمر ٢ .

٤) الزمر ١١-١٢ .

٥) الزمر ١٤-١٥ .

و قولـــــــــه : (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاًۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [1] .

و قوله : (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ) [2] .

وقولـــــــــه : (أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ) [3] . وقوله : (قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ) [4] .

فكل هذه الايات في الدعاء إلى التوحيد والأمر به ، والجـــواب عـــن الشـــبهات والمعارضات ، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم ، وما أعد لمن خالفه من العـــذاب الأليم . وكل سورة في القرآن ، بل كل آيه في القرآن فهي داعية إلى هـــذا التوحيـــد ، شاهدة به ، متضمنة له ، لأن القرآن إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات فذاك مستلزم لهذا متضمن له .

وإما دعاء إلى عبادته وحده لاشريك له ، وخلع ما يعبد من دونه أو أمر بـــأنواع من العبادات ، ونهي عن المخالفات ، فهذا هو توحيد الإلهية والعبادة ، وهـــو مســـتلزم للنوعين الأولين ، متضمن لهما أيضاً .

وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده .

وإما إخباره عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهـــم في العقبى من الوبال ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه ، كما قال النبي ﷺ : " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمـــداً رســـول الله ،

---

١) الزمر ٢٩ .

٢) الزمر ٣٨ .

٣) الزمر ٤٣ .

٤) الزمر ٦٤ .

وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان "[1] . فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال ، فدلَّ على أن الإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له ، بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والإخلاص في ذلك لله .

وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة ، فيجب إخلاصها لله تعالى ، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم .

فمن هذه العبادة المحبة ،كما قال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ)[2] .

ومنها التوكل ، قال تعالى : (وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)[3] .

ومنها الخوف ، قال الله تعالى : (فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ)[4] وقال تعالى : (فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ)[5] .

ومنها الرجاء ، قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[6]

ومنها : الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله ، سواءً كان طلباً للشفاعة أو غيرها من المطالب .

---

١) رواه البخاري – رقم الحديث ٧ – كتاب الإيمان ، باب بني الإسلام على خمس ورواه مسلم – رقم الحديث ٢١ – كتاب الإيمان ، باب أركان الإسلام و دعائمه العظام ، ورواه أحمد ٢ / ١٢٠ ، ١٤٣ ، ٤ / ٣٦٣ ـ ٣٦٤ ، والترمذي ١ / ١٢ ، وابن حبان ٤ / ٢٩٥ .

٢) البقرة ١٦٥ .

٣) إبراهيم ١١ .

٤) النحل ٥١ .

٥) المائدة ٣ .

٦) البقرة ٢١٨ .

قال الله تعالى : (وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ) [1] .

وقال تعالى : (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) [2] .

ومنها التوبة ، قال تعالى : (وتوبوا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ) [3] .

ومنها : الاستعاذة ، قال الله تعالى : (قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ) [4] وقال تعالى : (قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ) [5] .

ومنها : الاستغاثة ، قال الله تعالى : (إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ) [6] .

وهذا التوحيد كما ترى إما إرادي طلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته وأمره ونهيه ، فهو حقيقة التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد ، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم . [7]

---

١) فاطر ١٣ .

٢) غافر ٦٠ .

٣) النور ٣١ .

٤) الفلق ١ .

٥) الناس ١ .

٦) الأنفال ٩ .

٧) انظر في ذلك مجموع الفتاوى ٥/ ٢٣٨ ، ١ / ١٣٦ ، ٩ / ٣٥ ، ٣ / ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ١٠/ ١٥٤ – ١٦٠ ، ١٧٩ ، ٢٤٢ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبدالوهاب ٢٠ – ٣١ ، وفتح المجيد لعبدالرحمن بن حسن ١٧ – ٢٠ ، ٤٥ – ٥١

المطلب الثاني :
معناه وحقيقته عند الكوثري

المطلب الثاني :

معنى التوحيد عند الكوثري وحقيقته

الكوثري في هذا الباب كما سيأتي مقلد في الأصول والفروع ، لـذا لا يخـرج مفهومه ومعتقده للتوحيد عن معتقد متأخري الحنفية ، وإن كان أئمة الماتريدية المتقدمين والمجتهدين المتأخرين موافقون للسلف في هذا ، مباينون للقبورية والخرافيين .

فغالب المتكلمين ، ومتأخري الماتريدية يقسمون التوحيد إلى :

توحيد الذات ، وتوحيد الصفات ، وتوحيد الأفعال ، ويعنون بالأخير إفـراد الله بأفعاله الصادرة منه عز وجل كالخلق والرزق يقول اشهرستاني : " قال أهل السنة وجميع الصفاتية أن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفته الأزلية لا نظـير لـه ، وواحد في أفعاله لا شريك له . " [1] ، فالتوحيد عندهم " هو إثبات الوحدة لله في الذات ، والفعل في خلق الأكوان ، وأنه مرجع كل كون ومنتهى كل قصد ، وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبي ﷺ [2] .

فحصروا التوحيد الذي دعا إليه النبي ﷺ بما أسموه توحيد الفعل ، وهـو توحيـد الربوبية ، ولذا من سلم بهذا التوحيد على هذا المعنى كان موحداً مؤمناً ! فلا عجـب أن قبلوا الشرك من المشركين بعبادة القبور والاستغاثة بالأولياء الصالحين ، وطلـب المـدد منهم ، وسؤالهم ما لا يقدر عليه إلا الله .

يقول ابن جرجيس [3] :

---

١) الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٥٢ .

٢) رسالة التوحيد لمحمد عبده ٤٣ .

٣) هو داؤد بن سليمان النقشبندي ، أحد أئمة القبورية ، قدم نجداً وأقام بمكة ، واشهر بعداوته لدعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب ، صنف في الرد على الدعوة الإصلاحية كتاب (صلح الإخوان من أهل الإيمان وبيان الدين القـيم في تبرئة ابن تيمة وابن القيم) و، وهو أحد متفقة العراق مولده ووفاته بها (١٢٣١-١٢٩٩ هـ) انظر الأعلام ٢ / ٣٣٢ ، و(منهاج التأسيس) لعبداللطيف بن عبدالرحمن ، في الرد عليه.

" الربوبية والألوهية متلازمان ، الرب والإله معناهما واحد ، لأن الذي يستحق أن يعبد لابد أن يكون رباً " [1]

ويقول دحلان [2] :

" وقالوا أن التوحيد نوعان : توحيد الربوبية ، وهو الذي أقر بــه المشــركون ، وتوحيد الألوهية وهو الذي أقر به الموحدون وهو الذي يدخلك في دين الإسلام ، وأمــا توحيد الربوبية فلا يكفي .

وكلامهم باطل ..... فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية .... فدل على أن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية " [3]

ويقول الحصني الدمسقي [4] :

" وحقيقة التوحيد تكون باعتبار الذات وباعتبار الفعل ، فتوحيد الذات ينفــي الحدوث ، وثبوت الأحدية ينفي الأضداد ، وثبوت الذات ينفي التشبيه ويحير العقل في بحر الإدراك ، وأما توحيد الأفعال فهو شهود القدرة في المقدور ، ثم الإســتغراق في أنــوار العظمة " [5]

ولذا حصروا الشرك في شرك الاختراع والتأثير ، فمن أشرك مــع الله غــيره في الاختراع (الخلق) والتأثير (الفعل) فهو — عندهم — مشرك .

فمن استغاث بالأموات ، وذبح لهم ، مع اعتقاده أنهم أسباب وأنَّ الله هو المــؤثر والمدبر ، فهو مؤمن — عندهم — !

---

١) صلح الإخوان من أهل الإيمان وبيان الدين القيم في تبرئة ابن تيمة وابن القيم لابن جــرجيس ١٢٤ ط نخبــة الأخبار (١٣٠٦) بمبي الهند .

٢) هو أحمد بن زيني دحلان ، ولد بمكة سنة ١٢٣٢ ، من متفقة الشافعية ، ، يقول عنه محمد رشيد (إن دحلان غير محدث ولا مؤرخ ولا متكلم ، وإنما هو مقلد للمقلدين ، نقال من كتب المتأخرين) مجلة المنــار ٧ / ٣٩٣ ، صنف (الدرر السنية في الرد على الوهابية) انصر فيه لجواز الاستغاثة بالأموات والرد على أئمة الدعوة ، انظــر ترجمته في الأعلام ١ / ١٢٨ .

٣) الدرر السنية في الرد على الوهابية ٤٠-٤١ ط الرابعة ١٤٠٠ نشر مكتبة الحلبي بالقاهرة .

٤) هو تقي الدين أبوبكر بن عبدالمؤمن الحصني الشافعي ، ولد وتوفي بدمشق ٧٥٢ — ٨٢٩ أحد الشافعية ، له المنفات الكثيرة في المذهب ، ورد على شيخ الإسلام بمصنفت ، منها (دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك للإمام أحمد) انظر الضوء اللامع للسخاوي ٤٣ ، وله ترجمة في الأعلام ١/ ٥٦ ، وأنباء الغمر لابن حجر ٢ / ١٢٤ .

٥) دفع شبه من شبه وتمرد ، للحصني ٥٥ ، ط / المكتبة الأزهرية للتراث ، ت / محمد زاهد الكوثري .

هذا مفهوم التوحيد عند القوم ، فهو يدور على معنى الربوبية ، وعدم التفريق بين الإقرار بفعله وبين صرف العبادة له وحده .

يقول المقريزي [(١)] :

" فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها ، وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين ، ولهذا كانت كلمة الإسلام (لا إله إلا الله) ولو قال : (لا رب إلا الله) لما أجزاه عند المحققين ، فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد " [(٢)]

يقول الألوسي أبو الثناء عن قوله تعالى (وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ) :

" والحال أن أولئك الكفرة (ما أمروا) في الكتب الإلهية على ألسنة الأنبياء عليهم السلام (إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) جليل الشأن وهو الله سبحانه ، ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره فإن ذلك مناف لعبادته جل شأنه " [(٣)]

ويقول الفراء عن الآية نفسها :

" العرب تجعل اللام في موضع (أن) في الأمر والإرادة كثيراً ؛ من ذلك قول الله تبارك وتعالى : (يريد الله ليبين لكم) ، و (يريدون ليطفئوا) وقال في الأمر في غير موضع من التنزيل ، (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) وهي في قراءة عبد الله ، (وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين) وفي قراءة عبد الله (ذلك الدين القيمة) وفي قراءتنا (وذلك دين القيمة) وهو مما يضاف إلى نفسه لاختلاف لفظيه . " [(٤)]

والمقصود أن الآية حصرت الغاية من البعثة في عبادة الله .

---

١) هو أحمد بن علي الحسيني المقريزي ، مؤرخ مصر ، ولد وتوفي بالقاهرة (٧٦٦ - ٨٤٥ه‍) ولي بها الحسبة والإمامة والخطابة ، كان كثير التصانيف ، من أشهرها (المواعظ الإعتبار بذكر الخطط والآثار) المروف بالخطط . [البدر الطالع ١ / ٧٩ و الأعلام للزركلي ١ / ١٧٧]

٢) تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ص ٥ ط / مكتبة السلام العالمية بيروت ، بدون تاريخ .

٣) روح المعاني للآلوسي ١/ ٨٤

٤) معاني القران للفراء ٣/ ٢٨٢ ط/ دار السرور ت / أحمد نجاتي ومحمد النجار

ويقول ابن أبي العز الحنفي : " فعلم أن التوحيد المطلوب : هو توحيد الإلهية ، الذي يتضمن توحيد الربوبية " [1]

ومصطلح الألوهية ، ليس من مصطلحات الكوثري ، ولا هو من أنواع التوحيد عنده ، فإنه لا يرى تقسيم التوحيد إلى الأنواع الثلاثة المشهورة .

لكن موقفه من هذا التوحيد سيتبين لنا من خلال ، حديثه عن التبرك ، والتوسل ، وغيرها ، ولهذا سوف نتحدث عن رأيه في هذه المباحث ، ليتجلى لنا موقفه من هذا التوحيد .

والكوثري في هذه المسألة لا يخرج عن هذا ، فهو يرى أن من اعتقد أن المستغاث به سبب وليس مستقلاً عن مسبب الأسباب ، فهو مؤمن لا مشرك .

يقول : " والمدد كله عند الجميع [2] من مسبب الأسباب جل جلاله " [3] .

ويفسر حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – المشهور (إذا استعنت فاستعن بالله) [4] بالتنبيه على ألا ينسى المسبب عند الاستغاثة بالسبب فيقول : " فالمسلم لا ينسى مسبب الأسباب عندما يستعين بسبب من الأسباب " [5] .

فالتوحيد يدور عنده في هذه المسألة على الإقرار بفعل الله وتأثيره ، وهو توحيد الربوبية .

وهذا خلاف ما عليه أئمة السلف قديماً وحديثاً ، حتى أئمة الأحناف منهم ، والذين يجلهم الكوثري ، على أن إفراد الله بالعبادة دون سواه هو حقيقة التوحيد .

يقول البدر العيني [6] :

---

١) شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الدمشقي ١/ ٣٢

٢) يقصد الرازي والجرجاني والتفتازي القائلين بجواز الاستغاثة بالأموات .

٣) مقالات الكوثري ٤٥٤ .

٤) رواه أبو داود – رقم الحديث ٣٩٨٠ – كتاب السنة ، باب شرح السنة ، ورواه أحمد ١ / ٢٩٣ ، ٣٠٨ ، والترمذي ٤ / ٤٦٨ ، والحاكم في المستدرك ٣ / ٥٢٤ .

٥) مقالات الكوثري ٤٦٧ .

٦) هو محمد بن أحمد بن موسى ، بدر الدين العيني الحنفي ، أحد كبار المحدثين أصله من حلب ، ولد في عينتاب ، وإليها نسبته ، تنتقل بين حلب ، ومصر ودمشق والقدس ، تولى في القاهرة قضاء الحنفية ثم عكف على التدريس

" توحيد الله تعالى هو الشهادة بأن الله إله واحد " [1]

ويقول الدهلوي الحنفي :

" التوحيد ، اعتقاد حصر وجوب الوجود ، وقصر خلق السموات والأرض وسائر الجواهر لله سبحانه وتعالى واعتقاد حصر تدبير السموات والأرض ، وما بينهما له تعـالى فلا يكون غيره _ سبحانه _ واجباً ولا خالقاً ولا مدبراً وأنه لا يستحق العبادة غـيره ، جل وعلا " [2]

والتأليف ، أشهر مؤلفاته (عمدة القاري في شرح البخاري) وغيرها كثير ، وقد أفرد له الكوثري ترجمة في مصنف مستقل سماه (تذهيب التاج اللجيني في ترجمة البدر العيني) مولده سنة ٧٦٢ ، ووفاته بمصر سنة ٨٥٥ هـ

١) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري ٢٥ / ٨١

٢) حجة الله البالغة ١/ ٥٩

المبحث الثاني :

رأي الكوثري في التوسل

المطلب الأول :

مفهوم التوسل وحكمه عند الكوثري

المطلب الأول :

مفهوم التوسل عند الكوثري وحكمه .

كما هي عادة القبوريين في باب التوسل يخلطون أنواع التوسل بعضـها بـبعض ويتكلمون عنه بشكل عام ليتسنى لهم إدخال ما كان ممنوعاً منه ضمن ما كان مشروعاً ، فهم يسمون دعاء الأموات ومناجاتهم توسلاً لذا حسن أن أبين معنى التوسل لغة وشـرعاً وأنواعه .

فالتوسل هو التقرب إلى الشيء والتوصل إليه[1] وهو معنى الشفاعه .

والتوسل شرعاً: التقرب إلى الله بالطاعات ، وبما يحبه .

" والوسيلة هي القربة كما قال قتادة ، ولهذا قال : (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) [2] "[3].

وقال الزجاج [4] عن قوله تعالى (يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ) [5] : " المعنى أيهم أقرب بالوسيلة إلى الله ، أي يتقرب إليه بالعمل الصالح "[6] .

وقال ابن الأثير [7]

---

١) لسان العرب لابن منظور ٧٢٥/١١ ، مجاز القرآن لابي عبيدة ١٦٤/١ ، القاموس (١٣٧٩).

٢) الإسراء ٥٧ .

٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٧/٣.

٤) إبراهيم بن محمد السَّريِّ الزَّجاج ، أبو إسحاق البغدادي (٣١١هـ)الإمام، نحوي زمانه ، لزم المبرَّد ، فكان يعطيه من عمل الزُّجاج كلَّ يومٍ درهماً ، فنصحه وعلّمه. أخذ عنه العـربـية : أبـو عـلـي الفارسي ، وجـمـاعة. له مصنفات ، منها : "مـعـاني القرآن". [إنـباه الرواة (١٩٤/١) - السير (٣٦٠/١٤)].

٥) الإسراء ٥٧ .

٦) فتح القدير للشوكاني ٢٣٧/٣

٧) (ابن الأثير) المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ، أبو السعادات ، مجد الدين : المحدث اللغوي الأصولي . ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر سنة ٥٤٤هـ. وانتقل إلى الموصل ، فاتصل بصاحبها ، فكان من أخصائه . وأصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه . ولازمه هذا المرض إلى أن توفي في إحدى قرى الموصل سنة ٦٠٦هـ . قيل : إن تصانيفه كلها ألفها في زمن مرضه ، إملاءً على طلبته وهم يعينونه بالنسخ والمراجعة ، من كتبه ((جـامع الأصـول في أحاديـث الرسـول))

:

"الوسيلة : ما يتقرب به إلى الله تعالى من القول والعمل ." [1].

وقال الراغب [2] : " حقيقة الوسيلة على الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة ، وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة " [3].

" والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه هي التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله " [4] .

والفرق بين المعنى اللغوي ، والمعنى الشرعي للتوسل ، هو أن التوسل في اللغة أوسع من معناه في الشرع ، إذ إن التوسل في اللغة هو التوسل إلى الشيء ، والتقرب إليه ، بخلاف المعنى الشرعي الذي حصره في التقرب إلى الله فقط .

والرابط بين المعنيين هو التقرب ، فمن تقرب إلى الله بما يحبه وأذن فيه ، فقد توسل إليه .

ولذا حصر أهل السنة والجماعة التوسل المشروع فيما دل الدليل عليه ، فإن التقرب إلى الله ، من أعظم العبادة ، ولا تكون العبادة وفق الأهواء أو الاجتهادات ، أو الاستحسان ، أو الذوق ، وإنما تكون فيما أذن فيه الشرع .

" فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغي إليه ، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه ، هي ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات ، فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب ، وماليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً "

و((الإنصاف في الجمع بين الكاشف والكشاف)) وهو أخو ابن الأثير المؤرخ ، وابن الأثير الكاتب .
الأعلام للزركلي ٥/٢٧٢، انظر السير ٢١/٤٨٨ .

١) جامع الأصول لابن الأثير ٩ / ٣٨٠.

٢) (الراغب الأصفهاني) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضّل ، الأصفهاني ، الملقب بالراغب . العلامة الماهر ، المحقق الباهر . له من التصانيف : (الذريعة إلى مكارم الشريعة) و (المفردات في غريب القرآن) و (محاضرات الآباء) [السير ١٨/١٢٠] ، [كشف الظنون ١/٣٦، هدية العارفين ١/٣١١ ، الأعلام ٢/٢٥٥]

٣) المفردات ٨٧١ .

٤) الفتاوى ١/٢٤٧.

فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجـــاب أو اســـتحباب ، وأصل ذلك ، الإيمان بما جاء به الرسول ، فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك . "[1]

ومن خلال تتبع النصوص ، حصر علماء السلف التوسل الشرعي ، المأذون فيه بما يأتي :

- التوسل إلى الله ــ عز وجل ــ بأسمائه وصفاته .

وهـــو مـــدلول قولـــه تعـــالى (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)[2]

- التوسل إلى الله ــ عز وجل ــ بالإيمان والعمل الصالح

وهو مدلول قولـــه تعـــالى (رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ)[3]

ودلت عليه السنة المطهرة ، في الحديث المشهور بحديث الثلاثة الذين انطبق علـــيهم الغار[4] ، حيث توسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة ، ففرج عنهم .

- التوسل إلى الله ــ عز وجل ــ بالتوحيد .

كما فعل العبد الصالح ، نبي الله يونس ، حيث قال الله عنه : (وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)[5]

---

١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ١/ ١٩٩

٢) الأعراف ١٨٠

٣) آل عمران ١٩٣

٤) رواه البخاري ك/ البيوع ، باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير اذنه ، ومسلم ك / الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة ، والتوسل بصالح العمل .

٥) الأنبياء ٨٧ .

- التوسل إلى الله ــ عز وجل ــ بإظهار الضعف والافتقار ، كما فعل العبد الصالح نبي الله أيوب حيث قال فيما أخبر الله عنه : (۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ) [1]

- التوسل إلى الله ــ عز وجل ــ بدعاء الرجل الصالح الحي ، كما فعل الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ مع الرسول ﷺ ، حين كانوا يطلبون منه أن يدعو الله لهم .

- التوسل إلى الله ــ عز وجل ــ بالاقرار بالذنب ، كما قال العبد الصالح نبي الله موسى بن عمران فيما أخبر الله عنه (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) [2]

وكما قال العبد الصالح نبي الله آدم وزوجه فيما أخبر الله عنهما (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) [3]

وهكذا فالتوسل المشروع إما توسل بأسمائه وصفاته –عز وجل – وإما بفعل الطاعات مطلقاً ، وإما التوسل بإظهار الفقر والحاجة وإما بالاعتراف بالذنب وإما بدعاء الحي الحاضر .

ومع ظهور معنى التوسل والوسيلة في اللغة وفي الشرع ، لا نجد الكوثري موافقاً للسلف في ذلك ، بل اتخذ لفظ "التوسل" مطية يتوصل بها إلى إثبات ما تهواه النفس من جواز الشرك ، مثل الاستغاثة بالأموات ، ودعائهم ، وطلب الحاجات منهم ، فلا فرق لدية بين لفظ التوسل وبين الاستغاثة .

ويمكن حصر رأيه في عنصرين :

الأول : جواز التوسل بذوات المخلوقين أحياء وأمواتاً ، وأشرفهم النبي محمد ﷺ ، فيجوز التوسل به في حياته ، وبعد وفاته ويوم البعث .

---

١) الأنبياء ٨٣

٢) القصص ١٦

٣) الأعراف ٢٣

الثاني : جواز التوسل بالأموات كما جاز التوسل بالأحياء ، فلا فرق بينهما ، فالتأثير ليس لذواهما بل المؤثر والفاعل هو الله وحده .

والكوثري ، متحامل جداً على أهل السنة والجماعة ، وتحامله هذا لا يخلو من تدليس ، حيث يقول :

" نرى طائفة الحشوية يحاولون إكفار الأمة جمعاء بين حين وآخر بسبب أهم يزورون القبور ويتوسلون الى الله بالأخيار ، فكأهم بذلك أصبحوا عباد الأوثان فحاشاهم من ذلك " [1]

فأما قوله : الحشوية ، فهو من النبز الظالم ، الذي ينبز به أهلُ البدع ، السلفَ الصالح ، صداً عن مُججهم وطريقتهم ، بدعوى أهُم لا يفقهون النصوص الشرعية ، ولا يعقلوها ، وإنما هم أهل رواية ونصوص ، لا يعملون عقولهم فيها !

وهذا من الظلم البين ، وهو لا يضر أئمة السلف وأتباعهم بل نسبتهم إلى اتباع النصوص ، دلالة على صدق اتباعهم ، وبعدهم عن الرأي والاجتهاد المخالف للنص .

وأما كوهم لا يعقلون النصوص ، فهو من أعظم الباطل ، فهؤلاء أئمة السلف ــ قديماً وحديثاً ــ كالصحابة ، وأئمة التابعين ومن جاء بعدهم من الأئمة الأربعة وغيرهم ، من يشك في فهمهم للنصوص ؟!

وأما قوله بأهم يكفرون الأمة جمعاء ، (بسبب أهم يزورون القبور ويتوسلون الى الله بالأخيار) فكذب بين فأين ذكر أن علماء السلف كفروا من زار القبور ، ولم يدعوا غير الله ؟!

إلا إذا أراد من يزور القبور ، فيسجد لأصحابها ، ويدعوهم من دون الله ، ويطلب منهم حوائج السموات والأرض التي لا يقدر عليها إلا الله ، فإن أئمة المسلمين ــ كلهم ــ إنما حكموا عليهم من خلال نصوص القرآن والسنة ، بأن من دعى غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك ، كائناً من كان .

---

١) مقالات الكوثري ٤٥٠

ومن خلال هذا النص يتبين لنا أن الكوثري يقر بأن ما يمارسه عباد القبور — من دعاء الأموات ، ومناجاتهم ، وسؤالهم المدد — إنما هو توسل مشروع ، ليس ببدعة ولا شرك .

يقول : " والوسيلة بعمومها تشمل التوسل بالأشخاص ، والتوسل بالأعمال "[1] .

وأيضاً " أما شمول الوسيلة في الآية المذكورة ، للتوسل بالأشخاص ، فليس برأي مجرد ، ولا هو بمأخوذ من العموم اللغوي فحسب ، بل هو المأثور "[2] .

هذه النقول تثبت رأي الكوثري في جواز التوسل بذوات الأشخاص وأن هذا هو مدلول الآية .

والكوثري لا يرى فرقاً بين دعاء الأحياء ودعاء الأموات الذي يسميه توسلاً وينكر على السلف تفريقهم بين الحياة والموت في هذا ، فهو يقول :

" وعلى التوسل بالأنبياء والصالحين أحياء وأمواتاً جرت الأمة طبقة فطبقة "[3] .

وتقرير هذا المطلب أن الكوثري موافق للقبوريين الذين يسمون ما يمارسونه عند قبور الصالحين من الاستغاثة والاستعانة وطلب الحاجات ، توسلاً بهم إلى الله عز وجل . ويوضحه ما نقله الكوثري عن الجرجاني قوله : " ولذلك كانت زيارة مراقدهم معدة لفيضان أنوار كثيرة منهم على الزائرين كما يشاهده أصحاب البصائر "[4] .

ولا يرى فرقاً بين من دعى حياً حاضراً قادراً على إجابته ، وبين من دعى ميتاً قد انقطع عن الحياة الدنيا ، فالجميع موحد إذا اعتقد أن المؤثر هو الله عز وجل .

وهذا المفهوم للتوسل عند الكوثري تحريف لمعناه الوارد في الكتاب والسنة ، وفهم السلف الصالح ، وتبديل للمصطلحات الشرعية إلى معانٍ باطلة لتوافق ما عليه عباد

---

١) مقالات الكوثري ٤٥٠.

٢) نفسه ٤٥١.

٣) نفسه ٤٥١.

٤) نفسه ٤٥٧.

القبور ، وهذا المنهج كما قال الكوثري زيغ عن منهج الكتاب والسنة ، ومنابذة للغة الخطاب .

يقول الكوثري راداً على بعض الصوفية في مصطلحاتهم المحدثة من التجلي ، والاتحاد وغيرها :

" وأين التجليات التي اصطلح عليها الاتحادية من تخاطب العرب ؟

ومن تفاهم السلف والخلف بهذا اللسان العربي المبين ؟

حتى يكون حمل النصوص والآثار على التجليات المصطلح عليها فيما بعد عهد التتريل بدهور استعمالاتها في حقائقها ؟

ومن زعم ذلك فقد زاغ عن منهج الكتاب والسنة وتنكب سبيل السلف الصالح ، ومسلك أئمة أصول الدين ونابذ لغة التخاطب ؟. " [1]

وهو هنا قد أجاد الرد على نفسه ، ونقض رأيه بقوله فقد فسر الوسيلة المصطلح عليها في الكتاب والسنة ، واصطلاح الصحابة والتابعين بمعنى الوسيلة عند القبوريين المخالفين لحقيقة التوحيد .

---

١) حاشية الكوثري على الأسماء والصفات للبيهقي ٤١٩-٤٢٠.

المطلب الثاني :
أدلة الكوثري في التوسل الشركي ونقده

المطلب الثاني :

أدلة الكوثري على جواز التوسل الشركي ونقده

استدل الكوثري على جواز دعاء أصحاب القبور من الأولياء والصالحين بأدلة عقلية وأدلة نقليه .

فمن أدلته العقلية استشهاده ببعض من يسميهم علماء المعقول الذين جوزوا الاتصال بالأموات ، والاستغاثة بهم .

فيقول : وأما من جهة المعقول ، فإن أمثال الإمام فخر الدين الرازي والعلامة سعد الدين التفتازاني ، والعلامة السيد الشريف الجرجاني ، وغيرهم من كبار أئمة أصول الدين الذين يفزع إليهم في حل المشكلات في أصول الديانة ، قد صرحوا بجواز التوسل بالأنبياء والصالحين أحياء وأمواتاً .

وأي صفيق يستطيع أن يرميهم بعبادة القبور ، والدعوة إلى الإشراك بالله وإليهم تفزع الأمة في معرفة الإيمان والكفر والتوحيد والإشراك والدين الخالص ؟![1]

ومن هذا الباب ما ينقله من قصص عن بعض الناس أنه رأى الميت وأرشده إلى دفين لا يعلمه أحد[2] .

والكوثري يستدل على جواز الاستغاثة بالأموات –الذي يسميه توسلاً – بكلام الرازي في المطالب العالية حيث يرى الرازي أن تعلق نفوس الأموات ، بالحياة الدنيا أقوى من تعلق نفوس الأحياء ، وأنها بمفارقتها الأبدان انكشف لها ما كان مستوراً ، لذلك هي -أي نفوس الأموات – مدركة للجزئيات .

يقول الكوثري : قال الرازي في تفسيره (إن الأرواح البشرية الخالية من ظلمة الأجساد تذهب إلى عالم الملائكة ومنازل القدس ويظهر منها آثار في أحوال هذا العالم ، فهي المدبرات أمراً)[3] .

---

١) مقالات الكوثري ٤٥٣ .

٢) نفسه ٤٥٤.

٣) نفسه ٤٥٤.

ثم ينقل عن الرازي قوله : " (للكلام فيه مقدمات المقدمة الأولى : أنا قد دللنا على أن النفوس البشرية باقية بعد موت الأبدان وتلك التي فارقت أبدانها أقوى من هذه النفوس المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه وهذه النفوس أقوى من تلك من بعض الوجوه فهو أن تلك النفوس لما فارقت أبدانها فقد زال الغطاء وانكشف لها عالم الغيب وأسرار منازل الآخرة وصارت العلوم التي كانت برهانية عند التعلق بالأبدان ، ضرورية بعد مفارقة الأبدان ؛ لأن النفوس في الأبدان كانت في عناء وغطاء ولما زال البدن أشرقت تلك النفوس وتجلت وتلألأت فحصل للنفوس المفارقة عن الأبدان أقوى من تلك النفوس بواسطة الأفكار المتلاحقة والأنظار المتتالية تستفيد كل يوم علما جديداً ، وهذه الحالة غير حاصلة للنفوس المفارقة .

والمقدمة الثانية : تعلق النفوس بأبدانها تعلقاً يشبه العشق الشديد والحب التام ولهذا السبب كان كل شيء تطلب تحصيله في الدنيا فإنما تطلبه لتتوصل به إلى إيصال الخير والراحة إلى هذا البدن فإذا مات الإنسان وفارقت النفس هذا البدن فذلك الميل يبقى وذلك العشق لا يزول وتبقى تلك النفوس عظيمة الميل إلى ذلك البدن عظيمة الانجذاب ، على المذهب الذي نصرناه من أن النفوس الناطقة مدركة للجزئيات وأنها تبقى موصوفة بهذا الإدراك بعد موتها .

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول إن الإنسان إذا ذهب الى قبر إنسان قوي النفس كامل الجوهر شديد التأثير ووقف هناك ساعة وتأثرت نفسه من تلك التربة — وقد عرفت أن لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً — فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر الحي ولنفس الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة ، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى ، فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف البرهانية والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله والرضا بقضاء الله ينعكس منه نور إلى روح ذلك الميت ، وكل ما حصل في نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة الكاملة فإنه ينعكس منه نور إلى روح هذا الزائر الحي وبهذا الطريق تكون تلك الزيارة سبباً لحصول المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح الزائر ولروح المزور .

وهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة ، ولا يبعد أن تحصل فيها أسرار أخرى أدق وأغمض مما ذكرناه . وتمام العلم بحقائق الأشياء ليس إلا عند الله) أ هـ ."

ثم قال الكوثري :

"ها أنت رأيت ما يراه الإمام فخر الدين الرازي في الزيارة من الأخذ والعطاء والاستفاضة والإفاضة على نسبة مترلتي الزائر والمزور " [1]

وكذا ينقل عن السعد نصاً مستشهداً به فيقول :

" وقال العلامة المحقق السعد النفتازاني .... الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات جزئية وإطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء سيما الذين كان بينهم وبين الميت تعارف في الدنيا ، ولهذا ينتفع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات في استترال الخيرات ، واستدفاع الملمات ، فإن للنفس تعلقاً بالبدن ، وبالتربة التي دفن فيها فإذا زار الحي تلك التربة ، وتوجهت نفسه تلقاء نفس الميت ، حصل بين النفسين ملاقاة وإفاضات) "

ثم قال الكوثري :

" هذا هو تحقيق هذا الإمام الجليل في المسألة ، فهذا أيضاً ممن لا يميز بين التوحيد والإشراك ؟ فتعساً لرأس يتخيل ذلك " [2].

وينقل الكوثري عن الجرجاني قوله " (فإن قيل : هذا التوسل إنما يتصور إذا كانوا متعلقين بالأبدان ، وأما إذا تجردوا عنها فلا ، إذ لا جهة مقتضية للمناسبة . قلنا : يكفيه أهم كانوا متعلقين بها متوجهين إلى تكميل النفوس الناقصة بهمة عالية فإن أثر ذلك باقٍ فيهم ولذلك كانت زيارة مراقدهم معدة لفيضان أنوار كثيرة منهم على الزائرين كما يشاهده أصحاب البصائر) [3] .

والرازي كما ترى في هذا على مذهب القائلين بالاستفاضة ، وأن العالم إنما هو فيض فاض عن الخالق ــ عز وجل ــ ، يقول شيخ الإسلام :

---

١) نفسه ٤٥٥ – ٤٥٦ .

٢) نفسه ٤٥٧.

٣) نفسه ٤٥٧.

" يجعلون الشفاعة مبنية على ما يعتقدونه من أن الرب لا يفعل بمشيئته وقدرته ، وليس عالماً بالجزئيات ولا يقدر أن يغير العالم ، بل العالم فيض فاض عنه بغير مشيئته وقدرته وعلمه " (1)

وهم يرون أن هذا من الشفاعة التي هي أعظم مطلوب ــ والتي يسميها الكوثري توسلاً ــ

فالغزالي يقول :

" وأما شفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والأولياء ، فالشفاعة عبارة عن نور يشرق من الحضرة الإلهية على جوهر النبوة ، لشدة المحبة وكثرة المواضبة على السنن وكثرة الذكر بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ، ومثاله نور الشمس إذا وقع على الماء فإنه ينعكس منه إلى جميع المواضع " (2)

ويقول شيخ الأسلام :

" فيقولون (3) إذا توجه المستشفع إلى من يعظمه من الجواهر العالية ، كالعقول والنفوس ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، أو إلى النفوس المفارقة مثل بعض الصالحين ، فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به ، فاذا فاض على ذلك ما يفيض من جهة الرب فاض على هذا المستشفع من جهة شفيعه .

ويمثلونه بالشمس إذا طلعت على مرآة ، فانعكس الشعاع الذي على المرآة على موضع آخر ، فأشرق بذلك الشعاع . فذلك الشعاع حصل له بمقابلة المرآة ، وحصل للمرآة بمقابلة الشمس .

فهذا الداعي المستشفع إذا توجه إلى شفيعه أشرقت عليه من جهته مقصود الشفاعة ، وذلك الشفيع يشرق عليه من جهة الحق .

ولهذا يرى هؤلاء دعاء الموتى عند القبور وغير القبور ، ويتوجهون إليهم ويستعينون بهم ، ويقولون : إن أرواحنا إذا توجهت إلى روح المقبور في القبور اتصلت به ، ففاضت عليها المقاصد من جهته .

---

1) الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ١٠٣

2) المضنون به على غير أهله لأبي حامد الغزالي ٩٢- ٩٣

3) يريد الفلاسفة القائلين بالاستفاضة .

وكثير منهم ومن غيرهم من الجهال يرون أن الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين من أهل البيت وغيرهم أفضل من الصلوات الخمس والدعاء في المساجد ، وأفضل من حج البيت العتيق " [1]

ولذا يقول شيخ الإسلام عن القول بالاستفاضة :

" ومعلوم أن كفر هؤلاء بما يقولونه في الشفعاء أعظم من كفر مشركي العرب بما قالوه فيهم ، لأن كلا الطائفتين عبدوا من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، لكن العرب أقروا بأن الله عالم بهم ، قادر عليهم ، يخلق بمشيئته وقدرته ، وقالوا : إن هؤلاء ينفعوننا بدعائهم لنا . " [2]

فأما قول الكوثري أنه لا يؤخذ في مسائل العقيدة إلا من علماء الكلام أو من يسميهم علماء أصول الدين ، فهو من الكلام المردود عليه ، فإن الواجب على الأمة جمعاء علماء وعامة أن يؤمنوا بما جاء في الكتاب والسنة على فهم الرسول الكريم ﷺ وفهم صحابته وأتباعهم ، فإن أخذ أمور الاعتقاد إنما يكون بالأثر عنه ﷺ وعن صحابته الذين نزل القرآن بلسانهم .

هذه أدلة الكوثري العقلية على جواز الاستغاثة بالأموات الذي يسميه توسلاً ، أما أدلته النقلية ، فإنه استدل بالقرآن ، واستدل بالسنة والآثار .

استدلاله بالقرآن الكريم :

يقول :

" أما الكتاب فمنه قوله تعالى (وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ) [3] ، والوسيلة بعمومها تشمل التوسل بالأشخاص والتوسل بالأعمال ، بل المتبادر من التوسل في الشرع هو هذا وذاك " [4] .

---

١) الرد على المنطقيين لشيخ الاسلام ١٠٣ – ١٠٤

٢) الرد على المنطقيين ١٠٤

٣) المائدة ٣٥ .

٤) مقالات الكوثري ٤٥٠.

ومراده بالتوسل بالأشخاص ، أي الاستغاثة بهم ، لا التوسل البدعي وهو التوسل بذكر أسمائهم عند الدعاء ، كما يبينه قوله : " جواز استعمال لفظ الاستغاثة في صدد التوسل " [1]

وهذا التفسير للآية ليس عليه أثارة من علم ، بل هو تحكم بلا دليل ، ولذا نرى الكوثري يبادر فيقول :

" أما شمول الوسيلة في الآية المذكورة ، للتوسل بالأشخاص فليس برأي مجرد، ولا هو مأخوذ من العموم اللغوي فحسب ، بل هو المأثور عن الفاروق رضي الله عنه حيث قال بعد أن توسل بالعباس رضي الله عنه في الاستسقاء : هو والله الوسيلة إلى الله عز وجل .. كما في الاستيعاب لابن عبد البر " [2] .

ثم استدل بحديث عثمان بن حنيف [3] في تفسير الآية .

فأستعين بالله وأقول :

أولاً : إن الكوثري قد لبّس فيما نسبه إلى ابن عبد البر ، وكذب عليه ، فإن قوله (هو والله الوسيلة إلى الله عز وجل) ليس من كلام عمر ــ رضي الله عنه ــ كما زعم ، بل هو من كلام ابن عبد البر و حيث جاء في كتاب (الإستيعاب) بعد ذكر القصة ما يأتي :

" قال أبو عمر : هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل . " [4]

وأبو عمر هو المصنف ابن عبد البر نفسه ، وهذا من عادة النساخ عند ابتداء النص ، فالكلام لابن عبد البر ، وينسبه الكوثري إلى عمر ــ رضي الله عنه ــ ؟

فانظر إلى هذا التلبيس ، والتدليس ، إن لم نقل الكذب الظاهر .

ثانياً : قد ذكر ابن عبد البر في الكتاب نفسه والصفحة نفسها ما ينقض كلام الكوثري ، حيث قال ابن عبد البر :

---

١) مقالات الكوثري ٤٦٧ .

٢) نفسه ٤٥١

٣) سيأتي الكلام على حديث عثمان .

٤) الإستيعاب لابن عبد البر ٢ / ٨١٥ ط الأولى ١٤١٢-١٩٩٢ نشر دار الجيل .

" ثم قال عمر : يا أبا الفضل ، قم فادع ، فقام العباس فقال بعد أن حمد الله تعالى والثناء عليه : اللهم إن عندك سحاباً وعندك ماء فانشر السحاب ثم أنزل الماء منه علينا فاشدد به الأصل وأدر به الضرع، اللهم إنك لم تنزل بلاء بلا ذنب ، ولم تكشفه إلا بتوبة ، وقد توجه القوم إليك فاسقنا الغيث ، اللهم شفعنا في أنفسنا وأهلينا ، اللهم إنا شفعنا بمن لا ينطق من بهائمنا وأنعامنا ، اللهم اسقنا سقياً وادعاً نافعاً طبقاً سحاً عاماً اللهم لا نرجو إلا إياك ....." إلى أن قال ابن عبد البر : " فسقوا والحمد لله " [1]

وهذا نص ينقض ما بناه الكوثري ، وعجبي منه لا ينقضي فهو ينكر أن يكون توسل عمر والصحابة ، أنما كان بدعاء العباس لاغير ، ويستشهد بابن عبد البر ، وهذا ابن عبد البر ينقل ويحكم بأن توسلهم إنما كان بدعائه !

ومما يستدل به قوله تعالى (وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) [2] .

يقول :

" ويستأنس في التوسل به ﷺ بما ذكره البغوى وغيره من أهل التفسير بالرواية في قوله تعالى (وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ) [3] من أن اليهود كانوا إذا حزبهم أمر ودهمهم عدو يقولون : " اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة ، فكانوا ينصرون " [4] .

وهذا الأثر موضوع ، يقول شيخ الإسلام : " وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه وقال : أدت الضرورة إلى إخراجه .

وهذا مما أنكره عليه العلماء ، فإن عبد الملك بن هارون من أضعف الناس ، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك ، بل كذاب . " [5]

---

١) الاستيعاب لابن عبد البر ٢ / ٨١٤ – ٨١٥

٢) البقرة (٨٩)

٣) البقرة (٨٩)

٤) مقالات الكوثري ٤٥٩.

٥) مجموع الفتاوى ١ / ٣٩٩ .

والصحيح في هذا ما أخرجه ابن جرير الطبري ، عن عاصم بن عمر عن قتادة قال : حدثني أشياخ قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ من من كان معنا من يهود ، وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن ، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً مبعوثاً الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله عز وجل رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به ، ففينا وفيهم أنزل الله عز وجل (وَكَانُوا مِن قَبْلُ) الآية[1] .

وهذا أثر صحيح ، فأين هذا مما نقله الكوثري ؟

فإن اليهود كانوا يتوعدون عدوهم ويبشرون أنفسهم بقرب بعثته ﷺ وأن الدالة لهم ، بينما الذي ذكره الكوثري غير هذا .

استدلاله بالسنة والآثار

يقول الكوثري : " ما أخرجه البخاري في الاستسقاء حيث قال في صحيحه : حدثني الحسن بن محمد قال حدثنا محمد الأنصاري قال حدثني أبي ، عبد الله بن المثنى عن ثمامة بن عبد الله بن أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال فيسقون)[2] وفيه التوسل بالذات " .[3]

ووجه الدلالة له من هذا الحديث بين من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما توسل إلى الله بذات العباس لا بدعائه فهو يقول : " وادعاء أن هناك محذوفاً أي بدعاء عم نبينا ، تقول محض بدون حجة " [4] .

---

١) تفسير ابن جرير الطبري ٢/ ٣٣٥ .

٢) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء ، و رواه البخاري – رقم الحديث ٩٥٤ – الجمعة – سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا ، و في كتاب المناقب ، باب ذكر العباس بن عبد المطلب – رقم الحديث ٣٤٣٤ – ، ورواه مالك في الموطأ ١ / ١٤٩ ، وابن حبان ٧ / ١١٢ ، وابن خزيمة ٢ / ٣٣٧ — ٣٣٨

٣) مقالات الكوثري ٤٥٩.

٤) نفسه ٤٦٠.

وهذا الاستدلال قديم استند إلية القبوريون ، المجيزون الاستغاثة بالأموات ، واستدل به من جاء بعد الكوثري[1] .

وهو استدلال باطل من وجوه :

أولاً : لأن هذا الاستنباط مخالف لفهم الصحابة ، ولأئمة السلف الذين بينوا دلالة هذه القصة .

يقول شيخ الإسلام – بعد أن ساق هذا الحديث – :

" يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائة وشفاعتة لا السؤال بذاته ، إذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس "[2]

وقد سبق أن قلنا إن هذا الفهم حمل للنصوص على مصطلحات المتأخرين القبورية ، بعيد عن فهم السلف .

ثانياً : لو كان التوسل بذات الصالحين جائز لما عدلوا عن ذاته ﷺ إلى غيره يقول ابن أبي العز الحنفي منكراً هذا الفهم البدعي :

" فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي صلى الله علية وسلم لفعلوه بعد موته ، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه فيطلبون منه أن يدعو لهم ، وهم يؤمنون على دعائه ، كما في الاستسقاء ، وغيره فلما مات ﷺ قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون : (اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا) معناه بدعائة هو ، وشفاعته وسؤاله ، ليس المراد أنا نقسم عليك به ، أو نسألك بجاهه عندك ، إذ لو كان مراداً ، لكان جاه النبي ﷺ أعظم ، وأعظم من جاه العباس "[3] .

فهذا الكلام كلام إمام من أئمة الحنفية الذين ينتسب إليهم الكوثري بينٌ في دلالته .

---

١) انظر مثلاً شفاء السقام للسبكي ١٤٣، وصلح الإخوان لابن جرجيس ٧٩ ومفاهيم يجب أن تصحح للمالكي ٦٩.

٢) مجموع الفتاوي ٢٢٣/١.

٣) شرح القعيدة الطحاوية لابن أبي العز ٢٩٨/١-٢٩٩.

يقول الألوسي [1] عن هذا الفهم المتعلق بالحديث :

" لو كان التوسل به عليه الصلاة والسلام بعد انتقاله من هذه الدار جائزاً لما عدلوا إلى غيره ، بل كانوا يقولون : اللهم إنا نتوسل إليك بنبينا فاسقنا ، وحاشاهم أن يعدلوا عن التوسل بسيد الناس إلى التوسل بعمه العباس ، وهم يجدون أدنى مساغ لذلك ، فعدولهم هذا - مع أنهم السابقون الأولون ، وهم أعلم منا بالله تعالى ورسوله ﷺ ، وبحقوق الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وما يشرع من الدعاء وما لا يشرع ، وهم في وقت ضرورة ومخمصة يطلبون تفريج الكربات ، وتيسير العسير ، وإنزال الغيث بكل طريق - دليل [2] واضح على أن المشروع ما سلكوه دون غيره ، وما ذكره من قياس غيره من الأرواح المقدسة عليه ﷺ مع التفاوت في الكرامة ، الذي لا ينكره إلا منافق مما لا يكاد يسلم ، على أنك قد علمت أن الإقسام به ﷺ على ربه عز وجل شأنه حيا وميتاً مما لم يقم النص عليه ، لا يقال إن في خبر البخاري دلالة على صحة الإقسام به علية الصلاة والسلام حيا ، وكذا بغيره كذلك . أما الأول فلقول عمر رضي الله تعالى عنه : كنا نتوسل بنبيك صلى الله علية وسلم وأما الثاني فلقوله : إنا نتوسل بعم نبيك - لما قيل : إن هذا التوسل ليس من باب الإقسام ، بل هو من جنس الاستشفاع ، وهو أن يطلب من الشخص الدعاء والشفاعة ، ويطلب من الله تعالى أن يقبل دعاءه وشفاعته ، ويؤيد ذلك أن العباس كان يدعو وهم يؤمنون لدعائه حتى سقوا ، وقد ذكر التقي : أن لفظ التوسل بالشخص والتوجه إليه وبه ، فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح ، فمعناه في لغة الصحابة رضي الله تعالى عنهم : أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، فيكون التوسل

---

١) (الألوسي) نعمان بن محمود بن عبدالله ، أبو البركات ، خير الدين ، الآلوسي : واعظ ، فقيه ، باحث ، من اعلام الأسرة الآلوسية في العراق . ولد سنة ١٢٥٢هـ ونشا ببغداد . وولي القضاء في بلاد متعددة ، منها الحلة . وترك المناصب . وزار مصر في طريقه إلى الحج وقصد الآستانة سنة ١٣٠٠ هـ فمكث سنتين . وعاد حامل لقب ((رئيس المدرسين)) فعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي ببغداد سنة ١٣١٧هـ . قال الأثري : كان عقله أكبر من علمه ، وعلمه أكبر من إنشائه ، وإنشاؤه أمتن من نظمه ، وكان جواداً وفياً ، زاهداً ، حلو المفاكهة ، سمح الخلق . من كتبه ((جلاء العينين في محاكمة الاحمدين)) و ((الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح)) و ((غالية المواعظ)) ، الأعلام للزركلي ٤٢/٨.

٢) كلمة (دليل) خبر للمبتدأ (فعدولهم)

والتوجه في الحقيقة بدعائه وشفاعته ، وذلك مما لا محذور فيه ، وأما في لغة كثير من الناس فمعناه أن يسأل الله تعالى بذلك ويقسم به علية ، وهذا هو محل التراع ، وقد علمت الكلام فيه.

وجعل من الإقسام غير المشروع قول القائل : اللهم أسألك بجاه فلان ، فإنه لم يرد عن أحد من السلف أنه دعا كذلك." [1] .

يقول شيخ الإسلام :

" فلو كان توسلهم بالنبي ﷺ بعد مماته كتوسلهم به في حياته لقالوا : كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ؟ ونعدل عن التوسل بالنبي ﷺ الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله ؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم ، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته ، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره ، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته " [2] .

ثالثاً : أنه قد جاء ما يدل على أن التوسل بالعباس إنما كان بدعائه ، فقد قال ابن حجر العسقلاني : " وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة ... لما استسقى به عمر ، قال : اللهم إنه لم يترل بلاء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا إليك بالتوبة ، فاسقنا الغيث ، فأرخت السماء مثل الجبال . " [3]

وهذا البدر العيني ــ الذي أفرد له الكوثري ترجمة خاصة لكونه من الأحناف ــ يقول : " إن العباس قال ذلك اليوم : اللهم إن عندك سحاباً ، وإن عندك ماءً ، فانشر السحاب ، ثم أنزل منه الماء ، ثم أنزله علينا ، واشدد به الأصل ، واحل به الفرع ، وأدر به الضرع ، اللهم شفعنا إليك عمن لا منطق له من بهائمنا وأنعامنا .

---

١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين لنعمان الألوسي ٤٩٨-٤٩٩.

٢) مجموع الفتاوى ١ / ٢٨٤ .

٣) فتح الباري ، لابن حجر ٢ / ٥٧٧

اللهم اسقنا سقيا وادعة ، بالغة ، طبقاً مجيباً ، اللهم إنا نشكو إليك سغب كل ساغب ، وعدم كل عادم ، وجوع كل جائع ، وعري كل عار " [1]

وقد رواه عبدالرزاق في مصنفه وفيه : " أن عمر استسقى بالمصلى ، فقال للعباس : قم فاستسق ، فقام العباس فقال : اللهم إن عندك ماءً ...... " [2]

وهذا يدل على أن توسلهم بالعباس إنما كان بدعائه ، وأن هذا فهمهم من التوسل .

ويؤيده أن أهل الشام أصابهم قحط فخرج بهم معاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنه– " يستسقون فلما قعد معاوية على المنبر ، قال : أين يزيد بن الأسود الجرشي ؟ فناداه الناس ، فأقبل يتخطى الناس ، فأمره معاوية فصعد المنبر فقعد عند رجليه ، فقال معاوية : اللهم إنا نستشفع إليك بخيرنا وإفضلنا ، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي ، يا يزيد ارفع يديك إلى الله عز وجل ، فرفع يديه ورفع الناس أيديهم ، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس وهب لها ريح ، فسقينا حتى كاد النااس ألاّ يبلغوا منازلهم . " [3]

ومن أدلته أيضاً

قصة الرجل الذي استغاث بالرسول ﷺ عند قبره ، فزعم أنه رأى الرسول ﷺ في المنام يخبره أنهم يسقون .

يقول :

" ونص الحديث أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال : يارسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال : إيت[4] عمر فأقرئه السلام ، وأخبره أنهم يسقون الحديث

---

١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٧ / ٣٢ .

٢) المصنف لعبدالرزاق ٣ / ٩٢-٩٣ ح ٤٩١٣

٣) كرامات الأولياء للالكائي ١ / ١٩١. وذكر ابن حجر الأثر وقال : " أخرجه أبو زرعة الدمشقي ، ويعقوب بن سفيان في تاريخيهما بسند صحيح . " (الإصابة لابن حجر ٣ / ٦٧٣ ت ٩٣٩٣) . وفعل مثل هذا الضحاك مع يزيد أيضاً بعده بوقت (كرامات الأولياء للالكائي ١ / ١٩٠)

٤) في الأصل (أنت) وهو غلط .

ومحل الاستشهاد طلب الاستسقاء منه صلى الله علية وسلم وهو في البرزخ ، ودعاؤه لربه ، وعلمه بسؤال من يسأله ، و لم ينكر صنيعه هذا أحد من الصحابة " [١] .

ثم يزيد وضوحاً فيقول :

" وهذا نص على عمل الصحابة في الاستسقاء به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته حيث لم ينكر عليه أحد منهم مع بلوغ الخبر إليهم " [٢] .

وهذا الأثر " ليس بحجة على جواز الاستسقاء بالنبي ﷺ بعد وفاته ، لأن السائل مجهول ، ولأن الصحابة –رضي الله عنهم– على خلافه ، وهم أعلم الناس بالشرع ، و لم يأت أحد منهم إلى قبره يسأله السقيا ولا غيرها ، بل عدل عمر عنه لما وقع الجدب إلى الاستسقاء بالعباس ، و لم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة ، فعلم أن ذلك هو الحق ، وأن ما فعله هذا الرجل منكرٌ ووسيلة إلى الشرك ، بل قد جعله بعض أهل العلم من أنواع الشرك . " [٣]

أقول سبحان الله العظيم ، كيف يؤدي الهوى بالانسان إلى هذا فانظر كيف بنى الكوثري هذه الأحكام الباطلة على أثرٍ ضعيفٍ ؟ مناقضاً الآيات المحكمة ، والأحاديث الصحيحة الصريحة الدالة على انقطاع بني آدم عن الحياة الدنيا بالموت ؟

ومن أدلته

حديث عثمان بن حنيف المشهور ،ونصه عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى اله عليه وسلم " فقال : ادع الله أن يعافيني . قال : إن شئت صبرت فهو خير لك قال : فادعه ، قال فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء :

---

١) مقالات الكوثري ٤٦٠.

٢) مقالات الكوثري ٤٦١.

٣) حاشية فتح الباري للإمام عبد العزيز بن باز –رحمه الله– ٢ / ٤٩٥ ، وانظر أيضاً (هذه مفاهيمنا) لصالح آل الشيخ ٦١ – ٦٣ .

اللهم إني أسالك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يامحمد إني توجهت بك إلى ربك في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه فيّ " .[1]

يقول الكوثري :

" وفيه التوسل بذات النبي ﷺ وبجاهه ونداء له في غيبته " .[2]

وهذا الحديث هو حديث الأعمى ، رواه الأئمة بطرق كثيرة وقد صحح الحديث أئمة كابن خزيمة والترمذي والحاكم[3] .

وعلى فرض صحته ، لا حجة فيه على إباحة التوسل بذاته صلى الله علية وسلم .

يقول شيخ الإسلام :

" فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ودعا له النبي ﷺ ، ولهذا قال : وشفعه في ، فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه ، وهو دعاؤه وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ، ودعائه المستجاب ، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات ، فإنه ﷺ ببركة دعائة لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره .

هذا الحديث – حديث الأعمى – قد رواه المصنفون في دلائل النبوة "[4] .

وقال أيضاً عمن أستدل بهذا الحديث : " يظنون أن توسل الأعمى والصحابة به في حياته كان بمعنى الإقسام به على ربه ، أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته ولا يحتاج هو أن يدعو لهم ولا إلى أن يطيعوه ، ويظنون أن كل من توسل بالرسول كما توسل به ذلك الأعمى مشروع له ، وقول هؤلاء باطل شرعاً وقدراً ؛ فلا هم موافقون لشرع الله ، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله " إلى أن قال : " وهذا الأعمى شفع له انبي ﷺ ، ولهذا قال في دعائه : (اللهم ، فشفعه فيّ) ؛ فعلم أنه شفع فيه ، وكذلك قوله : (إن شئت صبرت ،

---

١) سنن ابن ماجه – رقم الحديث ١٣٧٥ – كتاب إقامة الصلاة و السنة فيها ، باب ما جاء في صلاة الحاجة ، وروراه الترمذي ٥ / ٥٦٩ ، وأحمد ٤ / ١٣٨ و وابن خزيمة في الصحيح ٢ / ٢٢٦ ، والحاكم في المستدرك ١ / ٤٥٨ ، ٧٠٧ .

٢) مقالات الكوثري ٤٦١.

٣) سنن الترمذي ٥ / ٥٦٩ حيث قال : (حديث حسن صحيح)، وصحيح ابن خزيمة ٢ / ٢٢٦ ، ومستدرك الحاكم ١ / ٤٥٨ حيث قال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبي .

٤) الفتاوى ٢٦٦/١.

وإن شئت دعوت لك) . فقال : ادع لي . فذعا له ، وقد أمره أن يصلي ويدعو هو لنفسه أيضاً ؛ فحصل الدعاء من الجهتين " [1]

ومن أدلته :

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في سنن ابن ماجة في باب المشي إلى الصلاة (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك – الحديث) [2] " [3] .

يقول الكوثري :

" وفي الحديث التوسل بعامة المسلمين وخاصتهم " [4] .

والحديث حديث ضعيف ، قال البوصيري : هذا إسناد مسلسل بالضعفاء[5] .

وقال شيخ الإسلام : " في إسناده عطية العوفي ، وفيه ضعف " [6] ولا يخلو طريق من طرقه من ضعف شديد [7] .

ثم على فرض صحته ، فليس فيه دلالة ، على ما ذهب إليه الكوثري ، فإن هذا الحق الوارد في الحديث يوضحه قوله تعالى (ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [8] فإن السائل يطلب الحق الذي أحقه الله على نفسه وهو إجابته للسائل ، فليس فيه توسل لا بذات النبي ﷺ ولا بذات عامة المسلمين أو خاصتهم كما زعم الكوثري .

ولذا يقول الكوثري :

---

١) تلخيص كتاب الاستغاثة ١ / ٢٦٧ – ٢٦٨ .

٢) سنن ابن ماجه – باب المشي إلى الصلاة ١ / ٢٥٦ ، قال البوصيري في مصباح الزجاجة : هذا إسناد مسلسل بالضعفاء (١٧٢/١) ، ورواه أحمد ٣ / ٢١ ، ٤ / ١٥٩.

٣) مقالات الكوثري ٤٦٥ .

٤) نفسه ٤٦٦.

٥) مصباح الزجاجة للبوصيري ١٧٢/١

٦) تلخيص كتاب الإستغاثة ١ / ١٢٣ .

٧) انظر (السلسة الضعيفة) للألباني برقم ٢٤ .

٨) غافر ٦٠ .

" وليس معنى الحق ، الإجابة ، بل ما يستحقه السائلون المتضرعون فضلاً من الله " [1].

وهذا الكلام لا معنى له ، بل أقول فيه ما قاله هو أنه" يثير الضحك الشديد والهزء المديد " [2].

فما الفرق بين إجابة الله لسؤال الداعي وبين ما يستحقه السائلون ؟

أليس ما يستحقة السائلون من الله هو ما طلبوه ، من رحمة ، أو من رزق ؟ وهو الحق الذي وعد بإعطائه من دعاه ؟

ومن أدلته :

حديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ " لما اقترف آدم الخطيئة ، قال : يــارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي .." أخرجه الحاكم في المستدرك وقال هذا حديث صحيح الإسناد.

قال : ومنها حديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ " لما اقترف آدم الخطيئــة ، قال : يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي .." أخرجه الحاكم في المستدرك وقال هــذا حديث صحيح الإسناد وهو أول حديث ذكرته لعبدالرحمن بن زيد أ.هـــ "

ثم قال الكوثري : " وأما عبدالرحمن بن زيد فقد ضعفه مالك وتابعه آخــرون إلا أنه لم يتهم بالكذب ، بل بالوهم ، ومثله ينتقى بعض أحاديثه ، وهذا هو الــذي فعلــه الحاكم حيث رأي أن الخبر مما قبله مالك فيما روى عن ابن حميد عنه حيــث قــال لأبي جعفر : هو وسيلتك ، ووسيلة أبيك آدم عليه السلام .

وبعد أن أقر الإمام مالك رضي الله عنه بصحة الخبر ،واحتج به زالت تهمة الوهم وقلة الضبط عن عبد الرحمن الذي إنما يقتدي من يقتدي مــن رمــاه بــذلك بمالــك ، وعبدالرحمن بن زيد ليس ممن يرد خبره مطلقاً ، وهاهو الإمام الشافعي يستدل في دين الله ببعض حديثه في الأم وفي مسنده فلا لوم على الحاكم في عده هذا الحديث صحيحاً ، بل

---

١) مقالات الكوثري ٤٦٦.

٢) نفسه ٤٦٦ .

قال تعالى :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (الأنعام ١٥٣) .

قال رسول الله ﷺ :
(ذروني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم) (رواه مسلم) .

(إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا ، بل الواقع أنه مامن بلاء كان فيما سبق إلا وهو موجود اليوم) .

ولي الله الدهلوي .

وقال ابن حبان [1] :

"كان ممن يقلب الأخبار وهو لا يعلم ؛ حتى كثر ذلك في روايته ؛ ،من رفع المراسيل، وإسناد الموقوف، فأستحق الترك" [2]

يقول الحافظ ابن عبدالهادي :

" وأما عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فهو ضعيف غير محتج به عند أهل الحديث ، قال الفلاس : لم أسمع عبدالرحمن بن مهدي يحدث عنه ،وقال أبو طالب عن أحمد بن حنبل: ضعيف ، وقال عباس الدوري عن يحي بن معين : ليس حديثه بشي ، وقال البخاري وأبوحاتم الرازي :ضعفه علي بن المدني جداً ؛ وقال أبو داود وأبو زرعة والنسائي والدارقطني : ضعيف ،وقال ابن حبان : كان يقلب الأخبار؛ وهو لايعلم حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فأستحق الترك .

وقال الحاكم أبو عبد الله : روى عن أبية أحاديث موضوعة لا يخفى على من تأملها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه ، وقال ابن خزيمة : عبد الرحمن بن زيد ليس ممن يحتج أهل الحديث بحديثه ؛وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : حدث عن أبيه لاشيء " وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم سمعت الشافعي يقول:ذكر رجل لمالك حديثاً فقال: من حدثك فذكر له إسناداً منقطعاً، فقال : اذهب إلى عبدالرحمن بن زيد يحدثك عن أبيه عن نوح ." [3]

وأما زعمه أن (الإمام الشافعي يستدل في دين الله ببعض حديثه في الأم وفي مسنده).

فالجواب أن هذا من التدليس الذي لا يخفى ، فإن الشافعي ، قد ذكر في الأم ومسنده ، الصحيح والضعيف ، ومن قال إن كل ما ذكره فقد صححه ؟

---

١) محمد بن حِبَّان بن أحمد ، أبو حاتم التميمي البُسْتي السجستاني (٣٥٤هـ) الإمام العلاَّمة، الحافظ المجوِّد، شيخ خراسان. سمع من : النسائي، وأبي يعلى، وابن خزيمة، وغيرهم. وحدَّث عنه : أبو عبدالله بن منده ، والحاكم، وغيرهما. قال الحاكم : كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه، واللغة، والحديث، والوعظ، ومن عقلاء الرجال. وقال الخطيب : كان ثقة نبيلاً فهماً. من كتبه : "الأنواع والتقاسيم" و "الثقات" و "المجروحين"، وغيرهما، [السير (٩٢/١٦)- التذكرة (٩٢٠/٣)- الميزان (٥٠٦/٣)].

٢) الضعفاء لابن حبان ٢ / ٥٧ .

٣) الصارم المنكي لابن عبدالهادي ٤٢ .

قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي يقول : سأل رجل عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، حدثك أبوك عن أبيه عن جده أن سفينة نوح طافت بالبيت وصلت ركعتين ؟ قال: نعم ." [1]

هذا هو رأي الشافعي في عبدالرحمن بن زيد ، فما رأي الكوثري في هذا ؟ .

وهذا الأثر مخالف لتفسير القرآن بالقرآن ، فإن الله أخبر أن آدم تلقى من ربه كلمات لقنه إياها ،كانت سبباً للمغفرة (فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) [2] ، وقد ذكر الله هذه الكلمات في موضع آخر من كتابه حيث ، قال : (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) [3] .

يقول ابن كثير : " قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) روي هذا عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب القرضي ، وخالد بن معدان ، وعطاء الخرساني ، عبدالرحمن بن زيد بن أسلم . " [4]

والعجيب ـــ كما ترى ـــ أن مدار الحديث على عبد الرحمن بن زيد ، وقد فسر الكلمات بما سبق .

قال شيخ الإسلام : " هذا الحديث وأمثاله لا يحتج به في إثبات حكم شرعي لم يسبقه أحد من الأئمة إليه وإثبات عبادة لم يقلها أحد من الصحابة ولا التابعين وتابعيهم إلا من هو أجهل الناس بطرق الأحكام الشرعية وأضلهم في المسالك الدينية .

---

١) الصارم المنكي لابن عبدالهادي ٤٢

٢) البقرة ٣٧ .

٣) الأعراف ٢٣ .

٤) تفسير القرآن لابن كثير ١ / ٨١ .

فإن هذا الحديث لم ينقله أحد عن النبي ﷺ لا بإسناد حسن ولا صحيح ، بل ولا ضعيف يستأنس به ويعتضد به " [1] .

ويقول :

" ومما يبين كذب هذا أن الله سبحانه وتعالى قال: (فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعًا) ؛ فأخبر أنه تاب عليه بالكلمات التي تلقاها منه

وقد قال تعالى : (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا) فأخبر أنه أمرهم بالهبوط عقب هذه الكلمات .

وأخبر أنه تاب عليه عقب الكلمات وأمره بالهبوط ، فكان أمره بالهبوط عقب الكلمات التي تلقاها منه ، وهي قولهما : (رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) أو كلما ت تشبه هذه الكلمات ، ذكر ذلك طائفه كثيرة من المفسرين .

ومن ذكر أن الكلمات التي تلقاها من ربه غير هذه ؛ لم يكن معه حجه في خلاف ظاهر القران ." [2]

وأما زعمه قبول مالك للحديث ، وقوله لأبي جعفر : هو وسيلتك ووسيلة أبيك فهي قصة ، لم تصح عن الإمام مالك ، حتى يستنتج منها تصحيحه للحديث .

يقول ابن تيمية :

" وهذه الحكاية منقطعة ، فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكاً ، لا سيما في زمن أبي جعفر "[3] .

ثم قال :

---

١) الرد على البكري لشيخ الاسلام ٥٦ .

٢) الرد على البكري لشيخ الاسلام ٦٨ .

٣) الفتاوى ٢٢٩/١ .

"وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث كذبه أبو زرعة ، وابن وارة ، وقال صالح بن محمد الأسدي : ما رأيت أحداً أجرأ على الله منه ، وأحذق بالكذب منـــه ، وقال يعقوب بن شيبة : كثير المناكير ، وقال النسائي : ليس بثقة " .

ثم قال : " ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند فكيف إذا أرســـل حكاية لا تعرف إلا من جهته ، هذا إن ثبت عنه ، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه " [1].

وهذا الذي نقله شيخ الإسلام عن أئمة الحديث الذين ضعفوا محمـــداً الـــرازي لم يستطع الكوثري أن ينقضه إلا بقوله :

" لكن الرازي هذا ليس حاله كما يريد أن يصوره الشمس بن عبد الهادي حيث حشر قول جميع من تكلم فيه ، وأهمل كلام من أثنى عليه " [2]

وابن حميد هذا ، هو محمد بن حميد بن حيان التميمي الرازي (٢٤٨) ، نقـــل عن بعض الأئمة توثيقه ، لكن استقر الحال على تضعيفه .

"سئل ابن معين فقال : ثقة لا بأس به " [3] .

وقد أنكر بعضهم على الصاغاني أن يحدث عنه ، فقال : " وما لي لا أحدث عنه ، وقد حدث عنه أحمد ويحي " [4]

هذه أقوال بعض من وثقه ، فأما ابن معين ، لم يظهر له ما يوجب الطعن فلهـــذا أثنى عليه ، يقول أبو حاتم الرازي : " سألني يحي بن معين عن ابن حميد من قبل أن يظهر منه ما ظهر ، فقال : أي شي ينقمون منه ، فقلت : يكون في كتابه شيء فيقول : لـــيس هذا هكذا ، فيأخذ القلم فيغيره " [5]

فقوله (من قبل أن يظهر منه ما ظهر) ، أي من قبل أن يشتهر حاله .

ولذا فقد تكاثرت أقوال العلماء ، في تضعيفه ، بل واتهامه بالكذب .

---

١) الفتاوي ٢٢٨/١-٢٢٩.

٢) مقالات الكوثري ٤٦٣.

٣) تهذيب التهذيب لا بن حجر ١١٢

٤) تهذيب التهذيب لا بن حجر ١١٢

٥) تهذيب التهذيب لا بن حجر ١١٣ .

يقول يعقوب بن شيبة : كثير المناكير ، ويقول البخاري : في حديثه نظر ، وقال النسائي : ليس بثقة ، وقال الجوزجاني : رديء المذهب ، غير ثقة ، وسئل أبو زرعة عنه فأومى إليّ بإصبعه إلى فمه ، فقيل له : كان يكذب ؟ فقال برأسه ، نعم ، فقيل له : كان قد شاخ ، لعله كان يعمل عليه ويدلس عليه ، فقال : لا يا بني ، كان يتعمد .

وقال أبو نعيم بن عدي : سمعت أبا حاتم الرازي في منزله وعنده ابن خراش ، وجماعة من مشايخ أهل الري ، وحفاظهم ، فذكروا ابن حميد ، فأجمعوا على أنه ضعيف في الحديث جداً .

وقال النسائي : محمد بن حميد ، كذاب .

وقيل لابن خزيمة ، لو حدثت عن ابن حميد ، فإن أحمد قد أحسن الثناء عليه ، فقال : إنه لم يعرفه ، ولو عرفه كما عرفناه ، ما أثنى عليه [1] .

ولذا لخص ابن حجر حاله في التقريب فقال : " حافظ ضعيف ، كان ابن معين حسن الرأي فيه " [2]

لكن لي أن أنقض هذه القصة بكلام الكوثري نفسه ، فإنه يقول عن الرازي هذا :

"وليس مثله يتهم في مثل هذا الخبر ،وقد مات سنة (٢٤٨) عن سن عالية ، وكان عمره عند وفاة مالك لا يقل عن نحو خمس عشرة [3] سنة " [4] .

فإذا كان الرازي عند وفاة مالك سنة (١٧٩) ابن خمس عشرة سنة فيكون ولد بعد وفاة أبي جعفر بست سنين !

فعلى كلام الكوثري ، يكون الرازي ، ولد سنة ١٦٤هـ (١٦٤ + ١٥ = ١٧٩ ، وهي سنة وفاة مالك .) وأبوجعفر ، توفّي سنة ١٥٨ (١٥٨ + ٦ = ١٦٤ ، وهي سنة ولادة الرازي .!).

وهكذا نراه ينقض ، القصة التي احتج بها ، بنفسه من حيث لايشعر .

فهي كما ذكر شيخ الإسلام قصة منقطعة السند ، من راوٍ ضعيف قد أرسلها ؟

---

١) انظر هذه النقول في تضعيفه في ، تهذيب التهذيب ، لا بن حجر ١١٣ - ١١٥

٢) تقريب التهذيب لابن حجر ٤٧٥ (٥٨٤٣) .

٣) في الأصل (عشر)

٤) مقالات الكوثري ٤٦٤

والعجيب من أمر الكوثري ، نقله عن الحاكم ، وهو القائل فيه : " الحاكم شديد التعصب ، اختلط في آخره " (١)

ومن أدلته أيضاً

قوله : " وكان ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل بشعر أبي طالب : وأبيض يستسقى الغمام بوجهه " .

ثم قال : " وفي كل ذلك طلب السقيا من الله بذات العباس وجاهه عند الله " (٢) .

وهذا الكلام كذب وتدليس في النقل فإن البخاري روى في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قوله : ربما ذكرت قول الشاعر ، وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي فما ينزل حتى يجيش كلُ ميزاب .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل (٣)

فأين هذا مما ساقه الكوثري ؟

فابن عمر رضي الله عنه يتحدث عن استسقاء النبي ﷺ بالدعاء والكوثري يلبس أن ابن عمر يشير إلى الاستسقاء بذاته ﷺ .

واختم هذا الموضع بأني لم أر أحداً يجيز مايسمى التوسل بذوات الصالحين إلا وقد وقع في الاستغاثة بالصالحين ، وأجازها ، وأجاز دعاءهم ، وطلب الحاجات إليهم ، فلذا كان ما يسمونه التوسل بذات الصالحين وسيلة تدفعهم إلى الوقوع في الشرك الصراح .

والكوثري ليس بدعاً عنهم ، فإنه يقول :

"ولا بأس أن نزيد هنا كلمة في الاستغاثة والاستعانة والكل من واد واحد ، ففي حديث الشفاعة عند البخاري استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد ﷺ ، وهذا يدل على جواز استعمال الاستغاثة في صدد التوسل " (٤) .

---

١) تأنيب الخطيب للكوثري ٢١٧ .

٢) مقالات الكوثري ٤٦١.

٣) صحيح البخاري ٤٩٥/٢.

٤) مقالات الكوثري ٤٦٧.

وعلى هذا فالذي يستغيث بالأموات والملائكة وغيرهم متوسل ، والتوسل من أجل القربات التي يحبها الله ؟

سبحان الله ، وهل هذا إلا من الشرك الذي كان يفعله مشركوا العرب ، ويسمونه تزلفاً إلى الله ؟

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ) [1] .تطابق الاحتجاج ، فالكوثري وسلفه يسمون المستغيث بالأموات - إذا اعتقد أن المدبر هو الله — متوسلاً إلى الله .

والمشرك من العرب يسمى المستغيث بالأموات — إذا اعتقد أن الله خالقه — متزلفاً (متقرباً) إلى الله ؟

لكن ما قول الكوثري في نصوص الوحدانية من قبل قوله تعالى (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وإذا استعنت فاستعن بالله ؟

يقول : "وأما قوله تعالى (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) ففي العبادة والهداية بقرينة السباق والسياق كما هو الجدير بحال المناجاة فلا يكون فيه تعطيل الأسباب العادية الدنيوية " [2] .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، فهذا الكلام ينفر منه ذوو القلوب الحية المؤمنة ، التي ملئت محبة الله وإعظامه جوانحها .

فكيف يقال إن الاستعانة بالله إنما تكون في عبادته وعند إرادة هدايته .

أليس هذا تعطيل لركن عظيم من أركان العبادة ، فلا يستعان بالله في الأمور الأخرى ، من أمور الدنيا والآخرة ؟

ويستعان في قضاء الحاجات وتفريج الكربات ، ودفع الأذى بالصالحين والأموات ؟

وأما الله جل جلاله فله الاستعانة في العبادة والهداية ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم .

---

١) الزمر ٣ .

٢) مقالات الكوثري ٤٦٧

والذي دفع الكوثري للوقوع في مثل هذه الطامة الهوى وحب التقليد ، فعز عليه نقض ما كان عليه شيوخه وسلفه ، فحرف معنى الآية ،وعطل نوعاً من أعظـــم أنـــواع العبادة .

المطلب الثالث

موقف الكوثري من أدلة المخالفين

المطلب الثالث :

موقف الكوثري من أدلة المخالفين

قد مر بنا كيف أن الكوثري وضع ، للتوسل مفهوماً يخالف مفهوم السلف ، وسعى إلى الاستدلال على ذلك .

وهو بذل جهداً كبيراً في الاستدلال بالقرآن الكريم ، وبالسنة المطهرة على جواز ما يسميه توسلاً ، وهو في الحقيقة ـــ كما تبين لنا ـــ دعاء الأموات ، ومناجاتهم .

لكن ماهو موقف الكوثري ، تجاه الأدلة التي استدل بها علماء السلف المانعين للاستغاثة بالأموات وطلب المدد منهم ؟

كيف فعل الكوثري تجاه تلك النصوص الكثيرة ؟

وما موقفه تجاه وجه الدلالة التي استنبطها أئمة السلف منها ؟

سعى الكوثري إلى إبطال هذه النصوص ، أو إبطال وجه الدلالة منها .

فهذا حديث البخاري الذي رواه في صحيحه عن أنس ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ ، كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون .[1]

فقد استدل السلف من هذا الحديث على جواز التوسل بدعاء الرجل الصالح الحي وفسروا لفظ التوسل الوارد في هذا الحديث ، بأن المراد به طلب الدعاء ، فهم توسلوا بدعائه ، لا بذاته

يقول شيخ الاسلام :

١) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء ، باب سؤال الناس الاستسقاء ، حديث رقم ١٠١٠

" وأما التوسل بدعائه وشفاعته ــ كما قال عمر ــ فإنه توسل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسل إلى التوسل به بعمه العباس ، ولو كان التوسل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسل بالعباس "[١]

فهنا قد تقرر من خلال فعل الصحابة أنهم عدلوا عن طلب الدعاء من الرسول ﷺ بعد وفاته ، بطلب الدعاء من العباس ، لأنه لا يجوز دعاء الأموات كائناً من كان .

ومع بيان هذا وجلائه ، فإن الكوثري يرده ، ويرفضه فهو يقول :

" ومن حاول إنكار جواز التوسل بالأنبياء بعد موتهم بعدول عمر إلى العباس في الاستسقاء ، قد حاول المحال ونسب إلى عمر مالم يخطر له على بال ، فضلاً عن أن ينطق به ، فلا يكون هذا إلا محاولة إبطال السنة الصحيحة الصريحة بالرأي ."[٢]

وهذا الكلام من الكوثري ليس فيه رد البتة ، وإنما هو إنشاء بلاحجة ، ولا نقض دليل ، وهو تكلم عن مراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدون دليل .

وهذا دليل على قوة استدلال أهل السنة والجماعة من هذا الحديث ، إذ لو كان استنباطهم من الحديث ضعيفاً لما اكتفى الكوثري بقوله : " إلا محاولة إبطال السنة الصحيحة الصريحة بالرأي "[٣]

وعجز عن بيان كيفية تعطيلهم للسنة بالرأي ؟

فهي دعوى لابرهان عليها .

ومما يستدل به الكوثري قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا)[٤]

فيزعم جواز إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبره ، والطلب إليه أن يستغفر الله له . يقول :

---

١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ١ / ٢٠١

٢) مقالات الكوثري ٤٥٢

٣) نفسه ٤٥٢

٤) النساء ٦٤

" وتخصيص قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا)[1] بما قبل الموت تخصيص بدون حجة عن هوى ، وترك المطلق على إطلاقه مما اتفق عليه أهل الحق ، والتقييد لا يكون إلى بحجة ، ولا حجة هنا تقيد الآية ."[2]

وقد غفل الكوثري عن أن القيد الذي يقيد الآية ليس نصاً واحداً بل عدة نصوص ، تقرر أن من دعى الأموات فقد أشرك بالله ، ولا يقال هذا في حق غير الرسول ﷺ ، لأن الشرك إنما يكون مع الصالحين لا مع غيرهم .

فعن ابن عباس رضي الله عنه : قال : لما نزلت (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ)[3] قال المشركون: فإن عيسى يُعبد ، وعزير والشمس والقمر يعبدون . فأنزل الله (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)[4] لعيسى وغيره "[5]

فانظر كيف أن كفار العرب حكموا على من عبد المسيح بالشرك ، وأقرهم الله ورسوله ﷺ على هذا الفهم ، بدليل نزول قوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)

ومن أدلة أهل السنة والجماعة على منع ما يسمى التوسل بغير الله ، ووجوب حصره لله ، ما رواه الترمذي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال له " إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله "[6]

حيث بين هذا الحديث حصر الاستغاثة بالله دون غيره .

---

١) النساء ٦٤

٢) مقالات الكوثري ٤٥٩

٣) الأنبياء ٩٨

٤) الأنبياء ١٠١

٥) جامع البيان (تفسير الطبري) لابن جرير ١٧ / ٧٧

٦) رواه الترمذي في السنن ، كتاب صفة القيامة ، باب التوكل على الله ٤ / ٥٧٥ ، وأحمد ١ / ٢٩٣ ، والبيهقي ١ / ٥١٤ .

فما موقف الكوثري من هذا النص ؟

ينحصر موقفه في أمرين :

الأول : تضعيفه الحديث ، حيث قال : " على لين في طرقه كلها " (١)

الثاني : تأويله النص إلى معنى متكلف ، لإلغاء دلالة الحصر ، حيث قال :

"وأما حديث (وإذا استعنت فاستعن بالله) فبمعنى (عند استعانتك بأي مستعان ، فاستعن بالله .) (٢)

والجواب

أولاً : الحديث حديث حسن ، قال الترمذي :

" هذا حديث حسن صحيح " (٣)

وقال ابن رجب : " وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علي ، ومولاه عكرمة ، وعطاء ابن أبي رباح ، وعمرو بن دينار ، وعبيدالله بن عبدالله ، وابن أبي مليكة ، وغيرهم .

وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي ، كذا قاله ابن منده وغيره ، وقد روي عن النبي أنه وصى ابن عباس بهذه الوصية من حديث علي بن أبي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وسهل ابن سعد ، وعبدالله بن جعفر ، وفي أسانيدها كلها ضعف .

وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة ، وبعضها أصلح من بعض ، وبكل حال فطريق حنش التي أخرجها الترمذي حسنة جيدة . " (٤)

ثانياً : ماقاله من التقدير للحديث هو أولاً تقدير متكلف وهو أيضاً تعطيل لدلالة الحديث ، ومراد الرسول ﷺ ، فإنه إنما أراد ربط المؤمن بالله عند استعانته ، وأن يصرف

---

١) مقالات الكوثري ٤٦٧

٢) نفسه ٤٦٧

٣) سنن الترمذي ٤ / ٥٧٦

٤) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب الحنبلي ٤٦٠-٤٦٢ .وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .(المسند ٤ / ٢٣٣)

قلبه عن كل أحد سوى الله ، والكوثري بعكس هذا ويقول إذا استعنت فاستعن بمستعان وأنت تؤمن بانه سبب ؟

فعطل الكوثري مراد الرسول ﷺ ، وخالف المقصود من التوجيه النبوي .

قوله تعالى (وما أنت بمسمع من في القبور)[1]

وهذه الآية من أدلة السلف على انقطاع الأموات عن الحياة الدنيا ، فلا وجه لدعائهم ، إذ هم لا يسمعون .

يقول الكوثري :

" وأما قوله تعالى (وما أنت بمسمع من في القبور) ففي حق المشركين عند المحققين"[2]

ومراده أن الآية تخاطب الرسول ﷺ ، بخصوص المشركين ، بمعنى أن الرسول ﷺ لن يُسمع من في القبورمن المشركين وأما المؤمنون الذين في القبور فإن الله يُسمعهم !

ويجاب عليه بأن هذا تخصيص للآية بدون حجة ، وقد قال هو نفسه عن آية سابقة : " وترك المطلق على إطلاقه مما اتفق عليه أهل الحق ، والتقييد لا يكون إلى بحجة ، ولا حجة هنا تقيد الآية . "[3]

وكذلك يقال له في هذه الآية .

ويقول ابن جرير الطبري :

" وقوله : (إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ)[4] يقول تعالىذكره لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه كما حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يسمع "[5]

---

١) فاطر ٢

٢) مقالات الكوثري ٤٦٨

٣) نفسه ٤٥٩

٤) فاطر ٢٢

٥) تفسير ابن جرير الطبري ٢٢ / ٨٥

فأهل السنة إنما استدلوا بمثل هذه الآية على استقرار أن الميت لا يسمع ، لا أن الله لا يُسمع المشركين .

وفي السورة نفسها عبرة لو تأمل الكوثري ، ونقض لما ادعاه هو ودعاة الشرك ، فإن الله يقول في السورة نفسها :

(وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ) [1]

فماذا بعد الحق إلا الضلال .

والآية من الوضوح والبيان ما يقطع النزاع في هذه المسألة العظيمة .

---

١) فاطر ١٣ ـ ١٤

المبحث الثالث :

وسائل الشرك

المطلب الأول :

التعريف بوسائل الشرك وحكمها

المطلب الأول :

التعريف بوسائل الشرك وحكمها .

حرم الله الشرك به ، وجعله أكبر الذنوب ، وجاء التحذير من الشرك كله ، صغيره وكبيره ، فعن النبي ﷺ أنه قال : " الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ." [1]

ولما كان الشرك كذلك حذر النبي ﷺ من كل طريق توصل إليه من البناء على القبور ، والصلاة إليها ، والغلو في الصالحين .

فوسائل الشرك هي الطرق الموصلة ، إليه لذا فهي ليست الشرك الذي أوجب الله لصاحبها الخلود في النار ، بل هي أمور دون الشرك ، وإن سمي بعضها شركاً .

وما وقع من شرك في الأمم السابقة ، وفي هذه الأمة إلا كان عن طريق هذه الوسائل – وإن بقصد حسن- فقد غلا اليهود في أنبيائهم ، والنصارى في عيسى بن مريم ، حتى وصفوهم بصفات الله .

قال الله تعالى : (يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ)[2] [3] .

وليس هناك من ذنب أكبر عند الله من الشرك [4] ، ولا من طاعة أعظم من التوحيد [5]

وقد قال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ) [6]

---

١) رواه أحمد ٤ / ٤٠٣ ، وقال المنذري في الترغيب والترهيب : " رواه أحمد والطبراني ، ورواته إلى أبي على محتج بهم في الصحيح ، وأبو علي وثقه ابن حبان ، ولم أر أحداً جرحه . " وانظر مجمع الزوائد للهيثمي ١٠ / ٣٦٨.

٢) النساء ١٧١ .

٣) انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن حسن ٢٥٣ .

٤) انظر ذلك فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ٤٠- ٧٧ ، وروح المعاني للآلوسي ١٧ ، ١٤٩ ، ومدارك التنزيل (طبعة دار الكتاب العربي ١٩٩٣) للنسفي ٢/ ٤٣٩ والكشاف للزمخشري المعتزلي ١٢/٣

٥) انظرشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ١/ ٤٤ ، وفتح المجيد ٧٩-٩٨

٦) التوبة ٢٨

قال الآلوسي :

" المراد النهي عن الدخول إلا أنه نهى عن القرب للمبالغة " [1]

وقد جاءت نصوص كثيرة من السنة المطهرة بالنهي عن أمور معينة ، وإنما جاء النهي عنها سداً لكل طريق موصل للشرك ، وإني ذاكر بعضاً منها _ إن شاء الله _ لتأصيل هذا الأصل العظيم .

_ النهي عن الغلو في الصالحين .

فما وقع من الشرك إلا بالغلو وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنـــهما في قوله تعالى : (وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)[2] .

قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قـــومهم : أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ، ففعلـــوا و لم تعبد .. حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت " [3] .

يقول الإمام عبد الرحمن بن حسن : " وهذا يفيد الحذر مـــن الغلـــو ووســـائل الشرك ، وإن كان القصد بها حسناً " [4] .

_ النهي عن البناء على القبور .

وقد روى مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالـــب : " ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ بعثني ألا أدع تمثالاً إلى طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته " [5] .

---

١) روح المعاني ١٠ / ٧٦

٢) نوح ٢٣ .

٣) رواه البخاري ٥١١/٨ كتاب التفسير .

٤) فتح المجيد ٢٤٥ .

٥) رواه مسلم كتاب الجنائز باب الأمر بتسوية القبر ٧ / ٣٦ ، وأبو داود ك / الجنائز ، باب في تسوية القبر ٣ / ٢١٥ ، وعبد الرزاق في المصنف ٣ / ٥٠٤ .

وفيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه " [1] .

فالبناء على القبور مدعاة للتعظيم الذي هو مفتاح للشرك .

ـ اتخاذ القبور عيداً ، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال : (لا تجعلوا قبري عيداً) [2]

ـ النهي عن الصلاة لله عند القبور .

فقد جاء في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .

يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً " [3]

وعنه ﷺ قال : ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك " [4]

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة ، وما فيها من الصور ، فقال : " أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنو على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور .. أولئك شرار الخلق عند الله " [5] .

وإنما ذمهم لأجل تعمدهم الصلاة لله عند قبور الصالحين وإن لم يعبدوها ، فإن فعلهم سيكون فتنة لمن بعدهم فبدل أن يصلوا لله يعبدون الصالحين عند قبورهم .

" وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور ، هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك أو فيما دونه من الشرك ... فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصد ما قصده المشركون سداً للذريعة " [6] .

---

١) رواه مسلم .كتاب الجنائز باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه ٧ / ٣٧

٢) رواه أحمد ، ٢/ ٣٦٧ ، وأبو داود ٢/ ٥٣٤ قال شيخ الإسلام : وهذا إسناد حسن ، اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٥٤ ، وذكر النووي أن إسناده صحيح في الأذكار ١٠٦ (طبعة دار الدعوة بشرح ابن عجلان) .

٣) رواه البخاري ١/ ٤٤٤ كتاب الصلاة باب الصلاة في البيعة .

٤) رواه مسلم رقم ٥٣٢ كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد عند القبور .

٥) رواه البخاري ٤٣٨/١ كتاب الصلاة .

٦) فتح المجيد ٢٥٥ .

ـ النهي عن السفر إلى بقاع الصالحين وآثارهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرها أنه قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى " [1] .

وعلى هذا الحديث استند أئمة السلف في النهي عن السفر إلى قبور الأولياء والصالحين ، وجعلوه من المحرمات ، لأنه من الذرائع الموصلة إلى الشرك .

ـ عبادة الله في بقعة يعبد فيها غيره

ثبت عنه ﷺ أنه قال للذي نذر أن يذبح لله في بقعة : " هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد ؟ قالو : لا . قال : فهل كان فيها عبد من أعيادهم ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله ﷺ : أوْفِ بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم . " [2]

ـ النهي عن اعتقاد البركة في الحجر الأسود فجاء عن عمر رضي الله عنه لما قبّل الحجر الأسود أنه قال : أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ استلمك ما استلمتك " [3]

ـ النهي عن التعبد عند الشجر المعظم .

فثبت عن أبي واقد الليثي قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، ونحن حديثو عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم ، وأمتعتهم ، يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال النبي ﷺ : " الله

---

١) أخرجه البخاري في ك / فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٦٣/٣ رقم ١١٨٩ ، ومسلم ٩٧٥/٢-٩٧٦ .

٢) رواه أبو داوود ١٣٣١٣ كتاب الأيمان والنذور / باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذور .

٣) رواه البخاري ٢ / ١٩٧ كتاب الحج /باب الرجل في الحج والعمرة

أكبر ! قلتم كما قالت بنو إسرائيل : (ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ) ثم قال : (إنكم قوم تجهلون ، لتركبن سنن من كان قبلكم) " [1] وأمثال هذا الأصل كثيرة جداً .

١) رواه الترمذي ٤ / ٤٧٥ – ٤٧٦ ، وقال حسن صحيح ، وأحمد ٥ / ٢١٨ .

المطلب الثاني :
رأي الكوثري في البناء على القبور والصلاة عليها ونقده

المطلب الثاني :

رأي الكوثري في البناء على القبور والصلاة إليها ونقده

تمهيد

عرفنا في المطلب الماضي تحريم اتخاذ القبور ، مساجد يصلى لله عندها ، وقد روى مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : " ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ بعثني ألا أدع تمثالاً إلى طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته " [1] .

وفيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر ، وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه " [2] .

ومن خلال هذه النصوص ذهب أئمة السلف إلى مدلولها فحرموا البناء على القبور أياً كان هذا البناء ،وهذه الدلالة واضحة وظاهرة ، مع المشهور من أصول الشرع ، و كذا الصلاة عندها . ومع هذا سلك الكوثري غير جادتهم وخالف هذه النصوص .

يقول منكراً على ابن القيم تحريمه البناء على القبور : " فعلى هذا الرأي من صاحب التوقيع ، يجب على أولياء الأمور في بلاد الإسلام أن يمسكوا بمعاول الهدم ليعملوها في هدم قباب الصحابة وأئمة الدين ، وصالحي الأمة في مشارق الأرض ومغاربها ، والمساجد المضافة إليهم وقباب ملوك الإسلام وأمراء الإسلام وغيرهم في كل قطر ، مع ما توارثت الأمة من خلاف ذالك خالفاً عن سالف " [3] .

وخلاصة هذا القول :

١- الاحتجاج بالواقع على رد النصوص ، فعنده لا بد أن نقبل الواقع ، ونذلل النصوص له .

٢- تحريض أهل السلطة والنفوذ على علماء السلف ، لأنهم يرون هدم "قباب ملوك الإسلام وأمراء الإسلام .." !

---

١) رواه مسلم كتاب الجنائز باب الأمر بتسوية القبر ٧ / ٣٦ ، وأبو داود ك / الجنائز ، باب في تسوية القبر ٣ / ٢١٥ ، وعبد الرزاق في المصنف ٣ / ٥٠٤ .

٢) رواه مسلم .كتاب الجنائز باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه ٧ / ٣٧

٣) مقالات الكوثري ٢٤٥-٢٤٦ .

٣- تواتر عن الأمة قبولها البناء على القبور خلفاً عن سلف !

وهذا كلام لا حجة فيه ، فأما الاحتجاج بالواقع فهو من الوهن الذي دخل على بعض العلماء ، فسايروا عصرهم ، وإنما يستدل في مسائل العلم بالنصوص الشرعية لا بما عليه الناس ، ولو كان الأمر كذلك لتعطلت النصوص ، ولما قام في هذه الأمة المصلحون المجددون ، الذين يصلحون ويغيرون عصرهم إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .

وهو أيضاً خلاف الواقع ، فلم يعرف البناء على القبور إلا أيام الدولة العبيدية في مصر — في القرن الخامس — .

وأما تحريضه على القائلين بتحريم الصلاة والبناء على القبور ، فلا يضرهم ، وإنما هو سلاح من لا حجة له .

وأما زعمه التواتر عن الأمة أنها لا ترى تحريم الصلاة عند القبور ، ولا البناء عليها ، فأين هذا التواتر ؟

وهذه كتب الأئمة طافحة بالإنكار على من فعل ذلك ؟!

وأي أمة هذه التي ينسب إليها التواتر ، أهي في هؤلاء الدهماء الذين لا علم لهم إلا ما وجدوا عليه أباءهم !

أم هي في العلماء العاملين المتبعين !؟

فإن قصد العامة ، فإن التواتر عنهم لا يسمن ولا يغني .

وإن أراد الآخرين فإن النقل عنهم قد تواتر بالتحريم

وينقل الكوثري عن الأُبيّ [1] قوله :

" قال بعض الشافعية : كانت اليهود ، والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء ، ويجعلونها قبلة يتجهون إليها في السجود فاتخذوها أوثاناً فمنع المسلمون من ذلك بالنهي عنه ، فأما من اتخذ مسجداً قرب رجل صالح أو صلى في مقبرة قصداً للتبرك بآثاره وإجابة

---

١) هو : أبو عبدالله ، محمد بن خلفة الوشتاتي الملكي ، وعالم الحديث ، نسبته إلى أُبه ، من قرى تونس ، له مصنفات أشهرها (إكمال المعلم) توفي سنة ٨٢٧ هـ [البدر الطالع ٢ / ١٦٩ ، والأعلام للزركلي ٦ / ١١٥]

دعائه هناك فلا حرج في ذلك ، واحتج لذلك بأن قبر إسماعيل عليه السلام في المسجد الحرام عند الحطيم ، ثم إن ذلك الموضع أفضل مكان للصلاة فيه " [1] .

وهو هنا يحتج بقول الأبي وتأويله ، فالرسول ﷺ لعن اليهود والنصارى لأجل أنهم يسجدون لقبور الأنبياء أما إذا لم يسجد المصلي إلى القبر (وإنما قصد التبرك) فلا حرج في الصلاة عندها ! والدليل أن المسلمين يصلون عند قبر إسماعيل عليه السلام !

وهذا تأويلٌ باطل ، وخطأ تاريخي فاحش ، فمن قال إن الرسول ﷺ إنما نهى عن السجود للقبر ؟ وإنما قال ﷺ : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، والمساجد جمع مسجدوهو موضع العبادة وموضع السجدة ، وإنما جمع السجدة سجدات ، فلذا النهي منصب على اتخاذ المكان للتعبد ، وليس على السجود إلى القبر فقط كما زعم !

وأما من اتخذ مسجداً قرب رجل صالح ، فقد وقع منه السجود عند القبر لذا فقد دخل في النهي وليس كما قال الأبي : " فلا حرج في ذلك " .

وقد سبق البيان بأن الشرع جاء بمنع الوسائل المؤدية إلى الشرك .

وقد تقرر ، بأن كل وسيلة موصلة إلى الحرام ، فهي محرمة ، فإن الزنا لما كان محرماً ، فقد حرم الشرع كل طريق تؤدي إليه ، من النظر ، والخلوة ، ونحوها ، فلا يقال : إذا اختلى رجل بامرأة وأمن الزنا ، جازت الخلوة .

وهنا لما كان الشرك ، حراماً ، فقد حرمت الطرق الموصلة إليه كلها ، فلا يقال : إذا أمن المسلم الشرك ، جاز له ، الصلاة عند القبر ، كما يقوله الأبّي ، والكوثري .

وأما الاحتجاج بالصلاة عند الحجر وفيه قبر إسماعيل ، فهو كلام باطل ، فمن قال إن إسماعيل بن إبراهيم قد قبر في الحجر ؟ أذكر ذلك في القرآن !؟ أم ذكره النبي ﷺ !؟ أم أثبته أحد من أهل التاريخ المعتبرين !؟

---

١) مقالات الكوثري ٢٤٦ .

فلا القرآن ولا الرسول ﷺ ذكر الحجر ونسبه إلى إسماعيل ، وإنما كان يسمى في عهد الرسول ﷺ وعهد أصحابه وقرون عدة مرة بالحطيم ومرة بالحجر .

وإنما ذكر إسماعيل متأخراً فالله أعلم من إسماعيل هذا !

وقد روى البخاري بسنده إلى جرير بن حازم حذثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها : (يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلت له بابين باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم) فذلك الذي حمل ابن الزبير رضي الله عنهما على هدمه . قال يزيد : وشهدت ابن الزبير حين هدمه وبناه وأدخل فيه من الحِجْر ، وقد رأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل . قال جرير : فقلت له أين موضعه ؟ قال : أريكه الآن . فدخلت معه الحِجر فأشار إلى مكانٍ فقال : هاهنا . قال جرير : فحزرت من الحِجر ستة أذرع أو نحوها " [1]

وجاء في رواية ابن شهاب أن ابن عمر أُخبر بذلك فقال : " لإن كانت عائشة رضي الله عنها سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ترك استلام الركنين اللذين يليان الحِجْر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم " [2]

فإن الحِجر إنما وضع عليه الجدار ، وطاف الناس من خلفه لأنه من الكعبة ، لا أن أحداً مقبوراً فيه ، فعن عائشة رضي الله عنها قال : سألت النبي ﷺ عن الجَدر ، أمن البيت هو ؟ قال : نعم قلت : فما لهم لم يدخلوه في البيت ؟ قال : إن قومك قصرت بهم النفقة . " [3]

وقد توسع ابن حجر ــ رحمه الله ــ في بناء الكعبة ، ومسألة الحجر و لم يذكر عن إسماعيل شيئاً [4] ، وكذا النووي قبله [5]

---

١) رواه البخاري ٢/ ١٩١ كتاب الحج ، باب فضل مكة وبنيانها ورواه أيضاً مسلم ٨٨/٩ كتاب الحج ، باب نقض الكعبة بنيانها .

٢) البخاري ٢/ ١٩٢ كتاب الحج ، باب فضل مكة وبنيانها .

٣) البخاري ٢/ ١٩٠ كتاب الحج ، باب فضل مكة وبنيانها .

٤) انظر للتوسع ، فتح الباري ٣/ ٤٤٠ — ٤٤٩

٥) شرح مسلم للنووي ٨٨/٩ - ٩٦

ومع أن الكوثري ، لم يقبل دلالة الأحاديث ، وسلط عليها التأويل ، لم يكتف بذلك ، بل ذهب إلى القدح في صحة حديث أبي الهياج وحديث جابر مع أنهما في مسلم .

يقول : " وحديث أبي الهياج في إسناده اختلاف مع عنعنة حبيب بين أبي ثابت " وحديث جابر فيه عنعنة أبي الزبير " [1] .

فأما زعمه الاختلاف في سند حديث أبي الهياج ، فإن هذا الحديث من رواية مسلم ، و لم يكن من الأحاديث التي انتقدت عليه .

وأما قوله : " مع عنعنة حبيب بين أبي ثابث " . فهذا القول منه تدليس وخداع لا يليق بعالم ، فضلاً عن متخصص في علم الحديث !

نعم ، إن حبيباً من المدلسين ، وهو من الطبقة الثالثة [2] ، لكن الكوثري أعلم الناس أن هذا الحديث لا يدور على حبيب بن أبي ثابت ، فقد جاء عن طرق ليس فيها حبيب فقد رواه أحمد في مسنده [3] .

وهو أعلم الناس بأن عنعنة المدلسين الواردة في الصحيحين محمولة على السماع كما هو متقرر عند أهل الشأن في ذلك [4] .

وأما رده لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بقوله : " فيه عنعنة أبي الزبير " فالرد عليه :

- أن العنعنة في الصحيحين محمولة على السماع كما سبق ولا تجرح الحديث .

---

١) مقالات الكوثري ٢٤٨ .

٢) جامع التحصيل ، للعلائي ، وكتاب المدلسين للعراقي ٣٩ ، وتعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس لابن حجر ٨٤ .

٣) مسند أحمد بن حنبل ١/ ٨٧ ، ٨٩ ، ١١١ .

٤) انظر لذلك : شرح مسلم للنووي ٣٩/١ ، والإرشاد له ١ / ٢١١ ، وفتح المغيث للسخاوي ١٨٧/١ ، والنكت لابن حجر ٦٣٦/٢ .

- أن أبا الزبير وإن كان مدلساً [1] فقد صرح بالتحديث في مسلم ، حيث روى مسلم بسنده عن ابن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ...... " [2]

وهذه الرواية ، بعد الأولى مباشرة ، ولا أظن الكوثري يجهلها ، ولكنه الهوى .

- وقد صرح أبو الزبير بالسماع ، أيضاً عند أبي داود [3] والنسائي [4] وعبد الرزاق [5] فماذا يقول الكوثري ؟ .

- قد روى هذا الحديث غير أبي الزبير فتابعه : سليمان بن موسى عند أبي داود [6] والنسائي [7] وابن ماجه [8] ، وفيه شاهد من حديث أبي سعيد [9] .

هذا الحديث من الأحاديث التي تلقاها العلماء بالقبول . [10]

- لو كان هذا الحديث موافقاً لهوى الكوثري لزالت هذه الشبه ، وسبق أن رأينا كيف أن الكوثري حاول جاهداً تصحيح أحاديث حكم عليها علماء الحديث بالضعف أو الوضع ، لإثبات ما يراه من مشروعة التوسل مطلقاً ، وهنا ـــ مثيراً العجب ـــ يحاول تضعيف أحاديث في صحيح مسلم ، لا لشيء إلا لأنها تخالف هواه ، وما كان عليه سلفه . !

---

1) هو من الطبقة الثالثة ، انظر جامع التحصيل للعلائي ، وكتاب المدلسين للعراقي ٨٨ ، وتعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس لابن حجر ١٠٨ .

2) رواه مسلم ،كتاب الجنائز باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه ٧ / ٣٧

3) سنن أبي داود ك / الجنائز ، باب في البناء على القبور ٣ / ٢١٦ .

4) سنن النسائي (بشرح السيوطي) ك / الجنائز ، باب البناء على القبور ٤ / ٨٧

5) مصنف عبد الرزاق ٣ / ٥٠٤ .

6) سنن أبي داود ك / الجنائز ، باب في البناء على القبور ٣ / ٢١٦ .

7) سنن النسائي (بشرح السيوطي) ك / الجنائز ، باب تسوية القبور إذا رفعت ٤ / ٨٨ .

8) سنن ابن ماجه ك / الجنائز ، باب ما جاء في النهي عن البناء على القبور ١ / ٤٩٨ (١٥٦٤) .

9) سنن ابن ماجه ك / الجنائز ، باب ما جاء في النهي عن البناء على القبور ١ / ٤٩٨ (١٥٦٣) .

10) انظر لهذا الوجه وما مضى : (الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات) للشمس الأفغاني ٣ / ٤٤٢ ، و (تحذير الساجد من بناء القبور على المساجد) للألباني ٤١

ومن حجج الكوثري قوله : " وقال أهل التفسير في قوله تعالى عن أصحاب الكهف : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾[1] أي المسلمون وملكهم المسلم لأنهم بنوا عليهم مسجداً يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم ، وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم حفظاً لتربتهم "[2] .

وهذا التفسير للآية قولٌ على الله بلا علم ، يقول ابن كثير : " الظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ، أن النبي ﷺ قال : لعن الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "[3] .

يقول الألوسي[4] في كتابه (روح المعاني) عن الاستدلال بالآية على جواز البناء على القبور : " وهو قول باطل عاطل فاسد كاسد "[5] ثم ذكر الأحاديث التي تنهى عن ذلك

فالاحتجاج بفعل هؤلاء السابقين لاحجة فيه ، وذلك لأن بناء مساجد على قبور الصالحين ، كان قد سبق في الأمم الماضية ، ولأجل هذا لعن رسول الله صللى الله عليه وسلم من فعل ذلك .

والظاهر أن هؤلاء قوم مشركون عزموا على اتخاذ مسجد على هؤلاء ، فكيف يقال يجوز لنا مثل فعلهم ؟

---

١) الكهف ٢١ .

٢) مقالات الكوثر ي / ٢٤٨ .

٣) تفسير القرآن لابن كثير ٧٨/٣

٤) (الألوسي الكبير) محمود بن عبد الله الحسني الآلوسي ، شهاب الدين ، أبو الثناء : مفسر محدث ، أديب، من المجددين ، من أهل بغداد ، مولده ووفاته فيها وكانت ولادته سنة ١٢١٧هـ . كان سلفي الاعتقاد ، مجتهداً . تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨هـ . وعزل فانقطع العلم . ثم سافر إلى الموصل فالآستانة ، ومر بماردين وسيواس فغاب ٢١ شهراً وأكرمه السلطان عبدا لمجيد . وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته ، فاستمر إلى أن توفي سنة ١٢٧٠هـ ، من كتبه ((روح المعاني)) في التفسير تسع مجلدات كبيرة ، و((نشوه الشمول في السفر إلى اسلامبول)) ، ونسبة الأسرة الآلوسية إلى جزيرة ((آلوس)) في وسط نهر الفرات ، على خمس مراحل من بغداد ، فرَّ إليها جد هذه الاسرة من وجه هولاكو التتري عندما دهم بغداد ، فنسب إليها ، ولصاحب الترجمة شعر لا باس به وإبداع في الإنشاء وقد ألف في الترجمة رسائل مفصلة ، الأعلام للزركلي١٧٦/٧.

٥) روح المعاني ٣٤٥/١٥

ثم على فرض أنهم مسلمون كما ذكر بعض أهل التفسير فهل نحـــن مـــأمورون بالتأسي بهم ؟

ومسألة شرع من قبلنا هل هو شرع لنا مسألة فيها خلاف ، هذا في شرائع الأنبياء السابقين لا في فعل أمة من المؤمنين السابقين ! وبينهما فرق كبير .

ثم على فرض القول الراجح أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالف شرعنا ، كيف وقد جاء النهي الصريح عن ذلك ؟

يقول الألوسي : " مذهبنا في شرع من قبلنا — وإن كان إنه يلزمنا — علـــى أنـــه شريعتنا لكن لا مطلقاً ، بل إن قصه الله تعالى علينا بلا إنكـــار ، وإنكـــار رســـوله ﷺ كإنكاره عز وجل .

وقد سمعت أنه عليه الصلاة والسلام لعن الذين يتخذون المساجد على القبـــور ، على أن كون ماذكر من شرائع من قبلنا ممنوع و كيف يمكن أن يكون اتخاذ المساجد على القبور من الشرائع المتقدمة مع ما سمعت من لعن اليهود والنصارى حيث اتخـــذوا قبـــور أنبيائهم مساجد ...

وليس فيها [1] أكثر من حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلـــك ، وليست خارجة مخرج المدح لهم والحض على التأسي بهم ، فمتى لم يثبت أن فيهم معصوماً لا يدل فعلهم فضلاً عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده ، ومما يقوي قلة الوثوق بفعلهم القول بأن المراد بهم الأمراء والسلاطين كما روي عن قتادة " [2] .

---

١) يقصد الآية .

٢) روح المعاني ٣٤٥/١٥ .

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في التبرك ونقده

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في التبرك ونقده

من الأمور التي ضل فيها بعض من منتسبي هذه الأمة موضوع التبرك ، حيث كان سبباً موصلاً إلى صور كثيرة من الشرك بالله ، ففتح لهم جهلهم بمفهوم التبرك البـــاب إلى النذر لغير الله ، وإلى الذبح لغير الله ، وإلى الاستغاثة والاستعاذة بالأموات بدعوى البركة والتبرك .

ويحسن بنا قبل تقرير رأي الكوثري في التبرك أن نعرف حقيقة التبرك وماهيتـــه ، وحكمه عند أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح .

معنى التبرك

لابد في معرفة التبرك من الرجوع إلى أصل الكلمة عند أهل اللغة ، فـــإن أصـــل الكلمة هو " بَرَكَ " ومن هذا أخذت كلمة البركة ، والتبرك ، والتبريك ، وهو مبارك .

يقول ابن فارس [(١)] " بَرَكَ : الباء والراء والكاف أصل واحد " . [(٢)]

ولهذا اللفظ معنيان :

الأول : دوام الشيء وثبوته .

يقول صاحب الصحاح : " كل شيء ثبت وأقام ، فقد برك " . [(٣)]

وجاء في المفردات : " بَرَكَ البعير ، ألقى ركبه واعتبر منه معنى اللـــزوم ، فقيـــل ابتركوا في الحرب أي ثبتوا ولازموا موضع الحرب .

وبركاء الحرب وبروكاؤها للمكان الذي يلزمه الأبطال .

وابتركت الدابة وقفت وقوفاً " . [(٤)]

---

١) (ابن فارس) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين : من أئمة اللغة والأدب . ولد ســـنة ٣٢٩هـــ قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان . أصله من قزوين ، وأقام مدة في همذان ، ثم انتقل إلى الريّ فتوفي فيها سنة ٣٩٥هـــ وإليها نسبته من تصانيفه ((جامع التأويل)) في تفسير القرآن وأجزاء السير لخير البشر وله شعر حسن. الأعلام للزركلي ١٩٣/١ ، انظر السير ١٠٣/١٧.

٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٥٢/٤ .

٣) الصحاح للجوهري ١٥٧٤/٤ .

٤) المفردات للراغب ٤٤ .

وقال ابن الأثير : " برك البعير إذا ناخ في موضع فلزمه " .. وذكر أنه الأصل [1] .

والرابط بين المعنى اللغوي هنا ــ وهو الدوام والثبوت ــ وبين المنى الشرعي ، أن الشرع أشار إلى وجود خير في الشيء باسم البركة ، وأراد منه ، دوامها وثبوتهـا ، كما في قوله تعالى : (لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ) [2]

وكذا ما جاء في وصف أرض الأنبياء بلاد الشام [3] ، ثبوت الخير فيها ، حيث قال عز وجل : (وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا) [4] .

" أي التي جعلنا فيها الخير ثابتاً دائماً لأهلها " . [5]

وهذا المعنى هو الأشهر في البركة .

أما المعنى الثاني فهو الكثرة في الشيء ، والزيادة والنماء فيه .

قال الخليل [6] : " البركة من الزيادة والنماء " . [7]

وفي القاموس : " البركة محركة : النماء والزيادة ، والسعادة " . [8]

---

١) النهاية في غريب الحديث ١٢٠/١ ، وانظر لذلك أيضاً لسان العرب ٢٦٥/١-٢٦٦ .

٢) الأعراف ٩٦ .

٣) انظر في ذلك تفسير ابن كثير ٢٤٢/٢ ، وجامع البيان " تفسير الطبري " ٣٠/٩ .

٤) الأعراف ١٣٧ .

٥) جامع البيان لابن جرير الطبري ٣٠/٩ .

٦) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي ، أبو عبد الرحمن : من أئمة اللغة والأدب ، وواضع علم العروض ، أخذه من الموسيقى وكان عارفاً بها . وهو أستاذ سيبويه النحوي ، ولد سنة ١٠٠هـ ومات سنة ١٧٠هـ في البصرة ، وعاش فقيراً صابراً . كان شعث الرأس ، شاحب اللون ، قشف الهيئة ، متمزق الثياب ، متقطع القدمين ، مغموراً في الناس لا يُعرف ، له كتاب ((العين)) في اللغة و ((معاني الحروف)) و ((جملة آلات العرب)) وفكر في ابتكار طريقة في الحساب تسهله على العامة ، فدخل المسجد وهو يعمل فكره ، فصدمته سارية وهو غافل فكانت سبب موته .الأعلام للزركلي ٣١٤/٢ ، انظر السير ٣١٤/٢ .

٧) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٣٠/١ .

٨) القاموس المحيط ١٢٠٤ .

ويقول ابن الأثير : " وتطلق البركة أيضاً على الزيادة " .[1]

ومن هذا المعنى آيات كثيرة منها قولـــه تعـــالى : (كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ) [2] .

فالقرآن الكريم كثير الخير ، عميم النفع ، دائم الفائدة ، فهو " كثير المنافع الدينية والدنيوية " [3] ، " كثير الخير غزير النفع " [4] .

فأخذ من هذا المعنى مسمى التبرك ، فهو مصدر من تبرك .

والتبرك هو طلب البركة الموجودة فيه .

جاء في اللسان : " تبركت به : أي تيمنت به " .[5]

و" تبرك به : تيمن " .[6]

التيمن ، هو الخير ، قال ابن الأثير : " وقد تكرر ذكر (اليُمن) في الحديث ، وهو البركة ، وضده الشؤم " [7]

أخذ الشارع الحكيم معنى البركة والتبرك من هذا الأصل اللغوي ، وأطلقها علـــى أعيان ، وأزمان وأمكنة ، وأراد منها المعنى نفسه .

---

١) النهاية في غريب الحديث ١٢٠/١ وانظر لذلك لسان العرب ٢٦٥/١ – ٢٦٦ .

٢) سورة ص ٢٩ .

٣) روح المعاني للألوسي ٢٧٨/١٣ .

٤) روح المعاني للألوسي ٨٦/١٠ .

٥) لسان العرب لابن منظور ٢٦٥/١ .

٦) القاموس المحيط ١٢٠٤ .

٧) الهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٥ / ٣٠٢ .

عرف ذلك الصحابة فمن بعدهم ، وفهموا مراد الشارع بوصف الأعيان بالبركة ، فطلبوها من حيث إذن الشرع فكون الشيء مبارك لا يعني أن يطلبه الإنسان وفق هواه ، وإنما يطلبه وفق دليل الشرع .

لكن حدثت البدع بأن طلب الناس البركة ، إما من أشياء لم يرد النص على وجود البركة فيها ، وإما بطلبها بطريقة لا دليل عليها .

فهنا أمران مهمان :

الأول : الدليل الصريح على وصف الشيء بالبركة .

الثاني : وبعد ثبوت البركة في الشيء لا يكفي فلا بد من دليل على صفة طلب البركة من هذا الشيء .

فالقرآن الكريم — مثلاً — جاء وصفه بالبركة في أربعة مواضع في القرآن الكريم [1] ، فثبت الأمر الأول لكن يبقى الأمر الثاني وهو كيفية طلب هذه البركة ، هل هو بالتمسح به ؟ أو بتعليقه في الصدور ؟ أو غير ذلك ؟

ليس ذلك ، وإنما جاء التبرك المشروع بقراءته ، وتدبره ، والعمل به ، وكذا الاستشفاء به كرقية ، وهو أن يرقي المسلم ، أويرقى . [2]

وما يتبرك به ، إنما جعله الله سبباً ، لهذا الخير ، لا استقلال له بذلك ، فالخير الذي أودعه الله فيها إنما يطلب من الله ، لا منها ، فهي مجرد أسباب ، قد تتخلف لوجود مانع ، يعطل أثرها ، فرجع الأمر كله لله — عز وجل — [3] .

ولا بد هنا من الإشارة إلى أمر مهم جداً ، وهو أن الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ إنما فهموا من بركة الإيمان والدين ، والقرآن ، والبعثة المحمدية ، ما يتعلق بالخيرات

---

١) الأنعام ٩٢ ، ١٥٥ والأنبياء ٥٠ و ص ٢٩ .

٢) مما أجمع عليه العلماء ، الرقية بالقران الكريم ، لفعله صلى الله عليه وسلم ، وفعل الصحابة ، وإنما اختلفوا إذا اتخذ تميمة تعلق أو تحفظ ، على قولين مشهورين : الأول ، الجواز ، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص ، وروي عن عائشة .

الثاني ، المنع من ذلك ، وهو قول ابن مسعود ، وابن عباس ، وظاهر قول حذيفة و وعقبة بن عامر ، وابن عكيم ، وجمهور التابعين ، وهو الصحيح لعموم النهي عن التمائم الذي لا مخصص له ، و سداً للذريعة ، ودفعاً لامتهانه). فتح المجيد ١٣٦)

٣) ينظر ، التبرك المشروع والتبرك الممنوع د / علي العلياني ١٨ - ١٩ .

العظيمة التي تفضل الله بما عليهم من جلاء الظلمة ، ومعرفة التوحيد ، ونور العلم ، وغيرها الكثير ، فسعوا إلى إدراك هذه البركة بالإيمان والتصديق ، وطلب العلم ، والعمل الصالح ، فنالوا منها أعظم الحظ والنصيب .

ومع هذا فقد ثبت عن جماعة منهم ــ رضي الله عنهم ــ أنهم تبركوا بذاته ﷺ ، وبما انفصل منه ﷺ .

فعن أنس رضي الله عنه قال : "كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء ، فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها ، فربما جاءوه في الغداة الباردة ، فيغمس يده فيها . " [1]

وكذا تبركهم بما انفصل من جسده ﷺ ، فعن أنس رضي الله عنه قال : " لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه ، وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل " [2]

قال النووي : " تبرك الصحابة بشعر الرسول ﷺ الكريم " [3]

وجاء عن أسماء بنت أبي بكر ــ رضي الله عنهما ــ أنها أخرجت جبة ، وقالت : " هذه كانت عند عائشة حتى قبضت ، فلما قبضت قبضتها ، وكان النبي ﷺ ، يلبسها ، فنحن نغسلها للمرض يستشفى بها " [4]

كل هذا صحيح وثابت عن أصحابه ﷺ ، ولكن هل يشرع أن يفعل مع غيره من الصالحين ، ما فعله الصحابة معه ؟

يقول ابن حجر عن ذلك : "وهو أصل في التبرك بآثار الصالحين " [5]

هل ماذكره هذا الإمام صحيح ؟

الجواب أن الأدلة الشرعية ، وأصول الشرع تمنع ذلك أشد المنع ، فمن قال بقياس الصالحين على حاله ﷺ فقد اخطأ في ذلك .

---

١) رواه مسلم ك/ الفضائل ، باب قرب النبي صلى الله عليه وسلم من الناس وتبركهم به ١٥ / ٨١ -٨٢ .

٢) رواه مسلم ك/ الفضائل ، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به ١٥ / ٨٢.

٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥ / ٨٢

٤) رواه مسلم ك/ اللباس والزينة ، باب تحريم الذهب والحرير على الرجال وإباحته على النساء ١٤ / ٤٠ -٤٣

٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج/ ٣ ، ١٢٩ - ١٣٠

نعم إن كل فعل صدر منه ﷺ ، كان الأصل فيه الاتباع والاقتداء به إلا ما دل الدليل على اختصاصه به دون غيره ﷺ كجواز الزيادة على أربع له ، وتحريم الصدقة عليه وغيرها .

ومسألتنا هذه من هذا النوع ، فقد دل الدليل على أن التبرك بذاته وما انفصل منه ﷺ خاص به دون غيره ، ولا يقاس عليه غيره .

يقول الشاطبي عنه ﷺ : " فمن التمس منه نوراً وجده على أي جهة التمسه ، بخلاف غيره من الأمة وإن حصل له نور الاقتداء به ، والاهتداء بهديه ما شاء الله ، لا يبلغ مبلغه ، على حال توازيه في مرتبته ، ولا تقاربه ، فصار هذا النوع مختصاً به ، كاختصاصه بنكاح ما زاد على الأربع ، وإحلال بضع الواهبة نفسها له ، وعدم وجوب القسم على الزوجات ، وشبه ذلك "

ثم قال : " فعلى هذا المأخذ ، لا يصح لمن بعده الاقتداء به في التبرك على أحد تلك الوجوه ونحوها ، ومن اقتدى به كان اقتداؤه بدعة ، كما كان الاقتداء به في الزيادة على أربع نسوة بدعة " (1)

والحجة في الاختصاص فهم الصحابة رضي الله عنهم ، وعملهم فإنهم لم ينقل عنهم _ فضلاً أن يصح _ أن تبركوا بغيره ﷺ لا في حياته ، ولا بعدها ، وكذا لم يفعلوه فيما بينهم ، مع السابقين ، أو الخلفاء الراشدين ، والعشرة المبشرين بالجنة ، ولم يفعله التابعون مع الصحابة رضي الله عنهم .

فماذا يدل اتفاقهم على ذلك ؟

إنما يدل دلالة واضحة على منع التبرك مع أي كان ، حيث فهموا إنه من طرق الضلال .

لكن أهل البدع توسعوا في مفهوم التبرك ، فتمسحوا بقبور الصالحين ، وطافوا بها ، ولثموا جدرانها ، وحملوا ترابها ، وزعموا أن ذلك من التبرك المشروع .

والكوثري ليس شاذاً عنهم في هذا ، فتراه يعتقد ببركة الأولياء ، ويجيز طلب البركة بطلب الخير الذي فيهم عن طريق الاستغاثة بهم ، والتمسح بهم

---

1) الاعتصام للشاطبي ٢ / ٩

ومن حججه في ذلك قوله :

" وقال أهل التفسير في قوله تعالى عن أصحاب الكهف : (قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا)[1] أي المسلمون وملكهم المسلم لأنهم بنوا عليهم مسجداً يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم ، وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم حفظاً لتربتهم " [2] .

وينقل عن الرازي ما يبرر ذلك حيث ، يقول :

" قال الإمام فخر الدين الرازي بعد بسط مقدمات في الفصل الثامن عشر من كتابه ، المطالب العالية ، وهو من أمتع مؤلفاته في علم أصول الدين : وإذا عرفت هذه المقدمات ، فنقول إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس ، كامل الجوهر ، شديد التأثير ، ووقف هناك ساعة ، وتأثرت نفسه من تلك التربة ، حصل لنفس الزائر تعلق بتلك التربة " . [3]

ويزعم الكوثري أن نفس الميت تدرك بعضاً من أمور الدنيا ، وتنقل الخيرات التي فيها لمن طلبها ، فإنه ينقل عن التفتزاني - إثبات الجزئيات ، رداً على الفلاسفة — قوله :

" بل الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات متجددة جزئية واطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء ولا سيما الذين كان بينهم وبين الميت تعارف في الدنيا ، ولهذا ينتفع بزيارة القبور والاستغاثة بنفوس الأخيار من الأموات في استنزال الخيرات ، واستدفاع الملمات ، فإن للنفس بعد المفارقة تعلقاً بالبدن ، وبالتربة التي دفنت فيها " . [4]

فببركة هذه القبور تزداد الخيرات .

وينقل عن الجرجاني قوله " ولذلك كانت زيارة مراقدهم معدة لفيضان أنوار كثيرة منهم على الزائرين كما يشاهده أصحاب البصائر " . [5]

---

١) الكهف ٢١ .

٢) مقالات الكوثر ي / ٢٤٨ . وقد سبق تفنيد ذلك في المبحث الذي قبله .

٣) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٨٣ .

٤) نفسه ١٨٤-١٨٥ .

٥) نفسه ١٨٥ .

وتلخيص هذا الاستدلال أن الكوثري يرى لهؤلاء الأموات الصالحين ، ولقبورهم التي قبروا فيها بركة بسبب صلاحهم ، وهذه البركة تنال بزيارتهم ، واعتقاد الفيض منهم !

وهذا هو عين البدع والشرك .

يقول أحد أئمة الحنفية ممن ينقل الكوثري عنهم [1] :

" وقال بعض أكابر السادة الصوفية : إن الاستغاثة بالأولياء محظورة إلا من حيث عارف يميز بين الحدوث والقدم ، يستغيث بالولي لا من حيث نفسه بل من حيث ظهور الحق فيه ، فإن ذلك غير محظور ، لأنه استغاثة بالحق حينئذ .

وأنا أقول : إذا كان الأمر كذلك فما الداعي للعدول عن الاستغاثة بالحق من أول الأمر ؟

وأيضاً إذا ساغت الاستغاثة بالولي من حيث هذه الحيثية فلتسغ الصلاة والصوم وسائر أنواع العبادة له من تلك الحيثية أيضاً .

ولعل القائل بذلك قائل بهذا ... فالطريق المأمون عند كل رشيد ، قصر الاستغاثة والاستعانة على الله عز وجل ، فهو سبحانه الحي القادر العالم بمصالح عباده " [2] .

ويقول حنفي آخر [3] : " بعض الجهلة يقول : إن ذلك من تطور روح المستغاث به ، أو من ظهور ملك بصورته كرامة له ، ولقد ساء ما يحكمون " [4] .

وقال محمود الألوسي عند الكلام على قوله تعالى (فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا) [5] : " في حملها على النفوس الفاضلة المفارقة إيهام صحة ما يزعمه كثير من سخفة العقول من أن الأولياء يتصرفون بعد وفاتهم بنحو شفاء المريض ، وإنقاذ الغريق ، والنصر على الأعداء ،

---

١) انظر المصدر نفسه ٢٣ .

٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ٥٠٢ .

٣) هو نعمان الألوسي .

٤) جلاء العينين ٥٠٢ .

٥) النازعات ٥ .

وغير ذلك مما يكون في عالم الكون والفساد على معنى أن الله تعالى فوض إليهم ذلك " . [1]

وبقي أن أشير إلى أن الكوثري ينقل عن بعض أئمة السلف تبركهم ببعض الأعيان ، للاستدلال على جواز التبرك الشركي الذي يجيزه .

فينقل عن الحافظ الضياء المقدسي [2] أن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي [3] يقول :
" إنه خرج في عضده شيء يشبه الدمل ، فأعيته مداواته ، ثم مسح به قبر أحمد بن حنبل فبريء و لم يعد إليه " . [4]

ويقول : " وفي تاريخ الخطيب بسنده إلى الشافعي رضي الله عنه أنه قال : إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره كل يوم – يعني زائراً – فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين ، وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده ، فما تبعد عني حتى تنقضي أ هـ " . [5]

فأما الاستدلال الأول ، وهو فعل الحافظ عبد الغني المقدسي فالجواب عنه من وجوه :

---

١) روح المعاني للألوسي ٤٣/٣٠ .

٢) (ضياء الدين المقدسي) محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن عبدالرحمن السعدي، المقدسي الأصل ، الصالحي الحنبلي ، أبو عبدالله ، ضياء الدين : عالم بالحديث مؤرخ . من أهل دمشق مولداً ووفاة ، ولد سنة ٥٦٩هـ . بنى فيها مدرسة دار الحديث الضيائية المحمدية بسفح قاسيون ، شرقي الجامع المظفري ووقف بها كتبه . ورحل إلى بغداد ومصر وفارس ، وروى عن أكثر من ٥٠٠ شيخ . توفي سنة ٦٤٣هـ ، من كتبه ((فضائل الشام)) و ((فضائل القرآن)). الأعلام للزركلي ٢٥٤/٦ ، انظر السير ١٢٦/٢٣.

٣) هو (الجمّاعيلي) عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجمّاعيلي الدمشقي الحنبلي ، أبو محمد ، تقي الدين : حافظ للحديث ، من العلماء برجاله . ولد في جماعيل (قرب نابلس) سنة ٥٤١هـ وانتقل صغيرا إلى دمشق . ثم رحل إلى الإسكندرية وأصبهان . وامتحن مرات. وتوفي بمصر سنة ٦٠٠هـ . له ((الكمال في أسماء الرجال)) و ((الدرة المضية في السيرة النبوية)) و ((المصباح)) الأعلام للزركلي ٣٤/٤ ، انظر السير ٤٤٣/٢١

٤) حاشية السيف الصقيل ١٨٥ .

٥) نفسه ١٨٥ .

الأول : فهو نقل أسنده إلى نفسه ، حيث قال : " رأيت بخط الحافظ الضـــياء في كتابه (الحكايات المنثورة) . " [1]

ولا أعرف للحافظ الضياء كتاباً بهذا الاسم . [2]

فلعل الكوثري – بدافع الخصومة – رآه في كتاب فنسبه للضياء لأنه كاتب سيرة الحافظ عبد الغني .

الثاني : على فرض صحة القصة ، فإن كل أحد يؤخذ منه ويرد ، وقد تقـــرر في أصول الشريعة ألا يتبرك بشيء إلا بدليل ، وأصول الإمام أحمد في ذلك مشهورة في منع هذه الصور ، فقد ثبت عنه – رحمه الله – عن الخلال " أخبرنا علي بن عبـــد الصـــمد الطيالسي قال : مسحت يدي على أحمد بن حنبل ، وهو ينظـــر ، فغضـــب " غضـــباً شديداً " وجعل ينفض يده ، ويقول : عمن أخذتم هذا ؟ " [3]

هذا في حياة الإمام ، فكيف يقال إن أحد علماء مذهبه يتمسح بقبره بعد وفاته ؟.

ويكفي في الرد على هذا الاستدلال كلام الكوثري ، فإنه يقول :

" عبد الغني نفسه ليس ممن يقبل قوله في الصفات ." [4]

هذا رأي الكوثري فيمن هو استدل بفعله !

أقول هذا ردا عليه ، وإلا فإن الحافظ عبد الغني امام عدل عند أئمة السلف

أما الاستدلال الثاني المنسوب إلى الشافعي رحمه الله فإن شيخ الاسلام كفانا المؤنة بالرد حيث قال :

" وهذا كذلك معلوم كذبه بالاضطرار عند من له معرفة بالنقل ، فإن الشافعي لما قدم بغداد لم يكن قبر ينتاب للدعاء عنده البتة ، بل و لم يكن هذا على عهـــد الشـــافعي معروفاً ، وقد رأى الشافعي بالحجاز واليمن والشام والعراق ومصر من قبـــور الأنبيـــاء

---

١) نفسه ١٨٥

٢) انظر تصانيفه في سير أعلام النبلاء ١٢٨/٢٣ ، ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ت ٣٤٥ .

٣) سير أعلام النبلاء ، ١١/ ٢٢٥، طبقات الحنابلة ١/ ٢٢٨

٤) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥٥

والصحابة والتابعين ، من كان أصحابها عنده وعند المسلمين ، أفضل من أبي حنيفة ، وأمثاله من العلماء . فما باله لم يتوخ الدعاء إلا عنده . ثم أصحاب أبي حنيفة الذين أدركوه ، مثل أبي يوسف ومحمد وزفر والحسن ابن زياد ، وطبقتهم ، لم يكونوا يتحرون الدعاء ، لا عند قبر أبي حنيفة ولا غيره . " [1]

والعجيب في أمر الكوثري أنه ينقل هذه القصة ، من تاريخ الخطيب البغدادي وهو الذي ألف فيه مجلداً ، بين فيه سقوط الخطيب من مرتبة العلماء ، وأنه ليس بحجة حتى قال عنه : " من الظلم أن يعد مثله في عداد علماء الجرح والتعديل ، ويعول على قوله في دين الله " [2]

فإذا كان هذا رأي الكوثري فيه ، فلماذا ينقل عنه ؟

وقد قال الألوسي : وما ذكره محمد بن إسحاق في مغازيه عن أبي العالية ، قال : لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له ، فأخذنا المصحف فحملناه الى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً رضي الله عنهما فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه فقرأته مثل ما أقرأ القرآن ، فقلت لأبي العالية : ما كان فيه : قال : سيرتكم وأموركم ولحن كلامكم ، وما هو كائن بعد . فقلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه . فقلت : وما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم ، أبرزوا السرير فيمطرون . فقلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له : دانيال . فقلت : منذ كم وجدتموه مات ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة . قلت : ماكان تغير منه شيء ؟ قال : لا ، إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ، ولا تأكلها السباع . فلو كان الدعاء عند القبور سنة أو فضيلة لنصبوا عليه علماً ودعوا عنده ، ولكن كانوا أعلم بالله وبرسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم ، وكذلك التابعون لهم بإحسان درجوا على سبيلهم ، فقد كان عندهم من قبور الصحابة عدد كثير في الأمصار ، فما منهم من استغاث بها ولا دعا عندها ، ولا

---

١) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٦٨٥

٢) تأنيب الخطيب ، للكوثري ١٩ ، وقد قال ذلك بعد أن نقل قصة مفتراة على الخطيب ، عن سبط ابن الجوزي (وهو أحد الكذابين) ، يتهمه فيها بما لايليق .

استسقى بها ولا استنصر ، ولو كان لتوفرت الدواعي على نقله ، وقد عمت البلوى الآن في كثير من الناس حتى جعلوا الاستغاثة بأصحاب القبور ، وتقديم السرج والنذور من أعظم العبادات ، وأجل القربات ، وتفاخروا بوضع الزينة على تلك المقابر ، وألهاهم عن اتباع السنة التكاثر ، وحسب كثير منهم أن ذلك من السنن ، وفشا المنكر ، وظهرت — والعياذ بالله تعالى — الفتن ، حتى نسج العالم الخبير على فمه من السكوت لثام ، وترك الأمر بالمعروف خوفاً من مناقشة الجهلة اللئام ، فإنا لله ! ولا حول ولا قوة إلا بالله !" [١]

١) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ٤٥٩ — ٤٦٠

المطلب الرابع :

رأي الكوثري في شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ونقده

المطلب الرابع :

رأي الكوثري في شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة ونقده

قد مر بنا الكلام على سد الشريعة لكل الطرق الموصلة إلى الشرك ، وأن جناب التوحيد من الأمور المهمة التي دلت تجربة بني آدم على أن من هتكه ، ولج الشرك ومارسه ولا شك .

ومن ذلك مسألة شد الرحل للتقرب التي جاء النص الصريح في النهي عنها ، وقصر ذلك على ثلاث بقاع في الأرض دون غيرها .

لكن قبل الشروع في بيان النصوص ، ورأي الكوثري في هذه المسألة ، أحب أن أشير إلى معنى شد الرحل وحقيقته الشرعية .

أخذت تسمية هذه المسألة (شد الرحل) من حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه :

(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد) [1] .

" فالرحال جمع رحل وهو : مركب البعير " . [2]

فالمعنى كناية عن السفر ، فإن أحدهم إذا أراد السفر شد رحله ، أي هيأه على الدابة .

قال الطيبي [3] :

" الرحال بالمهملة جمع رحل ، وهو للبعير كالسرج للفرس وكنى بشد الرحال عن السفر لأنه لازمه وخرج ذكرها مخرج الغالب في ركوب المسافر ، وإلا فلا فرق بين ركوب الرواحل والخيل والبغال والحمير والمشي في المعنى المذكور " . [4]

---

1) سيأتي الحديث وتخريجه ص ٢٤٨.

2) القاموس المحيط ١٢٩٨ .

3) الحسين بن محمد شرف الدين الطيبي ، عالم في الحديث والتفسير والبيان واللغة [الأعلام ٢ / ٢٥١]

4) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ٦٤/٣ .

بعد هذا البيان أقول قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرها أنه قال : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ ومسجد الأقصى " [1] .

وعلى هذا الحديث استند أئمة السلف في النهي عن السفر إلى قبور الأولياء والصالحين ، وجعلوه من المحرمات ، لأنه من الذرائع الموصلة إلى الشرك .

يقول شيخ الاسلام :

" إن الصحابة والتابعين والأئمة لم يعرف عنهم نزاع في أن السفر إلى القبور ، وآثار الأنبياء ، داخل في النهي ، كالسفر إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى وغيره ، وإن كان الله سماه الوادي المقدس ، وسماه البقعة المباركة ونحو ذلك ، فلم يعرف عن الصحابة نزاع أن هذا وأمثاله داخل في نهي النبي ﷺ عن السفر إلى غير المساجد الثلاثة كما لم يعرف عنهم نزاع أن ذلك منهي عنه " . [2]

وللعلماء في مسألة إنشاء السفر لزيارة القبور والمشاهد قولان :

أحدهما : القول بإباحة ذلك كما يقوله بعض أصحاب الشافعي وأحمد .

والثاني : أنه منهي عنه كما نص عليه إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، و لم ينقل عن أحد من الأئمة الثلاثة خلافه ، وإليه ذهب جماعة من أصحاب الشافعي وأحمد " . [3]

ولأن في المنع ، المنع من الإشراك بأصحابها " كما وقع من عباد القبور الذين يشدون إليها الرحال ، وينفقون في ذلك الكثير من الأموال ، وليس لهم مقصود إلا مجرد الزيارة للقبور تبركاً بتلك القباب والجدران ، فوقعوا في الشرك .

هذه المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام ، أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ومشاهدهم ، ونقل فيها اختلاف العلماء في الإباحة والمنع ، فمن مبيح لذلك كأبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي ، ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد

---

١) أخرجه البخاري في ك / فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٦٣/٣ رقم ١١٨٩ ، ومسلم ٩٧٥/٢-٩٧٦ .

٢) كتاب الرد على الأخنائي لابن تيمية ١٣-١٤ .

٣) الصارم المنكي في الرد على السبكي ١٨ .

الجويني والقاضي عياض ، وهو قول الجمهور نص عليه مالك و لم يخالفه أحد من الأئمة ، وهو الصواب " .[1]

بعد هذا التمهيد نجد الكوثري تابع القائلين بإباحة شد الرحل للقبور تبركاً وتعظيماً واستغاثة ، بل ذهب إلى استحبابها كما سيأتي .

والكوثري في هذا مردِّدٌ لأدلة من سبقه ، ومتهجم على أئمة الدين وظالم لهم .

فهو يقول :

" وقد بلغ بالناظم وشيخه[2] الغلو في هذا الصدد إلى حد تحريم شد الرحل لزيارة النبي ﷺ ، وعد السفر لأجل ذلك معصية لا تقصر فيه الصلاة " .[3]

وقال : " النهي عن شد الرحل إلى غير المساجد الثلاثة في الحديث باعتبار أنه لا مضاعفة لثواب المصلي في غيرها ، ولا علاقة له أصلاً بمثل زيارة القبور ، وهذا ظاهر جداً ، فمعنى الحديث النهي عن شد الرحل إلى مساجد غير المساجد الثلاثة التي يضاعف فيها الثواب ، حيث لا داعي إلى تجشم المشاق ، والاستثناء المفرغ يقدر فيه المستثنى منه بقدر أدنى ما يصحح الاستثناء ، لأن التقدير ضرورة فلا يزيد على القدر الضروري في تصحيح الكلام ، وما زاد على ذلك ليس مما يعتبره أهل العلم كما لا يخفى على أن شد الرحل لأجل العلم أو الجهاد أو التجارة أو الاعتبار أو استعادة الصحة ونحو هذا لا يتصور أن يتناوله النهي في الحديث ." [4]

فأما قوله (فمعنى الحديث النهي عن شد الرحل إلى مساجد غير المساجد الثلاثة التي يضاعف فيها الثواب ، حيث لا داعي إلى تجشم المشاق) فهو تأويل لا أعلم أحداً سبق الكوثري إليه ، وهو تأويل سامج ، فكيف يقال إن الرسول العربي ﷺ تكلم بمثل هذا المعنى البارد ، هل يتصور أن الرسول أراد : لا تسافروا إلى غير المساجد الثلاثة ، فإنه لا تضاعف فيها الدرجات ؟

---

١) تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الوهاب ٢٦٣ .

٢) يعني بالناظم ابن القيم ، وبالشيخ ابن تيمية رحمهم الله .

٣) حاشية السيف الصقيل ١٧٧ .

٤) نفسه ١٧٨-١٧٩ .

وأما قوله (والاستثناء المفرغ يقدر فيه المستثنى منه بقدر أدنى ما يصحح الاستثناء ، لأن التقدير ضرورة فلا يزيد على القدر الضروري في تصحيح الكلام ، وما زاد على ذلك ليس مما يعتبره أهل العلم كما لا يخفى على أن شد الرحل لأجل العلم أو الجهاد ....)

فمراده من ذلك ، نفي دلالة الاستثناء ، على تحريم السفر لغير المساجد الثلاثة ، ذلك أن الاستثناء هنا استثناء مفرغ [1] ، تقديره : مساجد أو أماكن ، وهو ما لا يستقيم مع تفسيره ، لذا قال (والاستثناء المفرغ يقدر فيه المستثنى منه بقدر أدنى ما يصحح الاستثناء) ... الخ ، لأجل أن يبني على ذلك حجته — وهي التي كثيراً ما يدندن عندها القبوريون — وملخصها : أن النهي عن إنشاء السفر في الطاعة لو كان عاماً — باستثناء المساجد الثلاثة للزم منه تحريم إنشاء السفر لطلب العلم ، ولصلة الرحم ، وزيارة الأخوان لله ...

وقد دلت النصوص على إباحة السفر لهذه الطاعات فدل ذلك على أن النهي في الحديث غير عام !

والجواب أن هذا الاستدلال فاسد ، وذلك أن الاستثناء في الحديث استثناء مفرغ فيكون التقدير من جنسه ، فالطاعات التي ذكرها (العلم أو الجهاد أو التجارة أو الاعتبار أو استعادة الصحة) لا تدخل في الاستثناء ، ولذا فهي لاتدخل في النهي أصلاً .

فالنهي الوارد في الحديث متعلق بالبقعة والمكان ، لا بالعمل وصفة الطاعة ، فلا يدخل السفر لأجل عمل طاعة تحت النهي عن السفر لبقعة دون البقاع الثلاث ، فالنهي في الحديث منصب على البقعة ، فيبقى على عمومه في كل بقعة إلا ما استثناه الحديث ، وقد استثنى المساجد الثلاثة !

يقول ابن حجر : " (إلاّ) الاستثناء مفرغ ، والتقدير : لا تشد الرحال إلى موضع ، ولازمه منع السفر إلى كل موضع غيرها " [2]

والكوثري لا يتوانى في التلبيس إذا كان خصمه شيخ الإسلام ابن تيمية فهو يقول :

---

١) الاستثناء المفرغ هو الذي لم يذكر فيه المستثنى منه ، ويقدر من نوع المستثنى منه ، (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لابن هشام ٢ / ٦٠) .

٢) فتح الباري ٣ / ٦٦.

" فسعيه [1] في منع الناس من زيارته ﷺ يدل على ضغينة كامنة فيه نحو الرسول ﷺ " . [2]

وهذا الكلام من الكوثري ، ظلم وأي ظلم ، وعدوان ، وكذب وافتراء على إمام من أئمة المسلمين ، فكيف لمسلم أن يقول عن مؤمن : إن لديه ضغينة كامنة نحو الرسول ﷺ ؟

فهل شق قلبه فعلم ؟ أم أطلع الغيب فعرف ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

وأما قوله إن ابن تيمية سعى ليمنع الناس من زيارته ﷺ فهو كذب صريح .

فشيخ الإسلام ابن تيمية لم يمنع و لم يحرم زيارة قبر النبي ﷺ ، وإنما تكلم في شد الرحال لزيارة قبره ، " والسفر إلى زيارة القبور مسألة ، وزيارتها من غير سفر مسألة أخرى ، ومن خلط هذه المسألة بهذه المسألة وجعلهما مسألة واحدة ، وحكم عليهما بحكم واحد ، وأخذ في التشنيع على من فرق بينهما وبالغ في التنفير عنه ، فقد حرم التوفيق ، وحاد عن سواء الطريق " . [3]

والكوثري يعلم أن شيخ الإسلام لم يتكلم عن زيارة القبور بالإنكار أو النهي ، بل تطرق إلى الخلاف في السفر لأجلها ، وذكر الخلاف ، ورجح قول الصحابة والجمهور ، لأن الكوثري مطلع على كلام ابن السبكي ، ورد ابن عبد الهادي عليه لكنه الهوى يعمي ويصم .

ويعلق الكوثري على ما ورد من أحاديث في زيارة قبره ﷺ فيقول : " والأحاديث في زيارته ﷺ في غاية من الكثرة وقد جمع طرقها الحافظ العلائي في جزء كما سبق ، وعلى العمل بموجبها استمرت الأمة إلى أن شذ ابن تيمية عن جماعة المسلمين في ذلك " . [4]

ويجاب عن ذلك بوجوه .

---

١) يعني شيخ الإسلام ابن تيمية .

٢) حاشية السيف الصقيل ١٧٩ .

٣) الصارم المنكي في الرد على ابن السبكي ١٨ .

٤) حاشية السيف الصقيل ١٧٩ .

الأول : لا نزاع في زيارة قبره ﷺ حتى يقال إن ابن تيمية شذ في ذلك وإنما ورد النزاع في السفر لزيارة قبره ﷺ لورود أحاديث تشير إلى هذا .

الثاني : ما ذكره من أن أحاديث الاستحباب لزيارته ﷺ ، لم يأت بجديد ، فهـي التي ذكرها السبكي في كتابه " شفاء السقام " وأكثر فيها التهويل ، وقد فندها حـديثاً حديثاً الحافظ بن عبد الهادي في كتابه " الصارم المنكي في الرد على السبكي " [1] وبين أنه لم يصح منها شيء .

وقد شنع الكوثري على شيخ الإسلام ابن تيمية في نسبته منع السفر لزيـارة قـبر الرسول ﷺ إلى ابن عقيل الحنبلي ، حيث يقول :

" و لم يخف ابن تيمية من الله في رواية عد السفر لزيارة النبي ﷺ سفر معصـية لا تقصر فيه الصلاة عن الإمام أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي ، وحاشاه [2] في ذلـك " إلى أن قال : " وإنما قوله بذلك في السفر إلى المشاهد المعروفة في العراق لما قارن ذلك من البدع في عهده وفي نظره وإليك نص عبارته في التذكرة المحفوظة بظاهرية دمشق تحت رقم ٨٧ في الفقه الحنبلي : فصل . ويستحب له قدوم مدينة رسول الله ﷺ ، فيـأتي مسـجده ، فيقول عند دخوله باسم الله ، اللهم صل على محمد وآل محمد وافتح لي أبواب رحمتك ، وكف عني أبواب عذابك ، الحمد لله الذي بلغ بنا هذا المشهد وجعلنا لذلك أهلاً ، الحمد لله رب العالمين . ثم تأتي حائط القبر فلا تلمسه ولا تلصق به صدرك ، لأن ذلك عـادة اليهود ، واجعل القبر تلقاء وجهك ، وقم مما يلي المنبر ، وقل السلام عليك أيهـا الـنبي ورحمة الله وبركاته ... " أهـ . [3]

ثم نقل بعض ما يفعله من زار قبره ﷺ .

ولي أمام هذا الكلام وقفات :

الوقفة الأولى :

---

١) وهو كتاب عظيم النفع في بابه ، مطبوع متداول ، وقد قام عقيل المقطري بإخراجه وتحقيقه ، وهـي طبعـة سقيمة كثيرة السقط .

٢) يريد ابن عقيل لا ابن تيمية .

٣) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٧٩-١٨٠ .

أن شيخ الإسلام ابن تيمية عندنا أصدق وأبر في النقل من الكـــوثري ، وأوســـع علماً ، ولا مقارنة بينهما ، فكون شيخ الإسلام يعزو لأحد ، فهو البر الصادق ، ولا نقبل طعن الكوثري وأمثاله فيه.

الوقفة الثانية :

أن الكوثري يخلط بين السفر للزيارة ، وبين زيارته ﷺ من دون سفر حيث قال : " و لم يخف ابن تيمية من الله في رواية عد السفر لزيارة قبر النبي ﷺ معصية لا تقصر فيـــه الصلاة عن الإمام أبي الوفاء بن عقيل " إلى أن قال " راجع كتاب التذكرة له تجد فيه مبلغ عنايته بزيارة المصطفى ﷺ " [1] .

فهو يستدل على كذب ابن تيمية بأن ابن عقيل اعتنى بآداب زيارته ﷺ ؟ وهـــل نفى ذلك شيخ الإسلام عن ابن عقيل ؟ أو نسبه إليه ؟

فالكلام في السفر لا في عناية ابن عقيل بآداب الزيارة بدون سفر ! فتأمل .

الوقفة الثالثة :

يقرر الكوثري أن ابن عقيل يرى السفر إلى المشاهد المعروفة في العراق سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة .

والسؤال : هل الكوثري يقول بذلك ؟

الجواب : النفي قطعاً ، فكل حديثه في هذا الباب إنما هو في الدعوة الى شد الرحال الى مشاهد الصالحين .

إذاً لماذا يستدل بكلام ابن عقيل للرد على شيخ الإسلام ؟

لأن نسبة النهي عن السفر لغير المساجد الثلاثة – التي نسبها شيخ الاســـلام – إلى ابن عقيل ثابتة ، فاضطر لهذا التبرير وإن لم يكن قائلاً به .

---

١) نفسه ١٧٩ .

ولهذا فهذا القول منه حجة عليه ، حيث إن الكلام في هذه المسألة إنما هو في شد الرحل إلى قبور الصالحين والأولياء المعظمين عنده ، والذين استدل لجواز السفر إليهم بما نقله عن الرازي والغزالي والجرجاني .

وهكذا الباطل يوقع أهله في التناقض ،كما يقول الكوثري .

الوقفة الرابعة :

هذا النقل الذي نقله الكوثري عن ابن عقيل ، إنما سرده لينفي عن ابن عقيل القول بأن السفر لغير المساجد الثلاثة سفر معصية ، وليثبت أن ابن عقيل يقول بجواز أو استحباب السفر لقبر النبي ﷺ !

لكن عند قراءة النص الذي نقله الكوثري ، يتبين لنا أنه ليس فيه التصريح بجواز السفر إلى قبره ﷺ ، فضلاً عن القول بالاستحباب ، بل فيه استحباب زيارة مدينة رسول الله ﷺ لزيارة مسجده ، فانظر إليه يقول : " يستحب له قدوم مدينة الرسول ﷺ فيأتي مسجده فيقول عند ... " .[1] آخ .

فيقال للكوثري : وهل في ذلك خلاف بين أمة محمد ﷺ ؟

فالكلام على إنشاء السفر لزيارة القبر وليس في إنشاء السفر لزيارة المسجد الذي يستحب علماء السلف زيارته والسفر إليه من خلال حديث " لا تشد الرحال إلا ... " .

أليس هذا تلبيساً وتدليساً ؟

فماذا يقول الكوثري عن هذا ؟

الوقفة الخامسة :

هل ما قرره ابن عقيل هنا ، وذكره الكوثري مستشهداً به ــ وهو آداب زيارة قبر النبي ﷺ ــ ينكره شيخ الإسلام ؟

---

١) نفسه ١٧٩-١٨٠ .

الوقفة السادسة :

قد نقل الكوثري عن ابن عقيل أنه قال عن حائط القبر " فلا تلمسه ولا تلصق به صدرك لأن ذلك عادة اليهود " . [1]

فهل الكوثري يقره على هذا ؟ وهو القائل عن ابن عقيل : " ومن هو نظير ابن عقيل هذا بين الحنابلة في الجمع والتحقيق ؟ " [2]

الجواب بلا شك هو النفي ، وقد مر بنا استحبابه التمسح بقبور الصالحين للاستشفاء بها .

وقبل أن أختم هذا المبحث أحب أن أشير إلى أمر ملفت للنظر ، وهو أن الكوثري عند نصرته للقبورية ، ورده دلالة الحديث ، لم يعمد إلى الطعن في الحديث كما هي عادته إذا خالف المذهب ، وهو أمر غريب على غير عادته .

---

١) نفسه ١٨٠ .

٢) نفسه ١٨١ .

المبحث الرابع :
رأي الكوثري في الولاء والبراء

المطلب الأول :

معنى الولاء والبراء وحكمه

الولاء والبراء أحد أوثق عرى الإيمان ، والتي قام عليها الدين ، وهـي مقتضى الشهادتين ، فدين بلا ولاء لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، ولا براء من الكافرين وما هـم عليه دين سوء .

ويحسن بنا قبل ذلك أن نبين معنى الولاء والبراء ، وحقيقتهما .

الولاء لغة:

قال ابن فارس : " الواو واللام والياء: أصل صحيح يدل على قرب... من ذلـك الولي: القريب... والولاء: الموالون، يقال: هؤلاء ولاء فلان"، ثم قال: "والباب كلّه راجع إلى القرب" [1] .

وقال الراغب: "الولاء والتوالي: أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما مـا ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومـن حيـث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد. والوَلاية: النصرة، والوِلاية: تولي الأمـر، وقيل: الوِلاية والوَلاية نحو: الدِّلالة والدَّلالة" . [2]

والموالاة: ضدّ المعاداة، والولي: ضدّ العدو.

وتولاه: اتخذه ولياً، وإنه لبيِّن الوِلاة والولية والتولي والولاء والوِلاية والوَلاية.

والولي: القرب والدنو..." [3] .

البراء لغة:

---

١) مقاييس اللغة (٦/١٤١-١٤٢) .

٢) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٨٨٥-٨٨٧) .

٣) لسان العرب (١/٤٠٠-٤٠٧) .

قال الراغب: "أصل البُرء والبراءة والبَري: التقصّي مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: بَرَأْتُ من المرض، وبرِئتُ من فلان وتبرّأت، وأبْرَأته من كذا، وبَرّأته، ورجل بَريء، وقوم برآء، وبريؤون" [(١)] .

وقال ابن منظور: "قال ابن الأعرابي: برئ إذا تخلّص، وبرئ إذا تنزّه وتباعد، وبرئ إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: (بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ) [(٢)] ، أي: إعذار وإنـــذار ... وليلة البراء ليلة يتبرأ القمر من الشمس" [(٣)] .

إذن الولاء لغة يطلق على عدّة معان منها: المحبة، والنصرة، والاتباع، والقرب من الشيء، والدنو منه.

والبراء لغة يطلق على عدة معان أيضاً منها: البعد، والتنزه، والتخلص، والعداوة.

الولاء والبراءشرعا:

عرّفها كثير من العلماء بقولهم [(٤)] :

الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً، والبراء : هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار .

قال شيخ الإسلام في أصل معنى الولاية والعداوة : "والولاية ضدّ العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد. وقد قيل: إنّ الولي سمّي ولياً مـــن موالاته للطاعات، أي: متابعته لها، والأول أصح، والولي: القريب، يقال: هذا يلي هـــذا أي: يقرب منه" [(٥)] .

أهمية عقيدة الولاء والبراء:

- الولاء والبراء شرط في الإيمان:

---

١) مفردات ألفاظ القرآن ص ١٢١ .

٢) التوبة ١

٣) لسان العرب ١/٣٥٤-٣٥٦ .

٤) انظر: شرح الطحاوية ٤٠٣ ، وتيسير العزيز المجيد ٤٨٠ والموالاة والمعاداة لمحماس الجلعود ٢٧-٣١.

٥) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الاسلام ٥٣.

قال تعالى: (تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والنَّبِىِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـٰكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ) [1] .

يقول شيخ الإسلام في توضيح هذه الآية ، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب . [2]

- الولاء والبراء أوثق عرى الإيمان:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ لأبي ذر: (أي عرى الإيمان أوثق؟) قال: الله ورسوله أعلم، قال: (الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله) [3] .

وقد كان النبي ﷺ ، يبايع أصحابه على تحقيق هذا الأصل العظيم، فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبايع، فقلت: يا رسول الله، ابسط يدك حتى أبايعك، واشترط عليّ فأنت أعلم، قال: (أبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين) [4] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحبّ ما أحبّه الله، ويبغض ما أبغضه الله" [5] .

ولاء المؤمنين بعضهم بعضاً:

أ- وجوب ولاء المؤمنين بعضهم بعضاً:

---

١) المائدة ٨٠ ، ٨١ .

٢) كتاب الإيمان لشيخ الاسلام ابن تيمية ١٤ .

٣) رواه أحمد ٢٨٦/٤ ، وابن أبي شيبة في الإيمان ١١٠ ، والطبراني في المعجم الكبير ٢١٥/١١ ، والبغوي في شرح السنة ٣٤٦٨ ، والحاكم في المستدرك ٤٨٠/٢ وصححه ، وقال الألباني : الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن على الأقل . [الصحيحة ٤ / ٣٠٧ ح ١٧٢٨]

٤) أخرجه أحمد ٣٦٥/٤ ، والنسائي في البيعة ٤١٧٧ .

٥) الاحتجاج بالقدر لشيخ الاسلام ابن تيمية (ص ٦٢) .

قال تعالى: (وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) [1] .

وقال سبحانه: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ) [2] .

قال شيخ الإسلام: "إنّ المؤمنين أولياء الله وبعضهم أولياء بعض، والكفار أعداء الله وأعداء المؤمنين، وقد أوجب الموالاة بين المؤمنين، وبيّن أن ذلك من لوازم الإيمان، ونهى عن موالاة الكفار، وبين أن ذلك منتف في حقّ المؤمنين" [3] .

ب- من مظاهر موالاة المؤمنين [4] :

١- الهجرة إلى بلاد المسلمين وهجر بلاد الكافرين :

قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّـٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَـٰلِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالْوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَـٰجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً) [5] .

وقال سبحانه: (وَٱلَّذِينَ هَـٰجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [6] .

وقال صلى الله عليه وسلم: (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله) [7] .

---

١) التوبة:٧١

٢) المائدة:٥٥، ٥٦.

٣)مجموع الفتاوى ١٩٠/٢٨ .

٤) ينظر الفتاوى ١٩٠/٢٨ .

٥) النساء:٩٦، ٩٧ .

٦) النحل:٤١، ٤٠ .

٧) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٢٤/٣ (٢٧٨٧) ، وحسنه الألباني في الصحيحة ٥ / ٢٣٣ ح ٢٣٣٠.

٢- مناصرة المسلمين ومعاونتهم بالنفس والمال واللسان فيما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم .

٣- التألم لألمهم والسرور بسرورهم.

٤- النصح لهم ومحبة الخير لهم وعدم غشهم وخديعتهم.

٥- احترامهم وتوقيرهم وعدم تنقصهم وعيبهم.

٦- أن يكون معهم في حال العسر واليسر والشدة والرخاء.

٧- احترام حقوقهم، فلا يبيع على بيعهم، ولا يسوم على سومهم، ولا يخطب على خطبتهم، ولا يتعرّض لما سبقوا إليه من المباحات.

٩- الدعاء لهم والاستغفار لهم.

أقسام الموالاة:

تنقسم الموالاة إلى قسمين:

١- موالاة مطلقة عامّة، وهذا كفر صريح، وهي بهذه الصفة مرادفة لمعنى التولي، وعلى ذلك تحمل الأدلة الواردة في النهي الشديد عن موالاة الكفار، وأن من والاهم فقد كفر.

٢- موالاة خاصة: وهي موالاة الكفار لغرض دنيوي مع سلامة الاعتقاد، وعدم إضمار نية الكفر والردة كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في إفشاء سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة مكة، كما هو مذكور في سبب نزول سورة الممتحنة.

فالموالاة المطلقة العامة مرادفة لمعنى التولي، وهي بهذا الوصف كفرٌ وردّة، ومنها ما هو دون ذلك بمراتب، ولكلّ ذنب حظّه وقسطه من الوعيد والذّمّ، بحسب نيّة الفاعل وقصده [1] .

---

١) الموالاة والمعاداة للجلعود ١/٣٣ .

المطلب الثاني :

آراء الكوثري في البراء وصوره

عاصر الكوثري عصر سقوط الخلافة الاسلامية ، حيث تسلط الكفار على بلاد المسلمين ، ووصلوا إلى عاصمة الاسلام آنذاك .

وحيث إن الكوثري ، تركي الولادة والمنشأ ، فقد رأى كيف والى بعض المسلمين في بلده ، قوى الكفر ، وأصابه من الحسرة والألم ، مايشير إلى هذا الجانب ، فهو يقول :

" وكان ملء إهاب المسلمين — أيام عز الاسلام — العز والشمم والترفع عن الخضوع والملق والاستكانة ، يفضل أحدهم أن يرمى من شاهق على أن يرى وهو بشعار غير المسلمين." [1]

ويقول : " أيقظنا الله من — رقدتنا — وأشعرنا الاعتزاز بالعزة الاسلامية والشرف الاسلامي عن الاندماج في أمة غير أمتنا ."[2]

وللكوثري جهد يشكر عليه في الرد على بعض الملاحدة ، والداعين إلى التحديث والتشبه بالكفار .

فهو يقول راداً على بعض من قال بوجود قوة خفية لهذا الكون .

" إن المسلم ليس بمدين في شيء إلا لله المنعم الديان ." [3]

وقد عاصر الكوثري عند استقراره في مصر ، دعاة التغريب ، والحداثة ، الداعين إلى التشبه بالغرب . للوصول إلى ما وصلوا إليه ، وقد سعى إلى ان يدلي بدلوه في ذلك ، فسارع إلى إنكار التشبه بالكافرين في هيئتهم ولباسهم .

يقول :

---

١) مقالات الكوثري ٣١٧

٢) مقالات الكوثري ٣٣٢

٣) مقالات الكوثري ٤٣٦

" طرأ الضعف على كيان المسلمين — بسعي سماسرة الخنوع والاندماج — فهوى ذلك العز الشامخ ، وانهارت تلك القوة المنيعة فانقلبت الأوضاع ، وشرع من يفقد الاعتزاز بعز الاسلام ، يعتز بالانتساب إلى هيئات غير المسلمين ."[1]

وبين الكوثري — في هذا الجانب — خطر التشبه بالكافرين في لبسهم فوضح حكمه ، وأثره ، فهو ينقل عن بعض علماء مصر استنكارهم التلبس بشعار المسلمين.[2]

ويقول : " والافتاء بالأقوال الضعيفة ، واتهام الفقهاء بالمجازفة والسعي في إزالة الحواجز بين المسلمين وغيرهم مما يجر إلى استفحال الشر ، وفتح باب الدس بين المسلمين . "[3]

والكوثري يرى كفر من تشبه بالكفار في لبسهم الخاص بهم إذا كان طائعاً مختاراً من غير عذر .

فهو ينقل عن بعض أئمة مذهبه ، أنه قال :

" وإنما عد لبس الغيار والزنار (٤) ونحوهما كفراً ، لأنها تدل على التكذيب ، أي دلالة شرعية وعملية . "[5]

وينقل عن التفتزاني قوله :

" لو فرضنا أن أحداً صدق بجميع ما جاء عن النبي ﷺ ، وأقر به وعمل به ، ومع ذلك شد الزنار بالاختيار أو سجد للصنم بالاختيار نجعله كافراً لما أن النبي ﷺ جعل ذلك علامة التكذيب والانكار ."[6]

ثم قال بعد هذا :

---

١) مقالات الكوثري ٣١٨

٢) انظر مقالات الكوثري ٣١٩

٣) مقالات الكوثري ٣٢٤

٤) الغيار لبس ما يميزهم ، والزنار حزام يشده النصارى على أوساطهم (تهذيب التهذيب ١/ ٥٢٠) ، والزنار ما يشده المجوسي والنصراني على وسطه . (مختار الصحاح ١ / ١٦ ، ولسان العرب ٤ / ٣٣٠)

٥) مقالات الكوثري ٣٢٥

٦) مقالات الكوثري ٣٢٥

" ومن لا يعد الترفع عن مظهر المسلمين بالاندماج في مظهر غيرهـــم دليـــل التكـــذيب والاستخفاف يكون بالغ البله ، مصاباً في عقله ، أو يكون الإيمان عنده ، غير الإيمان عند جمهور أهل الحق ، ولاسيما بعد أن نقل مثل العلامة سعد الدين التفتزاني في شرح المقاصد الإجماع على إكفار من لبس الزنار بالاختيار ، ولا فرق عندهم بين شعار وشعار ، وبعد أن علم أن خلافهم في باب الأعذار في الكفر ، وعدم الكفر لا في الحل والحرمة ."[1]

ولا بد ههنا أمام هذه الآراء من وقفات .

الأولى :

أن ما ذكره من كفر من لبس ثياب الكفار التي تخصهم فيه نظر .

قال شيخ الاسلام عن حديث التشبه[2]:

" وهذا الحديث أقل أحواله : أن يقتضي تحريم التشبه بهم ، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم ، كما في قوله : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم)[3] وهو نظير ماسنذكره ، عن عبد الله بن عمرو أنه قال : (من بنى بأرض المشركين ، وصنع نيروزهم ، ومهرجـــانهم ، وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة) . فقد يحمل هذا على التشبه المطلق ، فإنه يوجب الكفر ، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك ، وقد يحمل على أنه منهم ، في القدر المشترك الذي شابههم فيه ، فإن كان كفراً ، أو معصية أو شعاراً لها ، كان حكمه كذلك .

وبكل حال : يقتضي تحريم التشبه ، بعلة كونه تشبهاً ، والتشبه : يعم من فعل الشـــيء لأجل أنهم فعلوه ، وهو نادر ، ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك ، إذا كان أصـــل الفعل مأخوذاً عن ذلك الغير . فأما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضاً ، و لم يأخذه أحدهما عن صاحبه ، ففي كون هذا تشبهاً نظر ، لكن قد ينهي عن هذا ، لئلا يكـــون ذريعة الى التشبه ، ولما فيه من المخالفة ، كما أمر بصبغ اللحى واحفاء الشوارب ، مع أن قوله ﷺ : (غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود). دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد

---

١) مقالات الكوثري ٣٢٥

٢) سيأتي تخريجه ص ٢٦٦

٣) المائدة ٥١ .

منا ، ولا فعل . بل بمجرد ترك تغيير ماخلق فينا ، وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية ، الاتفاقية ".[1]

وهذا التفصيل يزيل الغموض .

الثانية :

أنا نرى الكوثري لم يتطرق من صور البراء من الكافرين إلا إلى مشابهتم في اللبس ، وهذا غريب .

فالعصر الذي عاش فيه ، - سواء أكان في تركيا أو بعد أن استقر بمصر - كان عصراً مليئاً بمظاهر التغريب ، والدعوة إلى إزالة الفروق بين المسلمين وغيرهم من الكفار وتسلط الكافرين على بلاد المسلمين ، وعلى عقول كثير منهم ، مما أدى إلى تزعزع عقيدة البراء من الكافرين ، والولاء لأهل الإيمان .

ومع هذا كله لم نجد للكوثري منافحة ، ولا رداً على دعاة التغريب

الثالثة

عند قول الكوثري :

" كان أهل الفقه في الدين على توالي القرون يرون من يرضى لنفسه هذا المنظر فاسد العقيدة بمعنى : أنه فسدت عقيدته ، فلبس ، لا أنه لبس ففسدت عقيدته . "[2]

فقول (أنه فسدت عقيدته ، فلبس)

فهذا الكلام منه كلام صحيح ،إذ إن الذي يلبس شعار الكافرين لا يتصور وقوع الفعل منه إلا بسبب خلل في عقيدته وفسادها .

وقوله (لا أنه لبس ففسدت عقيدته)

هذا الكلام يوحي بأنه إذا لبس لم تفسد عقيدته وهو مناقض لقوله ﷺ :"من تشبه بقوم فهو منهم "[3]

---

١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٣٧ – ٣٣٨

٢) مقالات الكوثري ٣١٨

٣) رواه أبو داود ك اللباس ، باب في لبس الشهرة (٣) ٤٠٣١ وأحمد ٢/ ٥٠ ، وقد صححه شيخ الاسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٢٣٦ ، وذكر ابن حجر له شاهداً حسناً في الفتح ٦/ ٩٨

فإن للتشبه بالكافرين أثراً على نفس المسلم وذلك " أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين ، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال . وهـــذا أمـــر محسوس ، فإن اللابس ثياب أهل العلم ، يجد من نفسه نوع انضمام إليهم ، واللابس لثياب الجند المقاتلة ، مثلاً يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم ، ويصير طبعه متقاضياً لذلك ، إلا أن يمنعه مانع . "[1]

---

١) اقتضاء الصراط المستقيم ٧٩

الفصل الثالث :

آراء الكوثري في توحيد الأسماء والصفات

المبحث الأول :

معنى توحيد الأسماء والصفات

المطلب الأول :

توحيد الأسماء والصفات عند السلف

المطلب الأول :

توحيد الأسماء والصفات عند السلف

يعد توحيد الأسماء والصفات أحد أقسام التوحيد الثلاثة المتعلقة بالذات الإلهية وما يجب لها ، وهذا الباب من الأبواب التي يتميز فيها منهج أهل السنة عن غيرهم من المخالفين من أهل البدع والأهواء حيث تتميز فيه وبصورة واضحة طريقة أهل السنة في التلقي والإثبات والنفي والإنكار فيما يتعلق بأمور الاعتقاد وبالأخص الجانب المتعلق بالله تعالى ومعرفة أوصافه وأسمائه الدالة عليه .

وقد أكثر سلف الأمة عليهم رحمة الله من الحديث عن هذا الجانب من التوحيد نظراً لشرفه وأهميته ، وزاد اعتناؤهم به بالأخص عندما نشأ الانحراف في توحيد الأسماء والصفات لدى عدد ليس بالقليل من المتأثرين بالمـــدارس والفلســـفات الدخيلة على أهل الإسلام والتي كان على إثرها ظهور الآراء الشاذة والفرق المبتدعة التي جهلت مفهوم التوحيد وبالأخص توحيد الأسماء والصفات

وأحببت هنا الإشارة إلى توحيد الأسماء والصفات عند السلف لأنه المقياس الذي نحتكم إليه في معرفة الحق والصواب ، وهذا الباب والحكم على تلك المـــذاهب ومعرفـــة مدى موافقتها أو مخالفتها لما عليه سلف الأمة في أسمائه وصفاته له موضع آخر

وقد تُحدث عن مذهب (أهل السنة والسلف والجماعة) باستفاضة في الكثير من المؤلفات وقرره علماء أهل السنة في العديد من مصنفاتهم ولست هنا بصدد الاستفاضة في الحديث عنه إنما حديثي سيكون مبرزاً لجملة قولهم في الأسماء والصفات ويمكن اختصـــاره بالنقاط التالية :

أولاً : معنى توحيد الأسماء والصفات

هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمـــة والجـــلال والجمال ، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء

والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة ، كالإقرار بأن الله بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة ، وأنه على العرش استوى ، وهو مع عباده أينما كانوا بعلمه ، هذا مع اعتقاد أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .[1]

ثانياً : أهمية توحيد الأسماء والصفات

إن الطريق لمعرفة الله تعالى هو التعرف عليه من خلال الوقوف على أسمائه وصفاته فكل موجود لا بد له من دلائل تدل عليه وتشير إليه وتبين قدره وما يختص به فكيف إذا كان الحديث عن أعظم شيء في الوجود بل الذي أوجد كل شيء وهو الله سبحانه وتعالى ، فإذا وقف العبد الفقير القاصر المحتاج على صفات خالقه وتعرف على أسمائه عندئذٍ تندفع نفسه لعبادة خالقه والتوجه إليه وبدون معرفة ذلك لن يتسنى للعبد تحقيق العبودية .

يقول ابن القيم رحمه الله : " إن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق ، وهو مطلوب لنفسه ، مراد لذاته ، قال الله تعالى : (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا)[2] . فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ، ونزل الأمر بينهن ، ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة ، وقال تعالى : (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ)[3] فالعلم بوحدانيته تعالى ، وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفى به وحده ، بل لابد معه من عبادته وحده لا شريك له ، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما : أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وأن يُعبد بموجبها ومقتضاها[4]

---

١) أنظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٤، ٣٥ ؛ والكواشف الجلية في معاني الواسطية ص ٤١٧ ، ٤١٨ بتصرف .

٢) الطلاق : ١٢.

٣) محمد : ١٩ .

٤) مفتاح دار السعادة (٢٠٧/٢) .

ويقول أيضاً :

ولا يستقر للعبد قدم في المعرفة – بل ولا في الإيمان – حتى يؤمن بصفات الـــرب جل جلاله ، يعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه ، فالإيمان بالصفات وتعرفها هـــو أساس الإسلام ، وقاعدة الإيمان ، وثمرة شجرة الإحسان ، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان ، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان .

وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به ، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر ، فقال تعالى : (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ) [1] .

فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به ، وأنه هو الذي أهلكهم ، وقد قال في الظانين به ظن الســـوء : (عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) [2] .

ولم يجئ مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء بـــه ســـبحانه ، وجحدُ صفاته وإنكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به .

ولما كان أحب الأشياء إليه حمده ومدحه ، والثناء عليه بأسمائه وصـــفاته وأفعاله ، كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به ، وهو شر من الشرك ، فالمعطلُ شر من المشرك ؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصـــافه هو ، والتشريك بينه وبين غيره في الملك فالمعطلون أعداء الرسل بالذات ، بل كل شرك في العالم أصله التعطيل . [3]

ومما يزيد بيان أهمية توحيد الأسماء والصفات أن الأسماء والصفات مقتضية لآثارها الحسنة من العبودية .

---

١) فصلت : ٢٢-٢٣ .

٢) الفتح : ٦١ .

٣) مدارج السالكين (٣/٣٤٧) .

يقول ابن القيم رحمه الله : " إن كل آية في القرآن متضمنة للتوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه ؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ،افعاله ، فهو التوحيد العلمي الخبري . وإما دعوته إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره ، فهي حقوق التوحيد ومكملاته .[1]

فالأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر ، اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين ، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها ، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها ، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه ، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وأنه يعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ؛ يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يُرضي ا لله ، وأن يجعل تعلق هذه ا لأعضاء بما يحبه الله ويرضاه ، فيثمر له ذلك الحياء باطناً ، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح".[2]

ثالثاً : احترازهم من كل ما يقدح في توحيد الأسماء والصفات

أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة الواسطية عندما بين منهج أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان بالأسماء والصفات ومعنى ذلك ، أشار في بداية ذكره لموقفهم في مسألة الإيمان بأسمائه وصفاته إلى الأمور التي احترزوا منها جملة لتحقيق توحيد الأسماء والصفات فقال : ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله محمدٌ صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يؤمنون بأن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فلا ينفون عنه ما

---

١) المصدر السابق (١/٤٥٠) .

٢) مفتاح دار السعادة (٢/٤٤٢) .

وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يلحدون في أسماء الله وآياته ، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمي له ، ولا كفو له ولا ند له ، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى ، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون ، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون .

وهذا هو ما حذر منه الله تعالى وهو الإلحاد فيها .والإلحاد له صور متعددة وعبر عنها بأنواع الإلحاد .

يقول ابن القيم : " الإلحاد في أسماء الله تعالى أنواع :

أحدها : أن يسمي الأصنام بها ، كتسمية اللات من الإلة والعزى من العزيز ، وتسميتهم الصنم إلهاً .

الثاني : تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أباً ، وتسمية الفلاسفة له موجباً بذاته أو علة فاعلة .

وثالثها : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص ، كقول أخبث اليهود : إنه فقير ، وقولهم ، إنه استراح بعد أن خلق خلقه ، وقولهم : يد الله مغلولة وأمثال ذلك .

رابعها : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم : إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني .

خامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى عما يقول المشبهون علوا كبيراً ". (١)

رابعاً : طريقة السلف في إثبات الصفات ونفيها

السلف يصفون الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه ، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله . (٢)

---

١) بدائع الفوائد ١٦٩/١ ، ١٧٠ .

٢) انظر كتاب الحق الواضح المبين ص ١٢ ، ط.السلفية وص ٢٠ ، ط. دار ابن القيم .

قال الصابوني : " إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة .. يعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد له بها رسوله صلى الله عليه وسلم على ما وردت الأخبار الصحاح به ونقلته العدول الثقات عنه ، ويثبتون له جل جلاله منها ما أثبته لنفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لا يعتقدون فيها تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه .. ولا يحرفون كلاماً عن مواضعه ، وقد أعاذ الله تعالى أهل السنة من ا لتحريف والتكييف والتشبيه ، ومنّ عليهم بالتعريف والتفهم ، حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه ، وتركوا القول بالتعليل والتشبيه ، واتبعوا قول الله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [(١)] ... " [(٢)]

وطريقتهم في إثبات الأسماء والصفات تتميز عن غيرهم من جهة الإثبات والنفي وبيان ذلك على النحو التالي :

أ – الإثبات

الإثبات عند السلف رحمهم الله تعالى يتميز بالآتي:

١– التسليم بما ورد من الأسماء والصفات :

فيجب الإيمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة دون تجاوزها بالنقص أو الزيادة .

قال ابن خزيمة [(٣)] : " إن الأخبار في صفات الله موافقة لكتاب الله تعالى ، نقلها الخلف عن السلف قرناً بعد قرن من لدن الصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا على سبيل الصفات

---

١) الشورى : الآية ١١.

٢) اعتقاد السلف أصحاب الحديث ص ٣، ٤ .

٣) محمد بن إسحاق بن خزيمة ، أبو بكر السلمي النيسابوري الشافعي ، صاحب التصانيف (٢٢٣–٣١١هـ)روى عن : إسحاق بن راهويه، وعلي بن حجر، وأحمد بن عبده الضبي، ويونس بن عبدالأعلى. وعنه : البخاري ، ومسلم في غير الصحيحين ، وأبو حاتم بن حبان، وابن عدي. قال الدارقطني : كان إماماً ثبتاً. قال ابن أبي حاتم : وهو ثقة صدوق ، وقال مرةً لما سُئل عنه : هو يُسأل عنا ولا نسأل عنه هو إمام يقتدى به ، وقال الذهبي : الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، إمام الأئمة. [الجرح (١٩٦/٧)– التذكرة (٧٢٠/٢)– السير (٣٦٥/١٤)].

لله تعالى والمعرفة والإيمان به والتسليم لما أخبر الله تعالى في تنـــزيله ونبيه صلى الله عليه وسلم مع اجتناب التأويل والجحود ، وترك التمثيل والتكييف ".[1]

وقال أبو بكر الإسماعيلي[2] :

" اعلموا رحمني الله وإياكم أن مذهب أهل الحديث أهل السنة والجماعة الإقـــرار بالله وكتبه ورسله وقبول ما نطق به كتاب الله وصحت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا معدل عما ورد به ، ولا سبيل إلى رده إذ كانوا مأمورين باتباع الكتاب والسنة مضموناً لهم الهدى فيهما مشهوداً لهم بأن نبيهم صلى الله علية وسلم يهـــدي إلى صراط مستقيم محذرين في مخالفته الفتنة والعذاب الأليم ، ويعتقدون أن الله تعالى مـــدعو بأسمائه الحسنى ، موصوف بصفاته التي سمى ووصف بها نفسه ، ووصفه بها نبيه صلى الله عليه وسلم .. " .[3]

٢- نصوص الأسماء والصفات يقرونها صريحة على ظواهرهـــا كمـــا جـــاءت ، ويسلمون لما تقتضيه تلك الصفات من الكمال اللائق بالله ، من غير تحريف ولا تكييف .

فكل ما نص عليه كتاب الله وحديث رسول ا لله صلى الله عليه وســـلم يجـــب الإيمان به ومن أنكر شيئاً منه أو ألحد فإنه يخشى عليه الكفر بعد قيام الحجة عليه كما قال الشافعي : " لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم لا يسع أحداً من خلق الله تعالى قامت عليه الحجة ردها ، لأن القرآن نزل بها وصـــح عـــن رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بها ، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهـــو كافر بالله تعالى ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل " .[4]

---

١) ذم التأويل لابن قدامه ص ١٤٠ ضمن مجموعة الرسائل الكمالية .

٢) أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلي الجرجاني أبو بكر ، قال عنه الذهبي : (الإمـــام الحافظ الثبت شيخ الإسلام) مات سنة ٣٧١هـــ . تذكرة الحفاظ ٩٤٧/٣ . وأنظر ترجمته في طبقات الشافعية ٧/٣ .

٣) ذم التأويل لابن قدامه ص ١٣٩ ، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية .

٤) ذم التأويل ص ١٤٣ .

٣- لا يطلقون على الله شيئاً من الأسماء والصفات إلا بدليل من ا لشرع ، فما ورد من الشرع وجب إطلاقه ، وما لم يرد به فلا يصح إطلاقه فهي عندهم توقيفية ، قال السجزي [١] : " قد اتفقت الأئمة على أن الصفات لا تؤخذ إلا توقيفاً ، وكذلك شرحها لا يجوز إلا بتوقيف .. ولا يجوز أن يوصف الله سبحانه إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ". [٢]

وذلك لأن الإيمان بصفات الله وأسمائه من الإيمان بالغيب ، ولا يمكن معرفة الغيب إلا عن طريق الرسل الذين يبلغون وحي الله .

٤- إثباتهم للصفات معلومة المعنى مجهولة الكيفية :

ولذا لما سئل الإمام مالك عن قول الله تعالى : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) [٣] كيف استوى ؟ قال : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة " [٤] .

فبين أن الاستواء معلوم المعنى ، مجهول الكيفية . وهكذا بقية الصفات يقال فيها ما قيل في الاستواء .

قال أبو سليمان الخطابي : " فإن كان معلوماً أن إثبات البارئ سبحانه وتعالى ، هو اثبات وجود ، لا إثبات كيفية فكذلك اثبات صفاته ؛ إنما هو اثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف" [٥]

---

١) عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد ، الوائلي البكري السجستاني ، أبو نصر ، الإمام العالم الحافظ المجود شيخ السنة ، وشيخ الحرم . سمع من : أحمد بن ابراهيم العَبْقَسي ، والحاكم ، وأبي عبد الرحمن السلمي ، وآخرون . وحدث عنه : الحافظ أوب إسحاق الحبّال ، وسهل بن بشر الإسفراييني ،وجعفر بن أحمد السّراج ،وخلق . وهو راوي حديث المسلسل بالأولية . صنف كتاب " الإبانة الكبرى " في أن القرآن غير مخلوق وهو يدل على سعة علمه بنص الأثر . قال عنه : وأئمتنا كسفيان ،ومالك ، والحمادين ، وابن عيينة ، والفضيل ،وابن المبارك ، وأحمد ،وإسحاق ، متفقون على أن الله سبحانه فوق العرش ، وعلمه بكل مكان وإنه يتزل إلى السماء الدنيا ،وأنه يغضب ويرضى ، يتكلم بما شاء . مات بمكة سنة (٤٤٤هـ) [تذكرة الحفاظ ١١١٨/٣، العبر ٢٠٦/٣، السير ٦٥٤/١٧] .

٢) كتاب الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٣٩ .

٣) طه : الآية ٥ .

٤) سيأتي تخريجه في صفحة ٢٨٤

٥) الأربعين في صفات رب العالمين ص ١١٧ ؛ والعلو ص ١٧٣ ، كلاهما للذهبي .

وقال الحافظ أبو القاسم التيمي : " وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات .. وعلى هذا مضى السلف كلهم " . [1]

وقال السجزي : " إن الله تعالى إذا وصف نفسه بصفة هي معقولة عند العرب ، والخطاب ورد بها عليهم بما يتعارفون بينهم ، و لم يبين سبحانه أنها بخلاف ما يعقلونه ، ولا فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بتفسير يخالف الظاهر ، فهي على ما يعقلونه " [2] .

وقال البزدوي الحنفي : " إثبات اليد والوجه حق عندنا معلوم بأصله ، متشابه بوصفه ، ولا يجوز إبطال الأصل بالعجز عن إدراك الوصف بالكيف ، وإنما ضلت المعتزلة من هذا الوجه فإنهم ردوا الأصول لجهلهم بالصفات فصاروا معطلة " [3] .

٥- الإثبات عندهم يأتي مفصلاً :

وهذه هي طريقة القرآن ، فالإثبات للصفات في كتاب الله يكون مفصلاً ، والنفي يكون مجملاً [4] .

والمراد بالتفصيل :

التعيين والتخصيص ، وذلك بذكر الأسماء والصفات معينة منصوصاً عليها لا مجملة في لفظ عام ، كقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [5] .

ومن شواهد الإثبات المفصل قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [6] .

---

١) الحجة في بيان المحجة ص ٣٤ .

٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٨٣ .

٣) أصول البزودي مع شرحه كشف الاسرار لعلاء الدين البخاري ٦٠،٦١/١ .

٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٣ .

٥) الأعراف : الآية ١٨٠ .

٦) الحشر : الآيتان ٢٣، ٢٤ .

ب – طريقتهم في التنــزيه :

التنــزيه الذي دل عليه الكتاب والسنة وفهمه سلف الأمة هــو تنـــزيه بــلا تعطيل ، لما أثبت الله لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وليس نفي الصــفات الثابتة في الكتاب والسنة من ا لتنــزيه في شيء بل هو عين التنقص .

وأهل السنة ينفون ما نفاه الله عن نفسه ، وما نفاه عنه رسول الله صلى الله عليــه وسلم ولا يتعرضون لصفات الكمال ونعوت الجلال بنفي ولا تحريف .

وإثبات الصفات الثابتة في الكتاب والسنة ليس من ا لتشبيه في شيء ، بل التشبيه في نفي الصفات لا في إثباتها والتنــزيه عند السلف مبني على أمور :

١- تنــزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب مع إثبات الصفات الواردة في الكتاب والسنة إثباتاً بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل . فينــزه الله عن كل ما يوجب الــنقص أو العيب سواء كان متصلاً ؛ كالموت والعجز والسِنَة والنوم والذل والسفه والنسيان والغفلة والحاجة والتعب واللغوب ، أو كان منفصلاً ؛ كالشريك والظهير والشفيع بدون إذنــه والولد والوالد واتخاذ الصاحبة والكفؤ والند .

٢- النفي عندهم يأتي مجملاً :

تقدم أن الإثبات عند السلف يكون إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته رسوله صلى الله عليه وسلم على وجه التفصيل من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ، أما النفي فهــو مجمل عندهم كما هي طريقة القرآن الكريم .

والمراد بالإجمال : التعميم والإطلاق ، والنفي المجمل : هو الذي لا يُتعرض فيــه لنفي عيوب ونقائص معينة ، فقوله تعالى : (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) [1] وقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) [2] ، هو نفي مجمل لأنه نفي للمماثلة في جميع الصفات ، فلــم

١) الإخلاص : الآية ٤ .

٢) الشورى : الآية ١١ .

يقل ليس كمثله شيء في علمه أو في قدرته أو في سمعه أو في بصره ، وما ذكر من الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات إنما هو في الغالب ؛ وإلا فإنه قد يأتي النفي مفصلاً كقوله تعالى : (لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) [1] ، وقوله تعالى : (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [2] . كما قد يأتي الإثبات مجملاً ،إلا أنه يتضمن كما الضد . كقوله تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا) [3] . وقوله تعالى : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) [4] .

فالسلف لا يصفون الله بالنفي المحض ، ومع نفيهم عن الله ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم فهم يثبتون ضد الصفات المنفية .

---

١) البقرة : الآية ٢٥٥ .

٢) الكهف : الآية ٤٩ .

٣) الأعراف : الآية ١٨٠ .

٤) الفاتحة : الآية ٢ .

المطلب الثاني :

فهم الكوثري لمعتقد السلف في الصفات

المطلب الثاني :

فهم الكوثري لمعتقد السلف في الصفات

معتقد أهل السنة أتباع السلف الصالح واجب الاتباع ، وقد بينه الأئمة منذ عصر النبوة ، وعليه سار الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم إلى يومنا هذا .

فألفوا فيه الكتب ، وذبوا عنه البدع ، وابتلوا عليه .

وأهل السنة والجماعة هم أخص الناس برسول الله ﷺ ، ولذا نرى الفرق كلها تسعى إلى الانتساب إليهم ، وإسناد أمور الاعتقاد إليهم ، لينالوا بذلك الإقرار بصواب ماهم عليه .

والكوثري – وكما سيتبين لنا – ماتريدي المعتقد ، متابعاً لأئمة هذا المذهب في الشاردة والواردة ، لا يخرج عنه .

ومع هذا نراه كثيراً ، إما ينتسب إلى أهل السنة أتباع السلف ، فيزعم أن ما عليه هو وأئمته هو معتقد السلف الصالح .

وإما نراه يقرر مذهب الماتريدية فينسبه إلى أئمة السلف .

وإما يقرر بعض المعتقدات البدعية ويزعم أنها معتقد السلف الصالح !

يقول الكوثري :

" لا سبيل إلى استنكار ما كان عليه السلف الصالح من إجراء ما ورد في الكتاب والسنة المشهورة في صفات الله سبحانه على اللسان مع القول بتنزيه الله سبحانه تنزيهاً عاماً بموجب قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) بدون خوض في المعنى ولا زيادة على الوارد ولا إبدال ما ورد بما لم يرد ، وفي ذلك تأويل إجمالي بصرف الوارد في ذات الله سبحانه عن سمات الحدوث من غير تعيين المراد ، وهم لم يخالفوا [1] في أصل التنزيه الخلف

---

١) غريب قوله : إن السلف لم يخالفوا الخلف ، فمن يكون المخالف المغير السلف المتقدمون أم الخلف المتأخرون !

الذين يعينون معنى موافقاً للتتريه بما يرشدهم إليه استعمالات العرب ، وأدلـــة المقـــام ، وقرائن الحال " . (١)

ويقول في كتابه الإمتاع عن عثمان بن سعيد الدارمي (٢) :

" وكان لا يخوض في أحاديث الصفات ، بل كان يمرها على اللسان كما ورد من غير خوض في المعنى ، ولا إقامة لفظ لم يرد من المعصوم مقام لفظ ورد ، متمسكاً بالتتريه المطلق المنصوص عليه في الكتاب الحكيم ، كما هو مذهب السلف ، ثم ضـــل بمخالطـــة الكرامية (٣) " . (٤)

وكرر هذا المعنى في موضع آخر فقال :

" ولما سئل الإمام أحمد عن أحاديث الترول والرؤية ووضع القدم ونحوها قـــال : نؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى ، وقال أيضاً يوم سألوه عن الاستواء : اســـتوى على العرش كيف شاء كما شاء بلا حد ولا صفة يبلغها واصف ، على ما ذكره الخلال في السنة بسنده إلى حنبل عن عمه الإمام أحمد .

وهذا تفويض وتتريه كما هو مذهب السلف " . (٥)

وقال : وما يروى عن بعض السلف من إجراء أحاديث الصفات وإمرارها علـــى ظواهرها فليس بمعنى الظاهر المصطلح في أصول الفقه الذي يبقى حين ترجح المحتمل الآخر بالدليل كالنجم عند شروق الشمس ، ولا بمعنى ما يظهر للعامة من اللفظ ، بل بـــالمعنى المقابل للغريب الذي ينفرد بلفظه راوٍ في إحدى الطبقات فيكون بمعنى تجويز إمرار اللفـــظ

---

١) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٤-١٥ .

٢) (الدارمي) عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد ، أبو سعيد ، التميمي ، الدرامي السجستاني ، ولد قبل المئتين بيسير ، وسمع : أبا اليمان ،وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين وغيرهم وحدّث عنـــه : أحمـــد الحيري ، ومحمد بن يوسف الهروي وخلق كثيرا ، له الرد على بشر المريسي وعلى الجهمية ، وكان لهجاً بالسنة بصيراً بالمناظرة ، مات سنة ٢٨٠هـــ [الجرح والتعديل ١٥٣/٦، تذكرة الحفاظ ٦٢١/٢، السير ٣١٩/١٣] .

٣) أتباع محمد بن كرام السجزي ، قال عنه الذهبي : العابد المتكلم شيخ الكرامية ، ساقط الحديث على بدعته ، اشتهرت بالقول بالتشبيه والتجسيم ، والإرجاء ،انظر سير أعلام النبلاء ٥٢٣/١١

٤) الامتاع بسيرة الإمامين الحسن بن زياد ، وصاحبه محمد بن شجاع ٦٤ .

٥) حاشية دفع شبهة التشبيه لان الجوزي ٨ ، وحاشية السيف الصقيل ١٥٧ .

على اللسان وإجرائه عليه إذا كان اللفظ مروياً بطريق الظهور والشهرة في جميع الطبقات " .[1]

فالكوثري يقرر هنا أن معتقد السلف هو قراؤتها دون تقرير معنى محدد ، وهو إمرارها على اللسان دون اعتقاد معين .

وهذا هو عين معتقد التفويض .

وقد صرح الكوثري في نسبة ذلك إلى السلف حيث قال عن معتقدهم : وهو تفويض وتتريه " .[2]

والتفويض في معاني صفات الله من شر المعتقدات في صفات الله ، لأن لازم التفويض التوقف عن الحكم ، وعدم الاعتقاد بشيء لا نفياً ولا إثباتاً .

واعتقاد المعطلة في مذهب السلف التفويض ، أمر مشتهر بينهم فلا يعرفون عن اعتقاد أئمة السلف إلا أهم مفوضة .

والذي يهمنا هنا رأي الماتريدية الذين منهم الكوثري ، فالتفتزاني يقول عن ظواهر النصوص النقلية :

" الأدلة القطعية قائمة على التتريهات ، فيجب أن يفوض علم النصوص إلى الله تعالى ، على ما هو دأب السلف إيثاراً للطريق الأسلم " .[3]

فمعطلة الصفات : " ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث ، من غير فقه لذلك بمترلة الأميين الذين قال الله فيهم : (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ)[4] " .[5]

---

١) حاشية الاختلاف في اللفظ لان قتيبة ٣٩-٤٠ .

٢) حاشية دفع شبهة التشبه ٨ .

٣) شرح العقائد النسفية ٣٥ .

٤) البقرة ٧٨ .

٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٩/٥ .

وهذا المعنى هو الذي فهمه الكوثري ، فاعتقد أن أئمة السلف لم يكونوا يعتقدون في نصوص الصفات معنى معيناً ، وفوضوا المعنى ودلالة النصوص إلى الله ، و لم يصرحوا بشيء بل وقد أقروا الناس بالكف عن اعتقاد محدد !

نقل الكوثري عن ابن حجر كلاماً عن الصحابة ، وهو : " فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراده الله تعالى منها ، ووجب تتريهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) [١] فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم وبالله التوفيق " . [٢]

فعقب عليه الكوثري بقوله : " فليس مما يستطيع الحشوي أن يتخذه سنداً في ترويج مزاعم المشبهة — رغم محاولة بعضهم ذلك — لأن في سياق كلامه ما يحتم التفويض مع التتريه ، وهو مذهب جمهور السلف ، وليس أحد من أهل العلم يمنع من إجراء المتشابه في الكتاب والسنة المشهورة على اللسان بدون خوض في المعنى " . [٣]

ومثله قوله : " أن المسلم في سعة من التفويض والتأويل ، فالأول في حينه أسلم ، والثاني بشرطه أحكم " . [٤]

وهذا على قاعدة أهل البدع الذين يرون أن طريقة السلف أسلم (لأنهم مفوضة عندهم) وطريقة الخلف أعلم (لأنهم يعلمون — بزعمهم — معنى النصوص بما يسمونه التأويل) [٥]

وأيضاً قوله :

" والحاصل أن التفويض مع التتريه مذهب جمهور السلف لانتفاء الضرورة في عهدهم " . [٦]

---

١) الشورى ١١

٢) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥٠ .

٣) نفسه ١٥٠ .

٤) نفسه ١٥٢ .

٥) وقد نقض هذا الضلال شيخ الإسلام ابن تيمية ، انظر مجموع الفتاوى ٥/ ١ – ١٢٥.

٦) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥٣ .

وهذا التقرير من الكوثري عن مذهب السلف الصالح في باب صفات الله ، تقرير غير صحيح .

فإن الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين لهم بإحسان من الأئمة المهديين قد آمنوا بدلالة النصوص ، وخاطبهم الله بالمعاني التي يعرفونها ، فأقروا به و لم يعطلوها و لم يحرفوها بل أقروا بدلالتها .

و لم يكونوا قط ، مفوضين في المعنى ، وإنما كانوا يفوضون في الكيفية دون المعنى .

وما يدندن حوله الكوثري من نصوص منقولة عن أئمة السلف من أنهم كانوا يقولون فيها " أمروها كما جاءت " ووجوب عدم الخوض في النصوص ، إنما يتعلق بالكيفية دون المعنى .

فالكوثري حمل هذه النقول عن السلف على أنهم مفوضة في المعنى ، وعليه وصف مذهبهم بالتفويض وليس الأمر كذلك .

روى البيهقي عن أنه قيل له : " الرحمن على العرش استوى كيف استوى ؟ قال فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة " . (١)

فهذا من النقول التي يستدل بها الكوثري على أن مذهب السلف التفويض في المعنى .

وهو كما ترى لا دليل له عليه ، فالإمام مالك يقول بوضوح : " إن الاستواء غير مجهول ، أي معناه معلوم ظاهر غير خفي ، وإنما المجهول والغير معقول لنا هو الكيف .

فقد فوض مالك في الكيفية لا في المعنى .

وهذا النص إنما نقلته من كتاب البيهقي لأنه أمام عيني الكوثري و لم يعلق عليه سنداً ولا متناً !

والكوثري عندما يقرر التفويض للسلف إنما يذمهم بذلك شعر بهذا أو لم يشعر .

---

١) كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ٣٧٩ ، وانظر إثبات صفة العلو ضمن مجموع لابن قدامة ١٣١ .

الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم ، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحجبهما من يطلب المقابلة " .[1]

وهذا الألوسي الحنفي يقول في رد هذا الباطل :

" وقيل : إن السلف بعد نفي ما يتوهم من التشبيه يقولون لا ندري ما معنى ذلك ، والله أعلم بمراده .

واعترض بأن الآيات والأخبار المشتملة على نحو ذلك كثيرة جداً ، ويبعد غاية البعد أن يخاطب الله تعالى ورسوله ﷺ العباد فيما يرجع إلى الاعتقاد بما لا يدري معناه " .[2]

ثم ما فائدة هذه النصوص التي أنزلها الله على الصحابة ومن جاء بعدهم ، ومن خاطبهم بها ؟ والتي وصفها الله بأنها هدى وشفاء لما في الصدور ؟

فيلزم منه أنهم – رضي الله عنهم – عندما فوضوا المعنى ، كانوا يقرؤون القرآن بألسنتهم دون فهم ولا فقه !

وهذا اللازم قد صرح به الكوثري فهو يقول :

" وقد يطلق الظاهر بمعنى المستفيض المشهور ، وهو مراد من يقول من أهل السنة (بإجراء أخبار الصفات على ظاهرها) حيث يريد إجراء اللفظ المستفيض عن النبي ﷺ في صفات الله على اللسان كما ورد مع التفويض " .[3]

ومثله قوله :

" وإجراء ما ورد في الكتاب والسنة على اللسان كما ورد من غير إبداله بما يظن أنه مرادف له ، ومن غير جعل صيغة الفعل أو الإضافة ، صيغة صفة ومن غير خوض في معناه مذهب السلف الصالح وهم المفوضة " .[4]

---

١) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/١١ .

٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين لنعمان الألوسي ٣٧٢ .

٣) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥٦ .

٤) حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٢٨ .

فإن لازم التفويض ، الجهل بحقيقة صفات الباري ، وأن السلف لم يكونوا مدركين للمعاني التي خاطبهم بها الله عز وجل و لم يفقهوا ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ مما وصف بها نفسه ، ووصفه بها رسوله ﷺ .

وأن من جاء بعدهم من المعطلة والأشاعرة والماتريدية — والكوثري منهم — كانوا أعلم وأفقه وأعظم إدراكاً لدلالة النصوص من الصحابة والتابعين وأئمة السلف والذين ساروا على نهجهم ؟

والحق أنهم ضلوا في هذا الباب ، وخالفوا معتقد النبي ﷺ والأصحاب .

فإنهم اعتقدوا انتفاء الصفات عن الله في الأصل ، وجاءت النصوص في القرآن والسنة بإثباتها ، ولا بد أن لهذه النصوص معنى ، لهذا " بقوا مترددين بين الإيمان باللفظ وتفويض المعنى — وهي التي يسموها طريقة السلف — وبين صرف اللفظ إلى معان بنوع تكلف — وهي التي يسموها طريقة الخلف — وصار هذا الباطل مركباً من فساد العقل ، والكفر بالسمع ، فإن النفي إنما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بينات ، وهي شبهات ، والسمع حرفوا فيه الكلم عن مواضعه .

فلما ابتنى أمرهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم ، واعتقاد أنهم كانوا قوماً أميين بمنزلة الصالحين من العامة ، و لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، و لم يتفطنوا لدقائق العلم الألهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله .

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده غاية الضلالة " . [1]

" كيف يكون هؤلاء المحجوبون ، المفضلون [2] ، المنقوصون المسبوقون ، الحيارى ، المتهوكون ، أعلم بالله وأسمائه وصفاته ، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل ، وأعلام الهدى ومصابيح الدجى ، الذين بهم قام الكتاب ، وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب ، وبه نطقوا ، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع

---

١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/٩-١٠ .

٢) كذا بالأصل وأظنها " المفضولون " .

إذاً هم (أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني) .

يقول ابن جرير الطبري : " لا يعلمون الكتاب الذي أنزله الله ، ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه كهيئة البهائم " .[1]

وقال قتادة : " لا يعلمون الكتاب ولا يدرون ما فيه " .[2]

فالكوثري وسلفه المعطلة ، جهّلوا السلف الصالح ، وقالوا :

" نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها ، ولكن نقرأها ألفاظاً لا معاني لها ، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله ، وهي عندنا بمنزلة : (كٓهيعٓصٓ) و (حمٓ ۝ عٓسٓقٓ) و (الٓمٓصٓ)[3] " .[4]

" وبنوا هذا المذهب على أصلين :

أحدهما : أن هذه النصوص من المتشابه .

والثاني : أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله فنتج من هذين الأصلين استجهال السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأنهم كانوا يقرأون : (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ)[5] و (بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ)[6] ويروون (ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا)[7] ولا يعرفون معنى ذلك ، ولا ما أريد به ، ولازم قولهم : إن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه ، ثم تناقضوا أقبح تناقض فقالوا: تجرى على ظواهرها مما يخالف الظواهر باطل ، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله " .[8]

---

١) جامع البيان للطبري ٢٦٠/١ .

٢) جامع البيان للطبري ٢٦٠/١ .

٣) (كٓهيعٓصٓ) مريم ، (حمٓ ۝ عٓسٓقٓ) الشورى ١ ، (الٓمٓصٓ) الأعراف ١ .

٤) الصواعق المرسلة لابن القيم ٤٢٢/٢ .

٥) طه ٥ .

٦) المائدة ٦٤ .

٧) سيأتي تخريجه في المطلب الثاني (رأيه في النزول) ص ٣٦٤

٨) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢٢٣/٢ .

المطلب الثالث :

مذهب الكوثري في هذا التوحيد

المطلب الثالث :

مذهب الكوثري في هذا التوحيد

يقرر الكوثري في باب صفات الله ما يقرره الماتريدية في هذا الباب .

ويتبين لنا معتقده من خلال نقل بعض أقواله ، ومن خـــلال ردوده علـــى أئمـــة السلف .

يقول عنه أحد تلامذته [(١)] :

" هو متصلب في المعتقد كصخرة صماء ، منتصر للماتريدية غاية الانتصار " . [(٢)]

وقد قام الكوثري بالتعليق على كتاب " التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين " لأبي المظفر شاهفور بن طاهر الاسفرايني .

والمصنف كما هو معروف من الأشاعرة حيث جعله ابن عساكر [(٣)] في الطبقة الرابعة من طبقات المذهب ، في كتابه (تبيين كذب المفتري) [(٤)] .

وقد وافق الكوثري المصنف عند ذكره ما سماه معتقد أهل السنة و لم يخالفه .

وليس للكوثري كلام تقريري في هذا وإنما يقرر ذلك من خـــلال الـــرد علـــى المخالفين لمذهب الماتريدية ، ومن خلال تعليقه على الكتب التي أخرجها .

يقول الكوثري عند الكلام على صفات الله :

" فمن قال إنه استقر بذاته على العرش ، ويترل بذاته من العرش ، ويقعد الرسول ﷺ على العرش معه جنبه ، وأن كلامه القائم بذاته صوت ، وأن نزوله بالحركة والنقلـــة وبالذات ، وأن له ثقلاً على حملة العرش ، وأنه متمكن بالسماء أو العرش ، وأن له جهة

---

١) هومحمد يوسف البنوري .

٢) مقدمة مقالات الكوثري ٧ .

٣) علي بن الحسن بن هبة الله ، أبو القاسم بن عساكر ، الدمشقي الشافعي (٤٩٩-٥٧١هـ)الإمام العلاّمـــة الحافظ الكبير المجوِّد ، محدث الشام ، ثقة الدين ، صاحب "تاريخ دمشق" وغيره من التصانيف العظيمة والكثيرة جداً ، [السير (٥٥٤/٢٠)- التذكرة (١٣٢٨/٤)- ط السبكي (٢١٥/٧)].

٤) انظر كتاب تبيين كذب المفتري ، لابن عساكر ٢٧٦

وحداً وغاية ومكاناً ، وأن الحوادث تقوم به ، وأنه يماس العرش ، أو أحداً من خلقه ، ونحو ذلك من المخازي ، فلا نشك في زيغه ، وخروجه وبعده عما يجوز في الله سبحانه ، وهذا مكشوف جداً ، فلا يمكن ستر مثل تلك المخازي بدعوى السلفية ، والذين يدينون بها هم الذين نستنكر عقائدهم ، ونستخف أحلامهم ، ونذكر بأنهم نوابت الحشوية ". (١)

هذا الكلام يشتمل على حق وباطل ، وتشنيع وظلم .

وإنما يريد به التشنيع على علماء السلف الذين يثبتون ماأثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو يأتي بألفاظ مجملة ، ومعلوم الموقف من الألفاظ المجملة ، ولكن نجزم أنه يريد به نفي الصفات الثابتة له عز وجل ، من ذلك قوله : وأن الحوادث لا تقوم به ، وأن له جهة وحداً وغاية ومكاناً .

والذي أحب أن أنبه إليه أن السلف يقولون بأن الله استوى على عرشه ، بائن من خلقه ، وأنه عز وجل فوقهم حقيقة ، ولا يقولون بالألفاظ الجملة ، فيأتي الكوثري فيعبر بالجهة والمكان ، والغاية والحد لنفي الصفة ، وينسب ذلك إلى من أثبت لله هذه الصفات .

وهو بهذا لا يكون أميناً في نقل كلامهم ، ومعتقدهم ، وهكذا عندما يثبت السلف لله الصفات الاختيارية ، يعبر الكوثري بقوله أنهم يقولون بقيام الحوادث به — عز وجل — فأما أنهم يثبتون لله الصفات الاختيارية — كالنزول والاستواء والمجيء — فنعم وإن عبر عن ذلك بما يسمى قيام الحوادث به .

ولكن هذا الكلام من الكوثري إنما مراده منه نفي صفات الله التي لا يقرها هو ولا أسلافه النفاة ، فقوله (استقر بذاته) نفي حقيقة الاستواء ، وتشنيعه بنزول الذات نفي نزول الباري — عز وجل - ، وكذا نفيه الصوت في كلام الله ينفي به حقيقة الكلام ، وكذا الكلام في المكان والغاية والتمكن ، إنما أراد نفي علو الباري كما وصف نفسه .

وهذا الكلام منه يكشف لنا معتقده في هذا الباب ، فالكوثري لا يثبت لله علواً يليق به ، ولا نزولاً يليق به ، ولا استواءً حقيقياً يليق به ، ولا كلاماً حقيقياً قائماً به ، أسمعه من شاء من خلقه ، فهو معطل جهمي ،

---

١) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥-١٦ .

يقول : " الصحابة كلهم أجمعوا على تتريه الله سبحانه عن مشابهة المخلوقات في ذاته وصفاته وأفعاله " .[1]

وهذا الكلام — من الكوثري — حق ولا شك ، لكنه قال بعده :

" ومن ضرورة ذلك صرف الألفاظ المستعملة في الخلق عن معانيها المتعارفة[2] بينهم إلى معان تتسامى عنها عند نسبة تلك الألفاظ إلى الله سبحانه على مقتضى قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ)[3] وهو تأويل إجمالي وأما تعيين تلك المعاني المتسامية تفضيلاً بقرائن قائمة فيما يختلف مبلغ انتباه أهل العلم إليه على اختلاف ما آتاهم الله من فهم "[4] .

وهنا جاء الكلام الباطل الذي يتضمن نفي الصفات ، ونلاحظ أن الكوثري ، لا يعمل هذه القاعدة (أي التأويل الاجمالي) في صفات الله كلها ، فهو يثبت صفة السمع والحياة والقدرة ، لله ، ولا يرى أن لازم إثبات هذه الصفات الوقوع في التشبيه ، فتحتاج إلى تأويل ! ، وإنما يرى أن إثبات الصفات الخبرية ، والاختيارية هي التي تستلزم التشبيه ، فلزم — عنده — ما سماه التأويل الاجمالي ، وهذا تناقض .

ويزيد الكوثري هذا الكلام وضوحاً بضرب مثال ، فيقول :

" فأحاديث الترول مثلاً ، إبعادها عن معان توجب التشبيه والنقلة موضع اتفاق بين أهل الحق سلفاً وخلفاً ، وحملها على المجاز في الظرف أو على الإسناد المجازي استعمال عربي صحيح ، وموافق للتتريه " .[5]

وهذا النقل يؤكد ما ذكرته ، من أن الكوثري لا يريد بنفي الاستقرار والحركة والذات والتمكين ، نفي هذه الألفاظ المحدثة ، وإثبات صفات الله من العلو والترول والاستواء وإنما مراده تعطيل هذه الصفات .

---

١) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥٠-١٥١ .

٢) في الأصل " المتعرفة "

٣) الشورى ١١ .

٤) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥-١٦

٥) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥-١٦

فإنه بين بالمثال وجوب نفي دلالة الأحاديث التي أثبتت الترول لله حقيقة .

فالله عند الكوثري لا يترل حقيقة ، وإنما يترل ملك ، فالترول نزول الملك لا نزول المَلِك !

والكوثري معطل لنصوص الصفات ، إذ لازمها عنده التشبيه ، فعندما منع الـــذين يثبتون صفات الله — الذين يسميهم المشبهة — التأويل ، ولزوم إثبات دلالة النصـــوص ، اعترض عليهم قائلاً :

" وهم في قولهم هذا غير منتبهين إلى أن استعمال اللفظ في الله سبحانه بالمعنى المراد عند استعماله في الخلق تشبيه صريح وحمله على معنى سواه تأويل " . [١]

فلذا لا يثبت لله دلالة نصوص الصفات ، بل الواجب تعطيلها ونفيهـــا عنـــه — سبحانه — أو تأويلها كما يسميه .

وهو ينكر على أئمة السلف تصنيفهم الكتب المفردة التي تثبت الســـنة والتوحيـــد وصفات الباري — عز وجل — فتراه يسميهم مجسمه ، فيقول :

" وكم بين المجسمة من ألف فيما يسمونه التوحيد [٢] أو السنة [٣] أو الصـــفات ، أبواباً في اليد والعين والساعد والإصبع واليمين والذراع والكف والجنب والقدم والحقـــو والصدر ونحوها " . [٤]

سبحانك هذا بهتان عظيم ، وإنما ألف أئمة السلف مثل هذه الكتب برواية الخـــبر عن المعصوم ﷺ كما وصلتهم دون تقعر المتأخرين ، و لم يضيفوا من آرائهـــم وعقـــولهم شيئاً ، بل اقتصروا في سرد الأحاديث بأسانيدها ليظهر لأهل العلم ما صح منها فيؤمنـــوا به . [٥]

---

١) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٥٣ .

٢) ككتاب التوحيد لابن خزيمة .

٣) ككتاب السنة للإمام عبد الله بن أحمد .

٤) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٦٦ .

٥) وانظر مثل هذا التشنيع في حاشية السيف الصقيل ١٩٢،١٤٧،١٤٦-١٩٤ وغيرها كثير .

المبحث الثاني :

أسماء الله عند الكوثري

المطلب الأول :

قواعد أهل السنة والجماعة في أسماء الله

المطلب الأول :

قواعد أهل السنة في أسماء الله

لعله من نافلة القول أن يقال إن القواعد التي تعامل من خلالها أهل السنة والجماعة مع صفات الله سبحانه وتعالى تشمل أيضاً الأسماء لأنها في الحقيقة كلها أمور غيبية لم نطلع عليها إلا من خلال ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن نفسه أو ما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم عن ربه ، ولذلك كان لأهل السنة والجماعة قواعد وضوابط تعاملوا من خلالها مع أسماء الله الحسنى ومن ثَمَّ لم يجعلوا مكاناً للشبهة أو مجالاً للخلل.

وفي هذه الأسطر حاولت جمع عدد من القواعد المتعلقة بالأسماء دون الصفات وهذا أمر فيه شيء من الصعوبة بسبب التداخل بين قواعد الأسماء والصفات للارتباط الوثيق بينهما ، ومن هذه القواعد التي تخص الأسماء دون الصفات ما يلي :

القاعدة الأولى :

إن أسماء الله سبحانه وتعالى حسنى أي بالغة في الحسن ؛ لأنها تتضمن صفات الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وليست أعلاماً محضة ، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : " أسماؤه – سبحانه وتعالى كلها أسماء مدح وثناء وتمجيد ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال ونعوته كلها نعوت جلال وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ". [(١)]

وهذا القول يبين لنا أن أسماء الله سبحانه وتعالى لا يمكن بحال أن تكون أعلاماً محضة لا تحمل في ذاتها معاني للكمال التي تقتضيها ، ولعل مما بين ذلك أن الله سبحانه وتعالى يختم الآيات القرآنية بأسماء من أسمائه الحسنى بما يوافق حال الآية ومعناها ، فإذا كانت آية رحمة ختمت بأسماء الرحمة وإن كانت توبة ختمت بالأسماء التي تدل على التوبة وإن كانت انتقام كذلك ختمت بما يدل على ذلك وهكذا . [(٢)]

---

١) مدارج السالكين ١٢٥/١ وانظر نقض التأسيس الشيخ الإسلام ١٠/٢ .

٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن للسعدي ص ٦٦-٦٧ .

وكذلك مما يدل على حسنها وأنها ليست من قبيل الأعلام المحضة أن يقدم بين يدي الدعاء بأسماء الله التي توافق الحال والتي يطلب الله بها ، فإن كان المقام مقام توبة قدم بـالتواب الغفار ، وإن كان طلباً للشفاء قدم ما يناسب ذلك وهكذا .

القاعدة الثانية :

أن أسماء ا لله سبحانه وتعالى لا تحتوي على الشر بأي حال من الأحوال .

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : " ليس من أسماء الله سبحانه وتعالى اسم يتضمن الشر إنما يذكر الشر في مفعولاتــه كقولــه : (نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ)[1] . وقولــه : (ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[2] . وقولـــه : (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ)[3] . فبين الله سبحانه أن بطشه شديد وأنه هو الغفور الودود " .[4]

القاعدة الثالثة :

أن أسماء الله سبحانه وتعالى يكون لها معنى باعتبار كل اسم على انفراده ويكـون باعتبار جمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال .[5]

فكل اسم يحتوي على معنى عند انفراده يشمل أخص ما في هذا الاسم من كمال ويكون باجتماع الاسمين كمال فوق الكمال الآخر ومثال الاجتماع اجتماع (العزيـز الحكيم) فكل واحد منهما له معنى العزيز الذي يدل على كمال العزة والحكيم الذي يدل على كمال الحكمة ولكن عند اجتماعهما دل على كمال آخر لا يمكن الوصول إليـه إلا باجتماعهما وهو أن عزته سبحانه وتعالى مقرونة بالحكمة ، فعزته لا تقتضـي ظلمـاً وجوراً وسوء فعل كما قد يكون من أعزاء المخلوقين وأما حكمه تعالى وحكمته فإنهمـا مقرونان بالعز الكامل بخلاف ظلم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل .[6]

---

١) الحجر ٤٩ – ٥٠ .

٢) المائدة ٩٨ .

٣) البروج ١٢ – ١٤ .

٤) مجموع الفتاوى ٩٦/٨ .

٥) انظر نقض التأسيس ١١/٢ وانظر بدائع الفوائد ١٩٠/١ وتوضيح الكافية الشافية للسعدي ص ٦٣٠ .

٦) أنظر القواعد المثلى ص ٨ .

القاعدة الرابعة :

أن أسماء الله الحسنى تشمل أنواع الدلالات الثلاث (المطابقة والتضمن والالتزام)

فأسماء الله الحسنى تدل دلالة مطابقة على ذات المسمى وهو ا لله تعالى وعلى الصفة التي اشتق منها الاسم .

وتدل دلالة تضمن على ذات الله وحدها أو على الصفة التي اشتق منها ذلك الاسم .

وتدل دلالة اللزوم على الصفة الأخرى غير الصفة التي عُلمت عن طريق دلالة التضمن .[1]

ودلالة المطابقة والتضمن واضحة لكل أحد في الغالب أما دلالة الالتزام فهذه يتفاوت الناس فيها قال ابن القيم رحمه الله : " يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه ، ومن هنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام ؛ فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة وأن سائر الكمال من لوازن الحياة الكاملة أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها ، وكذلك سائر صفاته فإن اسم الله العظيم له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها ".[2]

وقال شيخ الإسلام رحمه الله : " إن كل اسم من أسماء الله فإنه يستلزم معنى الآخر فإنه يدل على الذات ، والذات تستلزم معني الاسم الآخر ".[3]

القاعدة الخامسة :

حقيقة الإلحاد في الأسماء هو العدول بها عن الصواب فيها وإدخال ما ليس من معانيها فيها وإخراج حقائق معانيها عنها ، ولذا فإن من فعل ذلك فقد كذب على الله .[4]

---

١) انظر بدائع الفوائد ١/١٥٩ .

٢) مدارج السالكين ١/٣٠-٣١ .

٣) مجموع الفتاوى ١٠/٢٤٥ .

٤) مدارج السالكين ١/٣٠ وانظر الكافية الشافية ص ١٣٣ .

والإلحاد بأسماء الله سبحانه وتعالى قسمه أهل العلم إلى أربعة أقسام .[1]

١- أن يسمى الله سبحانه وتعالى بما لم يسمه به نفسه .

ووجه كونه إلحاداً أن أسماء الله توقيفية فلا يحل لأحد أن يسمي الله تعالى بما لم يسم به نفسه لأن هذا من العدوان في حق الله عز وجل ومن القول على الله بغير علم .

٢- أن يشتق من أسماء الله أسماء للأصنام فتسمى الأصنام بها ووجه كونه إلحاداً لأن أسماء الله تعالى خاصة به فلا يجوز أن تنقل المعاني الدالة عليها هذه الأسماء إلى أحد من المخلوقين ليعطى من العبادة ما لا يستحقه إلا الله .

٣- إنكار شيء من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام ، ووجه كونه إلحاداً هو أن الإيمان بالأسماء وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة به أمر واجب ، وإنكار شيء من ذلك ميل بالأسماء عما يجب فيها .

٤- اعتقاد أن الأسماء الحسنى دالة على أوصاف المخلوقين فيجعلها الملحد في أسماء الله دالة على التمثيل .

ووجه كونه إلحاداً أن من اعتقد أن أسماء الله سبحانه وتعال دالة على تمثيل الله بخلقه فقد أخرجها عن مدلولها ومال بها عن الاستقامة وجعل كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم دالا على الكفر لأن تمثيل الله بخلقه كفر لكونه تكذيباً لقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) .

القاعدة السادسة :

أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه والشارع فإن هذا يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه وصفاته .[2]

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : " ثم أنت تسميه قديماً وواجب الوجود وذاتاً ونحو ذلك مما لم يرد به الشرع ، والشارع يفرق بين ما يدعى به من الأسماء فلا يدعى إلا

---

١) انظر بدائع الفوائد ١٦٩/١ ومعارج القبول / ٨٨ – ٨٩ وانظر مجموع الفتاوى ٥٨/٢-٦٠ .

٢) النهج الأسمى ١/ ٣٧ .

بالأسماء الحسنى وبين ما يخبر بمضمونه عنه من الأسماء لإثبات معنى يستحقه نفاه عنه ناف لما يستحقه من الصفات كما أنه من نازعك في قدمه أو وجوب وجوده قلت مخبراً عنه بما يستحقه إنه قديم وواجب الوجود ". (١)

فمن خلال قول شيخ الإسلام يتضح أن باب الإخبار مع اتساعه لا يمكن أن يأتي بمعنى جديد لله سبحانه وتعالى بل هو يثبت هذا الاسم وينفيه مما لم يرد فيه الشرع إذا كان يحمل معنى صحيحاً أثبتته الأسماء الثابتة لله سبحانه وتعالى وصفاته ولأجل ذلك يدعى الله فقط بأسمائه وصفاته الثابتة أما ما ثبت من باب الإخبار فلا .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : " فالفرق بين مقام المخاطبة ومقام الإخبار فرق ثابت في الشرع والعقل وبه يظهر الفرق بين ما يدعى الله به من ا لأسماء الحسنى وبين ما يخبر به عنه عز وجل مما هو حق ثابت لإثبات ما يستحقه سبحانه من صفات الكمال ونفي ما تنزه عنه عز وجل من العيوب والنقائص فإنه الملك القدوس السلام سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وقال تعالى : (وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ) مع قوله (قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ) (٢) ولا يقال في الدعاء يا شيء ". (٣)

القاعدة السابعة :

لا يجوز أن يشتق له أسماء من الأفعال التي وردت في الكتاب والسنة مقيدة كما غلط فيه بعض المتأخرين فجعل المضل ، الفائق ، الماكر ، المستهزيء من أسمائه الحسنى فإن هذه الأسماء لم يأت السمع بإثباتها وإنما وردت كأفعال مخصوصة معينة فلا يجوز اشتقاق أسماء منها على وجه الإطلاق . (٤)

---

١) درء التعارض ١٤٠/٤ .

٢) الأنعام ١٩ .

٣) درء التعارض ٢٩٨/١ .

٤) انظر لوامع الأنوار ١٢٥/١-١٢٦ والنهج الأسمى ص ٤١ .

القاعدة الثامنة :

يجوز أن يشتق من الأسماء الحسنى الفعل والمصدر فيخبر عنه به فعلاً ومصدراً ، نحو السميع البصير القدير يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة ويخبر عنه بالأفعال ، من ذلك قوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ) [1] ، وقوله : (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ) [2] ، وقولـــه : (أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ) [3] ، هذا إن كان الفعل متعدياً .

فإن كان الفعل لازماً لم يخبر عنه به نحو (الحي) بل يطلق عليه الاسم والمصـــدر دون الفعل فلا يقال حَيِيَ . [4]

---

١) المجادلة ١ .

٢) المرسلات ٢٣ .

٣) الكهف ٢٦ .

٤) انظر بدائع الفوائد ١٦٢/١ و المنهج الأسمى ص ٤١ ، وأيضاً القواعد المثلى للشيخ محمد العثيمين ـــ رحمه الله ـــ وأسماء الله لعبدالله الغصن ، و صفات الله للسقاف .

المطلب الثاني :

مدلولات أسماء الله عند الكوثري ونقده

المطلب الثاني :

مدلولات أسماء الله عند الكوثري ونقده

قد مر بنا معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله — عز وجل — وأهم القواعد التي تبين الحق في أسمائه — عز وجل- .

وقد ضل في باب أسماء الله طوائف من أهل البدع ، فأنكروا كونها أسماء لله — على الحقيقة — أو أثبتوها بلا دلالة ومعنى ، أو أثبتوا بعضاً وعطلوا بعضاً .

ومن خلال تتبع كلام الكوثري في هذا الجانب ، لم أجده وسع العبارة ، وإنما أشار إليه إشارة مختصرة ، في ثلاثة مواضع من كتبه .[1]

ويحسن لجلاء غموض كلامه أن أشير إلى معتقد الماتريدية في أسماء الله ، الذين يجهد الكوثري بالانتساب إليهم .

فهم يؤمنون بأن أسماء الله كلها حسنى .

يقول الإيجي في المواقف بعد سرد أسماء الله :

" فهذه هي الأسماء الحسنى " .

وقد أجمعوا على ذلك .

ومع كون الماتريدية أثبتوا أسماء الله ، ودلالتها ، لكنهم قسموها إلى أقسام[2] ، فأثبتوا معان لبعضها ، وعطلوا بعضاً من هذه الاسماء عن معانيها تبعاً لمعتقدهم في الصفات .

---

١) في تعليقه على ١- السيف الصقيل للسبكي ، ٢- الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ، ٣- التبصير في الدين لأبي المظفر السفراييني .

٢) انظر المواقف للايجي ٣٣٣ .

يقول الجرجاني : (أما المأخوذ [1] من الوصف الخارجي ، الداخل في مفهوم الاسم (فجائز) في حقه تعالى (ثم هذا الوصف قد يكون حقيقياً) كالعليم (وقد يكون إضافياً) كالماجد بمعنى العالي ويكون سلبياً كالقدوس " . [2]

فمن أسماء الله الحسنى ما كان دلالته حقيقة كاسم العليم لله ، فهو متضمن وصفه بالعلم .

ومنها ما ليس كذلك كالأنواع الأخرى .

ولكن أسماء الله عندهم يتوقف في إطلاقها على النص .

يقول الإيجي :

" تسميته تعالى بالأسماء توقيفية ، أي يتوقف إطلاقها على الأذن فيه " . [3]

والكوثري يرى أن أسماء الله كلها حسنى ، حيث يقول :

" إنكار إطلاق الأسماء الحسنى عليه تعالى يكون كفراً ، لكن لا يوجد من ينكر ذلك بين فرق المسلمين سوى جهم " . [4]

وهذا كلام حق ، وافق فيه أهل السنة ، وإنما أخذوه من أصول القرآن والسنة .

والكوثري يرى أن أسماء الله مشتقة ، وليست أعلاماً جامدة ، فهو يقول :

" القول الفصل في هذا ورود إطلاق المشتقات عليه تعالى " . [5]

ومعنى هذا أن الله يسمى عليماً ، وقديراً ، وسميعاً ، ورحيماً ، وغفوراً ، وصبوراً ، وغيرها بدلالة الاشتقاق .

لكن الكوثري لا يريد ذلك ، ولا يعممه ، بل يقصره على الصفات التي يثبتونها ، دون غيرها .

---

١) يعني الاسم .

٢) شرح المواقف للجرجاني ٢٠٩/٨ .

٣) المواقف للأيجي ٣٣٣ .

٤) حاشية التبصير في الدين للاسفراييني ٣٧ .

٥) نفسه ٣٧ .

فإنه وضح ذلك حيث قال :

" مبدأ الاشتقاق ، أمر نسبي ، لا يوجد من ينفيه " .[1]

فالمعاني التي دلت عليها أسماؤه عز وجل – ليست كلها حقيقية .

" لأن قصارى ما ورد في الكتاب والسنة هي المشتقات المفيدة بوضعها ثبوت مصادرها للذات العلية .

والمعنى المصدري المدلول عليه بالوضع أمر نسبي " .[2]

" وهذا الأمر النسبي هل هو الذات العلية أم معنى قديم قائم بها ؟

ولا يدل المصدر على هذا المعنى المتنازع فيه بوضعه ، وإذا دل تكون دلالته مجازية " .[3]

فهذه الأسماء منها ما دلَّ على الذات العلية ومنها ما دلَّ على معنى قديم قائم بها .

وربما تكون دلالتها دلالة مجازية أي غير حقيقية .

فالكوثري يرى أن أسماء الله مشتقة ، وهذا حسن ، وحق ، وليته أرجع الاشتقاق إلى النص لأصاب ، ولكنه رأى أن هذا الاشتقاق أمر نسبي ، وفق المصدر الذي أخذ من معنى الصفة .

وهذا تكلم بالهوى ، وكان الواجب عليه وعلى المعطلة من قبله التوقف عند النص ، والإقرار بأن أسماء الله مشتقة من مصادرها التي أخبر الله رسوله ﷺ بمعانيها في الكتاب والسنة .

ولكن ومع هذا إنما يتقصر اشتقاق أسماء الله – عز وجل – على النص فقط .

على أن الكوثري قد تناقض بقوله عن الاشتقاق : " لا يوجد من ينفيه " فإنه قد نقل عن المعتزلة ، وابن حزم نفيهم ذلك كما سيأتي .[4]

وهذا الموقف من الكوثري تجاه أسماء الله ، هو الذي دفعه إلى الاعتراض على ابن القيم في دلالة أسماء الله .

---

١) نفسه ٣٧ .

٢) حاشية الاختلاف في اللفظ ٢٤ .

٣) نفسه ٢٤ .

٤) انظر ما يأتي ص ٣٠٥

فمن المعلوم المتقرر الموافق للكتاب والسنة ، وكلام العرب ، أن أسماء الله لها دلالتها .

فمنها ما يدل على ذاته وصفاته دلالة مطابقة ، ومنها ما يدل على أحدهما دلالة تضمن ، ومنها ما يدل على غيرها دلالة التزام . [1]

فإن من أسمائه الرحمن ، والعلي ، والقدير ، والسميع ، والعليم .

فإن دلالة الرحمن على ذاته – عز وجل – وعلى صفة الرحمة دلالة مطابقة .

ودلالتها هي على صفة الرحمة ، فهي دلالة تضمن ، إذ يتضمن تسميته بالرحمن ، اتصافه بالرحمة – عز وجل – .

ودلالتها هي أيضاً على صفة الحياة دلالة التزام .

فلا يعقل وجود متصف بالرحمة إلا من كان حياً . [2]

اعترض الكوثري على ابن القيم في هذا المعنى فقال :

" الاجتراء على إجراء ذلك في الأسماء المقدسة مبالغة في القول بالتركيب في المعنى ، بإثبات الجزء في دلالتها " [3] .

وهذا الكلام ركيك ، ولا حجة فيه ، ولكن الكوثري ضاق ذرعاً بالقول أن أسماء الله كلها مشتقات من معاني حقيقة ، ولها دلالاتها التي تثبت معانيها .

والكوثري يثبت أسماء الله ولكنه يمنع أن تكون لها دلالة كما سبق ، لذلك ينكر على ابن القيم القول بالدلالة ، متابعاً السبكي الذي يعتقد القول بالدلالة ، قول بالتركيب ، فيقول :

" لأن كلام أهل العربية في الدلالات الثلاث (دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، مطابقة ، وعلى جزئه تضمن ، وعلى الخارج اللازم التزام) والاجتراء على إجراء ذلك في

---

١) دلالة المطابقة هي الدلالة على تمام ما وضع الاسم له ، ودلالة التضمن هي الدلالة على جزء ما وضع الاسم له ، ودلالة الالتزام هي الدلالة على آخر بالالتزام ، انظر التعريفات للجرجاني ١٤٠ . وقد مر تقرير ذلك في المطلب الأول (قواعد أهل السنة في أسماء الله)

٢) انظر في ذلك كلاماً نفيساً لابن القيم – رحمه الله – في بدائع الفوائد ١/١٦٠-١٦٨ .

٣) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٨٧ .

الأسماء المقدسة مبالغة في القول بالتركيب في المعنى ، بإثبات الجزء في دلالتها كما قال المصنف على أن ابن حزم قطع على الحشوية سبيل التقول بالمرة بأن قال : إن الأسماء الحسنى أسماء أعلام للذات العلية لا تدل على الصفات ، باعتبار أن الله سماها أسماء .

فضاقوا ذرعاً من كلامه هذا جداً ، وليس هذا موضع توسع لبيان ماله وما عليه" [1]

والملاحظ أنه يتأيد في نقده لابن القيم ، بكلام لابن حزم الذي يرى أن الأسماء إنما هي أعلام محضة ، وهذا عجيب من الكوثري ، وتناقض ، ففي موضع آخر ينتقد ابن حزم ، في هذا ، حيث يقول :

" وابن حزم الظاهري انحاز إلى المعتزلة بمعنى كلامه في الفصل [2] حتى بلغ به الأمر إلى ادعاء أن المشتقات الواردة في الكتاب والسنة في صفات الله سبحانه هي أسماء الله الحسنى الأعلام ، ومن غير ملاحظة اشتقاق فيها ، ووسع الخطى في الكلام بما ليس هذا محل بسطه " [3]

فإنا نراه مرة يميل مع ابن حزم في إنكار اشتقاق أسماء الله ، ومرة يعترض عليه ، وما ذلك إلا اتباع للهوى .

---

١) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٨٧ .

٢) هو في الفصل في الملل والنحل ١٢٩/٢ .

٣) حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٢٤ .

المبحث الثالث :

صفات الله عند الكوثري

تمهيد

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : ضوابط وقواعد لأهل السنة في صفات الله سبحانه وتعالى :

إن أهل السنة والجماعة عند كلامهم في الأسماء والصفات لم يسيروا وفق أهوائهم أو وفق ما تمليه عليهم عقولهم بل نظروا في النصوص الشرعية وقاموا بتقعيد ما دلت عليه هذه النصوص حتى تكون طريقاً بارزاً لمن أراد أن يسير على طريق الحق والهداية والبعد عن طريق الغي والضلال .

وكما هو معلوم أنه ليس مرادنا الحديث عن موقف أهل السنة وذكر قواعدهم بأسهاب وتنظير ، ولأجل ذلك سوف أكتفي بما يوضح المعنى ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق .

القاعدة الأولى :

إثبات ما أثبته الله سبحانه وتعالى لنفسه في كتابه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل [1] .

فالله أعلم بنفسه من خلقه ورسوله أعلم الناس بربه ، فأهل السنة والجماعة لا يعتمدون على العقل في إثبات صفات الله عز وجل بل يثبتون ما أثبته الله لنفسه في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات ، وأما الاستدلال عليها فممكن لهم من خلال الأدلة العقلية الموافقة لما جاء في الكتاب والسنة .

---

١) مجموع الفتاوى ٣/٣ .

فردهم للتمثيل نفي لما تختص به المخلوقات ، وردهم للتكييف من باب منع تعميم خصائص صفات المخلوقات على المعنى العام للصفة لأن معرفة الكيفية معتمدة على معرفة ذات الموصوف وفي هذا رد لهذا الجانب من قياس التمثيل ، وكذلك ردهم للتحريف والتعطيل يدل على معرفتهم لمعنى الصفات وأنهم لا يتكلمون إلا بما يعرفونه وليست نصوص الكتاب والسنة عندهم الفاظاً دون معانيها .

القاعدة الثانية :

صفات الله توقيفية فلا يثبت منها إلاما أثبته الله لنفسه [1] فلا يثبتون صفة لله إلا ما ورد في الكتاب والسنة وأما باب الإخبار عنه فواسع شريطة ألا يخرج المعنى المخبر به عنه سبحانه وتعالى عن المعاني الثابتة له من الكتاب والسنة .

القاعدة الثالثة :

حمل النصوص على ظواهرها ، لكن لابد من إيضاح أمر مهم وهو أن لغة العرب تعبيرية بمعنى أن اللفظ يؤخذ معناه من العبارة كاملة فلم يعرف عن ا لعرب أنهم قاموا بتقطيع الكلام ، وأن كل لفظ يدل على معنى لوحده بل لابد من أخذ العبارة كاملة .

فالمتبدعة عندما تكلموا عن الحقيقة والمجاز كان ذلك بسبب التأثر بعلوم اليونان وإنزال علومهم على اللغة العربية ، وكذلك فهموا من طور التعليم أو الكلام باللغة سواء من الطفل أو غير العربي الذي يريد أن يتعلم العربية بأن الألفاظ في أول ما يتعلم تكون هي الحقيقة ، ثم ما بعدها يكون مجازاً والواجب القياس على ما تم وكمل لا على ما ابتدأ ، فالظاهر يؤخذ من العبارة كاملة فلا يتوهم متوهم أن أهل السنة والجماعة يؤولون ذلك اللفظ أو تلك الصفة . [2]

القاعدة الرابعة :

---

١) انظر بدائع الفوائد ١/١٧٠ ، شفاء العليل ١/٢٧٠ .

٢) انظر درء التعارض ٥/٢٣٥-٢٣٦ .

أن أهل السنة والجماعة يتوقفون عن الحكم في الألفاظ المجملة حتى يتبين معناها وهـذا يوضحة قول ابن تيمية رحمه الله :

" أن ما تنازع فيه المتأخرون نفياً وإثباتاً فليس على أحد بل ولا له أن يوافق على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده فإن أراد حقاً قبل ، وإن أراد باطلاً رد ، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقاً و لم يرد لجميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى ".[1]

فهذا من أكبر أبواب الوقوع في الزلل في الفكر فيجب على الإنسان إذا سمع لفظاً يحمل عدة معان منها الحق ومنها الباطل أن يوقف المتكلم على مراده فإن كان حقاً أثبته ، وإن كان باطلاً رده ، ولكن لا يرده ولا يثبته مطلقاً .

فكلام الطوائف المخالفة لأهل السنة بهذه الألفاظ (الجسم ، والجهة) ونحوها دفعهم إلى نفي ما علم من النصوص الشرعية اثباته وبنوا عليه أقوالاً وأدلة تخالف نصوص الكتاب والسنة .

القاعدة الخامسة :

لا يستخدم بحق الله سبحانه وتعالى إلا قياس الأولى أو دليل الآيات .

والسبب في ا قتصار الاستدلال بهذين الدليلين ما يلي :

١ - ورود دليل الآيات وقياس الأولى في القرآن الكريم والسنة النبوية .

٢ - أنه عند استخدام قياس الأولى يكون الحكم في الفرع أقوى منه في الأصل يقول ابن تيمية رحمه الله : " فنحن لم نشهد محدثاً تاماً مطلقاً ، إذ لا محدِث تام على الحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى فظن من ظن من ا لمعتزلة أنه إنما يعرف أن المحدَث يفتقر إلى محدِث إلا بالقياس على احداث الآدميين غلط وذلك أن حكم الأصل أضعف من حكم الفرع فإن الإنسان وإن زعموا أنه يحدث تصرفاته فلا ريب أنه يفتقر فيما ينبيه وينسجه إلى آلة خارجة عن قدرته فليس هو نظير حكم الفرع بل يستعمل قياس الأولى ليعلم أن حكم الفرع أقوى وأحق ".[2]

١) التدمرية ص ٢٦ .

٢) بيان تلبيس الجهمية ٢/٧٥ .

٣ - أن هذا القياس يتم من خلاله وصف الله بالكمال المطلق وذلك كما يقول ابن تيمية : " فالكمال الذي هوكمال للموجود من حيث هو موجود ممتنع أن يكون نقصاً في بعض الصور لأن ما كان نقصاً في بعض الصور تاماً في بعض هو كمال لنوع من الموجودات دون نوع فلا يكون كمالاً للموجود من حيث هو موجود .

ومن الطرق التي يعرف بها ذلك : أن تقدر موجودين : أحدهما متصف بهذا والأخر بنقيضه فإنه يظهر من ذلك أيهما أكمل وإذا قيل هذا أكمل من وجه وهذا انقص من وجه لم يكن كمالاً مطلقاً ".(١)

٤ - أن في استخدام هذا القياس إثبات لزوم الصفات للذات ، فإن العقل لا يتصور ذاتاً مجردة عن جميع الصفات فما كان كمالاً للمخلوقات أي معنى صفته فهذا المعنى يثبت لله سبحانه وتعالى ، يقول ابن تيمية رحمه الله : " فما هو قائم بنفسه فلا بدله من صفة وما كان صفة فلابد له من قائم بنفسه متصف بها " (٢) .

٥ - ومن خلال هذا القياس تنفى النقائص عن الله فأي نقيصة للمخلوق ، فالخالق ينزه عنها ، الخالق أولى بالكمال من المخلوق ، يقول ابن تيمية : " أما صفات النقص فمثل النوم فإن الحي اليقظان أكمل من النائم الوسنان والله لا تأخذه سنة ولا نوم ".(٣)

٦ - أن قياس الأولى ودليل الآيات مدلولهما معين وهو الله سبحانه وتعالى فلا يحدث تشابه أو اضطراب أو تشكيك ، والدليل هو معرفة هذه الصفات في جزئياتها وأخذ المشترك المتشابه لا المتماثل الذي يعلم به صدق هذه الصفة ، ومعلوم أن العقل يجزم بالجزئي ويعلم صدقه ، فالقضايا المعينة الجزئية في الذهن أقرب من الكليات .

٧ - أن استخدام أي طرق أخرى في الغيب ، يؤدي إلى الضلال والحيرة. يقول ابن تيمية رحمه الله : " لما سلك المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية لم يصلوا بها إلى اليقين بل تناقضت أدلتهم وغلب عليهم الاضطراب والحيرة .

---

١) الرسالة الأكملية ٧٣ .

٢) نفسه ٢٥ .

٣) نفسه ٣٩ .

فالفلاسفة والمتكلمون استخدموا قياس الشمول الذي يدخل فيه الله في قضية كلية مع غيره ، وهذا لا يمكن لاختلاف الذوات فالله لا يدخل تحت قضية كلية مع غيره ، واستخدموا قياس التمثيل الذي يستوي فيه أفراده فهذا مما يوقع في الحيرة ،فالله ليس كمثلة شيء وهذا الذي جعلهم ينفون ما نزل في النصوص الشرعية .

القاعدة السادسة :

الكلام في الصفات كالكلام في الذات .[1] فكما أن حقيقة ذاته لا تشبه الذوات فهي متصفة بصفات حقيقية لا تشبه الصفات وكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية كذلك اثبات الصفات .

القاعدة السابعة :

القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر .[2] فمن أقر بصفات الله كالسمع والبصر والإرادة يلزمه أن يقر بمحبة الله ورضاه وغضبه وكراهيته . يقول شيخ الإسلام : " ومن فرق بين صفة وصفة مع تساويهما في أسباب الحقيقة والمجاز كان متناقضاً في قوله متهافتاً في مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض ".[3]

القاعدة ا لثامنة :

أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء لأنه يشتق من الأسماء صفات لله سبحانه وتعالى ولا يشتق من الصفات أسماء لله سبحانه وتعالى .[4]

---

١) درء التعارض ١/١٥ .

٢) التدمرية لشخ الإسلام ص ١٣١ ، الفتاوى ٥/٢١٢ .

٣) الجواب الصحيح ٣/٤٥١ .

٤) انظر صفات الله للسقاف ص ٢٦ .

القاعدة التاسعة :

قطع الطمع عن إدراك حقيقة الكيفية [1] لقوله تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا)[2].

القاعدة العاشر :

صفات الله عز وجل تثبت على وجه التفصيل وتنفي على وجه الإجمال.[3]

فالاثبات مفصل : السميع ، البصير ، والنفي مجمل (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) .

القاعدة الحادية عشر :

ما أضيف إلى الله فما هو غير بائن عنه فهو صفة له غير مخلوقة ، وكل شيء أضيف إلى الله بائن عنه فهو مخلوق فليس كل ما أضيف إلى الله يستلزم أن يكون صفة له . [4]

مثال الأول : سمع الله وبصر الله .

مثال الثاني : بيت الله ، وناقة الله .

---

١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ، لمحمد الأمين الشنقيطي .

٢) طه ١١٠ .

٣) مجموع الفتاوى ٣٧/٦ .

٤) الجواب الصحيح ١٤٥/٣ .

المسألة الثانية : القواعد التي انطلق منها الكوثري في الصفات

من خلال تتبع كلام الكوثري ، رأيت له أموراً جعلها قواعد بنى عليها رأيه في الصفات ، وهو في ذلك متابع لمن سبقه من المعطلة .

وإن من أهم الأمور التي رأى أنها قواعد في فهم الصفات — وهي في حقيقتها شبه وليست قواعد — أمران :

الأول : أنه يرى وجوب التأويل في باب صفات الباري

الثاني : أن أحاديث الآحاد لا تفيد الاعتقاد .

أولاً : رأيه في وجوب التأويل

فأما الأمر الأول فهو احتجاج طويل ، قد قلد فيه من سبقه من نفاة الصفات ، وقد جاء عن أئمة السلف ذم التأويل ، وذم أولئك الذين استندوا إليه .

وإن الله انزل كتابه العزيز بلسان عربي مبين ، وجعله تبياناً لكل شيء ، خاطب القلوب والعقول ، وكان الخطاب للناس أجمعين ، عالمهم ، وجاهلهم ، ومن لوازم البيان أن يفهموه ويدركوه كل على قدره .

والمعاني لا تدرك ولا تفهم إلا بالألفاظ الدالة عليها ، التي تعارف أهل اللغة على معناها ، فكان الأصل في الخطاب واللفظ ما دل عليه بدون حاجة لتفسير .

وهذا قد أشار إليه الله عز وجل حيث قال : (قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) [1] .

وقال (وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ) [2] .

والآيات في هذا كثيرة .

---

١) الزمر ٢٨ .

٢) فصلت ٤٤

والله قد أنزل القرآن على الصحابة بلغتهم ، فخاطبهم بما يعقلون ، وبما يفهمون . فآمنوا به و لم يحدث لديهم لبس ، ولا غموض ، بل فهموا منه ما أراد الله أن يفهموه ، ولذا أثنى عليهم .

فسار على ذلك الصحابة ثم التابعون ، حتى حدثت فتنة الجعد بن درهم [1] ومقالته ، فعطل صفات الباري ، وحرف النصوص ، فجاء من بعدهم فسمى ذلك تأويلاً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

" ثم أصل هذه المقالة ـــ مقالة التعطيل للصفات إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود المشركين ، وضلال الصابئين فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام ـــ أعني أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة وأن معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك هو الجعد بن درهم وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه " . [2]

والذي دفعهم إلى التأويل أنهم فهموا من النصوص ما يدل على التشبيه ، لأنهم زعموا أن هذا هو ظاهرها ودلالتها ، فحاروا ، وتبلدوا ورأوا وجوب تتريه الباري عن ذلك ، لأجل البراهين العقلية التي توجب التتريه فرأوا لزوم تأويل هذه النصوص إلى معان - زعموا - أنها تدل على التتريه .

وقبل الشروع في بيان رأي الكوثري في هذا ، يحسن أن أبين معنى التأويل ، وبعضاً من لوازمه .

فالتأويل مصدر من " آل يؤول "

ويدور معناه على الرجوع ، والمصير ، والعاقبة واستقرار الشيء .

يقول أبو عبيدة : " التأويل : التفسير ، والمرجع " [3] .

وقال ابن فارس : " آل يؤول : أي رجع " . [4]

---

١) الجَعْدُ بن درهم مؤدب مروان الحمار ، هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولا كلم موسى ، وأن ذلك لا يجوز على الله . قال المدائني : كان زنديقاً . قال ابن كثير : هو شيخ الجهم بن صفوان ، الذي تنسب إليه الجهمية . تلقى هذا المذهب الخبيث عن آبان بن سمعان ، عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ، عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودي . [الجرح والتعديل ١٤١/٤، ميزان الاعتدال ٤٢٥/٢، السير ٤٣٣/٥، البداية ١٩/١٠] .

٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥/ ٢٠ .

٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٨٧ .

٤) معجم مقاييس اللغة لا بن فارس ١/ ١٥٩ .

وقال الراغب : " أول : التأويل من الأول أي الرجوع إلى الأصل ، ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه ، وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علماً كان أو فعلاً " .(١)

وقد جاء لفظ التأويل في كتاب الله وفي سنة نبيه ﷺ وعلى لسان السلف الصالح .

ولكن لم يكن مرادهم تعطيل دلالة النصوص ولا تحريف المعاني .

فقد قال الله تعالى عن كتابه الكريم : (وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا)(٢) .

فإن معنى تأويله ، تفسيره ، وهو مراد من رأى قوله (وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ) معطوفاً على لفظ الجلالة .(٣)

فلفظ التأويل لديهم يدور على معنيين :

" أحدهما : تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقارباً أو مترادفاً ، وهذا والله أعلم هو الذي عناه مجاهد أن العلماء يعلمون تأويله ، ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره : القول في تأويل قوله كذا وكذا ، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك ، ومراده التفسير " (٤)

" والمعنى الثاني في لفظ السلف ، وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً وهو نفس المراد بالكلام " (٥)

يقول ابن القيم :

" فالتأويل في كتاب الله تعالى المراد منه حقيقة المعنى الذي يؤول اللفظ إليه وهي الحقيقة الموجودة في الخارج . فإن الكلام نوعان : خبر وطلب . فتأويل الخبر هو الحقيقة . وتأويل الوعد والوعيد هو نفس الموعود والمتوعد به ، وتأويل ما أخبر الله به من صفاته العلى وأفعاله

---

١) المفردات للراغب ٣١ .

٢) آل عمران ٧ .

٣) انظر دقائق التفسير لشيخ الاسلام ١/ ١٣٠ ، شرح الطحاوية ١/ ٢٥٤ .

٤) دقائق التفسير لشيخ الاسلام ١/ ١٣

٥) دقائق التفسير لشيخ الاسلام ١ / ١٣

نفس ما هو عليه سبحانه ، وما هو موصوف به من الصفات العلى . وتأويل الأمر هو نفس الأفعال المأمور بها . قالت عائشة رضي الله عنها " كان رسول الله ﷺ يقـــول في ركوعـــه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك " يتأول القرآن . فهذا التأويل هو فعل نفس المأمور به .

فهذا هو التأويل في إصطلاح أهل التفسير والسلف من أهل الفقه والحديث فمرادهم به معنى التفسير والبيان . ومنه قول ابن جرير وغـــيره : القـــول في تأويـــل قولـــه تعـــالى كـــذا وكذا "[1]

وأما أهل البدع من " المعتزلة والجهمية وغيرهم من المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، ولهذا يقولون : التأويل على خلاف الأصل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . وهذا التأويل هو الذي صـــنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين . فمن صنف في إبطال التأويل على رأي المتكلمين القاضي أبو يعلى والشيخ موفق الدين ابن قدامه .

وقد حكى غير واحد إجماع السلف على عدم القول به "[2]

فنخلص من هذا كله أن التأويل له معان ثلاثة :

الأول : التفسير والبيان

الثاني : حقيقة ما يؤول إليه الكلام أي ما يصير إليه ويستقر عليه .

يقول شيخ الإسلام عن هذا المعنى :

" هو لغة القرآن التي تنزل بها ، وقد قدمنا التبيين في ذلك ومن ذلك قول يعقـــوب عليـــه السلام ليوسف (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) وقوله (ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً ، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأســـي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعـــام ترزقانـــه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) وقول الملأ (أضغث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر وآوى إليه أبويه (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبيـــه علـــى العرش وخروا له سجداً وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً) فتأويل

---

١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ١٠ - ١١

٢) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ١ / ١١

الأحاديث التي هي رؤيا المنام ، هي نفس مدلولها التي تؤول إليه كما قال يوسف (هذا تأويل رؤياي من قبل) والعالم بتأويلها : الذي يخبر به كما قال يوسف (لا يأتيكما) أي قبل أن يأتيكما التأويل وقال تعالى (فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً) قالوا . أحسن عاقبة ومصيراً . فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة . والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا . والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن ، وكذلك في سورة آل عمران " [1]

وهذان المعنيان هما معنيا التأويل لدى السلف يقول ابن القيم : " فالتأويل الصحيح هو القسمان الأولان ، وهما : " التأويل الصحيح حقيقة المعنى وما يؤول إليه في الخارج ، أو تفسيره وبيان معناه . وهذا التأويل يعم المحكم والمتشابه والأمر والخبر .

قال جابر بن عبد الله في حديث حجة الوداع : " وهو يعلم تأويله فما عمل به من شيء عملنا به " فعلمه " صلوات الله وسلامه عليه " بتأويله هو علمه بتفسيره وما يدل عليه ، وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه " [2]

ومثل هذا المعنى دعاؤه ﷺ لابن عباس ، حيث قال : اللهم فقه في الدين ، وعلمه التأويل " . [3]

ومثله قول جابر عن النبي ﷺ الذي مضى : " وهو يعرف تأويله " [4]

فتأويل القرآن ، تفسيره وبيانه .

فلذا لا يتصور ما ورد من ذم السلف للتأويل الباطل إنزاله على هذا المعنى ، فإن تفسير القرآن بكلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وكلام العرب الذي نزل القرآن بلسانهم مما يمدح ، ويرغب إليه .

الثالث : المعنى المبتدع ، وهو صرف اللفظ عن ظاهر .

ومنه تعطيلهم لنصوص الصفات بدعوى تأويلها [5]

---

١) دقائق التفسير لشيخ الإسلام ١/ ١٣١ — ١٣٢

٢) الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ١٨١

٣) رواه أحمد ١/ ٢٦٦ ، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ١٩٣ .

٤) في الحديث الطويل حديث الحج رواه مسلم ٢/ ٨٨٧ وأبو داود ٢/ ٤٥٩ والثاني ٥/ ١٥٦ .

٥) انظر أمثلة على هذا النوع ، ونقضها في : الصواعق المرسلة لابن القيم ١/ ١٨٧ — ٢٠٢ ، مختصر الصواعق المرسلة ١/ ١١- ٨٩ ، دقائق التفسير ١/١٢٣- ١٤٤

وهذا التأويل الذي نهى عنه السلف وذموه (صرف اللفظ عن ظاهره)[1] هو الذي يدعو إليه الكوثري ، ويسير عليه ، حيث يقول :

" من كلام العرب ما يفهم منه مراد المتكلم بمجرد سماعه بدون احتياج إلى التدبر ، ومنه ما لا يفهم المراد منه إلا بعد التأمل فيما يؤول إليه ذلك الكلام .

والتأويل تبيين ما يؤول إليه الكلام بعد التدبر " .[2]

وهذا التعريف ، هو كلام بدون حد ، وهو تفسير وليس بتعريف .

فهو قسم الخطاب إلى قسمين

_ قسم لا يحتاج إلى تأويل .

_ قسم يحتاج إلى تأويل لأنه يحتاج في فهمه إلى تأمل !

وهذا الثاني هو الذي يفيدنا هنا ، فقوله : لا يفهم منه المراد إلا بعد التأمل ، كلام بلا ضابط ، فكيف التمييز بين اللفظ الذي يحتاج إلى التأويل ، واللفظ الذي لا يحتاج ؟ .

فالتأويل في باب الصفات ـــ عند الكوثري ـــ واجب في مواضع ، ممنوع في أخرى .

يقول :

" فمن أول في كل موضع فهو قرمطي كافر ، ومن أبى التأويل في كل آية وحديث فهو حجري زائغ ".[3]

وهذا الذي ذكره مردود عليه ، فإن القول بالتأويل ـــ وهو صرف اللفظ عن ظاهره ـــ لا ضابط له ، والقول إن القواطع العقلية موجبة للتأويل ، دفعاً للتشبيه ، فهو تعطيل للنصوص وفتح باب القرمطة كما أقر الكوثري .

١) شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٥١ .

٢) حاشية السيف الصقيل ١٤٨ .

٣) نفسه ١٤٩ .

فإن المنافقين دخلوا من هذا الباب في التشكيك بالبعث وحقيقة التوحيد ، فيجعلون الشرائع المأمور بها ، والمحظورات المنهي عنها ، لها تأويلات باطنة تخالف ما يعرفه المسلمون منها .

كما يتألون الصلوات الخمس ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، فيقولون :"إن الصلوات الخمس معرفة أسرارهم ، وإن صيام شهر رمضان كتمان أسرارهم ، وإن حج البيت السفر إلى شيوخهم ، ونحو ذلك من التأويلات التي يعلم بالاضطرار أنها كذب وافتراء على الرسل صلوات الله عليهم ، وتحريف لكلام الله ورسوله عن مواضعه ، وإلحاد في آيات الله " .[1]

هذا ما صرح به ابن سينا ، حيث عطل دلالة النصوص على البعث والحشر ، والأمر والنهي عن دلالتها بدعوى التأويل ، فإن ابن سينا يقول :

" أما أمر الشرع فينبغي أن يعلم فيه قانون واحد ، وهو أن الشرع والملل الآتية على لسان نبي من الأنبياء يرام بها خطاب الجمهور كافة " .[2]

ثم زعم بعض ما يوصف به الصانع مما لا دليل عليه ، ولا تقبله العقول ، وزعم أن هذا التصور للصانع يمتنع أن يصرح به لعامة الناس ، حتى لا ينفروا .

يقول :

" فظاهر من هذا كله أن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمون ، مقرباً مالا يفهمون إلى أفهامهم بالتشبيه والتمثيل ، ولو كان غير ذلك لما أغنت الشرائع البتة .

فكيف يكون ظاهر الشرائع حجة في هذا الباب ؟ "[3]

والكوثري يأبى قبول المعنى الذي جاء عن السلف في التأويل فهو يقول :

" وحمل التأويل على معنى التفسير في باب المتشابهات تحريف للكلم عن مواضعه ."[4]

---

١) التدمرية ٤٨ .

٢) الأضحوية في المعاد لابن سينا ٩٧ .

٣) الأضحوية في المعاد لابن سينا ٩٨ .

٤) حاشية السيف الصقيل ١٥٦ .

فهو يؤصل أصلاً فاسداً ، ثم يبني عليه .

فالنصوص الواردة في صفات الله ، هي من المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله .

فلذا لا يتصور أن يكون تأويلها هو تفسيرها ، فإن ذلك مما لا يعلمه إلا الله .

وبما أنها من المتشابه ، فليس لها ظاهر ، يلزم إثباته ، بل الواجب التفويض في معناها ! أو تأويلها !؟

والتأويل الباطل إنما يفعله من يرى أن للنص ظاهراً غير مراد عنده ، بخلاف الكوثري الذي رأى أنه من المتشابه ؟ ومع ذلك هو يقول :

" وقد يطلق الظاهر بمعنى المستفيض المشهور وهو مراد من يقول من أهل السنة (باجراء أخبار الصفات على ظاهرها) حيث يريد إجراء اللفظ المستفيض عن النبي ﷺ في صفات الله على اللسان كما ورد مع التفويض أو التأويل " . [1]

فظاهر النص عنده هو المعنى المستفيض المشهور ، وهذا كلام يناقض قوله السابق ، بأن نصوص الصفات من المتشابه .

وإنما سبب هذا الاضطراب أن هذه الطريق ، ليس لها أصل في كتاب الله ولا سنة النبي ﷺ ، وليس لها سلف عن خيار هذه الأمة .

وهي طريق بدعية خلاف طريق السلف الصالح .

يقول الجويني [2] :

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٥٦ .

٢) (الجويني) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ،الجويني ثم النيسابوري ،هيناء الدين ،أبو المعالي . الإمام الكبير ،شيخ الشافعية ،وإمام الحرمين . ولد سنة (٤١٩هـ) . سمع من أبيه ، وعدة آخرين . روى عنه : أبو عبد الله الفُراوي ،وآخرون ، كان إماماً في الفروع أصول المذهب ،وكان على مذهب الأشاعرة قال الذهبي : في الآخر رجح مذهب السلف في الصفات وأقرّه . وقد صرح برجوعه في كتابه (الرسالة النظامية) وطبعت باسم (العقيدة النظامية) بتحقيق الكوثري . له (الورقات) و (البرهان) في أصول الفقه وغيرها . مات سنة (٤٧٨هـ) [وفيات الأعيان ١٦٧/٣، طبقات السبكي ١٦٥/٥، السير ٤٦٨/١٨] .

" وقد اختلفت مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة . وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها . واجراؤها على موجب ما تبتدره أفهام أرباب اللسان منها ، فرأى بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في آي الكتاب ، وما يصح من سنن الرسول ﷺ .
وذهب أئمة السلف الى الانكفاف عن التأويل ، واجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها الى الرب تعالى ، والذي نرتضيه رأيا ، وندين الله به عقلاً ، اتباع سلف الأمة فالأولى الاتباع ، وترك الابتداع والدليل السمعي القاطع في ذلك ، أن اجماع الأمة حجة متبعة ، وهو مستند معظم الشريعة .
وقد درج صحب رسول الله ﷺ ، ورضى عنهم على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها ، وهم صفوة الاسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة . وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة ، والتواصي بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون اليه منها ، فلو كان تأويل هذه الآي والظواهر مسوغاً ، ومحتوما ، لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة وإذا انصرم عصرهم ، وعصر التابعين على الاضراب عن التأويل كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع ، فحق على ذي دين ، أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين ، ولا يخوض في تأويل المشكلات ، ويكل معناها الى الرب تبارك وتعالى ." [1]
وإنما نقلت عن الجويني هذا النص الطويل ، لأن الكوثري يراه أحد الأئمة في أصول الدين . والجويني وإن أصاب في منع هذا التأويل المبتدع ، فإنه أخطأ بنسبة تفويض المعاني إلى السلف عندما قال (ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها).[2]
يقول ابن حجر العسقلاني بعد أن ذكر قول الطيبي : " وقال غيره : لم ينقل عن النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه من طريق صحيح ، التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع من ذكره ، ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) [3] ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز مع حضه على التبليغ عنه بقوله : " ليبلغ الشاهد الغائب " [4] حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وصفاته وما فعل بحضرته فدل على أنهم اتفقوا على الايمان بها على الوجه الذي أراده الله

---

١) العقيدة النظامية للجويني ٣٢ .
٢) سبق الكلام على ذلك في مبحث (فهم الكوثري لمعتقد السلف) ص ٨٢ - ٨٧
٣) المائدة ٣ .
٤) حديث جابر الطويل أخرجه مسلم في ك / الحج ، باب حجة النبي ﷺ ٨ / ١٧٠.

منها ، ووجب تتريهه عن مشابهة المخلوقات بقوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ)[1] فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم وبالله التوفيق " .[2]

وهذا كلام نفيس ، وقد نقله الكوثري ، و لم يستطع دفعه إلا بزعم أن هذا الكلام يقتضي التفويض في المعنى . !

ثانياً : رأيه في حجية أحاديث الآحاد في العقائد

أخذ الصحابة من رسول الله ﷺ ، العلم والعمل .

فقد سمعوه ﷺ يحدثهم عن الله ، وعن صفاته ، فآمنوا بها ، ونقلوها إلى من بعدهم وكان الواحد منهم يحدث بها من جاء بعدهم ، من التابعين لهم بإحسان ، حيث كانوا يعتقدون مقتضاها بمجرد سماعها من أحد الصحابة .

حتى جاء عصر البدع ، فردوا أحاديث النبي ﷺ ، بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تفيد إلا الظن ، وأمور الاعتقاد لا يصلح فيها إلا اليقين !

فإن أهل البدع من نفاة الصفات ـــ كالأشاعرة والماتريدية وغيرهم ـــ لما جاءتهم نصوص الصفات ، نظروا إليها ، ثم حكموا العقل فيها بما يسمونه البراهين العقلية ، وهي عندهم الاساس فإن وافق النصُ هذه البراهين ، قبلوا دلالته ، وسلموا به .

وإن خالف النص هذه البراهين ، نظروا الى النص .

فإن كان متواتراً ـــ كالقرآن الكريم ـــ قالوا يقينية النقل ، لكن دلالتها ظنية لمخالفتها للعقل ! فوجب التفويض أو التأويل .

وأما إن كان النص آحاداً ، لم يجهدوا في رده ، حيث قالوا هو حديث آحاد ظني السند ظني الدلالة .!. وبهذا نقضوا الاساس الذي تتلقى منه عقيدة التوحيد .

وقبل نقل بعض نصوص الماتريدية ، والكوثري على هذه المسألة ، من المستحسن أن أشير إلى معنى الحديث الآحاد .

فالخبر عند علماء الحديث ينقسم إلى قسمين :

---

١) الشورى ١١ .

٢) فتح الباري لابن حجر ١٣ / ٣٩٠ .

الأول : الخبر المتواتر ، وهو :

ما رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب .[1]

" وتلك الكثرة أحد شروط التواتر إذا وردت (بلا) حصر (عدد معين) بل تكون العادة قد أحالت تواطؤهم على الكذب ، وكذا وقوعه منهم اتفاقاً من غير قصد ، فلا معنى لتعيين العدد على الصحيح " .[2]

الثاني : الحديث الآحاد ، فهو :

" في اللغة : مايرويه شخص واحد .

وفي الاصطلاح : ما لم يجمع شروط المتواتر " .[3]

والكثرة الموجودة في طبقات السند – التي تشهد العادة انتفاء الكذب أو الخطأ فيها – هي شرط التواتر ، وهي الفارق بين الحديث المتواتر والحديث الآحاد .[4]

ولأجل هذا التقسيم ، أجمع العلماء على القطع بإفادة المتواتر العلم اليقيني ، وإنما وقع النزاع في ما سوى المتواتر هل يفيد اليقين أم الظن ؟

وقبل ذكر هذا الخلاف ، فلا شك أن كل خبر متواتر يقطع بصحته ، وليس كل خبر صحيح يكون متواتراً .

فخلص معنا أن الخبر ، إما يجزم بصدقه يقيناً ، وإما يجزم بكذبه ، وإما بين بين وهو ما يغلب على الظن صدقه ، أو كذبه ، وهذا النوع هو ما وقع النزاع فيه .

وعندنا في هذا الموضوع ـ حديث الآحاد ـ ثلاث مسائل :

الأولى : وهي هل حديث الآحاد ـ إذا صح ـ يفيد العلم أم غلبة الظن ؟

والثانية : وهي مترتبة على الأولى إذ هل يلزم منه العمل ـ وإن أفاد الظن ؟

---

١) انظر تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي ٢/١٧٧ ، ونزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر ٣٤)

٢) نزهة النظر ٣٤ .

٣) انظر نزهة النظر ٣٦ ، فتح الباري ١٣/٢٣٣ .

٤) انظر النزهة ٣٥ وتدريب الراوي ٢/١٧٧ .

وأما الثالثة : وهي مدى حجيته في إثبات مسائل الاعتقاد ؟

فأما المسألة الأولى ، فقد ذهب أكثر المتكلمين ، من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم ، على أن خبر الآحاد ـ وهي ما سوى المتواتر ـ تفيد الظن ، لا القطع فهي ظنية الثبوت ، لا قطعية ، وعليه معظم من تكلم في أصول الفقه .

يقول النووي :

" الذي ذكره الشيخ [1] في هذه المواضع خلاف ما قاله المحققون والأكثرون فانهم قالوا أحاديث الصحيحين التي ليست بمتواترة إنما تفيد الظن فإنها آحاد والآحاد انما تفيد الظن على ما تقرر ، ولا فرق بين البخاري ومسلم وغيرهما في ذلك ، وتلقى الأمة بالقبول انما أفادنا وجوب العمل بما فيهما ، وهذا متفق عليه فان أخبار الآحاد التي في غيرهما يجب العمل بها اذا صحت أسانيدها ولا تفيد الا الظن " [2]

وهذا الذي ذكره النووي هو رأي المعتزلة والمتكلمين ، ومن تبعهم .

يقول الجويني :

" فإن الحديث ، وإن رواه الأثبات ، ونقله الثقات ، فلم يجمع أهل الصنعة على صحته على معنى أنه منقول عن الرسول ﷺ قطعاً " [3]

وقال :

" إن الأمة لو اجتمعت على العلم بخبر من أخبار الآحاد ، فإجماعهم على العمل به لا يوجب القطع بصحته " [4]

وقال ابن الأثير :

" وخبر الواحد لا يفيد العلم ، ولكنا متعبدون به " [5]

وهذا الكلام قد أخذه بنصه من الغزالي [6]

وذهب جمهور السلف ، وأكثر المحدثين والفقهاء على أن خبر الآحاد إذا تلقته الأمة بالقبول ، أفاد العلم قطعاً .

---

١) يريد بالشيخ ، ابن الصلاح .

٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، المقدمة ٢٠/١

٣) الشامل للجويني ٥٥٧/ ٥٥٨

٤) الشامل للجويني ٥٥٨

٥) جامع الأصول لابن الأثير ١٢٥/١

٦) انظره في المستصفى ١/ ٨٨

يقول شيخ الإسلام :

" وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ، وهو قول أكثر أصحاب الأشعري كالاسفراييني وابن فورك " (١)

وقال :

" فالخبر الذي تلقاه الأمة بالقبول ، تصديقاً له و عملاً بموجبه يفيد العلم عند جماهير الخلف والسلف " (٢)

يقول ابن الصلاح (٣) عما اتفق عليه الشيخان :

" وهذا القسم مقطوع بصحته ، والعلم اليقين النظري واقع به خلافاً لقول من نفى ذلك محتجاً بأنه لا يفيد في أصله إلا الظن " (٤)

ثم قال :

" ما انفرد به البخاري أو مسلم مندرج في قبيل ما يقطع بصحته لتلقي الأمة كل واحد من كتابيهما بالقبول على الوجه الذي فصلناه من حالهما فيما سبق ، سوى أحرف يسيرة تكلم عليها بعض أهل النقد " (٥)

والقول بأن خبر الآحاد مفيد للعلم إذا احتفت به القرائن وتلقته الأمة بالقبول ، هو قول أهل الشأن في ذلك ، كالحافظ ابن كثير (٦)، والبلقيني (٧) ، وابن حجر (٨) ، وغيرهم من علماء الحديث الذين لهم الحكم الفصل في هذه المسألة ، يقول شيخ الإسلام :

---

١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ١٨/ ٤١

٢) مجموع فتاوى شيخ الأسلام ابن تيمية ١٨/ ٤٨

٣) (ابن الصلاح) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى ، الكروي الشهرزوري ، الموصلي الشافعي ، تقي الدين أبو عمرو . الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام ، صاحب " علوم الحديث " ولد سنة (٥٧٧هـ) سمع من : أبي المظفر السمعاني ، وفخر الدين ابن عساكر ، وابن قداقة ، وعدة ، وسمع عنه : القاضي تقي الدين بن رزين وجماعة . درس بالمدرسة الصلاحية ثم الرواحية ثم الأشرفية وصار شيخها ، مات سنة (٦٤٣هـ) [وفيات الأعيان ٢/٢٤٣، تذكرة الحفاظ ١٤٣٠/٤، السير ١٤٠/٢٣] . طبقات السبكي ٣٢٦/٨

٤) مقدمة ابن صلاح ١٤

٥) مقدمة ابن الصلاح ١٤

٦) انظر الباعث الحثيث لابن كثير ٣٣ .

٧) انظر محاسن الاصطلاح له ١٠١ .

٨) انظر النكت له ١ / ٣٧١ .

" فإن ما تلقاه أهل الحديث وعلماؤه بالقبول والتصديق فهو محصل للعلم ، مفيد لليقين ، ولا عبرة بمن عداهم من المتكلمين والأصوليين ، فإن الاعتبار في الإجماع على كل أمر من الأمور الدينية بأهل العلم به دون غيرهم ، كما لم يعتبر في الأجماع على الأحكام الشرعية إلا العلماء بها دون المتكلمين والنحاة والأطباء ، وكذلك لا يعتبر في الإجماع على صدق الحديث وعدم صدقه إلا أهل العلم بالحديث وطرقه وعلله ، وهم علماء أهل الحديث العالمون بأحوال نبيهم الضابطون لأقواله وأفعاله ، المعتنون بها أشد من عناية المقلدين بأقوال متبوعيهم .

فكما أن العلم بالتواتر ينقسم إلى عام وخاص ، فيتواتر عند الخاصة ما لا يكون معلوما لغيرهم ، فضلاً أن يتواتر عندهم ، فأهل الحديث لشدة عنايتهم بسنة نبيهم ، وضبطهم لأقواله وأفعاله وأحواله ، يعلمون من ذلك علما لا يشكون فيه ، مما لا شعور لغيرهم به البتة ، فخبر أبي بكر وعمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وابن مسعود ونحوهم يفيد العلم الجازم الذي يلتحق عندهم بقسم الضروريات . وعند الجهمية والمعتزلة وغيرهم من أهل الكلام لا يفيد علماً وكذلك يعلمون بالضرورة أن رسول الله ﷺ أخبر أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، وعند الجهمية : رسول الله ﷺ لم يقل ذلك ، ويعلمون بالضرورة أن نبيهم ﷺ أخبر عن خروج قوم من النار بالشفاعة ، وعند المعتزلة والخوارج لم يقل ذلك ، وبالجملة فهم جازمون بأكثر الأحاديث الصحيحة ، قاطعون بصحتها عنه ، وغيرهم لا علم عنده بذلك " (١)

والقول بعدم إفادته للعلم إنما هو قول قديم ليس من كلام السلف .

قال المروذي : قلت لأبي عبد الله : " هاهنا إنسان يقول : إن الخبر يوجب عملاً ولا يوجب علماً . فعابه وقال : لا أدري ما هذا ؟ " (٢)

فهذا القول من الإمام أحمد إنكار لهذا الرأي الذي أشار إلى غرابته ، وأنه لم يكن من أقوال أئمة السلف ، ولذا استهجنه ، وأنكره وهذا القول هو القول الصحيح الذي عليه أكثر السلف _ كما مر _

---

١) مختصر الصواعق المرسلة ٥٨٣ -٥٨٤

٢) مختصر الصواعق المرسلة ٥٧٣

وأما المسألة الثانية ـ إفادته للعمل ـ فإن أهل البدع ، من المعتزلة وغيرهم ، بنوا على أصلهم الفاسد من عدم إفادة الآحاد العلم مطلقاً ، رد العمل به ـ وإن جوز بعضهم العمل به تعبداً ـ وذلك عندهم لأجل أن أحكام الشرع ـ الحلال والحرام ـ لابد أن تقوم على اليقين والبرهان القطعي ، وعندهم الآحاد إنما يفيد الظن .

يقول الجويني :

" ثم افترق نفاة العمل بخبر الواحد ، فذهب بعضهم إلى أن العقل يحيل التعبد بالعمل به ، وذهب الأكثرون إلى أنه لا يستحيل ورود الشرع به ، وهو من تجويزات العقل ، ثم افترق هؤلاء من وجه آخر ، فذهب ذاهبون إلى أن في الشرع ما يمنع التعلق به وقال آخرون : لم تقم دلالة قاطعة على العمل به ، فتعين الوقف . " [(١)]

وكلام الجويني يفيد أنهم لا يرون لزوم العمل به ، وإن اختلفت تعليلاتهم في ذلك .

وهذا الرأي ، رأي فاسد ، مبتدع ، خلاف ماعليه السلف من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم ، وجمهور المتكلمين ـ حتى القائلين بإفادته الظن ـ فإنهم جميعاً يرون وجوب العمل بالآحاد إذا صح بشروطه ، بدلالة الشرع وبدلالة العقل .

فأما الشرع ، فقد جاءت النصوص المتكاثرة على لزوم التكليف وإن كان المخبر واحداً [(٢)] ، وهي كثيرة يصعب حصرها من القرآن والسنة ، ومن الأمثلة لها قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ) [(٣)]

وإنما أمر الله بالتبيّن والتثبت من خبره إذا كان فاسقاً ، ولا يلزم التثبت إذا كان عدلاً [(٤)]

وأما دلالة العقل ، فإن القول بعدم العمل بالآحاد يؤدي إلى تعطيل كثير من أحكام الشرع ، إذ طريقها هو الآحاد .

---

١) البرهان للجويني ١/ ٦٠٠

٢) قد عقد لها البخاري كتاباً في صحيحه ك / أخبار الآحاد ٨ / ١٦٩ [الفتح ١٣ / ٢٣١]، والشافعي في الرسالة ٢٠٩ – ٢٣٩ [ط دار النفائس ١٤١٩] .

٣) الحجرات ٦

٤) انظر تفسير القران العظيم لابن كثير ٤ / ٢٠٨ - ٢٠٩

وأيظاً مصالح العباد ، إنما قامت على غلبة الظن ـ عند من يرى إفادته الظن ـ فترك العمل لأجل ذلك فيه تعطيل لمصالح الدين والدنيا .

وأما المسألة الثالثة ، وهي حجية الآحاد في المسائل الاعتقادية .

فقد ابتدع أهل الأهواء هذه الشبهة ليستندوا إليها في رد ما لم يوافق هواهم من النصوص الشرعية ، والتي بزعمهم تخالف العقل .

فإنهم يرون أن مسائل الاعتقاد لابد أن تكون يقينية الثبوت ويقينية الدلالة ، فإن جاء من النصوص ، ما يخالف عقولهم قالوا : حديث آحاد ، لا يفيد إلا الظن ، فهو ظني الثبوت وإن كان متواتراً ، قالوا : وإن كان قطعي الثبوت ، لكنه ظني الدلالة ـ لورود الاحتمالات عليه ـ فردوه بدعوى تأويل دلالته .

يقول القاضي عبدالجبار :

" وأما مالا يعلم كونه صدقاً وكذباً ، فهو كأخبار الآحاد وما هذه سبيله ، يجوز العمل به إذا ورد بشرائطه فأما قبوله فيما طريقه الاعتقادات فلا "[1]

وسبب ذلك مخالفته العقل ـ عندهم ـ ، يقول :

" ما هذا سبيله من الأخبار فإنه يجب أن ينظر فيه ، فإن كان مما طريقه العمل موافقاً لحجج العقول قبل واعتقد موجبه ، لا لمكانه بل للحجة العقلية ، وإن لم يكن موافقاً لها ، فإن الواجب أن يرد ويحكم بأن النبي لم يقله ، وإن قاله فإنما قاله على طريقة الحكاية عن غيره ، هذا إذا لم يحتمل التأويل إلا بتعسف ، فأما إذا احتمله فالواجب أن يتأول ، وتفصيل هذه الجملة موضعه أصول الفقه "[2]

ولا شك أن هذا أساس يؤدي إلى الضلال ، فبه تعطل النصوص ، ويتسلط المبتدعون ، ويدخل الزنادقة فيثلمون أصول الدين .

فإن السلف الصالح ـ من الصحابة ، والتابعين لهم بإحسان ـ تلقوا ما بلغهم عن النبي ﷺ من أمور الإيمان والاعتقاد فآمنوا بها ، وأيقنوا بحقيقتها ، وسلموا لدلالتها ، و لم يفرقوا بينها ، فالتفريق بين النصوص ، كونها أحكام أو عقائد ، أو كونها آحاد أو متواتر إذا جاءت لم يكن من طريقة السلف ، وإنما كانوا إذا صح لديهم أنه قول الرسول ﷺ ، آمنوا به

---

١) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ٧٦٩

٢) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ٧٧٠.

وسلموا له ، وعملوا بمقتضاه ، سواء كان هذا النص في أحكام الصلاة والصيام والبيع ، أو كان في أمور الإيمان والمعتقد والغيب ، وسواء كان طريقه التواتر أو الآحاد .

فأما رأي الكوثري في حديث الآحاد ، فإننا نتبينه من خلال جانبين :

الأول : وهو هل يرى ، أنه يفيد العلم مطلقاً ؟ أم يفيد الظن لا القطع ـــ ولــو تــوفرت شروطه ـــ ؟

أم يذهب إلى أنه يفيد العلم إذا احتفت به القرائن ، وتلقته الأمة بالقبول . ؟

من خلال نصوصه ، سوف يتبين ، لنا رأيه ، وهذه كلماته ، يقول :

" دعوى إفادة خبر الآحاد العلم من هواجس الظاهرية إلا إذا كان محتفاً [١] بقرائن . " [٢]

وهذا النص ، يفيد أن الكوثري ، يرى أن الآحاد ، مفيد للعلم إذا احتفت به القرائن ، فهو هنا لا يرى إفادته للعلم مطلقاً ، وهذ الرأي قريب من القول الراجح الذي مر بنا قريباً ، وقد أشار الكوثري لهذا في موضع آخر ، حيث قال :

"على أن أخبار الآحاد الصحيحة قد يحصل بتعدد طرقها تواتر معنوي ، بل قد يحصل العلم بخبرالآحاد عند احتفافه بالقرائن " [٣]

ومع هذا ، لم يبين لنا الكوثري ، صفة هذه القرائن ، بل تركها مبهمة ، ليتسنى له ، رد ما لم يوافق هواه من هذا النوع ، كما سيأتي .

على أنا نرى الكوثري قد تناقض ، فإذا خالف الحديث هواه رده بحجة عدم إفــادة الآحاد للعلم ، فهو يقول عن حديث مسلم في شأن أبي النبي ﷺ :

" على كل حال هذا الحديث من أخبار الآحاد التي لا يتمسك بها في باب العلم وإنزال المرء في النار في حاجة إلى دليل يفيد العلم " . [٤]

وهو يشنع على أئمة السلف ، قولهم إفادة خبر الآحاد للعلم ، فيقول :

" والحاصل أن الكلام في ذات الله بالظنون من غير علم مما توعد الله عليه في غير آية ، ودعوى إفادة خبر الآحاد للعلم أوقعت كثيراً من المحدثين في مآزق . " [٥]

---

١) في الأصل (متحفاً) وهو خطأ .

٢) حاشية السيف الصقيل ١٧٣ .

٣) مقالات الكوثري ٢٢٥ .

٤) حاشية التنبيه والرد ، للملطي ١٦٢ .

٥) حاشية الاختلاف في اللفظ ٣٨ .

ومراده بالمآزق ، إثباتهم لصفات الله — عز وجل — مما يراه ، هو ، تشبيهاً ، فإنه إنما ذكـر هذا الكلام عند تعليقه على من أثبت الإصبع من خلال الحديث المشهور .

وهذا يدلنا على أن الكوثري ، إنما يرى إفادة الآحاد العلم إذا وافق ما نشأ عليه من معتقد ، وليس تسليماً بما دلت عليه النصوص ، وهو يدل على مدى تناقضه ، ومما يدلل علـى مـا أقول أنه اشتد في النكير على من أنكر رفع عيسى ، ونزوله آخر الزمان ، بدعوى عدم إفادة الآحاد للعلم ، فاستمع إليه يقول :

" فخبر الآحاد الذي تلقته الأمة بالقبول يقطع بصدقه كما نص على ذلك أبو المظفر السمعاني في (القواطع) . "[1]

وقال عن عبدالعزيز البخاري قوله :

" ذهب(أكثر أصحاب الحديث إلى أن الأخبار التي حكم أهل الصـنعة بصـحتها توجب علم اليقين بطريق الضرورة ، وهو مذهب أحمد بن حنبل) أ .هـ " .[2]

فهو هنا ، يقطع بإفادة الآحاد للعلم بل للعلم اليقيني ، ويستدل بكلام أهل الحديث الـذين قال في حقهم (ودعوى إفادة خبر الآحاد للعلم أوقعت كثيراً من المحدثين في مآزق) وشنع عليهم بذلك !

فلماذا كل هذا ؟ لأن الذين استدلوا بعدم إفادة الآحاد للعلم ، إنما استدلوا بذلك لإنكـار رفع عيسى ، ونزوله آخر الزمان ، وهو ما يعتقده الكوثري ويؤمن به ؟

وقد مر بنا أن القول بعدم إفادة غير المتواتر للعلم واليقين ، قول مبتـدع ، خـلاف ماكان عليه الصحابة والتابعون ، وأئمة السلف .

فإنهم تلقوا أحاديث الرسول ﷺ الصحيحة بالقبول ، وأيقنوا بدلالتها ، واعتقدوا العلم من خلالها .

يقول أبو المظفر السمعاني في الجواب عن قولهم : إن أخبار الآحاد لا تفيـد العلـم :

" وهذا رأس شغب المبتدعة في رد الأخبار ، وطلب الدليل من النظر والاعتبار فنقول وبالله التوفيق :

---

١) نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة ، للكوثري ٤٤ .

٢) نظرة عابرة ٤٧ .

إن الخبر إذا صح عن رسول الله ﷺ ، ورواه الثقات والأئمة ، وأسندوه خلفهم عن سلفهم إلى رسول الله ﷺ ، وتلقته الأمة بالقبول : فإنه يوجب العلم فيما سبيله العلم .

هذا قول عامة أهل الحديث والمتقنين من القائمين على السنة ، وإنما هذا القول الذي يذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال ، ولابد من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم به شيء اخترعته القدرية والمعتزلة ، وكان قصدهم منه رد الأخبار ، وتلقفه منهم بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم علم في العلم وقدم ثابت ، ولم يقفوا على مقصودهم من هذا القول ، ولو أنصف الفرق[1] من الأمة لأقروا بأن خبر الواحد يوجب العلم ، فإنهم تراهم مع اختلافهم في طرائقهم وعقائدهم يستدل كل فريق منهم على صحة ما يذهب إليه بالخبر الواحد " .

ثم قال : " فإذا قلنا ظن أن خبر الواحد لا يجوز أن يوجب العلم ، حملنا أمر الأمة في نقل الأخبار على الخطأ ، وجعلناهم لاغين ، مشتغلين بما لا يفيد أحداً شيئاً ، ولا ينفعه ، ويصير كأنهم قد دونوا في أمور مالا يجوز الرجوع إليه ، والاعتماد عليه ، وربما يرتقي هذا القول إلى أعظم من هذا ، فإن النبي ﷺ أدى هذا الدين إلى الواحد فالواحد من أصحابه ، ليؤدوه إلى الأمة ، ونقلوا عنه ، فإذا لم يقبل قول الراوي لأنه واحد ، رجع هذا العيب إلى المؤدى ، نعوذ بالله من هذا القول الشنيع ، والاعتقاد القبيح " .[2]

والعجيب أن الكوثري استشهد بكلام أبي المظفر هذا ، وهذا دليل على تناقضه ، وإليك نصه ، قال:

" فخبر الآحاد الذي تلقته الأمة بالقبول يقطع بصدقه كما نص على ذلك أبو المظفر السمعاني في (القواطع) ." [3]

وأما الجانب الثاني ، فهو ، بعد أن بان لنا رأيه ، في الآحاد من جهة إفادته للعلم ، فما رأيه في حجيته في تجاه مسائل الاعتقاد ؟

هل يسلم بذلك مطلقاً .؟ أم بقيود .؟ أم أنه لا يرى حجيته في هذا .؟

هذا ما سيوضحه كلامه .

---

١) كذا في النص

٢) كتاب الحجة في بيان المحجة لأبي قاسم الأصبهاني ٢/٢١٥-٢١٧ .

٣) نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة ، للكوثري ٤٤ .

يقرر الكوثري ، حجية أخبار الآحاد ، بل وينسب اتفاق العلماء على ذلك ،

يقول :

" لأن خبر الآحاد يفيد عقيدة اتفاقاً كما ذكرنا نصوص أهل العلم ." [1]

ومثله قوله ، مشدداً النكير على أهل البدع في تهوينهم بالسنة ، بدعوى أنها آحاد ،

يقول :

" ونحن نسمع من فلتات ألسنة دعاة هذه النعرة بين حين وآخر تهوين أمر أخبار الآحاد الصحيحة من السنة ، وكذا الاجماع والقياس بل دلالات الكتاب المعتبرة عند أهل الاستنباط فيتهوين أخبار الآحاد يتخلصون من كتب السنة من صحاح وسنن وجوامع ومصنفات ومسانيد وتفاسير بالرواية وغيرها ، وإلا فلا معجزة كونية تستفاد منها ولا أحكام شرعية تستمد منها .

فهل يسلك مثل هذه السبيل من سبل الشيطان غير صنائع أعداء الإسلام ؟

على أن أخبار الآحاد الصحيحة قد يحصل بتعدد طرقها تواتر معنوي ، بل قد يحصل العلم بخبر الآحاد عند احتفافه بالقرائن " [2]

ويقول أيضاً :

" وقول الإمام الشافعي رضي الله عنه " أترانى خرجت من الكنيسة أو ترى عليَّ زناراً ؟!! "لمن سأله أتأخذ بهذا الحديث ؟ — في حديث من أخبار الآحاد — يدل على مبلغ تشدده فيمن يعرض عن الحديث ." [3]

فهو هنا ، يرى القول بعدم الأخذ بالآحاد ، إعراض عن السنة .

وقال ، منتقداً أحد أئمة المعتزلة : " وهو كثير الشذوذ ، ومن جملة شذوذه أنه يرى عدم جواز الأخذ بخبر الآحاد عقلاً " [4]

---

١) نظرة عابرة ٤٨ .

٢) مقالات الكوثري ٢٢٥ .

٣) نظرة عابرة ٤٧ .

٤) نظرة عابرة ٤٣ .

وهذا تقرير جميل ، ـــ لو أنه اطرده ـــ ولكنه تقرير نظري لم يلتزمه ، بل خالفه أشد المخالفة ، كما سيأتي بيانه ، وأمثلة له في هذا المبحث ، حيث رد كثيراً من الأحاديـــث في الصحيحين أو أحدهما بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تصلح في مسائل الاعتقاد ـــ وربما رد الآحاد الذي تلقته الأمة بالقبول ، لا بدعوى أنه آحاد بل بدعوى أنه من الضعيف المردود ، يقول :

" أن الأخبار المحتج بها في الصفات إنما هي الصحاح المشاهير دون الوحدان والمفاريد والمناكير والمنقطعات والضعاف والموضوعات . "[1]

ويقول :

" أنما الحجة في باب الاعتقاد ، هي الكتاب المترل ، والصحاح المشاهير من الحديث ".

[2]

وهذا الكلام ، ظاهره قبول الحديث الصحيح (وإن قيده بالمشهور) ، لكنه للأسف لم يرده ، و لم يلتزمه .

يقول الكوثري ـــ بجرأة ـــ عن أحد الآثار الضعيفة [3] :

" ولو ورد مثل ذلك بسند صحيح لرد ، وعد أن هذا سند مركب . "[4]

فليست القضية ـــ عنده ـــ صحة السند ، بل أمر آخر زائد عليه ، وهـــو موافقتـــه للبرهان العقلي ، فهو يقول عن ذلك الحديث " إذ هو محال يرد بمثله خبر الآحـــاد . "[5] وإلا لما رده ـــ على فرض صحته .

ثم سبحان الله ! كيف يقال مثل هذا الكلام ، حتى وإن كان الأثر ضعيفاً ؟

وإنما الواجب على المؤمنين إذا صح عن النبي ﷺ الأثـــر أن يقولـــوا : (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) .[6]

لا أن يقولوا : لو ورد صحيحاً لرددناه !

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٥٣ .

٢) حاشية السيف الصقيل ١٧٣.

٣) سيأتي الكلام عليه في مبحث الاستواء .

٤) حاشية السيف الصقيل ١٤٧ .

٥) حاشية السيف الصقيل ١٤٧ .

٦) البقرة ٢٨٥ .

وههنا ما يدلل على أن ما قرره سابقاً لم يلتزمه ، فإنه يقول عن بعض أحاديث مسلم :

" على كل حال هذا الحديث من أخبار الآحاد التي لا يتمسك بها في باب العلم . وإنزال المرء في النار في حاجة إلى دليل يفيد العلم " (١)

بل الكوثري ، يرد دلالة الحديث المتواتر إذا خالف المذهب ، بدعوى ، أنه ظني الدلالة .

يقول :

" قول الرسول القطعي الثبوت ، والقطعي الدلالة نص يفيد علم اليقين من غير خلاف ، وأما ما هو ظني الدلالة منه فلا ." (٢)

ويتبين لنا أن الكوثري متناقض في هذا الباب ، فإنه وإن قبل حديث الآحاد في العقيدة ، لم يلتزم ذلك فاستثنى مسائل الصفات فلم يقبله وعطل النصوص الواردة في ذلك .

وأما نقض هذا الباطل تفصيلاً ، فسيأتي ، ومن قوله إن شاء الله . (٣)

---

١) حاشية التنبيه والرد للملطي ١٦٢ .

٢) حاشية السيف الصقيل ١٧٣ .

٣) سيأتي ذلك في الكلام على صفة النزول .

المبحث الثالث :

صفات الله

الفرع الأول :

الصفات الاختيارية

المطلب الأول :

رأي الكوثري في صفة الاستواء ونقده

تمهيد :

التعريف بالصفات الاختيارية وحكمها

قد أخبر الله عن نفسه ، وأخبر عنه رسوله ﷺ ، بصفات الكمال ، وكان مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ الصفات التي تتعلق بمشيئته ، فيفعلها متى شاء عز وجل .

" وهي الأمور التي يتصف بها الرب — عز وجل — فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته ، مثل كلامه ، وسمعه ، وبصره ، وإرادته ، ومحبته ، ورضاه ، ورحمته ، وغضبه ، وسخطه .

ومثل خلقه وإحسانه ، وعدله ، ومثل استوائه ،ومجيئه وإتيانه ، ونزوله ، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة . "[1]

وهي الصفات التي سماها السلف الصفات الاختيارية ، لتعلقها بمشيئة الله .

وهي التي ينفيها الأشاعرة والماتريدية ومن تبعهم من المتكلمين ، بدعوى نفي حلول الحوادث بالله .

وقد أخبر الله في كتابه من هذا المعنى شيئاً كثيراً :

كقوله : " إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ "[2]

وقوله (فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [3] .

---

١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ٢١٧/٦ .

٢) آل عمران ٨٩ .

٣) الأعراف ٢٢ .

وقولـــــه : (قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ) [1] .

وقولـــــه : (قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ) . [2]

والنصوص في هذا المعنى كثيرة .

---

١) آل عمران ٣١ .

٢) المجادلة ١ .

المطلب الأول :

(رأي الكوثري في صفة الاستواء ونقده)

من خلال تتبع أقوال الكوثري في صفة الاستواء يتبن لنا أن رأيه فيه لا يخرج عن رأي الجهمية ، في هذه الصفة ،فرأيه مبني على صرف المعنى الصحيح للاستواء الذي أثبته سلف هذه الأمة ــ رضي الله عنهم ــ فهو يقول " ومما يقصر المسافة في الرد على الحشوية التي تدعي التمسك بالظاهر أن قوله تعالى : (ثم استوى) صيغة فعل مقرونة بما يدل على التراخي شأن سائر الأفعال ، وعد ذلك صفة إخراج للكلام عن ظاهره " [1] .

وقال : " أن الاستواء لم يذكر في تلك الآيات الإبصيغة الفعل المقرونة بأداة التراخي في بعضها ، وذلك نص على أن الاستواء فعل من أفعال الله سبحانه لا صفة ذات له تعالى ، وجل الإله أن تحدث له صفة بعد أن لم تكن ، ومن قال إنه مستو نطق بما لم يأذن الله به كائنا من كان : " [2] .

ويقول " أو تفسير الاستواء بالاستقرار إنما هو قول مقاتل بن سليمان شيـــــخ المشبهة " [3] .

ويقول " والمتعين هو ما رجحه الأشعري ، أعني عد الاستواء فعلا يفعله لا صفة ذاتية . " [4]

لا بد من الإشارة إلى أن صفة الاستواء من الصفات الفعلية ، لكن الكوثري ، لا يريد بقوله إن الاستواء فعل يفعله ــ عز وجل ــ أنها من هذا القسم ، بل يريد أن الاستواء من الصفات الفعلية التي تقوم بغيره لا بنفسه ، فهو لا يعد الفعل من الصفات أصلاً .

وأما نسبه إلى أبي الحسن الأشعري ، فهو ما قاله البيهقي [1] :

---

١) حاشية السيق الصقيل ٩٧ .

٢) نفسه ١٣٦.

٣) نفسه ٢٧ .

٤) حاشية الأسماء والصفات ٣٨١

" وذهب أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري إلى أن الله تعالى جل ثناؤه فعل في العرش فعلا سماه استواء كما فعل في غيره فعلا سماه رزقا ونعمة أو غيرها من أفعاله ." [2]

ومع ذلك ، فإن الأشعري يقول :" إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟

قيل له : نقول إن الله ــ عز وجل ــ يستوي على عرشه كما قال ، يليق به من غير طول الاستقرار ، كما قال :(ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) "

وقال : " كل ذلك يدل على أنه ليس في خلقه ، ولا خلقه فيه ، وأنه مستو على عرشه بلا كيف ولا استقرار ، وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً " [3]

ومن خلال النصين يتبين بوضوح أن الكوثري لا يثبت الاستواء صفة لله ولا يفسره كما جاء عن أئمة السلف ، وإنما يؤول اللفظ إلى فعل لا تعلق له بصفات الذات .

وهذا منه بناء على أصل اعتقاده الماتريدي في صفات الله فإن الماتريدية ينفون قيام الصفات الاختيارية به ــ عز وجل ــ ويرون إثباتها يؤدي إلى حلول الحوادث بذاته ــ عز وجل ــ فلذا يرون أن هذه الصفات (كالكلام ، والمجئ ، والنزول ، والمحبة ، وأيضا الاستواء) ترجع إلى ما يسمونه صفة التكوين ، وهي صفة أزلية لله ، وجميع تلك الصفات ترجع إليها ، فهي ليست صفات حقيقية لله ، بل هي أمور إضافية .

يقول الكوثري عند الكلام على آية الاستواء : " وقد أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا تحدث له صفة ، فلا مجال لعد ذلك صفة ." [4]

---

١) (البيهقي) أحمد بن الحسين بن علي ، أبو بكر البيهقي، الخراساني (٣٨٤ - ٤٥٨هـ)الحافظ العلامة، الثبت الفقيه ، سمع من : الحاكم ، وابن فورك المتكلم ، وأبي عبدالرحمن السلمي، وخلق سواهم ، وروى عنه : شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري بالإجازة، ويحيى بن منده، وغيرهما. بورك له في علمه، وصنَّف التصانيف النافعة، منها : "السنن الكبير" ليس لأحد مثله، و"السنن والآثار" و"دلائل النبوة" وغيرها. قال أبو المعالي الجويني : ما من فقيه شافعي إلاّ وللشافعي عليه منّة إلا أبابكر البيهقي ، فإن المنّة له على الشافعي لتصانيفه في نصرة مذهبه. [السير (١٨/١٦٣)- التذكرة (٢/١١٣٢)- ط السبكي (٤/٨)].

٢) حاشية الأسماء والصفات ٣٧٤

٣) الإبانة عن أصول الديانة للأشعري ص٨٥ ، ٩٢

٤) حاشية الأسماء والصفات ٩٨.

فنفي الاستواء بشبهة حلول حوادث نفي باطل فإن هذا اللفظ مما يشنع به النفاة المعطلة على أهل السنة ، وهو من المصطلحات المحدثة المجملة .

" فإن أريد بذلك ما يعقله أهل اللغة من أن الأعراض والحوادث هي الأمراض والآفات ، كما يقال : فلان قد عرض له مرض شديد ، وفلان قد أحدث حدثا عظيما .. فهذه من النقائص التي يتره الله عنها .

وإن أريد بالأعراض والحوادث اصطلاح خاص ، فإنه أحدث ذلك الاصطلاح من أحدثه من أهل الكلام ، وليست هذه لغة العرب ولا لغة أحد من الأمم ، لا لغة القرآن ولا غيره ، ولا العرف العام ولا اصطلاح أكثر الخائضين في العلم ، بل مبتدعوا هذا الاصطلاح هم من أهل البدع المحدثين في الأمة " [1] .

فالاستواء من صفات الله القائمة به — عز وجل — متعلقة بمشيئته وقدرته ، فهي من صفاته الاختيارية .

أما قول الكوثري :

أن" الاستواء لم يذكر في تلك الآيات إلا بصيغة الفعل المقرونة بأداة التراخي في بعضها ، وذلك نص على أن الاستواء فعل من أفعال الله سبحانه لا صفة ذات له تعالى ، وجل الإله أن تحدث له صفة بعد أن لم تكن .

ومن قال إنه مستو نطق بما لم يأذن الله به كائنا من كان " [2] .

فهو كما سبق بناء على أن أصل الماتريدية في صفة التكوين ، وتقريره مردود فلا يلزم من إثبات الاستواء الحقيقي حدوث صفة لله لم تكن .

فالله — جل جلاله — من صفاته الاستواء ، فهو قادر على الاستواء على ما شاء من خلقه ، متى شاء ، فهي من صفاته ، التي يتجدد نوعها .

---

1) مجموع الفتاوى بتصرف ٩٠/٦—٩١ .

2) حاشية السيف الصقيل ٩٧.

فالله ـــ جل جلاله ـــ من صفاته الاستواء ، فهو قادر على الاستواء على ما شاء من خلقه ، متى شاء ، فهي من صفاته ، التي يتجدد نوعها .

فالصفة من الصفات الاختيارية ، وآحادها جديدة لتعلقها بالمشيئة .

" والنص والعقل دل على أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن ، ولكن لا يلزم من حدوث كل فرد فرد مع كون الحوادث متعاقبة حدوث النوع" [1]

وبهذا بطل استدلال الكوثري بأن الاستواء من الحوادث المخلوقة التي حلت بالله .

بل للكوثري معنى غريب للاستواء لم أعلم من سبقه إليه عند قوله تعالى : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش" [2] .

فنرى الكوثري يفسر حرف (ثم) فيقول : " أي بدا يصدر إليكم أمره ونهيه على الاستعارة التمثيلية كما هو الأقعد في المعنى ، يعني أي أن الله الذي يربيكم ويوصل إليكم نعمه ظاهرة وباطنة بعد أن مهد لكم أسباب الحياة ووسائل استثمار نعم الله بخلق السموات والأرض وما تتعاقب به الفصول والايام والليالي قد بدأ يأمركم بما يعود إليكم نفعه — وينهاكم عما يرجع إليكم ضره — برحمته الشاملة وهو المقيم بالائتمار بأمره والانتهاء عما نهى عنه ، وقد تعودتم أن تطيعوا أصحاب العروش والملك منكم ، مع أنهم ليسوا بخالقين لكم ولا لوسائل حياتكم ، والله سبحانه هو الأجدر بالطاعة " [3] .

فهو يقول هنا ما معناه ، أن الاستواء المذكور في الآية إنما هو لازم الملك وهو الأمر والنهي ، فالله بعد أن خلق الخلق استوى على العرش أي قام بلوازم الملك والعرش فأمر الناس ونهاهم ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم .

وهذا تحريف للقرآن الكريم ، ليس عليه أثارة من نقل ولا سند من كلام العرب .

ويلزم من هذا القول ، انتفاء أمره ونهيه ، قبل الاستواء .

---

1) منهاج السنة النبوية ١ / ٤٢٦

2) الأعراف ٥٤ ، يونس ٣

3) حاشية الأسماء والصفات ٢٢١ ، ومثله حاشية الاختلاف في اللفظ ٣٧

وأيضاً ، أنه لم يكن ملكاً حتى استوى ، وبطلان هذا ، دلالة على بطلان ذلك .

والذي دفعه لهذا اتباع الهوى والتزام المذهب ، فلما كان يعتقد نفي الاستواء الحقيقي اللائق بالله ، استجاز صرف دلالة الآية بمثل هذا التخليط ، والجرأة على تفسير كلام الله .

ونقل عن ابن العربي المالكي [1] ما ملخصه : وأما العرش فهو في العربية لمعان فإيها تريدون ؟ ولفظ استوى معه محتمل لخمسة عشر معنى في اللغة ، أيها تريدون أو أيها تدعون ظاهرا منها ؟

و لم قلتم أن العرش هنا المراد بة مخلوق مخصوص ؟ فا دعيتموه على العربية والشريعة ؟ و لم قلتم إن معنى استوى قعد أو جلس .. " [2]

والمقصود هنا أن ابن العربي يقول إن معنى استوى محتمل لعدة معان متساوية لذا وجب ترك القطع بشيء منها وتفويض معناه إلى الله .

ويزعم الكوثري أن تفسير الاستواء بأحد هذه المعاني مستساغ إذ أجمع أهل السنة على منع إثبات ظاهرها . [3]

فالمسألة هنا واجبة التأويل من المعنى الظاهر ، وهو الاستواء الحقيقي الذي يليق بالله إلى أي معنى آخر ولو كان لا سلف له ولا سند .

وينقل الكوثري عن الجويني فيقول :

---

١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي المالكي ، ابن العربي ، القاضي ، أحد كبار الفقهاء والمحدثين المليكة ، كان كثير التصنيف في علوم الشريعة والأدب ولد بأشبيلية سنة ٤٦٨ ، وكانت وفاته سنة ٥٤٣ ، انظ [نفح الطيب ١ / ٣٤٠ ، الأعلام للزركلي ٦ / ٢٣٠]وهو غير محي الدين ابن عربي الملكي ، محمد بن علي الطائي ، الآتية ترجمته (٦٣٨ هـ) المتهم بالزندقة [انظر ميزان الاعتدال ٣ / ١٠٨ و السير ٤٨/٢٣] .

٢) حاشية الأسماء والصفات ٣٧٧

٣) انظر المصدر نفسه ٣٧٧

" وقال إمام الحرمين في النظامية : اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر فرأى بعضهم تأويلها ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله تعالى ".

ثم قال الكوثري : " وليس في هذا ما يفرح به المشبة لأنه ينص على التفويض ، وهو مذهب السلف ، وأما المشبهة فلا يقولون بالتفويض بل يحملون على الاستقرار والجلوس والحركة ونحوها كما هو شأن الأجسام ."[1]

وأمام هذا الكلام وقفات :

الأولى : من جهة نقله لكلام الجويني ، فإنه اختصره جدا ، فإن الجويني يقول :

" وقد اختلف مسالك العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة ، وامتنع على أهل الحق اعتقاد فحواها ، وإجراؤها على موجب ما تبتدره أفهام أرباب اللسان منها ، فرأى بعضهم تأويلها والتزام هذا المنهج في آي الكتاب وما يصح من سنن الرسول ﷺ .

وذهب أئمة السلف على الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب تعالى ، والذي نرتضيه رأياً . وندين به عقلاً ، اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع ، وترك الابتداع .

والدليل السمعي القاطع في ذلك ، أن إجماع الأمة حجة متبعة وهو مستند معظم الشريعة . "[2] .

هذا نص كلام الجويني ، وهو كما ترى غير ما أسند الكوثري إليه فقد اختصر كلامه وأسقط منه أموراً :

فقد أسقط من كلام الجويني ، قوله : " على موجب ما تبتدره أفهام أرباب اللسان منها "

---

1) حاشية الأسماء والصفات ٣٧٧.

٢) العقدية النظامية ٣٢ .

وذا إقرار من الجويني أن ما يسمونه ظاهر النص هو موجب ما يدل عليه لسان العرب الذي نزل القرآن بلسانهم لكن الكوثري يعلم أن هذا مما يضعف مذهبة فاسقطه بل علق على كلام الجويني فقال :

" والظاهر هنا يقابل الغريب ،كما في قول مالك : خير العلم الظاهر وشره الغريب ، وليس المراد هنا الظاهر الذي هو من أقسام الوضوح ، لأنه أعم من أن يكون رجحان أحد الاحتمالين على الآخر بالوضع أو الدليل ولا ظهور في جانب الوضع إذا ناقضه البرهان ، فلا يكون هناك ظهور بهذا المعنى ، حتى يحمل عليه "[1]

خلاصة هذا الكلام أن الظاهر المراد ما يقابل الغريب ، وظاهر النصوص إنما هو أحد معانيها المحتملة بالتساوي مع المعاني الأخرى التي تعد غريبة لكنها أصح لموافقتها البرهان .

وهذا تحريف ، فمن المعلوم أن الذين نفوا دلالة نصوص الصفات يلتزمون أن المعنى الظاهر أي الواضح منها يدل على ثبوت الصفات لكنهم ذهبوا إلى ما يسمى التأويل وهو صرف الاحتمال الراجح إلى المرجوح لقرينة .

فالكوثري لا يرى في هذه النصوص ما يوجب التأويل أصلا بل تقديم أحد الاحتمالات المساوية لغيرها .

وقد أسقط الكوثري من كلام الجويني ايضا قوله والذي نرتضيه رأيا ..الخ .

وهذا نص يبين ترجيح الجويني لمذهب السلف[2] على الآخر الذي وصفه بالابتداع.

الثانية : قوله إن التفويض هو مذهب السلف ، فهذا من الخطأ المنتشر بين معطلة الصفات الذين لا يفهمون من معتقد السلف الصالح إلا تفويض معنى ودلالة النصوص إلى الله وهذا الفهم بسبب أنهم أرادوا الجمع بين ما يعتقدونه وبين ما جاء عن السلف الصالح الذي يعارض فهمهم .

---

١) حاشية العقيدة النظامية ٣٢ .

٢) على أن الجويني أخطأ في فهم معتقد السلف في هذا الباب رحمه الله .

وهم جهلوا حقيقة التفويض ولازمه ، إذ لو علموا لما تجرؤا على نسبته إلى السلف الصالح فإن متقضاه ومعناه نسبة الجهل لمن اعتقده .

والسلف إنما كانوا يعتقدون في نصوص الصفات معانيها الدالة عليها ، فهم لم يفوضوا المعنى وإنما فوضوا الكيفية .

الثالثة : زعمه أن مثبتة صفة الاستواء ، يفسرون الاستواء بالجلوس والاستقرار .

فأولا : الكوثري كمن سبقه من الماتريدية وغيرهم من نفاة حقيقة الاستواء يصفون كل من أثبت حقيقة الاستواء بالتشبيه وهي حجة قديمة لا تردُ حقاً قد ثبت في الأصلين ، فإن الجهمية تصوروا أن ما أثبته السلف من الصفات — ومنها الاستواء — هو ما يعقلونه للمخلوق ، فلذا أطلقوا عليهم نبز المشبهة ظلما بلا تمحيص.

يقول الكوثري واصفاً من أثبت هذه الصفات :

" ويزيدون في الكتاب والسنة أشياء من عند أنفسهم ، ويجعلون الفعل الوارد صفة إلى نحو ذلك ، فهؤلاء يلزمون مقتضى كلامهم وهم الحشوية .

فمن قال إنه استقر بذاته على العرش ، ويترل بذاته من العرش ، ويقعد الرسول ﷺ على العرش معه في جنبه ، وإن كلامه القائم بذاته صوت ، وإن نزوله بالحركة والنقلة وبالذات ، وإن له ثقلا يثقل على حملة العرش ، وإنه متمكن بالسماء أو العرش ، وإن له جهة وحداً وغاية ومكاناً ، وإن الحوادث تقوم به ، وإنه يماس العرش ، أو أحدا من خلقه ونحو ذلك من المخازي ، فلا نشك في زيغه وخروجه وبعده عما يجوز في الله سبحانه .

وهذا مكشوف جدا فلا يمكن ستر مثل تلك المخازي بدعوى السلفية .."[1] .

وهذا تهويل لا طائل وراءه — وإن كان هذا الكلام فيه حق وباطل — فإن أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح يثبتون الاستواء لله كما أثبته هو لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقص ، ومن غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل .

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٥-١٦.

فما ذكره الكوثري من اللوازم الباطلة لا يلتزمها أئمة السلف بل إنهم يثبتون كل معنى صحيح ثبت في القرآن أو السنة ، وينفون كل ما نفاه القرآن أو السنة .

فقوله : يجعلون الفعل الوارد صفة ".

فالجواب إنهم لم يقولوا بذلك بل الباري — عز وجل — حيث يقول : (ثم استوى على العرش)

فهو الذي أخبر عن نفسه بهذا فوصف نفسه بفعل الاستواء ، ولا يعطي هذا الفعل ظن بعض المعطلة أن ذلك يستلزم ما يسمى حلول الحوادث .

وقوله :" استقر بذاته على العرش ... ويقعد الرسول ﷺ على العرش معه ... وإن له ثقلا يثقل على حملة العرش وإنه متمكن بالسماء أو العرش ، وإنه يماس العرش . "

فالجواب أن هذه الألفاظ التي ينسبها إلى من يسميهم المشبهة ، منها ما يتضمن معنى صحيحاً يجب إثباته ، ومنها ما يتضمن معنى صحيحاً ومعنى باطلاً فلا نثبته ولا ننفيه .

فأما لفظ الاستقرار فمن السلف من أثبته لله وفسر به الاستواء ، لأنه من معاني الاستواء في لغة العرب .

فقد قال البغوي عند قوله تعالى (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) قال الكلبي ومقاتل : استقر " [1]

ونقل الذهبي في العلو عن القصاب : فاستوى عليه استواء استقرار كيف شاء وأراد . " [2]

يقول ابن قتيبة : " (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) [3] ، قال أبو عبيدة : علا . قال : وتقول استويت فوق الدابة ، واستويت فوق البيت .

---

١) معالم التنزيل ٤٨٨/٣ ط المنار .

٢) مختصر العلو للذهبي ٢٥٩.

٣) الرحمن ٥

وقال غيره : استوى : استقر ، واحتج بقول الله عز وجل : (فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ)[1] أي استقررت في الفلك .

وقوله : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ)[2] أي انتهى شبابه واستقر ، فلم يكن في نباته مزيد ." [3]

فهذه اللفظة — أي استقر — فإنها وإن لم ترد في الأصلين ولا عن أئمة السلف المشهورين ، فإنها من معاني الاستواء في لغة العرب [4] .

لكن لابد من الإشارة إلى نقطتين :

الأولى : أن الكوثري في إنكاره لهذه اللفظة لم ينطلق من كونها لم ترد عن أئمة السلف ، وإنما لأنها تدل على إثبات صفة الفعل التي ينكرها في هذا الباب .

الثانية : أن من أثبتها إنما أثبتها لا على باب العموم وإنما من باب الرد على فئتين من أهل الضلال : الجهمية نفاة الاستواء ، والحلولية .

فإن كان الكوثري ينكر على من فسر الآية هذه اللفظة بمعنى الاستقرار الذي للمخلوق فقد أصاب .

وإن كان ينكرها ليضمن ذلك إنكار ما دلت عليه النصوص من استواء الله على عرشه استواء حقيقيا يليق بجلاله فقد أخطأ .

وأما قوله : بذاته على العرش ويترل بذاته من العرش "

---

١) المؤمنون ٢٨

٢) القصص ١٤

٣) تفسير غريب القران لابن قتيبة ٢٧٧ .

٤) انظر ما يأتي ص ٣٥٩

فإن هذه اللفظة أعني " بذاته " قد قال بها بعض أئمة السلف ، بل قد روي فيها حديث عن طريق بشر عن أنس أن النبي ﷺ قال : إذا أراد الله أن يترل عن عرشه نزل بذاته [1] .

وإن كان هذا لا يصح عنه ﷺ ، فإن معناه صحيح . يقول الإمام إسماعيل التميمي بعد أن ضعف الحديث :

" (يترل) [2] معناه صحيح أنا أقر به ، لكن لم يثبت مرفوعا إلى النبي ﷺ ، وقد يكون المعنى صحيحا ، وإن كان اللفظ نفسه ليس بمأثور ، كما لو قيل : إن الله هو بنفسه وبذاته خلق السموات والأرض ، وهو بنفسه وبذاته كلم موسى تكليما ، وهو بنفسه وذاته استوى على العرش ، ونحو ذلك من أفعاله التي فعلها هو بنفسه ، وهو نفسه فعلها ، فالمعنى صحيح ، وليس كل ما بُين به معنى القرآن والحديث من اللفظ يكون من القرآن مرفوعا " [3]

وأئمة السلف " كسفيان الثوري ، ومالك ، وابن عيينة ، وحماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وابن المبارك [4] ، فضيل بن عياض ، وأحمد ، وإسحاق ، متفقون على أن الله سبحانه وتعالى بذاته فوق العرش وأن علمه بكل مكان. " [5]

يقول محمد بن عثمان ابن أبي شيبة :

---

١) رواه أبو نعيم في كتاب " ذكر أخبار أصبهان ٢/١٩٧ ، وذكر شيخ الإسلام أن ابن منده رواه من طريق نعيم بن حماد . والحديث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات كما ذكر شيخ الإسلام (٥/ ٣٩٤) ، ولا يصح عن الرسول ﷺ .

٢) كذا في الأصل ، والصحيح (بذاته) .

٣) مجموع الفتاوى ٥/ ٣٩٤ .

٤) (ابن المبارك) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي أبو عبدالرحمن : الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات . أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ومجاهداً وتاجراً . وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء.ولد سنة ١١٨هـ كان من سكان خراسان ، ومات بهيت على الفرات منصرفاً من غزو الروم سنة ١٨١هـ . له كتاب في ((الجهاد)) و ((الرقائق)) ، الأعلام للزركلي ٤/١١٥ ، انظر السير ٨/٣٧٨ .

٥) كتاب العرش للذهبي ٢ / ٣٤١ ، وقد ذكره أيضا في العلو (مختصر العلو ٢٥٩) ونقله ابن القيم في مختصر الصواعق ٤٥٠.

" ثم توافرت الأخبار على أن الله تعالى خلق العرش فاستوى عليه بذاته ، ثم خلق الأرض والسموات ، فصار من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى العرش فهو فوق السموات وفوق العرش بذاته متخلصا من خلقه بائنا منهم " [1] .

يقول الذهبي :

" وممن قال إن الله على عرشه بذاته ، يحيى بن عمار [2] شيخ أبي إسماعيل الأنصاري شيخ الإسلام ، قال ذلك في رسالته وكذلك الإمام أبونصر السجزي الحافظ في كتابة الإبانة له ".

ثم نقل كلام أبي نصر ثم قال : " وكذلك قال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري [3] ، فإنه قال : في أخبار شتى إن الله في السماء السابعة ، على العرش بنفسه .

وكذلك قال صاحبه الكرجي [4] في عقيدة أصحاب الحديث ، فإنه قال فيها:

عقائدهم أن الإله بـــذاته   على عرشه مع علمه بالغوائب

وموجود بها الآن نسخ من بعضها نسخة بخط الشيخ تقي الدين بن الصلاح ، وعلى أولها مكتوب : هذه عقيدة أهل السنة واصحاب الحديث بخطه رحمه الله .

---

١) كتاب العرش لابن أبي شيبة ٢٩١-٢٩٢ .

٢) يحيى بن عمار بن يحيى بن عمار بن العنبسي ،أبو زكريا ، الشيباني النِّيهيُّ ، السجستاني ، نزيل هـــراة ، الإمـــام المحدث الواعظ ، حدث عن : حامد محمد الرَّفّاء ، وعبد الله بن عدي ، الصابوني ، وعدّة . حدث عنه : أبو نصـــر الطّبسي ،وشيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد ، وآخرون . قال الذهبي: وكان متحرقـــاً علـــى المبتدعـــة ، والجهمية ، بحيث يؤول به ذلك إلى تجاوز طريقة السلف، وقد جعل الله لكل شيء قدراً . تخرج بـــه أبـــو إسماعيـــل الأنصاري ، وخلفه من بعده ، مات سنة (٤٢٢هـــ) [العبر ١٥١/٣، السير ٤٨١/١٧، شذرات الذهب ٢٢٦/٣]

٣) (أبو إسماعيل الأنصاري) عبد الله بن محمد بن علي ، أبو إسماعيل الأنصاري الهروي من ذرية صاحب النبي صلىالله عليه وسلم أبي أيوب الأنصاري . الإمام القدوة ، الحافظ الكبير ، شيخ خراسان . ولد ســـنة (٣٩٦هـــ) سمع من : عبد الجبار بن محمد الجّراحي ، ويحيى بن عمار ، وعدد كثير . حدثه عنه : المـــؤتمن الساجي ومحمد بن طاهر ، وآخرون . ال الذهبي : فإن يدري الكلام على رأي الأشعري ، وكـــان شـــيخُ الإسلام أثرياً مُحّاً ، نيال من المتكلمة . مات سنة (٤٨١هــــ) [طبقـــات الحنابلـــة ٢٤٧/٢، الكامـــل ١٦٨/١٠، العبر ٢٩٧/٣، السير ٥٠٣/١٨،البداية والنهاية ١٣٥/١٢] .

٤) (الكَرَجي) محمد بن علي بن محمد ، الكرجيُّ ، أبو أحمد . الإمام العالم الحافظ ، الغازي المجاهد ، عرف بالقصاب لكثرة ما قتل في مغازيه . صنف كتباً منها : ثواب الأعمال ، عقاب الأعمال ، والسنة ، وغيرها . كان يقول: كل صفة لله وصف بها نفسه ، أو وصفه بها رسوله ، فليست صفة مجاز ، ولو كانت صفة مجاز لتحتم تاويلها ، ولقيل : معنى البصر كذا، ومعنى السمع كذا ، ونفسرةبغير السابقة إلى الأفهام ، فلما كان مذهب السلف إقرارها بلا تأويل ، علم أنها غير محمولة على المجاز وإنما هي حق بين . [تذكرة الحفاظ ٩٣٨/٣ ، السير ٢١٣/١٦] .

وكذلك قال الحافظ أحمد الطرقي [1] ، وشيخ الإسلام المتفق على هدايته وتواتر كرامته الشيخ عبد القادر الجيلي [2] ، وعبد العزيز بن محمد القحيطي وغيرهم .."[3] .

ويقول أيضا :

" وقال الإمام أبو محمد بن أبي زيد المالكي الفهري [4] في رسالته في مذهب مالك ، أولها : وأنه فوق عرشه المجيد بذاته ، وأنه في كل مكان بعلمه."[5] .

وأيضا مما دفع بعض الأئمة للتصريح بهذا اللفظ ما انتشر من قول الحلولية الذين استدلوا بقوله عز وجل ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ على نفي العلو ، والقول بأنه في كل مكان .

فقد قال علي بن الحسن : قلت لعبد الله بن المبارك : كيف نعرف ربنا ؟ قال : على السماء السابعة على عرشه ولا نقول كما تقول الجهمية : إنه ها هنا في الأرض . "[6] .

---

١) أحمد بن ثابت بن محمد الأصبهاني ، أبو العباس الطَّرْقي (٥٢١هـ) وطَرْق : من قرى أصبهان. سمع عبدالوهاب بن منده ، وطبقته ، وجال في الطلب ولحق أبا القاسم بن البُسري. كان متفنناً ، له تصانيف. [الأنساب (٤/٦٢-٦٣)- السير (٥٢٨/١٩)].

٢) عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيلي ، الحنبلي ، محيي الدين ، أبو محمد . الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة ، شيخ الإسلام ، علم الأولياء ،شخ بغداد . مولده بجيلان سنة (٤٧١هـ) . سمع من : أبي غالب الباقلاني ،وجعفر السراج ، وطائفة . وحدث عنه : السمعاني ،والحافظ عبد الغني ،وابن قدامة ، وخلق . قال الذهبي : وفي الجملة الشيخ عبد القادر كبير الشأن ، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه ، والله الموعد ، وبعض ذلك مكذوب عليه . مات سنة (٥٦١هـ) . [الأنساب ٤١٥/٣، المنتظم ٢١٩/١٠ ، الكامل ٣٢٣/١١، ذيل طبقات الحنابلة ٢٩٠/١، السير ٤٣٩/٢٠]

٣) كتاب العرش للذهبي ٣٤٠/٢-٣٤٢

٤) عبد الله بن أبي زيد ، القيرواني المالكي ،أبو محمد . الإمام العلامة القدوة الفقيه ، عالم أهل المغرب ، ويقال له : مالك الصغير . كان أحد من برّز في العلم والعمل ، على طريقة السلف في الأصول ، لا يدري الكلام ولا يتأول . له كتاب : " النوادر والزيادات " ، واختصر " المدونة " . [ترتيب المدارك ٤٩٢/٤، الديباج المذهب ٤٢٧/١، شجرة النور ٩٦/١ ، السير ١٠/١٧] .

٥) كتاب العرش للذهبي ٣٣٩/٢ ، ومثله في العلو له (مختصر العلو ٢٥٥) وذكر ذلك ابن القيم في اجتماع الجيوش ٥١.

٦) كتاب العرش الذهبي ١٨٨/٢

قال حنبل : قلت لأبي عبد الله : ما معنى قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) و (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)[1] قال : علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حد و لا صفة "[2] .

وأما قوله : (ويقعد الرسول ﷺ على العرش معه في جنبه)

فإن هذه المسألة من المسائل التي اختلف علماء السلف فيها . عند تفسير قوله تعالى :

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) فجاء في تفسيرها أن المقام المحمود هو شفاعته ﷺ

وقد جاء في البخاري عن ابن عمر : (أن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً كل أمة تتبع نبيها

يقولون : يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام

المحمود)[3] .

وقد جاء هذا المعنى عن كثير من الأئمة ، منهم ، حذيفة بن اليمان ، وابن عمر وابن

عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وسليمان ، وقتادة[4] .

وهو قول أكثر علماء الأمة .

لكن ورد في بعض الآثار أن المقام المحمود هو أن الله يجلس النبي ﷺ على العرش .

---

١) المجادلة ٧ .

٢) كتاب العرش الذهبي ٢٤٦/٢

٣) صحيح البخاري — رقم الحديث ٤٧٨١ — كتاب التفسير ، باب عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ، ورواه مسلم ك / الإيمان ، باب ما جاء في عصمة الأنبياء ٣ / ٥٣ - ٧١ ، والترمذي ٤ / ٢٧٧ ، ٥٢٥ ، وأحمد ٤ ٢١٠ ، وابن حبان ١٤ / ٣٨٤ ، الحاكم في المستدرك ٢ / ٣٩٦.

٤) تفسير القرآن للطبري ١١٤/١٥

وقد رووا في ذلك حديثاً مرفوعاً عنه ﷺ له طرق كثيرة عن مجاهد بن جبر ذكرها الذهبي في كتاب العرش [1]، والخلال في السنة[2] والآجرى في الشريعة [3].

وقد ألف المروذي صاحب الإمام أحمد في ذلك جزءً ، وقد عدد ابن القيم في كتابه بدائع الفوائد من ذهب لذلك .

والصحيح أنه لم يثبت في ذلك حديث مرفوع عن المعصوم ﷺ يجب المصير إليه .
فحديث عبد الله بن سلام حديث فيه راو مجهول وقد ضعف الحديث ابن جرير الطبري [4] .

يقول الذهبي : " فأما قضية قعود نبينا على العرش ، فلم يثبت في ذلك نص ، بل في الباب حديث واه " [5] .

فكل ما رفع إلى النبي ﷺ في هذا لم يصح كما قال شيخ الإسلام رحمه الله : حديث قعود الرسول ﷺ على العرش رواه بعض الناس من طرق كثيرة مرفوعة ، وهي كلها موضوعة " [6] .

---

١) ٢/٢١٣-٢٢٦

٢) وقد عقد له فصلا أطال فيه ١/٢٠٩-٢٦٩

٣) ٤/١٦١٥-١٦١٧

٤) تفسير القرآن للطبري ١٥/١٤٨

٥) العلو للعلي الغفار ، ١٢٤

٦) درء تعارض العقل بالنقل ٥/٢٣٧

بقي من ذلك ما جاء عن مجاهد بن جبر [1] ، فالصحيح أنه ثبت النقل عن مجاهد أنه فسر الآية بإقعاد الرسول ﷺ على العرش — وإن جاء عنه أيضا تفسيرها بالشفاعة[2] — فالخبر مقطوع ، وليس مرفوعاً .

هذا وقد تشدد من ذهب إلى هذا الأثر ، فربط بينه وبين الإيمان و الكفر فقد روى الخلال عن عبد الله بن أحمد قال : سمعت هذا الحديث [3] من جماعة ، وما رأيت أحدا من المحدثين ينكره ، وكان عندنا في وقت ما سمعناه من المشايخ أن هذا الحديث إنما تنكره الجهمية " [4] .

وقال أحمد بن أصرم المزني : من رد هذا فهو متهم على الله ورسوله وهو عندنا كافر " [5] .

بل الواجب قتل من رده [6] .

وقد جرى بسبب ذلك فتنة ، دفعت بعض محدثي أهل السنة أن يجعل من توقف أو رد هذا الأثر ، في عداد الجهمية ، مما ترتب عليه اقتتال وخصومة .

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٣١٧هـ :

" وفيها وقعت فتنة ببغداد بين أصحاب أبي بكر المروذي ، وبين طائفة من العامة اختلفوا في تفسير قوله تعالى (عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا) .

---

١) مجاهد بن جَبْر ، أبو الحجاج المخزومي مولاهم ، المكي (١٣٢هـ) (٢١-١٠١هـ) وقيل بعد (١٠١هـ) روى عن : جابر، وابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة، وغيرهم ، وعنه : أيوب، والأعمش، وطاوس، وأبو إسحاق السبيعي، وغيرهم ، قال في التقريب (٥٢٠) : ثقة إمام في التفسير وفي العلم. [ط ابن سعد (٤٦٦/٥)- ت الدوري (٥٤٩/٢)- الجرح (٣١٩/٨)- تهذيب الكمال (٢٢٨/٢٧)- التهذيب (٣٨/١٠)].

٢) تفسير القرآن لابن جرير الطبري ١٥ / ٩٧

٣) يعني أثر مجاهد

٤) السنة لأبي بكر الخلال ٢٤٤/١

٥) نفسه ١/ ٢١٥

٦) انظر المصدر نفسه١ / ٢١٦-٢٢٠

فقالت الحنابلة [1] : يجلسه معه على العرش ، وقال الآخرون : المراد بذلك الشفاعة العظمى ، فاقتتلوا بسبب ذلك ، وقتل بينهم قتلى ، فإنا لله وإنا له راجعون ، وقد ثبت في صحيح البخاري أن المراد بذلك مقام الشفاعة العظمى " [2] .

والتحقيق في ذلك أن أثر مجاهد قد تلقته الأمة بالقبول ، لكنه ليس من أصول الدين التي يكفر بها .

وليست هي من مسائل صفات الباري التي يجب اعتقادها بل هي من مسائل المناقب للنبي ﷺ التي تداولها علماء السلف .

يقول شيخ الإسلام عن هذا الخبر : إنما الثابت أنه عن مجاهد وغيره من السلف ، وكان السلف والأئمة يروونه ولا ينكرونه ، ويتلقونه بالقبول " [3] .

وقد أجاد وأحسن الإمام ابن جرير رحمه الله في مسألتنا هذه فقال كلاماً نفيساً ، فبعد أن رجح أن معنى الآية الشفاعة العظمى التي ينالها النبي ﷺ يوم القيامة قال :

" وهذا وإن كان الصحيح من القول في تأويل قوله (عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا) لما ذكرنا من الرواية عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ، فإن ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمدا ﷺ على عرشه ، قول غير مرفوض صحته ، لا من جهة خبر ولا نظر ، وذلك لأنه لا خبر عن رسول الله ﷺ ولا عن أحد من أصحابه ولا من التابعين بإحالة ذلك" ثم ختم كلامه بقوله : " فقد تبين إذاً بما قلنا أنه غير محال في قول أحد ممن ينتحل الإسلام ما قاله مجاهد من أن الله يقعد محمدا على عرشه" [4] .

---

١) ليس للحنابلة اختصاص بهذا ، فقد قال بذلك جمع من علماء الحديث .
٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٦٢/١١
٣) درء تعارض العقل والنقل ٥ / ٢٣٧
٤) تفسير ابن جرير الطبري ١٥/ ٩٩ - ١٠٠

وأما تشنيع الكوثري على أئمة السلف بقوله : " فمن قال إنه استقر بذاته على العرش..... وإن نزوله بالحركة والنقلة وبالذات ، وإن له ثقلا يثقل على حملة العرش ، وإنه متمكن بالسماء أو العرش ، وإن له جهة وحداً وغاية ومكاناً ، وإن الحوادث تقوم به ، وإنه يماس العرش ، أو أحدا من خلقه ونحو ذلك من المخازي ، فلا نشك في زيغه وخروجه وبعده عما يجوز في الله سبحانه ."

فيقال فيها ما قيل في لفظة (ذاته) فالسلف رحمهم الله لا يتعرضون لهذه الألفاظ بنفي أو إثبات وإنما يصفونه ، بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله ﷺ .

فهذه الألفاظ وإن وردت عن بعض أئمة السلف فهي ألفاظ لم ترد لا في القرآن ولا في السنة ، ولا عن الصحابة ، لكن لما ابتدع نفاة الصفات القول بنفي الاستواء ، والنزول ووصف الباري بأنه في كل مكان اقتضت الضرورة أن يرد عليهم أئمة السلف بمثل هذه الألفاظ ، إثباتا للمعنى لا للفظ ، وعلى سبيل التفسير وبتان الحقيقة .

فلفظ أنه متمكن بالسماء والعرش وأن له حدا وغاية ومكانا ، جاءت للرد على القائلين أنه في كل مكان ، لنفي اختلاطه بشيء من خلقه فلم تأت هذه الألفاظ ابتداء وإنما مقابلة وردا .

و قد جاء في كلام الكوثري شي من هذا ، فهو يقول :

"ولفظ بائن من خلقه لم يرد في كتاب ولا سنة ، وإنما أطلق من أطلق من السلف بمعنى نفي الممازجة ردا على جهم "[1] .

فيقال له في بقية الألفاظ ما قاله في لفظ بائن ، وإنما نثبت منها المعنى الصحيح الموافق لنص الأصلين أو أحدهما .

وهذه الألفاظ كما هو مقرر عند السلف لا تثبت لله ولا تنفي عنه ، بل إن أريد بها معنى صحيحاً قبل المعنى الصحيح الذي دلت عليه ، وإن أريد بها معنى باطلاً رد هذا المعنى الباطل .

---

١) حاشية السيف الصقيل ٥٣ ، ومثله حاشية الأسماء والصفات للبهيقي ٣٦٩

والكوثري في صفة الاستواء لا يستقر على رأي ، فبعد أن رأيناه يقرر قول الماتريدية من أن الاستواء من الأفعال الاعتبارية التي ترجع إلى صفة التكوين ، نراه مرة أخرى مفوضاً متأيداً بابن العربي ، يقول :

" قال أبو بكر العربي في العواصم والقواصم : المطلوب هنا ثلاثة معان ، معنى الرحمن ، ومعنى استوى ، ومعنى العرش ، فالرحمن معلوم ، والعرش في العربية جاء لمعان ، ولفظ استوى معه محتمل خمسة عشر معنى في اللغة ، فأيها تريدون أو أيها تدعون ظاهرا منها ، و لم قلتم إن العرش هنا المراد به مخلوق مخصوص ، فادعيتموه على العربية والشريعة ... فقوله تعالى (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) .

إن علمنا معناه آمنا قولا ومعنى ، وإن لم نعلم معناه قلنا كما قال مالك : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، فيكف لو رأى من يفسر تعلقه بالله لا يقال إنه بدعة ، بل أشد من البدعة عنده ، فكيف لو سمع من يقول : إن الله فوقه ، فكيف بمن يعني فوقية الذات ، فكيف بمن يقول إنه يحاذيه ويليه ، تبا له .أ.هـ " [1] .

وقد تكفل ابن القيم — رحمة الله — بالرد على هذه الشبهة من اثنين وأربعين وجها[2] ، أذكر بعضاً منها :

أن الاستواء معدى بأداة (على) ومعلق بعرشه المعرف باللام المعطوف بثم على خلق السموات والأرض ، المطرد في موارده على أسلوب واحد ، ونمط واحد ، لا يحتمل إلا معنى واحداً ، ولا يحتمل معنيين البتة ، فضلا عن ثلاثة أو خمسة عشر " [3] .

" والمدعي للاحتمال عليه بيان الدليل ، إذ الأصل عدم الاشتراك والمجاز " [4] .

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٢٧ ، ومثله حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٧٧ ، ونحوه على كتاب الاختلاف في اللفظ ٣٤ .

٢) مختصر الصواعق المرسلة ٣٩٧.

٣) نفسه ٣٩٧ بتصرف .

٤) نفسه ٣٩٧ بتصرف .

وينبغي على من ادعى احتمال هذه الوجوه " أن يبين كل احتمال ، ويذكر الدليل على ثبوته ، ثم يطالب حزب الله ورسوله ﷺ بتعيين أحد الاحتمالات " [١] .

ثم هذه الاحتمالات المزعومة " تتطرق على لفظ الاستواء وحده المجرد عن اتصاله بأداة ، أم إلى المقترن بواو المصاحبة ، أم إلى المقترن بأل ، أم إلى المقترن بعلى ، أم إلى كل واحد من ذلك " [٢] .

ثم العرش هل هو العرش المنكر غير المعرف بأل أو بالإضافة أم المعرف بأحدها ؟ أم هو المعرف كقوله تعالى " خاوية على عروشها " ؟

" أم إلى عرش الرب تبارك وتعالى الذي هو فوق سمواته ؟ أم على كل واحد من ذلك فأين موارد الاحتمال حتى يعلم هل صحيحة أم باطلة " [٣] .

فإن " جميع الألفاظ المطلقة إذا ميزت فإنها تتنوع دلالتها بحسب قيودها ، ولا يخرجها ذلك عن حقائقها (فضرب) مع المثل له معنى وفي الأرض له معنى ، والبحر له معنى ، والدابة له معنى إذ هو أحساس بإيلام ، فإن صاحبته أداة النفي صار له معنى آخر " [٤] .

فإن قيل في قوله تعالى : (وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ) [٥] الضرب هنا يحتمل عدة معان فأيها المراد ، كان هذا القول مثل قول القائل : إن " الرحمن على العرش استوى " له خمسة عشر وجها .

وكلاهما خطأ ، فإن القيود في اللفظين يعينان معنى واحداً يخص كل لفظ لا ثاني له .

---

١) نفسه ٣٩٧ بتصرف .

٢) نفسه ٣٩٧ بتصرف .

٣) مختصر الصواعق ٣٩٨

٤) نفسه ٣٣٩ .

٥) يريـد الآيــة (وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ) النساء ٣٤ .

ثم لو فرضنا احتمال الآية لهذه الأوجه ، فإن الله ورسوله ﷺ " قد عين بكلامه منها معنى واحدا ، نوع الدلالة عليه أعظم تنويع حتى يقال بذلك ألف دليل ، فالصحابة كلهم متفقون لا يختلفون في ذلك المعنى " [١] .

فوجب المصير للمعنى الذين دلوا عليه ، والتزامه لا التشكيك فيه .

والمرجع في معنى الاستواء ومعنى العرش لأهل اللغة ، فإن الله إنما أنزل القرآن بلسان العرب .

قال أبو عبيدة في كتابه (مجاز القران) : " (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) أي علا ، يقال : استويت فوق الدابة ، وعلى البعير ، وعلى الجبل ، وفوق البيت ، أي علوت عليه وفوقه ." [٢]

وقال : " (ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ) [٣] مجازه ظهر على العرش ، وعلا عليه ، ويقال : استويت على ظهر الفرس ، وعلى ظهر البيت ." [٤]

وقال : " (فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ) مجازه إذا علوت على السفينة " [٥]

ويقول ابن قتيبة :

"وقالوا في قوله (ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ) أنه استولى ، وليس يعرف في اللغة استويت على الدار أي استوليت عليها ، وإنما استوى في هذا المكان : استقر [٦] كما قال الله تعالى (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) أي استقررت " [٧] .

---

١) مختصر الصواعق المرسلة ٤٠٠

٢) مجاز القران لأبي عبيدة معمر بن المثنى ٢ / ١٥ .

٣) يونس ٣

٤) مجاز القران لأبي عبيدة معمر بن المثنى ١ / ٢٧٣

٥) مجاز القران لأبي عبيدة معمر بن المثنى ٢ / ٥٧

٦) قد سبق الكلام على لفظ استقر ٣٤٦

٧) الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٣٧

ويقول : "العلماء باللغة لا يعرفون للعرش معنى إلا السرير وما عرش من السقوف وأشباهها "[1] .

لذا نجد الكوثري يشتد في الرد على ابن قتيبة الدينوري ، ــ وهو من أرباب اللغة ــ عندما أثبت الاستواء وحصر معنى العرش في اللغة بالسرير ، يقول :

"تفسير الاستواء بالاستقرار تشبيه قبيح يقول به من يستمد من كتب أهل الكتاب من الأخباريين .... والمصنف بتفسيره الاستواء بالاستقرار حاد عن طريقة السلف وانتهج طريقة المشبهة ، ولا نقول في حقه غير ما قال هو عن نفسه عند ذكر القدر[2] ولا أدري كيف يستعجم على مثله الذكر الحكيم "[3] .

والله ما استعجم على ابن قتيبة القرآن الكريم ، فهو من فرسان اللغة المشهود له بذلك ، غير مدفوع ، وإنما تكلم رحمه الله بما يتقنه .

ومع هذا فالكوثري متناقض في هذا ، فإنه يعترض على ما روي عن ابن عباس من أنه قال : ثم استوى صعد .

فيقول : فمجيء الاستواء بمعنى الصعود في اللغة فلا غبار عليه "[4] .

فيسلم ها هنا بمعنى الصعود من معاني الاستواء في اللغة ، لكنه يشنع ويمنع من إطلاقه في الآية . !

والاستواء على العرش للباري بمعنى العلو والارتفاع من لوازم التجسيم عند الكوثري يقول :

" من فسر الاستواء بالعلو الحسي والاستقرار ، والقعود والجلوس ، ونحو ذلك فهو قد جسم معبوده في المعنى وإن لم ينطق بلفظ الجسم "[5] .

---

١) نفسه ٣٤ الاختلاف في اللفظ ١٤

٢) يعني قول ابن قتيبة عن نفسه أنه ليس من أهل الكلام .

٣) حاشية الاختلاف في اللفاظ ٣٧

٤) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٧٨

٥) حاشية السيف الصقيل ١٣٦

أما السلف فلا يقولون لا بالقعود ولا الجلوس ولا نحوه مما شنع به .

ويقول : تفسير الاستواء بالاستقرار إنما هو قول مقاتل بن سليمان شيخ المجسمة " [1] .

ويقول :

" العلو ومشتقاته من صفات التتريه تعالى الله عما يصف به المجسمة ، والحمل على علو المكان نزعة وثنية " [2] .

وهذا المعنى كثير في كلام الكوثري الذي يرى في إثبات صفة الاستواء بمعنى العلو والارتفاع الحقيقي تجسيما ، فيلزم عنده لمن أثبت هذه الدلالة أن يكون مسجما .

فما هو الرد عليه ؟

لا أجد فيما أرد به على الكوثري إلا كلاماً له في إثبات الرؤية يرد به على من نفى الرؤية بلازم المقابلة والجهة التي تستلزم التجسيم .

فللكوثري قاعدة ، فيما يلزم من الكلام ، فمن المعلوم أن الذين ينفون الرؤية ، ينطلقون في نفيها من أن إثباتها يستلزم الجهة والمقابلة ، ولا يتأتى لمن نفى الجهة والمقابلة ، أن يثبت الرؤية .

لم يلتزم الكوثري هذا ، وذهب إلى أنه لا يلزم من إثبات الرؤية ، إثبات الجهة ، بل يرى أن الرؤية تثبت ، ولا يثبت لازمها ، فهو يقول :

" من يقول في الرؤية بالمحاذاة والمقابلة ونحوهما ، كما هو الحال في رؤية الأجسام فهو غالط أشد غلط مشبه ، وأما من يقول بنفي المحاذاة ونحوها [3] مما هو من أحكام الأجسام مع نفي الرؤية ، زاعماً استلزام الرؤية لتلك الأحكام ، فهو مصيب في نفي المحاذاة ونحوها ، وخاطئ في نفي الرؤية .

---

١) نفسه ٢٧

٢) نفسه ٩٩

٣) كالجهة

وأما من يجمع بين إثبات الرؤية والتجلي ، ونفي لوازم الجسمية من المحاذاة ونحوها فهو المصيب فيما يثبت وينفي ، وهو مذهب أهل السنة الموافق للسنة المتواترة تواترا معنويا ، وللنظر الصحيح ." [1]

ويقول في موضع آخر :" إياكم من إثبات الصورة والمحاذاة وكل ما يفيد الحدوث ، وأنتم على صواب إن اقتصرتم على إثبات الرؤية للمؤمنين في الآخرة من غير كيف ." [2]

أقول : وبصرف النظر عما في كلامه هذا من تناقض ، وخطأٍ بينٍ — وهو القول بإثبات الرؤية مع نفي الجهة — إلا أننا نستغرب منه ، إلزام السلف بالتشبيه والتجسيم والتمثيل ، وهم لا يلتزمونه ، بمجرد أنه يزعم أن إثبات الاستواء يستلزم ذلك .

ولذا يقال للكوثري :

ما رددت به على نفاة الرؤية الذين زعموا استلزام التجسيم لمثبت حقيقة الرؤية ، يردُ به عليك مثبتةُ الاستواء ، الذي عطلت معناه ، بدعوى استلزام التجسيم .

فإن المعتزلي إذا قال الكوثري : إن الله لا يوصف بالإرادة ، وليس له كلام قائم به لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بالمخلوق ، فإن الكوثري يبين للنافي أن هذه الصفات يتصف بها الباري ، ولا تكون كصفات المحدثات فهكذا نقول له فيما نفاه [3] .

ويقال للكوثري وسلفه : إن أردتم بالجسم معناه في لغة العرب وهو البدن الكثيف الذي لا يسمى في اللغةجسم سواه ؟ فهذا المعنى قطعاً ننفيه عن الله ، والسف لا يثبتونه له .

" وإن أردتم بالجسم ما يشار إليه إشارة حسية ، فقد أشار إليه أعرف الخلق به بإصبعه رافعاً لها إلى السماء " [4]

فلا داعي لأن يقول الكوثري : إن الاستواء بمعنى الاستيلاء كما هو قول الجهمية الأولى ، إذ اللغة توجب أن الاستيلاء لا يكون إلا بعد مغالبة وقهر .

---

١) حاشية ، الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٣٢

٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ١٥ (مقدمة الكوثري).

٣) وانظر قاعدة نفيسة في هذا المعنى في التدمرية ٣٣

٤) الصوعق المرسلة لابن القيم ٣ / ٩٤١ .

قيل لابن الأعرابي عن الآية : إنما معنى استوى : استولى فقال : اسكت لا يقال استولى على الشيء حتى يكون له مضاد فإذا غلب أحدهما قيل استولى "[1] .

لذا امتنع تفسير الاستواء بالاستيلاء تتريها للباري الذي لا ند له .

ومع ذلك لم نجد النفاة التزموا دلالة اللغة ، فتركوا هذا التفسير الباطل ، بل راحوا يخترعون الردود ، والتنطيع من أجل أن الاستيلاء الذي أثبتوه استيلاء مع نفي المغالبة !

يقول الكوثري : الحمل عليه[2] بتجريد الاستيلاء عن معنى المغالبة "[3] .

أليس كان الأجدى والأصوب أن يقول استوى بمعنى علا وارتفع مجردا عن المشابهة والتجسيم ؟

والكوثري التزم ما قرره ابن العربي المالكي ، بعدم الجزم في هذه الصفة بمعنى من المعاني ، لكنه قطع بوجوب منع دلالتها الظاهرة ، وعدم جعلها من صفات الفعل التي تقوم بالباري .

---

١) كتاب العرش الذهبي ١٣/٢

٢) يريد أن يحمل (الاستيلاء) على نفي المغالبة .

٣) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٨٢ .

المطلب الثاني :

رأي الكوثري في صفة النزول ونقده

المطلب الثاني :

رأي الكوثري في صفة النزول ونقده

أجمع أهل السنة و الجماعة على إثبات صفة النزول لله عز وجل من غير تشبيه و لا تعطيل ، لدلالة النص .

فقد تواتر[1] عنه ﷺ أنه أخبر أن ربه عز وجل ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا .

فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له . "[2]

قد ثبت ذلك عن جمع كثير من أصحاب الرسول ﷺ ، مما أوجب لدى أئمة السلف التسليم والإقرار ، والاعتقاد بموجبها .

و الكوثري جرى في هذا على أصله في نفي الصفات الاختيارية ، بدعوى التشبيه و التجسيم ، وشبهة حلول الحوادث .

ولذا فهو لا يرى النزول أصلاً من صفات الباري ، فإنه يقـــول عـــن الحـــديث :

" فيخرج حديث النزول[3] من عداد أحاديث الصفات بالمرة عند من فكر وتدبر "[4] .

ولذا سعى الكوثري إلى صرف دلالة حديث النزول من نزول حقيقي يليق بالباري بلا كيف ، إلى معان باطلة مستشهداً برأي من قبله .

يقول عن معنى الحديث :

---

١) نص عليه الذهبي انظر مختصر العلو ١١٠ ، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ٥/ ٤٧٠

٢) رواه أبوداود ك / السنة ، باب في الرد على الجهمية ٤ / ٢٣٤ ، ٢ / ٣٥ ، ورواه الترمذي ٢ / ٣٠٩ ، ، ٥ / ٥٢٦ ، وابن ماجه ١ / ٤٣٥ و أحمد ٢ / ٢٥٦ ، ٢٦٧ ، ٢٨٢ ، ٤١٩ ، ٤٨٧ ، والدارمي في السنن ١ / ٤١٣ ، والحديث قد رواه الأئمة بطرق بلغت التواتر كما مر .

٣) قد رواها الدار قطني في كتاب النزول عن إثني عشر صحابياً من طرق شتى وذكر بعضـــاً منـــها الآجـــري في الشريعة ٣/١١٢٤ _ ١١٤٦ ، و عبد الله بن أحمد في السنة ٢٧٢/١ ، وذكر ذلك ابن القيم (مختصر الصـــواعق ٤٥٦)

٤) حاشية السيف الصقيل ١٠٣

" فثبت أن ذلك [1] فتح باب القبول لأهل كل أفق " [2] .

وقد أخذ هذا المعنى الباطل من ابن حزم حيث يقول الكوثري :

" مما يقوله ابن حزم الظاهري في حديث النزول هذا : إنما هو فعل يفعله الله تعالى في سماء الدنيا من فتح لقبول الدعاء ، و أن تلك الساعة من مواطن القبول و الإجابة و المغفرة للمجتهدين و المستغفرين و التائبين ، وهذا معهود في اللغة تقول : نزل فلان عن حقه لي بمعنى وهبه لي ، وتطول به علي " [3] .

فالمعنى أن من دعاه حلت عليه ، مغفرته ، وتوبته للتائبين . لكن هل هذا ما أراده الكوثري ومن كان على حاله ؟

قطعاً أهمّ لم يريدوا ذلك فقط ، وإنما أرادوا نفي حقيقة النزول الرباني ، فإن الكوثري يقول عن أحاديث النزول مستهجناً مستنكراً :

" تعالى الله عن النقلة التي يقول بها المجسمة " [4] .

فقوله إن ذلك إشارة إلى فتح باب القبول نزوع إلى نفي هذه الصفة من صفات الباري ، فلا تكون من أفعاله الإختيارية التي يفعلها متى شاء .

فإن صرفت أفعاله التي نسبها إلى نفسه عن حقيقتها فإن ذلك يستلزم تعطيل صفاته كلها ، إذ إننا علمنا الرب سميعاً بصيراً قديراً حياً بدلالة النصوص ، وحقيقتها ، فكذلك علمناه عز وجلَ يترل إلى السماء الدنيا بدلالة النصوص .

وكذلك قوله : (من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له) إذا ضممت هذا إلى قوله (يترل ربنا إلى السماء الدنيا) إلى قوله (فيقول) وإلى قوله (لا أسأل عن عبادي غيري) علمت أن هذا مقتضى الحقيقة [5] .

أيضاً " أن نزول الرب تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا قد تواترت الأخبار به عن الرسول ﷺ ، رواه عنه نحو ثمانية وعشرين نفساً من الصحابة ، وهذا يدل على أنه كان

---

١) يريد النزول الوارد في الحديث .

٢) حاشية كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ٤١٥

٣) حاشية دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي ٥٠ .

٤) حاشية السيف الصقيل ١٠٣

٥) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٤٥٧

يبلغه في كل موطن ومجمع ، فكيف تكون حقيقته محالاً وباطلاً وهو ﷺ يتكلم بها دائماً ، ويعيدها ويبديها مرة بعد مرة "[1] .

فكونه يصرف اللفظ الظاهر عن دلالته وحقيقته بدون قرينة فيه إبطال للشريعة كلها ، حتى عند من جوز التأويل فإنه ما لم توجد قرينة مساوية للنص فلا يصح التأويل ، وجاء عن حنبل قال : قلت لأبي عبد الله : (يترل الله عزوجل إلى السماء الدنيا . قال : نعم . قلت : نزوله بعلمه أم بماذا ؟ فقال : اسكت عن هذا . وغضب ، وقال : مالك ولهذا أفض الحديث على ما روي)[2] .

والكوثري يرى أن القائل (من يدعوني فأستجيب له ...) إنما هو ملك ، وليس الله .

يقول :

" ومن أهل العلم من حمل الحديث على أن الإسناد فيه مجازي من قبيل الإسناد إلى السبب الآمر ، ويؤيده حديث أبي هريرة في سنن النسائي ، وفيه (ثم يأمر منادياً فيقول ، هل من داع فيستجاب له) وليس في استطاعة من يخاف الله غير أن يفوض معنى الترول إلى الله مع التتريه أو أن يحمل الحديث على المجاز في الطرف أو في الإسناد ، بل الأخير هو المتعين لحديث النسائي المذكور "[3] .

بل ينص على ذلك في موضوع آخر فيقول : " بل هذا الحديث يعين أن الإسناد مجازي "[4] .

يقصد بالحديث الذي رواه النسائي من طريق أبي مسلم الأغر عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : (إن الله يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر منادياً ينادي فيقول : هل من داع يستجاب له ، هل من مستغفر يغفرله ، هل من سائل يعطى ...)[5]

والجواب : أن الحديث ضعيف لا يحتج به ، ففيه أبو إسحاق السبيعي — وإن كان ثقة — قد اختلط في آخره ، وحديثه هذا يرويه الأعمش عنه و لم ينصوا على أن رؤيته قبل

---

١) مختصر الصواعق المرسلة ٤٥٦

٢) ذكره القاضي أبو يعلى في إبطال التأويلات . انظر المسائل و الرسائل المروية عند الإمام أحمد ٣٤٨/١

٣) حاشية السيف الصقيل ١٠٣

٤) حاشية كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ٤١٥

٥) رواه النسائي في عمل اليوم و الليلة – رقم الحديث ٣٤٠ – عن طريق الأغر عن أبي هريرة ، وعبد الرزاق في المصنف

اختلاطه ، ثم على فرض صحته ، فإنه لاتعارض بينه وبين ما تواتر من أحاديث تثبت النزول للرب " فإن الرب يقول ذلك ، ويأمر منادياً بذلك ، لا أن المنادي يقول : من يدعوني فأستجب له " [1] .

فالله يقول ذلك عن نفسه عند تنزله ، و الملك يقول ذلك أيضاً فإن قيل إن أحدهما القائل فلا شك أنه تواتر واستفاض نسبة ذلك للرب ، فرواية النسائي هذه مردودة منكرة أو هي تتناول غير أمر نزول الباري .

روى أحمد في مسنده عن رفاعة عن النبي ﷺ أنه قال : " إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل نزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا فقال لا أسأل عن عبادي غيري ، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ...." [2] .

يقول ابن القيم عن الحديث : " هذا حديث صحيح ، رواه الإمام أحمد في مسنده ، وفيه رد على من زعم أن الذي ينزل ، ملك من الملائكة ، فإن الملك لا يقول : لا يسأل عن عبادي غيري " [3] .

وأحاديث النزول في نحو ثلاثين حديثاً ، كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب ، و لم يجيء موضع واحد بقوله (ينزل ملك ربنا) حتى يحمل ما خرج عن نظائره عليه [4] .

وهناك جواب يلجم أصحاب التأويل الفاسد هذا ، كالكوثري ومن سبقه ، وهو أن يقال : نعم نسلم بصحة حديث النسائي ، وفيه أن النداء صدر من المنادي وهو الملك ، لكن ، الخلاف في النزول لا في النداء ، فنسبة النزول لم ترد إلا إلى الباري في الأحاديث كلها — حديث النسائي وغيره — فبطل ما أراد الكوثري ومن قبله في نفي النزول عنه — عز وجل — من خلال هذا الحديث .

و أما اللوازم الباطلة التي يلزم بها الكوثري من أثبت النزول مثل الانتقال والحركة ، حيث يقول : " و إثبات الحركة والإنتقال والجهة نحوها لله سبحانه تجسيم صريح " [5] .

---

١) مجموع الفتاوى ٣٧٢/٥

٢) مسند أحمد – ٩٢٢٠ – كتاب باقي مسند المكثرين – باقي المسند السابق .

٣) مختصر الصواعق المرسلة ٤٦٨

٤) الصواعق المرسلة ٣٨٧/١

٥) حاشية كتاب الاسماء والصفات للبيهقي ٤١٤

فإنها ـ أي اللوازم ـ لا تبطل دلالة الأحاديث ، وثبوت صفة الترول لله ، " فإن الأوهام الباطلة و العقول الفاسدة لما فهمت من نزول الرب ومجيئه ، وإتيانه وهبوطه ودنوه ما يفهم من مجيء المخلوق و إثباته و هبوطه ودنوه ، وهو أن يفرغ مكاناً ويشغل مكاناً نفت حقيقته ذلك ، فوقعت في محذورين : محذور التشبيه ، و محذور التعطيل .

ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه ومجيئه وإتيانه لا يشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه ، كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك " (١) .

فحقيقة قول الكوثري ومن قبله من الزام من نسب ذلك للرب ، وهو الرسول الكريم ﷺ .

فالكوثري يقول للمثبت : أنت تثبت أن نسبة الترول إلى الله حقيقة ، وهذا يلزم منه الانتقال و الحركة ، وهذا تشبيه وتجسيم .

و الجواب أن المثبت يقول : قد دلت السنة المتواترة واتفاق الصحابة ، و أئمة السلف على أن الله ـ عز وجل ـ يترل إلى سماء الدنيا كل ليلة ، و لم تختلف كلمتهم على نسبة ذلك إلى الله ، فذلك حق أقول به لا ريب فيه ، فإن لزم ما ذكرت فلازم الحق حق ، و إن لم يلزم بطل سؤالك .

فإن القول بأن الله يترل إلى السماء الدنيا ، إنما قاله الرسول ﷺ فهذا اللازم إنما يلزمه هو ﷺ ـ لو كان هذا اللازم حقاً ـ فوجب تصديقه ﷺ فيما أخبر فبطل اللازم لذلك (٢) .

لكن أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح لا يقولون إلا كما قال ﷺ ، أنه ـ عزوجل ـ يترل إلى السماء الدنيا نزولاً ، يليق به ، ويمسكون عن نفي الحركة والانتقال ، ويمسكون أيضاً عن إثباتها .

فلا يقال يترل بحركة و انتقال ، ولا يقال يترل بلا حركة ولا انتقال .

---

١) مختصر الصواعق المرسلة ٤٦٢

٢) مختصر الصواعق المرسلة ٤٨٤ بتصرف . وانظر في ذلك الفتاوى ٤٠٢/٥ ، ٤٥٨/٥

وأما تشنيع الكوثري على من أثبت الترول بقوله : " قاتل الله الجهل ما أفتكه ، فمن الذي يجهل استمرار الثلث الأخير من الليل في البلاد باختلاف المطالع حتى يحمل الترول إلى السماء الدنيا على الترول الحسي " [1] .

فلا طائل وراءه ، لأن هذا الترول الذي ذكره ﷺ " لا يكون من جنس نزول أجسام العباد ، فهذا لا يمنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثير ، ويكون قدره لبعض الناس أكثر ، بل لا يمتنع يقرب إلى خلق من عباده دون بعض ، فيقرب إلى هذا الذي دعـــاه دون هـــذا الذي لم يدعه........ وأما قربه مما يقرب منه فهو خاص لمن يقرب منه ، كالداعي و العابد ، وكقربه عشية عرفة ، ودنوه إلى السماء الدنيا لأجل الحجاج ، وإن كانت تلك العشـــية بعرفة قد تكون وسط النهار في بعض البلاد ، وتكون ليلاً في بعض البلاد ، فإن تلك البلاد لم يدن إليها ، ولا إلى السماء الدنيا ، و إنما دنا إلى السماء الدنيا الـــتي علـــى الحجـــاج ، وكذلك نزوله بالليل " [2] .

" وأيضاً فإنه إذا صار ثلث الليل عند القوم ، فبعده بلحظة ثلث الليل عندما يقاربهم من البلاد ، فيحصل الترول الإلهي الذي أخبر به الصادق المصدوق أيضاً عند أولئك إذا بقي ثلث ليلهم ، وهكذا إلى آخر العمارة " [3] .

وقد يقال إن الروايات جاءت بذكر شطر الليل مرة ، وبالثلث الأول مرة ، وبالثلث الأوسط مرة ، وبالثلث الآخر مرة ، ويكون الترول في وقت واحد ، " وهو ثلـــث الليـــل الأخير عند قوم ، ووسطه عند آخرين ، وثلثه الأول عند غيرهم " [4] .

---

١) حاشية السيق الصقيل ١٠٢ ، وقد نقل عن ابن حزم نحوه انظر حاشية دفع شبهة التشبيه لا بن الجوزي ص ٥٠

٢) مجموع الفتاوى ٤٧٨/٥

٣) مجموع الفتاوى ٤٧٥/٥

٤) الصواعق المرسلة ٤٦٤

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في صفة الإتيان والمجيء ونقده

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في صفة الإتيان والمجيء ونقده

بعد ما تقرر أن معتقد أئمة السلف الإيمان بما جاء في كتاب الله وسنة المصطفى ﷺ الصحيحة من صفات الله على الحقيقة ، كانت الجهمية أول من عطل من صفاته ومن ذلك مجيء الرب — عز وجل — وإتيانه لفصل القضاء .

والكوثري معطل في هذه الصفة موافق للماتريدية حيث يقول صاحب شرح المواقف : " وإتيانه في ظل ، إتيان عذاب " [1] .

ويقول عبد الحكيم السيالكوتي : " وإنما خصصه بالظلل من الغمام لأن أكثر العقوبات ، يتقدمها ظل منه كما نقل في القصص " . [2]

فهم يجمعون على ضرورة عدم إضافة المجيء والإتيان إلى الله ، بل لا بد من صرف هذه الدلالة إلى غيره .

يقول البياضي الحنفي عن النزول إنه : " بره وعطاؤه ، ومجيء حكمه وقضاؤه " . [3]

فهذا كما ترى تعطيل الجهمية الذين حرفوا دلالة النصوص بزعم نفي التشبيه .

والكوثري لم يخرج عن هذا فتراه يقول عن قوله تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ) [4] .

" باعتبار (في) بمعنى الباء ، ونظيره قول ابن عباس في قوله تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ) أي بظلل من الغمام على ما نقله الرازي في كتابه " . [5]

---

١) شرح المواقف للجرجاني ٢٤/٨ .

٢) حاشية السيالكوتي على شرح المواقف ٢٤/٨ .

٣) إشارات المرام ١٨٩ .

٤) البقرة ٢١٠ .

٥) حاشية دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي ٣٦ .

فتكون دلالة الآية بزعمه ، أن الله يأتي بالملائكة على هيئة الغمام .

وهذا القول وإن كان فاسداً – كما سيأتي – فقد أخذه الكوثري أيضاً من الجويني حيث صرح هو بذلك في تعليقه على كتاب الأسماء والصفات للبيهقي .[1]

وهذا التفسير أكثر ما يقال فيه أنه تخليط ، فهو أولاً ليس قول أحد من أئمة السلف ، فأكثر المفسرين للآية – من أئمة السلف – يمرونها كما جاءت بإثبات دلالتها .

وهذا التفسير لا يستقيم إذ كيف تستقيم الآية وقد قال (وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) بحرف العطف ، فكيف يفعل الكوثري بهذا الحرف ؟ والذي يدل على العطف !

سبحانك هذا كلام في القرآن بلا علم .

وينقل الكوثري عن الرازي مستشهداً به حيث يقول : " وقال الفخر الرازي : أن يأتيهم أمر الله بدليل قوله تعالى : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ)[2] والإتيان في حادثة واحدة تفسر إحداهما الأخرى (وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ) يدل على أمر سبق ذكره وهو المحذوف) .[3]

وملخص كلام الرازي أن الإتيان الذي نسبه الله لنفسه في آية البقرة (أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ) معناه إتيان أمره وعذابه الذي دلت عليه آية سورة النحل (أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) بدعوى أن الآيتين تتحدثان عن حادثة واحدة !

وهذا فاسد ، بنقض ما استند عليه ، حيث إن الحادثة ليست واحدة في الآيتين ، فآية سورة البقرة يشير فيها الرب ويخبر أن ذلك يكون يوم القيامة ، بينما آية سورة النحل يخبر فيها الرب – على باب التهديد – متوعداً الكافرين بالعذاب ، وهذا في الدنيا وليس يوم الحساب !

يقول ابن كثير عن آية سورة البقرة : " يقول تعالى مهدداً الكافرين بمحمد ﷺ (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ) يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين

---

١) انظر حاشية الأسماء والصفات ٤١٣ .

٢) النحل ٣٣ .

٣) يريد قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظل من الغمام والملائكة وقضي الأمر) البقرة ٢١٠ . وقوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك) النحل ٣٣ .

الأولين والآخرين فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشـــر ، ولهـــذا قـــال (وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ) " [١] .

ويؤيد هذا قوله تعالى (كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ) [٢] فهذا المجيء يكون يوم القيامة ، وهو المذكور في آية سورة البقرة .

وقوله (أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ) هو مجيء أمره أو عذابه ، لا يستقيم هذا مع دلالة الآيـــات ، وسياقها .

فهو أولاً تحريف لدلالة النص ، إذ الأصل في الكلام الحقيقة وعدم الإضمار ، فمـــن زعم الاضمار فعليه التدليل ، ولا ينفع الاستدلال لهذا الاضمار دعوى نفي التشـــبيه ، إذ لا يجوز مصادمة النص بزعم التشبيه .

ثانياً : الكلام في الآيتين تام لا يحتاج إلى تقدير مضمر ، وإنما يحتاج إلى تقدير عنـــد عدم كمال الكلام .

ثالثاً : أن التقسيم في قوله تعالى — في سورة الأنعام — ينفي هذا التحريف الذي سموه تقديراً وتأويلاً .

فالله يقول : (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ) [٣] .

فانظر إلى هذا التقسيم ما أوضحه ، مما يأبى قولهم بأن مجيء الله ، مجيء أمره !

إذ يكون الكلام على قولهم : إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ملك ربك ، أو أمر ربك ، أو يأتي بعض آيات ربك !

---

١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٤٨/١ .

٢) الفجر ٢١-٢٣ .

٣) الأنعام ١٥٨ .

فهل هذا يستساغ لمتكلم ! فإن أمر الله – عندهم – إما عذابه أو ملك أو غيره ، وهو بعض آيات الله ، يعني ذكرها قوله : (يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ) ولو كان الأمر كما زعموا لعد ذلك عجمة من قائله (تتره الله عن ذلك وتقدس) .[1]

ومع بيان هذا ووضوحه إلا أن الكوثري يحاول جهده نفي هذه الصفة بكل حال ، فتراه يتمسك بما نقل عن الإمام أحمد من تأويل دلالة الآية إلى مجيء قدرته ، فتراه يقول :

قال" ابن حزم : روينا عن الإمام أحمد في قوله تعالى (وَجَآءَ رَبُّكَ) [2] إنما معناه وجاء أمر ربك ، كقوله تعالى : (هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ) [3] والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وهكذا نقله ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير ، وقال البيهقي في مناقب أحمد أنبأنا الحاكم قال حدثنا أبو عمرو أن السماك قال حدثنا حنبل بن إسحاق قال سمعت عمي أبا عبدالله يعني أحمد يقول : احتجوا عليَّ يومئذ – يعني يوم نوظر في دار أمير المؤمنين – فقالوا تجيء سورة البقرة يوم القيامة ، وتجيء سورة تبارك ، فقلت لهم إنما هو الثواب ، قال تعالى (وَجَآءَ رَبُّكَ) إنما تأتي قدرته وإنما القرآن أمثال ومواعظ .

قال البيهقي : وفيه دليل على أنه كان لا يعتقد في المجيء الذي ورد به الكتاب والترول الذي وردت به السنة انتقالاً من مكان إلى مكان كمجيء ذوات الأجسام ونزولها ، وإنما هو عبارة عن ظهور آيات قدرته ، فإنهم لما زعموا أن القرآن لو كان كلام الله ، وصفة من صفات ذاته لم يجز عليه المجيء والإتيان ، فأجابهم أبو عبدالله بأنه إنما يجيء ثواب قراءته التي يريد إظهارها يومئذ ، فعبر عن إظهاره إياها بمجيئه . أ هـ " .[4]

ثم ختم الكوثري نقله بقوله : " والناظم وشيخه يدعيان الانتماء إلى أحمد ، ولا يتابعانه في التتريه ، كما رأيت نصوص أهل العلم عن أحمد ، فلا ينخدع الموفق بثرثرتهما

---

1) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٣٦٥-٣٦٦ بتصرف .

2) الفجر ٢٣ .

3) النحل ٣٣ .

4) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٣٧-١٣٨ . وذكر ذلك أيضاً على حاشية كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ٤١٣ وحاشية العقيدة النظامية للجويني ٣٤ .

المفضوحة وتمويليهما المصطنع ، وإنما ذلك وقاحة منهما ، قاتلهما الله ما أجرأهما علـــى الله تعالى " . [1]

فأقول قبل البدء بنقض ما زعم ، إن شتمه لإمامين من أئمة السلف ، عدوان وظلم راجع عليه – الله حسيبه – وليس ذلك من هدي أهل العلم ، وإنما اللعن والـــتحقير أثنــاء الخصومات دليل بين على ضعف الحجة ، فمن عجز عن رد الحق الذي عنـــد الخصـــوم ، سارع إلى شتمهم وسبهم .

وأما ما اتكأ عليه من تأويل الإمام ما جاء في هذه الصفة فالجواب عنه من وجوه .

الوجه الأول : أن هؤلاء المعطلة لا يلتفتون إلى ما نقل عن الإمام أحمد من النصوص التي تثبت سائر الصفات التي ينفونها ، والتي فيها الردود البينة على باطلهم ، فيفرحون أيمـــا فرح بمثل هذا النقل الذي يوافق هواهم .

الثاني : أن هذا النقل عن الإمام أحمد لا يثبت عنه فإن راويهـــا عنـــه حنبـــل بـــن إسحاق وإن كان ثقة ، قد تفرد بها دون بقية من نقل عنه قصة المحنة بتفاصيلها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " لا ريب أن المنقول المتواتر عن أحمد يناقض هـــذه الرواية ويبين أنه لا يقول : إن الرب يجيء ويأتي ويترل أمره ، بل هو ينكر على من يقـــول ذلك " . [2]

وقال : " الصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة ، و لم يقل أحد من الصحابة شيئاً منها ، ولا أحد من التابعين لهم بإحسان ، وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمـــة الســـنة والحديث ، أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة .

ولكن بعض الخائضين بالتأويلات الفاسدة يتشبث بألفاظ تنقل عن بعض الأئمـــة ، وتكون إما غلطاً أو محرفة " . [3]

ويؤيد هذا أن الخلال قد قال : " جاء حنبل عن أحمد بمسائل أجاد فيها الرواية ، وأغرب " . [4]

---

١) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٣٨ .

٢) مجموع الفتاوى ٤٠١/٥ .

٣) مجموع الفتاوى ٤٠٩/٥ .

٤) تاريخ بغداد ٢٨٦/٨ .

" فالخلال وصاحبه عبد العزيز لا يثبتون ذلك رواية وأبو عبد الله بن حامد وغيره يثبتون ذلك رواية ، والتحقيق أنها رواية شاذة مخالفة لجادة مذهبه هذا ، إذا كان ذلك من مسائل الفروع فكيف في هذه المسألة ؟ " . [1]

هذا هو الصواب ، إذ كيف يقبل مثل هذا النقل الذي يناقض ما تواتر عنه من النهي عن التحريف في دلالة النصوص .

وحنبل نفسه يقول : " سألت أبا عبدالله عن الأحاديث التي تروى أن الله سبحانه يترل إلى سماء الدنيا ، وأن الله يُرى ، وأن الله يضع قدمه ، وما أشبه هذه الأحاديث ، فقال أبو عبدالله : نؤمن بها ولا نرد منها شيئاً ، ونعلم أن ما جاء به رسول الله ﷺ حق إذا كانت أسانيد صحاح ، و لانرد على الله قوله ، ولا يُوصف بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [2] " [3]

وقد جاء عن الإمام أحمد أنه قال : " وهو كما وصف نفسه لا تدركه الأبصار بحد ولا غاية . " [4]

الثالث : وعلى فرض قبول هذا النقل ، وافتراض أن الراوي لم يهم في ذلك فيكون قد قال ذلك على سبيل التترل مع الخصم والمقابلة ، فإن هذا النقل إنما جاء في قصة مناظرته مع الجهمية الذين يرون نفي صفة الكلام وأن القرآن العظيم مخلوق .

فيرى شيخ الإسلام إنما " قاله أحمد على سبيل المعارضة لهم ، فإن القوم كانوا يتأولون في القرآن من الإتيان والمجيء بمجيء أمره سبحانه ، و لم يكن في ذلك ما يدل على

---

١) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٤٨٧ .

٢) الشورى ١١

٣) اجتماع الجيوش الإسلامية ١ / ١٣٢

٤) اجتماع الجيوش الإسلامية ١ / ١٣١

أن من نسب إليه المجيء والإتيان مخلوق ، فكذلك وصف الله سبحانه كلامه الإتيان والمجيء هو مثل وصفه نفسه بذلك ، فلا يدل على أن كلامه مخلوق ، يحمل مجيء القـــرآن على مجيء ثوابه ، كما حملتم مجيئه سبحانه وإتيانه على مجيء أمره وبأسه .

فأحمد ذكر ذلك على وجه المعارضة والإلزام لخصومه بما يعتقدونه في نظير ما احتجوا به عليه لا أنه يعتقد ذلك ، والمعارضة لا تستلزم اعتقاد المعارض صحة ما عارض به " .

وهذا النقل إن ثبت عنه بهذا التعليل فهو اجتهاد منه ـــ رحمه الله ـــ لا يتابع عليه ، ولا يسلم به فإن العصمة للرسول ﷺ .

والكوثري شديد الميل لكل منتسب إلى أبي حنيفة لذا يحسن أن أنقل له أقوال بعض من يجلهم هو ، ويكثر من الاستناد إلى أقوالهم .

فهذا عبد الله بن المبارك ـــ أحد أئمة السلف ـــ الذي أثنى عليه الكوثري ، وجعله من أئمة الحنفية . [1]

سئل عبد الله بن المبارك عن الترول فقيل له : " يا أبا عبد الرحمن ، كيف يـــترل ؟ فقال عبد الله بن المبارك : يترل كيف يشاء " . [2]
وقد سكت الكوثري عن هذا السند وهذا المتن ، فلم يعلق عليه .

وهذا حنفي آخر ممن يجله الكوثري ، وهو حماد بن أبي حنيفة [3] يقول : " قلنا لهؤلاء [1] : أرأيتم قوله عز وجل (وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [2] ؟ قالوا : أما

---

١) انظر كلام الكوثري ، في مقدمته لكتاب نصب الراية للزيلعي ٤١ .
٢) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٤١٨
٣) حماد بن أبي حنيفة كان ذا علم ودين وصلاح وورع تام . لما توفي والده، كان عنده ودائع كثيرة، وأهلها غائبون ، فنقلها حماد إلى الحاكم ليستلمها ، فقال : بل دعها عندك ، فإنك أهل. فقال: زنها واقبضها حتى تبرأ منها ذمة الوالد

الملائكة فيجيئون صفاً صفاً ، وأما الرب تعالى — فإنا لا ندري ما عني بذلك ؟ ولا ندري كيف مجيئه ؟

فقلت لهم : إنا لم نكلفكم أن تعلموا كيف جيئته ، ولكننا نكلفكم أن تؤمنـــوا بمجيئه .

أرأيتم من أنكر أن الملك يجيء صفاً صفاً ، ما هو عندكم ؟

قالوا : كافر مكذب .

قلت : فكذلك من أنكر أن الله سبحانه يجيء فهو كافر مكذب " [٣]

، ثم افعل ما ترى . ففعل القاضي ذلك . وبقي في وزنها وحسابها أياما ، واستتر حماد فما ظهر حتى أودعها القاضي عند أمين . توفي حماد سنة ست وسبعين ومئة كهلاً . له رواية عن أبيه وغيره . حدث عنه ولده الإمام إسماعيل بن حماد قاضي البصرة ، السير ٦/٤٠٣.

١) يريد الجهمية .

٢) الفجر ٢٢ .

٣) مجموعة الرسائل المنيرية ، وقد جاءت لفظة ، أن الله سبحانه يجيء في المصدر محرفة إلى " لا يجيء " .

الفرع الثاني :

الصفات الخبرية (اليدان - العين - اليمين - القبضة - والساق ...)

المطلب الأول :

التعريف بالصفات الخبرية وحكمها

المطلب الأول :

التعريف بالصفات الخبرية وحكمها

أفردت الكلام هنا عن الصفات الخبرية لأبين موقف السلف رحمهم الله تعالى من جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة خلافاً لغيرهم من أهل البدع ممن لم يسلم بالصفات الواردة بالأثر ووقف منها أو من أغلبها موقف النافي أو المتأول على اختلاف بينهم .

والصفات الخبرية قسم من أقسام الصفات ، حيث إن لأهل العلم تقسيمات عديدة ــ بغض النظر عن مذاهبهم وموقفهم من تلك الأقسام ــ ولهم في كل تقسيم اعتبار ، ولذا نجد لهم تقسيمات عديدة للصفات .

ومن هذه التقسيمات على وجه الاختصار ما يلي :

التقسيم الأول : تقسيم الصفات باعتبار ما تشتمل عليه من المعاني الوجودية وهي بهذا الاعتبار قسمان :

القسم الأول : الصفات الثبوتية ، وهي ما أثبته الكتاب والسنة ، وهي تدل على الكمال المطلق مع تضمنها لتتريه الله تعالى عما يضاده .

القسم الثاني : الصفات السلبية ، وهي التي نفاها الله تعالى عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنها صفات نقص وعيب مع تضمنها إثبات الكمال المطلق عن طريق إثبات كمال الضد .

التقسيم الثاني : باعتبار تعلقها بمشيئة الله تعالى وعدمه ، وبهذا الاعتبار تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : صفات ذاتية محضة ، وهي الملازمة للذات ولا تنفك عنها ، ويطلق عليها الصفات الذاتية ، مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر ونحو ذلك ، وهذه لا تعلق لها بالمشيئة والاختيار .

القسم الثاني : صفات فعلية محضة ، وهي التي يفعلها متى ما شاء مثل الإستواء والنزول ، والغضب ، والضحك ، وهذه متعلقة بالمشيئة والاختيارونحو ذلك .

القسم الثالث : صفات ذاتية باعتبار ، وفعلية باعتبار ، فهي ذاتية باعتبار الأصل فعلية باعتبار الأنواع مثل الكلام .

أما **التقسيم الثالث** وهو مقصود الحديث هنا فهو : تقسيم الصفات باعتبار طريق إثباتها فهي بهذا الإعتبار تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : صفات خبرية عقلية معاً ، وهي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي والعقلي معاً مثل صفة الحياة ، والقدرة ، والعلم .

القسم الثاني : صفات خبرية ، ويقال لها النقلية أو الشرعية ، وهي التي لا سبيل لإثباتها إلا السمع والخبر عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم وفي الوقت نفسه لا يعارضها العقل الصريح مثل صفة الوجه ، والعين ، والقدم ونحوها .

وهذا القسم الثاني هو الذي يُصطلح عليه في الغالب بمصطلح الصفات الخبرية ، ويعرِّفها البعض بتعريف آخر بأنها : ما كان الدليل عليها مجرد السمع والخبر الصادق ، أما العقل فليس له دور في إثبات هذه الصفات ؛ لأنها من المغيبات التي لا تدخل في نطاق قدرته ، ووظيفة العقل هنا هو فهم ما تضمنه النص الشرعي من معاني الصفات [1] .

ولذا نجد المذاهب التي غلت في تعظيم العقل وجعلته مصدراً أساسياً للتلقي ، بناءً على ذلك لم يثبتوا إلا عدداً من الصفات بحجة أن العقل يثبتها ، وقالوا بنفي جميع الصفات الخبرية واحتجوا في ذلك بما يلي [2] :

١ – أن إثبات الصفات على حقيقتها يستلزم التشبيه والتجسيم .

٢ – أن دلالة النصوص الشرعية ظنية .

٣ – أن حمل النصوص على ظواهرها يفضي إلى تعارض العقل والنقل .

٤ – أن حمل النصوص على ظواهرها يؤدي إلى وقوع التناقض في كتاب الله .

فجعلوا هذه الشبه مع الأسف حجة لهم في نفي ما أثبته الله تعالى لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، وكأنهم قالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض !! .

وليس المراد هنا الرد على هذه الشبه ، وإنما يهمنا في المقام الأول بيان المقصود من هذا المبحث وهو إيضاح موقف السلف تجاه الصفات الخبرية وسلامة منهجهم من مثل تلك الشائبات والشبهات .

فأقول : إن السلف رحمهم الله إبتداءً لم يتحدثوا عن تقسيم الصفات ، لعدم حاجتهم إليه ولتسليمهم المطلق لما جاء به الوحي ، وإنما نشأ التفريق والتقسيم في الصفات

---

١) انظر الماتريدية لأحمد بن عوض الحربي ص ٢٦٧ .

٢) انظر على سبيل المثال : التمهيد في أصول الدين للنسفي ص ١٩ ، وأصول الدين للبزدوي ص٢٥-٢٦ .

عندما خاض المتكلمون في الصفات وما انبنى عليه موقفهم السلبي من رد أكثر نصوص الصفات ، فاقتضى ذلك أن يكون لأهل السنة حديث في تلك الاصطلاحات والتفصيل فيها للرد على المخالفين من أهل البدع فتحدثوا في العديد من المصطلحات والتقسيمات وأمثالها ويعد الإمام أبو حنيفة[1] رحمه الله من أول من تحدث في تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية[2] ثم تلاه آخرون .

وزاد بعض الأئمة كأمثال عبد العزيز الكناني (٢٤٠هـ) والإمام أحمد (٢٤١) والبيهقي : سمعية وعقلية[3] .

ثم تبعهم العديد من العلماء والمصنفين في هذه التقسيمات ، ولا مشاحة في ذلك مع سلامة المنهج والمعتقد ، ولكن المشكلة في تقرير تلك الأهواء عبر هذه المصطلحات والتقسيمات .

أما من جهة موقف السلف - رحمهم الله تعالى - من الصفات الخبرية فإنهم لم يفرقوا و لم يميزوا بين الصفات من جهة الإيمان بها وإثباتها لتسليمهم بجميع الصفات التي أخبر الله بها عن نفسه أو أخبر بها رسوله صلى الله وسلم وإليك بعض نصوص الأئمة الأجلاء .

يقول ابن خزيمة : " إن الأخبار في صفات الله موافقة لكتاب الله تعالى ، نقلها الخلف عن السلف قرناً بعد قرن من لدن الصحابة والتابعين إلى عصرنا هذا على سبيل الصفات لله تعالى والمعرفة والإيمان به والتسليم لما أخبر الله تعالى في تنزيله ونبيه صلى الله عليه وسلم مع اجتناب التأويل والجحود ، وترك التمثيل والتكييف ."[4]

---

١) (أبو حنيفة) النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي مولاهم ، أبو حنيفة الكوفي (٨٠-١٥٠هـ). الإمام، فقيه الملّة، عالم العراق، رأى أنساً، وروى عن : عطاء ، والشعبي، والأعرج، وقتادة، وهشام بن عروة، والزهري، وخلق سواهم. حدَّث عنه خلق كثير منهم : إبراهيم بن طهمان، وحمزة الزيات، وزفر، وابن المبارك، وعبدالرزاق، وصاحباه : محمد بن الحسن، والقاضي أبو يوسف. عُني بطلب الآثار ، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهى والناس عليه عيال في ذلك. قال في التقريب (٥٦٣) : فقيه مشهور، [ت بغداد (٣٢٣/١٣)- تهذيب الكمال (٤١٨/٢٩)- السير (٣٩٠/٦)- التهذيب (٤٠١/١٠)].

٢) الفقه الأكبر بشرح القاري ص ٢٥-٢٦ ، كتاب التوحيد للماتريدي ص٥٠-٥١ .

٣) انظر الاعتقاد للبيهقي ، والفتاوى لشيخ الإسلام ٨٨/٣ .

٤) ذم التأويل لابن قدامه ص ١٤٠ ضمن مجموعة الرسائل الكمالية .

وقال أبو بكر الإسماعيلي :

" اعلموا رحمني الله وإياكم أن مذهب أهل الحديث أهل السنة والجماعة الإقرار بالله وكتبه ورسله وقبول ما نطق به كتاب الله وصحح به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا معدل عما ورد به ، ولا سبيل إلى رده إذ كانوا مأمورين باتباع الكتاب والسنة مضموناً لهم الهدى فيهما مشهوداً لهم بأن نبيهم صلى الله علية وسلم يهدي إلى صراط مستقيم حذرين من مخالفته الفتنة والعذاب الأليم ، ويعتقدون أن الله تعالى مدعو بأسمائه الحسنى ، موصوف بصفاته التي سمى ووصف بها نفسه ، ووصفه بها نبيه صلى الله عليه وسلم .. ".[1]

بل ويرون أن أنكار الصفات مع قيام الحجة من الخطورة بمكان فهذا الإمام الشافعي عليه رحمة الله تعالى يقول: " لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم لا يسع أحداً من خلق الله تعالى قامت عليه الحجة ردها ، لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بها ، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر بالله تعالى ، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل " .[2]

وقال حماد بن سلمة : " من رأيتموه ينكر هذه الأحاديث فاتهموه على الدين "[3] .

وقال يزيد بن هارون : " من كذب بأحاديث الصفات فهو بريء من الله والله بريء منه "[4] .

وكأن لسان حالهم يقول (كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) فيسلمون بها على ما تحمله من المعاني الجليلة على الوجه اللائق به تعالى .

---

١) ذم التأويل لابن قدامه ص ١٣٩ ، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية .

٢) ذم التأويل ص ١٤٣.

٣) إبطال التأويلات لأخبار الصفات ص ٥٣ .

٤) إبطال التأويلات ص ٤٧ .

المطلب الثاني :

آراء الكوثري في الصفات الخبرية ونقده

المطلب الثاني :

آراء الكوثري في الصفات الخبرية تفصيلاً ونقدها

تمهيد :

جرى الكوثري في هذه الصفات على الأصل الذي انطلق منه ، وهو نفي ما عدا الصفات السبع العقلية ، ومن خلال تتبعي لأقواله تبين لي أنه معطل لهذه الصفات لا يثبتها كما دلت عليها نصوص القرآن والسنة ، فيذهب إلى أن اليدين هي القدرة ، والعين هي الحفظ والكلأة ، والساق الشدة .. الخ .

اليدين والإصبع والقبضة :

قد ورد في القرآن ، وثبت في السنة ، وصف الرب — عز وجل — باليدين ، وجاء في السنة الوصف بالإصبع والقبضة [١] ، وهو ما آمن به أهل السنة والجماعة ، وذهبوا إلى وجوب اعتقاده .

لكن الكوثري ، لايذهب إلى ذلك — تبعاً للمعطلة — ، بل يرى وصف الرب بذلك تشبيهاً وتجسيماً ، يقول معلقاً على حديث القبض :

" قال البخاري في تفسير قوله تعالى (وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ) [٢] أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض . ا.هـ. هذا هو أصل الحديث ، وهو مروي بأسانيد كثيرة جداً، وهو الموافق لكتاب الله سبحانه ، واليمين ، القدرة ... وحاشا أن يكون قبض الله من قبيل احتواء الأنامل على شيء ، وما زاد على ذلك في الروايات من أنه يأخذ السماوات بيده اليمنى ويأخذ الأرض بشماله ، وحاشا أن يكون له شمال وكلتا يديه يمين ، فمن تصرفات الرواة أثناء النقل بالمعنى كما لايخفى على أهل هذه الصنعة المستحضرين لأحاديث الباب ومبلغ اضطرابها سنداً ومتناً . " [٣]

---

١) سيأتي ذكر هذه النصوص .

٢) الزمر ٦٧

٣) حاشية السيف الصقيل ٥٥

فعقله ، يأبى ، قبول دلالة هذه النصوص ، إذ إنها ـــ عنده ـــ تقتضي مـــا تقتضـــيه للمخلوق .

ومن خلال هذا النص نستنتج ما يأتي :

ـــ أن الكوثري يرى أن معنى اليد هو القدرة .

ـــ أن الأحاديث الواردة في أنه يأخذ السماوات بيده اليمنى ويأخذ الأرض بشماله لا تصح ، لأن :

١ـــ رواة الأحاديث تصرفوا فيها ، فنقلوه بالمعنى ، فبدلوا المعنى .

٢ـــ أنها مضطربة سندا ومتنا .

ـــ أن الحديث الذي صح في هذا الباب هو حديث أبي هريرة ـــ في البخاري [(١)] ـــ وليس فيه إلا ذكر القبض باليمين ، وليس باليدين .

والجواب :

أولا : الحديث المذكور هو ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقـــبض الله الأرض ، ويطوي السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض " [(٢)]

وهو حديث صحيح ، رواه الأئمة في دواوينهم لاسيما الشيخين

ثانياً : تأويله اليد بالقدرة تحريف لدلالة الآية ، وقد ذم السلف ذلك ، ووصفوا من عطلها بالتجهم .

يقول الآجري لمن أنكر حقيقة اليد وأولها بالقدرة :

" كفرتَ بالقران ، ورددتَ السنة ، وخالفتَ الأمة . " [(٣)]

وأسوق ، هاهنا ، نصين لإمامين من أئمة ، الكوثري ، يردان على من قـــال بهـــذه البدعة ، فهذا الباقلاني ، يقول :

---

١) انظره في البخاري ك/ التفسير ، باب (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه) ، ومثله عن ابن مسعود باب (وما قدروا الله حقّ قدره) .

٢) رواه البخاري ك/ التفسير ، باب (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينـــه) ، ورواه مسلم ٤ / ١٤٨ ، وأبو داود ٤ / ٢٣٤ و وابن ماجه ١ / ٦٩ ، ٧٢ ، والدارمي في السنن ٢ / ٤١٩ ، وأحمد ٢ / ٣٧٢ .

٣) الشريعة للآجري ٣ / ١١٧٨ .

" هذا باطل [1] ، لأن قوله (بيديّ) يقتضي إثبات اليدين ، وهما صفة له ، فلو كان المراد بها القدرة لوجب أن يكون له قدرتان . " [2]

وهذا ابن بطّال ـ وهو أحد كبار الحنفية ـ يقول :

" في هذه الآية إثبات يدين لله ، وهما صفتان من صفات ذاته ، وليستا جـارحتين ، خلافاً للمشبهة ، من المثبتة ، وللجهمية من المعطلة . " [3]

ثالثاً: قوله : لم يصح شيء في القبض باليدين : ١ـ لأن رواة الأحاديث تصرفوا فيها ، فنقلوه بالمعنى ، فبدلوا المعنى . ٢ـ أنها مضطربة سندا ومتنا .

فالجواب عما ذكره ، أن هذا كلام ضلال ، لا يجوز إطلاقه إلا ببينة ، والكوثري من أعلم الناس أن هذا الكلام لا سلف له فيه ، وهو كلام خطير ، فإن كل أحد خالف الحديثَ رأيُه ، زعم أن الرواة نقلوا الحديث بالمعنى .

وأما نفيه صحة ما ورد من ذكر القبض باليدين، لأجل اضطرابها ، فيبينه قوله عن حديث القبض هذا :

" وأما ما وقع في صحيح مسلم من حديث القبض باليمين والشمال فلم يخرجه البخاري لاضطراب عبد العزيز بن سلمة في سنده ، لأنه يرويه مرة عن أبيه عن ابن مقسم عن ابن عمر كما وقع في رواية سعيد بن منصور ، وأخرى عن أبيه عن عبيد بن عمير عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما في رواية يحيى بن كثير فدلت تلك الأسانيد المختلفة على أن عبد العزيز لم يضبط السند كما يجب ، وحال المتن توازي حال السند " [4] .

وقال أيضاً : " على أن ما يقع في المنبر أمام الجمهور تتوفر فيه الدواعي إلى روايته فكيف ينفرد برواية مثله راوٍ واحد [5] " [6] .

---

١) يشير إلى تأويل اليد بالقدرة .

٢) التمهيد للباقلاني ٢٥٨ .

٣) فتح الباري ١٣ / ٣٩٣ .

٤)حاشية السيف الصقيل ٥٨ .

٥) يقصد ابن عمر ﷺ

٦) حاشية السيف الصقيل ٥٨

فأولاً إن الكوثري ، يطعن في روايةمسلم ، وليس له سلف في ذلك .

ثانياً قوله (وأما ما وقع في صحيح مسلم من حديث القبض باليمين والشمال ، فلم يخرجه البخاري لاضطراب عبدالعزيز بن سلمة في سنده ..) فالجواب :

— يوحي هذا الكلام ، أن ذكر (القبض باليمين والشمال) ، ليس له طريق إلا عبدالعزيز بن سلمة ، وهذا غير صحيح ، فقد رواه مسلم من غير طريق عبد العزيز بن سلمة من حديث عبد الله بن عمر ﷺ ، فرواه عن ابن أبي شيبة عن أبي أسامة عن عمر بن حمزة عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر ، وفيه " ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك أين الجبارون ، أين المتكبرون ، ثم يطوي الأرضين بشماله ... " [1]

— الكوثري ، لا يريد الطعن ، فيما سبق ، وإنما يريد الطعن في حديث عبد الله بن عمر الذي رواه مسلم في صحيحه بسنده إلى عبيد الله بن مقسم " أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه بيديه فيقول أنا الله ويقبض أصابعه ويبسطها أنا الملك حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم . " [2]

فأما زعمه اضطراب عبدالعزيز في سنده (لأنه يرويه مرة عن أبيه عن ابن مقسم وأخرى عن أبيه عن عبيد بن عمير عن عبد الله بن عمرو بن العاص) ، فلا يضر في قبول الحديث ، فقد رواه مسلم عن يعقوب بن عبدالرحمن عن أبي حازم (سلمة بن دينار)[3] عن عبيدالله بن مقسم ، وليس فيه عبدالعزيز بن سلمة .

— وأما الزعم بأن البخاري لم يخرجه لاضطراب .. الخ ، فالكوثري أعلم الناس أن البخاري لم يلتزم أن يخرج كل حديث صحيح ، وإنما التزم ألا يخرج إلا الصحيح .

قال ابن الصلاح : " لم يستوعبا الصحيح في صحيحهما ، ولا التزما ذلك ، فقد روينا عن البخاري أنه قال : ما أدخلت في كتاب الجامع إلا ما صح ، وتركت من الصحاح للملال الطول . " [4]

---

1) مسلم ك صفة القيامة . ١٧ / ١٣١ ، ورواه أبو داود من الطريق نفسها ٤ / ٢٣٤ بلفظ (بيده الأخرى)

2) رواه مسلم كتاب صفة القيامة ١٧ / ١٣١ ، ورواه ابن حبان ١٦ / ٣١٨ .

3) فتح الباب في الكنى والألقاب لابن منده ٢٥٢

4) مقدمة ابن الصلاح ١٠ .

وقال أيضاً : " لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً ، وما تركت من الصحيح أكثر ." [1]

ثم هذا الكلام بلا حجة فيحتاج إلى نص من البخاري ، يشير إلى تضعيف الحديث أو إلى تركه لأجل ذلك .

وأما زعمه انفراد بن عمر برواية حديث القبض على المنبر ، فالظاهر أن القصة واحدة نعم لم يرد ذكر المنبر في رواية أبي هريرة ، ولكن الحديث واحد .

ثم هب أن ذلك كذلك ، فكان ماذا ؟ أيُرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لم يوافق هوى الكوثري ، وما كان عليه سلفه ، بدعوى أنه لم يروه من الصحابة إلا واحد ؟

ولا يفهم الكوثري من إثبات الصفات الخبرية إلا ما يتعلق بالمخلوق (ومنها اليد) ، فهي عنده جوارح وأعضاء يتره الله عن إثباتها فيقول :

" على أن استعمال اليد بمعنى القدرة استعمال عربي صحيح ولاسيما في مثل هذا المقام تعالى الله أن يكون له جارحة يزاول بها عمله " [2] .

ويرد على ابن القيم فيقول : " ما أجهل هذا الناظم بلسان قومه ، كيف يفهم من اليد معنى الجارحة ، ومن الضحك إبداء النواجذ " [3] .

وهذا هو المنطق الذي بنى عليه الجهمية نفي الصفات ، فإنهم لم يفهموا من إثباتها إلا ما يتعلق بالمخلوق ، فلذا اعتمدوا على هذا في نفي ما ثبت لله من صفات الكمال .

وهو هنا كسلفه ، المعطلة ، متناقض ، فإنه يثبت له ، قدرة ، وعلماً ، وسمعاً ، وغيرها ، ولا يرى أن إثباتها يستلزم أن تكون أعراضاً .

---

١) شرط الأئمة الخمسة للحازمي ٦٣ .

٢) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٩٩ .

٣) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٥٨ .

فكذلك يقال له في اليدين وباقي الصفات الخبرية ، إنها صفات لله ــ عز وجل ــ ولا يلزم منها التشبيه للمخلوق .

وإلا يلزم التناقض ، فيقال له : إن سمع الله ، وبصره ، أعراض ، فيلزم التشبيه فلا يوصف بها الباري ، كما أ، يديه ، ووجهه ، جوارح .

فإن أبى التعطيل في الأولى ، وجب الإثبات في الأخرى .

ومع أن البيهقي يقرر بوضوح وجوب إثبات هذه الصفة مع نفي معنى الجارحة والمشابهة ، ويرد على من فسر اليد بالقدرة أو النعمة [1] في حديث تفضيل آدم المشهور لكن الكوثري مع هذا يعلق على كلامه بما يناقض مراد البيهقي الذي يقرر أن التخصيص يدل على التفضيل مما يدل على ثبوت هذه الصفة بما يليق بجلاله ، يعلق الكوثري فيقول :

" وذلك بالعمل على معنى العناية الخاصة " [2] .

وهذا تحريف لمراد البيهقي ، وهو تعطيل لدلالة النص المثبت لصفة اليد للرحمن عز وجل .

ولا أظن الكوثري لم يظهر له مراد البيهقي ، ولكنه يحاول صرف الكلام إلى ما يتفق واعتقاده .

ومع ذلك نراه يؤيد ابن قتيبة عندما أبطل تأويل اليد بالنعمة عند الكلام على قوله تعالى : (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ) ، يقول ابن قتيبة :

" لايجوز أن يكون أراد في هذا الموضع النعمة لأنه قال (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ) [3] " [4] فيقول معلقاً عليه : وبحث المصنف عن المفردات ... وإن أصاب في إبطال تأويل اليد هنا بالنعمة أو القدرة " [5] ؟

وظاهر كلامه أنه ينكر على من فسر اليد بالنعمة أو القدرة مما قد يستدل به على أنه موافق للسلف في ذلك ؟

---

١) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ٣٠٢ – ٣٠٣ .

٢) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٠٣ .

٣) المائدة ٦٤ .

٤) حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٢٧.

٥)حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٢٦ .

ولكن الأمر ليس كذلك فإن الكوثري إنما ينكر تفسير هذه الآية نفسها بالنعمة أو القدرة إذ إن معناها عنده " استعارة تمثيلية على مصطلح أهل البلاغة " [١] .

والاستعارة عند أهل البلاغة نوع من المجاز فالآية لا تدل على إثبات صفة اليدين لله ، بل هو ينفي تأويلاً ويثبت تأويلاً آخر .

فمن خلال هذه النصوص يتبين :

١- أن الكوثري في هذه الصفة يقول بقول المعطلة النفاة وذلك بتأويلها إلى معنى القدرة أو النعمة أو العناية .

٢- يرى أن إثباتها على حقيقتها بدون تشبيه تجسيمٌ وتركيبٌ .

لكن ما موقفه أمام النصوص الدالة على هذه الصفة ؟

الكوثري في ذلك متابع لمن قبله من أئمة التعطيل ، فهو إما أن يقوم بتأويلها وإما أن يطعن في ثبوتها .

فإن كانت النصوص والأدلة في القرآن الكريم سعى إلى تأويلها وحشد كلام المعطلة حول هذه الآيات . بل يصرح بذلك فيقول ملزماً ابن القيم بأن هذه المعاني إما أن تكون أعضاء أو مجازات عن صفات : " فإن اعترف بعد السؤال من أهل اللغة بأنها أعضاء يكون المركب منها من القسم الأول فيكون عابد جسم ذي أعضاء وإن لم يعترف بأنها أعضاء بل قال إنها مجازات عن صفات ثابتة له تعالى فقد ترك مذهبه " [٢] .

فالمسألة عنده قسمان لا ثالث لهما ؛ إما إنها أعضاء ؛ وإما إنها مجازات عن إحدى الصفات السبع كالقدرة مثلاً ، هذا إذا كان النص في القرآن .

وأما إن كانت الأدلة من السنة سعى أولاً إلى تأويلها إن كانت في الصحيحين أو أحدهما فإن أعجزه ذلك طعن في ثبوتها ورجالها .

---

١) نفسه ٢٦ .

٢) حاشيةالسيف الصقيل ١٨٧ .

١- يقول عن قوله تعالى (قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ) [١] :

" يعني لما خلقت بعناية خاصة " [٢] .

ويزيدها بياناً بقوله :

" أي بعناية خاصة وبدون توسط أب "[٣] ،

ويرى أن هذا المعنى هو الذي تدل عليه آية ال عمران وهي قوله تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) .

فكما خلق آدم بعناية خاصة بلا أب ، فكذلك خلق عيسى بعناية خاصة من غير أب [٤] ، وينقل عن الرازي و والراغب ، والقاسمي تأويل هذه الآية بالنعمة أو العناية الخاصة [٥] .

٢- قوله عز وجل : (بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ)

وهي لا تدل أبداً عند الكوثري على إثبات صفة اليدين ، بل هي مجاز عن الإنفاق .

يقول : " وسيأتي من المصنف [٦] أن غل اليدين وبسطها ضرب مثلاً للإمساك فتكون الآية استعارة تمثيلية " [٧] .

فهو هنا يقرر أمرين :

الأول : أن الآية مجاز عن العطاء .

الثاني : أن ابن قتيبة يقول بذلك [٨] .

---

١) ص ٧٥ .

٢)حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٢٨ .

٣) حاشية الأسماء ٣٠٠ ، ومثله في حاشية النظامية ٣٤ وحاشية السيف ٢٠٩ .

٤) انظر حاشية الأسماء والصفات ٣٠٠ .

٥) انظر حاشية دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي ١٣ .

٦) يعني عبد الله بن مسلم ابن قتيبة .

٧) حاشية الاختلاف في اللفظ ٢٦ .

٨) سيأتي بيان فساد هذا .

وينقل عن الرازي مستدلاً بقوله :

" فلما كان المقصود من اليد حصول القدرة أطلق اسم القدرة على اليد ، ولأن آلة إعطاء النعمة اليد فإطلاق اسم اليد على النعمة إطلاق لاسم السبب على المسبب " [1] .

وهو كما ترى كلام واضح .

وهذا المعنى الذي نقله الكوثري عن الرازي معنى باطل لتعطيله النصوص ، وهو من كلام الجهمية المعطلة .

يقول ابن بطة :

" فقالت الجهمية : معنى اليد النعمة .

ولو كان كما زعموا لم يقل يداه ، ولقال بل مبسوطة ، ولو كان معنى اليد النعمة لم يقل بيديّ ولقال بيديْ أو بنعمتي لأن نعم الله أكثر من أن تحصى ." [2]

يقول شيخ الإسلام :

" وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل عملت كذا وكذا بيدي وهو يعني به النعمة وإذا كان الله خاطب العرب بلغتها وما تجده مفهوماً في كلامها ومعقولاً في خطابها ، ولا يجوز أن يقول القائل : لي عليه يدين يعني به نعمتين " [3]

٣- قولـــه تعـــالى : (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ) [4] .

ثبت في الحديث الصحيح دلالة هذه الآية على جملة من الصفات هي اليد واليمين والقبض والأصبع [5] .

---

١) حاشية دفع شبهة التشبيه ١٤ .

٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ٣/ ٣١٦

٣) بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ٢/ ٢٢

٤) الزمر ٦٧ .

٥) سيأتي .

فعن أبي هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض " [(١)]

٤ – عن ابن مسعود ﷺ قال : أتى رسول الله ﷺ رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم أبلغك أن الله عز وجل يحمل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع والثرى على إصبع والخلائق على إصبع ... " . [(٢)]

يقول الكوثري : " فضحك النبي ﷺ فيه لا يدل على تصديق ذلك ، وإن ظنه بعض الرواة تصديقاً – في بعض الطرق – بل يدل على الإنكار والاستهجان " " بل نزول قوله تعالى (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) أي تحت تصرف مالك يوم الدين لا يجري لأحد سواه حكم في ذلك اليوم (وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ) أي بقدرته لا حساب على سكانها بخلاف أهل الأرض فإنهم محاسبون (سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) عقب حديث حبر اليهود ؛ دليل واضح على الإنكار وعلى أن إثباتهم الأصابع الحسية بالوجه السابق إشراك " [(٣)] .

ويقول عن الحديث أيضاً :

" لم يرد في حديث وضع السماوات على إصبع إضافة الأصابع إلى الرحمن أصلاً ، وهذا كذب وتصرف ... " ثم ينقل عن ابن العربي قوله : " وأما ذكر الأصابع فصحيح ولكن لم ترد مضافة ، إليه تعالى " [(٤)] .

قد ورد في مسلم أن المقسطين على يمين الرحمن ، وقلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الله [(٥)]

---

١) أخرجه البخاري التفسير لتفسير معنى الآية وفي كتاب التوحيد ، وهو في مسلم وأحمد وابن ماجه والدارمي ، وقد سبق الكلام على هذا الحديث ، والرد على الكوثري .

٢) رواه البخاري – رقم الحديث ٤٤٣٧ – كتاب تفسير القرآن ، باب تفسير قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) ، ومسلم – رقم الحديث ٤٩٩٣ – كتاب صفة القيامة و الجنة و النار ، والترمذي ٥ / ٣٧١ – ٣٧٢ ، وأحمد ١ / ٣٢٤ ، ٣٧٨ ، ٤٢٩ ، ٤٥٧ ، وابن حبان ١٦ / ٣١٩ ، ٣٢٢ .

٣) حاشية السيف الصقيل ٥٦ .

٤) حاشية السيف الصقيل ٥٧ .

٥) سيأتي ، ذكر هذه الأحاديث قريباً .

ويقول عن الآية : يدل على إنكار ما قاله الحبر كما قال ابن حجر في شرح البخاري رداً على ابن خزيمة ، وتوحيد ابن خزيمة من أهيف الكتب "[1] .

وقال : " وإن صح الاحتجاج بمثل ذلك فإنما يصح عند – عدم المعارض – في الأعمال فقط دون الاعتقاد على أن تلاوته ﷺ (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ) عند ذكر حديث الحبر في الصحيح تعارضه إذا لم يحمل خبر مسلم على المجاز ، فيوجد بين أهل العلم من لا يستدل بمثله في الأعمال ، فضلاً عن الاعتقاد ، ومع هذا كله لا يحتج بما دون المشهور من الأحاديث في ذات الله وصفاته عند جمهور أهل الحق ، فكيف يحتج بذلك الحديث في باب الاعتقاد "[2] .

ومن خلال هذه النقول نلخص مآخذه على الحديث بما يأتي :

١- أن ضحك الرسول ﷺ أنكاراً على اليهود لإثباتهم الأصابع والقبض وليس تصديقا لهم ، بدليل تلاوته الآية !

٢- أن الأصابع غير مضافة إلى الرحمن

٣- أن الحديث حديث آحاد لا ينفع في باب الاعتقاد !

والجواب :

أما الزعم الأول ، فإنه يتضمن الطعن في الرسول ﷺ ـ فطن الكوثري أم لم يفطن ـ وتجهيل الصحابة .

فكيف يقال إن النبي ﷺ ، يسمع الوصف الباطل ـ في زعمه ـ لله من اليهود ولا ينكر ذلك ، ؟ بل ، ويضحك ! هذا من أشد المحال أن يكون وقع منه ﷺ .

يقول ابن خزيمة :

"قد أجل الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يوصف الخالق الباري بحضرته بما ليس من صفاته ، فيسمعه فيضحك عنده ، ويجعل بدل وجوب التكبير والغضب على المتكلم به ضحكاً تبدو نواجذه ، تصديقاً وتعجباً لقائله ! .

---

١) حاشية السيف الصقيل ٥٧ .

٢) نفسه ٥٩

لا يصف النبيَ صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة مؤمنٌ مصدق برسالته . "[1]

وأما تجهيل الصحابة ، فإنه قد ثبت ، أنهم فهموا من هذه المحاورة ، بين الرسول ﷺ واليهودي ، ثم ضحكه ﷺ ، الإقرار ، ووصف الله بهذه الأوصاف .

هذا وقد صرح الصحابي ، بأن الرسول إنما ضحك ، تصديقاً للحبر .

جاء في الحديث " فضحك رسول الله ﷺ تعجباً ، مما قال الحبر ، تصديقاً لـه ، ثم قرأ .. "[2]

فأي الفهمين ، أجدر بالقبول ، فهم الصحابة أم فهم الكوثري ؟ .

وهذا الكلام الباطل ، إنما أخذه الكوثري من القرطبي[3] ، وقد أنكر ابن حجر عليه هذا القول "لما فيه من الطعن على ثقات الرواة ، ورد الأخبار الثابتة ، ولو كان الأمر على خلاف ما فهمه الراوي بالظن للزم منه تقرير النبي صلى الله عليه وسلم على الباطل وسكوته عن الإنكار ، وحاشا لله من ذلك . "[4]

وأما زعمه أن الأصابع لم ترد ، مضافة إلى الله ، فعجيب من مثله ، وهو صاحب حديث ، واسع الاطلاع ، لا أظنه يخفى ، على أمثاله ، وورود نسبة الأصابع إلى الله .

فقد ثبت ذلك ، في الحديث المشهور (إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .)[5]

وأخيراً ، فقوله (يدل على إنكار ما قاله الحبر كما قال ابن حجر في شرح البخاري رداً على ابن خزيمة) فهو ليس بصحيح ، بل تقولٌ على ابن حجر ما لم يقله ، بل خلاف ما قاله ، وأراده ، بل ذلك كذبٌ عليه فإن ابن حجر يقول :

" وقد اشتد إنكار ابن خزيمة على من ادعى أن الضحك المذكور كان على سبيل الإنكار ، فقد قال بعد أن أورد هذا الحديث في كتاب التوحيد من صحيحه بطريقه : قد

---

١) كتان التوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة ٧٦ .

٢) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة ١٧ / ١٢٩ ــ ١٣٠

٣) ذكر ذلك في كتابه المفهم في شرح مسلم ١ / ٧٤.

٤) فتح الباري ١٣ / ٣٩٩ .

٥) رواه مسلم ٤ / ٢٠٤٥ ، وأحمد ٢ / ١٦٨

أجل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يوصف ربه بحضرته بما ليس هو من صفاته ، فيجعل بدل الإنكار والغضب على الواصف ضحكاً " [1]

فأنت ترى أن ابن حجر ، يتأيد بقول ابن خزيمة ، ويستدل به ، ويشير إلى كتابه (التوحيد) وينقل منه ، وهو الكتاب الذي يقول فيه الكوثري (وتوحيد ابن خزيمة من أهيف الكتب) !

فما رأي الكوثري في هذا ؟ كأني به يقول ، هذا ليس بصحيح عن ابن حجر ، فإن النسخة التي نقل عنها هذا الكلام ، قد بدلها الحشوية كما هي عادتهم !

وأما الزعم بأنه حديث آحاد ، فقد مضى الكلام عليه [2] .

– حديث تفضيل آدم بأن الله خلقه بيده

وهو من ضمن أدلة السلف على إثبات صفة اليد لله عز وجل .

ورأيه في هذا الحديث واضح جلي وقد مر بنا عند الكلام على قوله تعالى (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) .

— روى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — أن النبي ﷺ تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة . فأتى رجل من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : بلى . قال: تكون الارض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : ألا أخبرك بإدامهم ؟ قال: إدامهم بالام ونون . قالوا : وما هذا ؟ قال: ثور ونون ، يأكل من زائدة كبدها سبعون ألفاً " [3] .

يقول عن حديث أبي سعيد هذا :

---

١) هدي الساري ٣٩٩

٢) وقد مضى الكلام على أحايث الآحاد في مقدمة مبحث الصفات وفي مبحث الإستواء

٣) رواه البخاري ك الرقائق باب وما قدروا الله حق قدره ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٣٠٣ ،

" ينكر النسائي على البخاري تخريجه أحاديث ابن بكير ويقول ابن حزم في سعيد بن أبي هلال: ليس بالقوي وقد ذكره بالتخليط يحيى وأحمد." [1]

أما طعنه في يحيى بن بكير، وإنكاره على البخاري إخراج حديثه، فليس بمسلم له، فإنما أنكر من أنكر على البخاري، لأن في يحيى كلاماً بسبب سماعه من مالك.

وإلا فهو ثقة إذا روى عن الليث، وهذا من روايته عن الليث.

قال ابن عدي: أثبت الناس في الليث." [2]

وقد قال البيهقي:

" رواه البخاري في الصحيح عن يحيى بن بكير. وأخرجه مسلم من وجه آخر عن الليث." [3]

وهذا القول للبيهقي في كتابه الأسماء والصفات وفي الموضع نفسه الذي علق عليه الكوثري وهو يدل على أن يحيى بن بكير لم ينفرد به، بل تابعه في الليث غيره عند مسلم.

فماذا يقول الكوثري؟!

وأما تضعيف ابن أبي هلال فهو خلاف ماذكره أئمة الشأن يقول ابن حجر: احتج به الجماعة، و وثقه ابن سعد والعجلي وأبو حاتم وابن خزيمة والدارقطني وابن حبان وآخرون، وشذ الساجي فذكره في الضعفاء، ونقل عن أحمد تخليطه، وابن حزم إنما تبع الساجي، فضعفه مطلقاً و لم يصب في ذلك." [4]

هذه أقواله تجاه هذه النصوص القرآنية والنبوية دالة على نفيه لدلالتها وتأويله لصفة اليد مرة إلى القدرة ومرة إلى النعمة، والملاحظ أنه لم يأت بدليل إثبات على قوله، واكتفى بالرد والنفي والدفاع عن معتقد الماتريدية في هذه الصفة.

الوجه

أما الوجه فعنده هو ذات الرب، فلا يثبت له وجهاً يليق به، يقول:

---

١) حاشية الأسماء والصفات ٣٠٣

٢) هدي الساري ٤٥٢

٣) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٠٣

٤) هدي الساري ٤٠٦

" قال الزمخشري في الكشاف : (وجه ربك) ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات ، ... " [1] ونقله هنا عن الزمخشري إقراراً منه بذلك .

وهو صرح بذلك في موضوع آخر حيث قال متحدثاً عن قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ) [2]

" وهذه الآية نص على أن المراد بالوجه الذات،لاصفة من الصفات ، ولا عضو من الأعضاء ، فالقول بأنه صفة غير وجيه "

بل يرى إثبات ذلك تجسيماً فيقول : " وأما حمله على العضو المخصوص كما هو مذهب المجسمة فمردود " [3] .

بل ويستدل على نفي الصفة من قولة تعالى (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) فيقول :

"والمراد بقولة (وجه ربك) الذات العلية بدليل رفع ذي الجلال بعده " [4] .

ولا يقول قائل هذا هو معنى الآية على معتقد السلف ، وليس فيما نُقل دلالة على نفيه صفة الوجه إذ إن الكوثري لا يفسر قوله تعالى (وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) بدلالة سياقها ومفهومها العام الذي يقرر هلاك الخلق جميعاً وبقاء الله وحده ، ولكنه يقرر نفي صفة الوجه لله من هذه الآية ومن غيرها .

ويقال في هذا ما قيل في موقفه تجاه صفة اليد .

العينان

جرى فيه على النسق السابق ، يقول : " وأما قوله (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا) فبمعنى تحت علمنا ، في فهم أهل اللسان ، فلا محيد عن هذا الفهم " [5] .

---

١) حاشية دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي ١٢ .

٢) القصص ٨٨ .

٣) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي (٢٨٧) .

٤) حاشية العقيدة النظامية للجويني (٣٤) .

٥) نفسه ٣٤

ويقول معترضاً على استدلال البيهقي بحديث الدجال في إثبات صفة العينين لله :

لم ترد صيغة التثنية في الكتاب والسنة ، وما يروى عن أبي الحسن الاشعري من ذلك فمدسوس في كتبه بالنظر إلى نقل الكافة عنه ، وأما من قال : له عينان ينظر بهما فهو مشبه قائل بالجارحة تعالى الله عن ذلك " [1] .

وقد سبق الرد على تشنيعه بالجارحة .

وأما نفيه ماثبت عن الأشعري من إثبات هذه الصفة ، فهي دعوى بلا برهان ، فهذا كتابه متداول ، ثابت النسبة إليه . [2]

ولهذا أجد الكوثري يجنح إلى دلالة الآية في العموم فيقول :

" يقول الرازي في أساس التقديس عن الكلام على العين : لابد من المصير إلى التأويل وذلك هو أن يحمل هذه على شدة العناية والحراسة " [3] .

لكن هنا نص يبين بجلاء ووضوح رأي الكوثري في هذه الصفة وما سبقها ، يقول:

"ومن ذكر من السلف أن العين واليد صفتان تبرأ بهذا اللفظ عن القول بالجارحة ، بل يكون قائلاً بأن المراد بالعين معنى قائم بالله ، وكذلك اليد ، لا أُعيِّن ذلك المعنى المراد بأن أقول إنه الرؤية أو الحفظ ، أوالقدرة أو النعمة أو العناية الخاصة ، يكون تعيين المراد من بين المحتملات الموافقة للترية تحكماً على مراد الله ، وتسميته لهما صفتين تدل على أنه جازم بأنهما ليستا من قبيل أجزاء الذات تعالى الله عن ذلك . " [4] .

فالنص يبدى لنا أموراً :

١. تقريره إثبات السلف لهذه الصفات بكونها صفات حقيقية .

٢. أن هذه الصفات ليست عنده على دلالتها الظاهرة بل هي معنى كلي قائم بـــالله غير محدد المراد .

فالعين قد يكون معناها الحفظ وقد يكون الرؤية لكن بدون جزم لأحد المعاني .

٣. أنه يفهم من إثبات هذه الصفات معنى الجارحة التي في المخلوق .

٤. أنه تناقض بهذا القول مع بقية أقواله في أمور :

---

١) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٩٧.

٢) ينظر كتاب الإبانة عن أصول الديانة للأشعري ٩٥ – ٩٦

٣) حاشيةدفع شبهة التشبيه ١٢ .

٤) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٦٧ .

أ / فهو هنا يثبت أن السلف وإن أثبتوا هذه الصفات لكنهم لا يرونها لا أعضاء ولا جوارح ولا أجزاء ، مع أنه شنع في مواضع على أئمة السلف بإثباتهم لها وألزمهم القول بالأعضاء يقول مناقشاً ابن القيم : " هل القدم واليد والجنب أعضاء أو صفات ؟ :فإن اعترف بعد السؤال من أهل اللغة بأنها أعضاء يكون المركب منها من القسم الأول [1]، فيكون عابد جسم ذي أعضاء ، وإن لم يعترف بأنها أعضاء بل قال إنها مجازات عن صفات ثابتة له تعالى فقد ترك مذهبه " [2] .

ب / أنه نص على أحد هذه المعاني بأنه المراد[3] مع أنه يرى هنا أن هذا تحكم على مراد الله !

٥. أن الكوثري إن أراد بقوله (تبرأ بهذا اللفظ عن القول بالجارحة) نفي التشبيه بصفة المخلوق فقد أصاب ، وإن أراد بذلك نفي حقيقة الصفة بتأويل دلالتها الظاهرة إلى ما يسميه معنى قائم بالله فقد أخطأ ، وهذا الأخير هو الذي أراده وذلك لأنه لم يفهم مثل أسلافه المؤولة والمتكلمين — من هذه النصوص إلا معنى الأعضاء والتشبيه التي للمخلوق ، لا الصفة المتعلقة بالله كما يليق به عز وجل

الساق

ومن بين ما نفاه الكوثري صفة الساق ، وقد تعرض لهذه الصفة في مواضع عدة [4] أوسعها موضعان ، في تعليقه على (الأسماء والصفات) للبيهقي وفي تعليقه على كتاب (دفع شبهة التشبيه) لابن الجوزي ، ولأن الكلام واحد أكتفي بأحدهما يقول :

" ومما قاله الرازاي في تفسير هذه الآية : يوم يكشف عن ساق جهنم أو عن ساق العرش أو عن ساق ملك مهيب عظيم ، واللفظ لا يدل إلا على ساق ، فأما إن ذلك الساق

---

١) يعني الجسم

٢) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٨٦ .

٣) قد مر سابقا في الصفحة السابقة

٤) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٥٩ .

ساق أي شيء هو فليس في اللفظ ما يدل عليه " [1] . ونقل مثله عن القاسمي[2] ، وابن العربي والراغب ، و الألوسي ، وابن حزم[3] .

وهذا تفسير للآية منه وممن نقل إنما هو بالنظر إلى الآية منفردة دون تفسير الرسول ﷺ لها ، وهذا المعنى يكون صحيحاً لولا ورود الحديث المشار إليه الدال على أن الآية من نصوص صفات الرب عز وجل .

لهذا تنبه الكوثري لدلالة الحديث المتفق عليه فسارع إلى تعطيله ونقض دلالته بتضعيف ما ورد في البخاري ومسلم من روايتهما ، فبعد رواية الحديث (يكشف ربنا عن ساقه) يقول :

" وقال الحافظ ابن حجر[4] : "ووقع في هذا الموضع (يكشف ربنا عن ساقه) وهو من رواية سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم فأخرجها الإسماعيلي كذلك ثم قال : في قوله "عن ساقه " نكرة ، ثم أخرجه من طريق حفص بن ميسرة بن زيد بن أسلم بلفظ (يكشف عن ساق) قال الإسماعيلي هذه أصح لموافقتها لفظ القرآن في الجملة أ.هـ ثم قال الكوثري : " وقد أخذ ابن شاقلا على البخاري إخراجه حديث الساق في صحيحة لأنه من رواية ابن أبي هلال ويراه ليس من شرطه لضعفه ، وقال ابن حزم أيضاً : ابن أبي هلال ليس بالقوي قد ذكره بالتخليط يحي وأحمد بن حنبل " [5] .

وهوهنا يقرر أن رواية البخاري بهذا اللفظ ضعيفة وذلك :

١- أن بعض الأئمة ضعفها (ابن حجر ، الإسماعيلي ، ابن حزم) .

٢- لأن فيها سعيد بن أبي هلال وقد ضعفه ابن شاقلا وابن حزم وكذا ابن معين وابن حنبل .

٣- الحديث شاذ لورود لفظ (ساقه) في رواية ابن أبي هلال .

بينما روي بلفظ " ساق " وأيضاً لأن الرواية الأخيرة أقرب للقرآن[6] .

---

١) حاشية دفع شبهة التشبيه ١٦ .

٢) نفسه ١٧.

٣) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٢٤.

٤) وصفه ابن حجر بالحافظ انما جاء عند الاستعانة به مع أن يذمه ذماً قبيحاً .

٥) حاشية دفع شبهة التشبيه ١٧ .

٦) سيأتي الرد على هذا .

وهذه جرأة عظيمة من الكوثري حيث طعن في هذا الحديث الذي رواه البخاري وغيره وإنما فعل ذلك لأجل تعطيله لصفات الله .

أما تضعيف ابن حجر ، وابن حزم لها ، فليس بصحيح ، فإني لم أجد ابن حجر تكلم على الحديث عند شرحه .[1]

وأما كلام ابن حزم في الحديث ، إنما هو في الكلام على ابن أبي هلال وهو كلام لا مستند له عليه ، إذ هو صدوق ، أخرج له الشيخان ، وقد وثقوه [2] وقد مر الكلام عليه قريباً [3] .

---

١) انظر فتح الباري ١٣ / ٤١٩ –٤٩٤

٢) انظر التقريب ٢٤٢

٣) مر الكلام عليه صفحة ٣٩٨

الفرع الثالث :

العلو

المطلب الأول :

معنى العلو والأقوال فيه

المطلب الأول :

معنى العلو والأقوال فيه .

صفة العلو لله من أعظم صفات الباري التي نص عليها وأشار إليها ، ولمح لدلالتها ، وهذه النصوص المتكاثرة تدل على علو حقيقي يليق بالباري عز وجل .

ومما لا يخفى أن نصوص الشرع المنزلة على النبي ﷺ إنما تعرف معانيها من خـــلال كلام العرب الذين تنـــزل بلسانهم القرآن ، وتكلم به النبي الكريم ﷺ .

يقول صاحب القاموس : عُلْوُ الشيء ، مثلثة ، وعُلاَوته ، بالضم وعالِيَتُه : أَرْفَعُه . وعلا عُلوًّا ، فهو عليٌّ ...

وعلا النهار : ارتفعَ كاعتلى واستعلى . وعلا الراية : رَكِبَها ... والعلياء : السمَاءُ ، ورأسُ الجبل ، والمكانُ العالي ، وكلُ ما على من شيء [1] [2] .

و " العلوُ ضد السُفل ... والعلو الارتفاعُ " [3] .

وهذه كما ترى تدل على الارتفاع ومشتقاته .

يقول متمم بن نويرة في وصف ناقة :

حتى إذا لقحت وَعُولِيَ فوقَها قَرِد يَهُم به الغراب الموقِعُ [4] .

يعني ارتفع فوقها سنام نما بعضه فوق بعض .

---

١) القاموس ١٦٩٤ .

٢) ومع ظهور هذا المعنى نرى الفيروز يقول : " والعلي : الشديد القوي ، وبه سمي " كأنه يريد المولى ، فغلب عليه التقليد .

٣) المفردات للراغب ٣٤٤ .

٤) المفضليات ٤٩ .

ومثله قول المرقش الأصغر (ربيعة بن سفيان) :

وما قهوة[1] صهباء كالمسك ريحها تُعلَّى على الناجور[2] طوراً وتقدح[3]

وتعلّى : ترفعُ [4] .

هذا في كلام العرب أما نصوص القرآن كثيرة منها قوله تعالى : (إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيين) .

أما الفوقية فلها عدة معانٍ نذكر منها ما يتعلق ببابنا فيقول الله عز وجل : (وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ)[5] ففيه دلالة ظاهرة المعنى على الارتفاع والعلو الحقيقي .

وقوله تعالى : (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا)[6] ويقول في سورة النور (أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ)[7] يقول صاحب القاموس : " فوق : نقض تحت يكون اسماً وظرفاً " [8] .

ولا شك أن أصل الكلمة في العلو والارتفاع ثم اشتق منها معاني المترلة والتقدمة والعزة الخ . فلهذا نجد أن العلو والفوقية تدور على معنيين : الأول العلو الحقيقي ، والثاني علو الشأن وفوقية العزة ، جاءت نصوص الوحي للدلالة على المعنيين مرة ، وعلى أحدهما بقرينة مرة أخرى .

---

١) يريد الخمر .

٢) الناجور : المصفاة التي يصفى بها الخمر .

٣) المفضليات ٢٤٢ .

٤) المفضليات ٢٤٢ .

٥) البقرة ٦٣ .

٦) فصلت ١٠ .

٧) النور ٣٩ .

٨) القاموس ١١٨٧ .

ولهذا لم يوجد عند تنـــزل الوحي من التبس عليه هذا المعنى وإنما حدث ذلك مـــن الجهمية الأولى التي القت الشبه لما في عقولها من فلسفة الوثنية الأولى .

قال ابن قدامة : " وأول من خالف في ذلك فيما علمنا الجهم بن صفوان فعاب ذلك عليه وعلى أصحابه الأئمة " (١) .

أقسام الناس في العلو

أولاً من المعلوم أن بني آدم أطبقت على الإقرار بكون الخالق في العلو ذلـــك فطـــرة يجدونها مستقرة في نفوسهم إلا من تغيرت فطرته بالشبهات ، ولهذا أجمع سلف هذه الأمـــة على إثبات علو الله على حقيقته الموافق للفطرة ، وقد نقل الشيخ عبد القادر الجيلاني اتفاق كتب الأنبياء على ذلك (٢) ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والفطرة السوية ومع ذلك كله نجد في الأمة من شذ وخالف سلف هذه الأمة نافياً حقيقة العلـــو ، أو محرفـــاً دلالـــة النصوص لمعان باطلة . فقال " الباري لا في مكان " (٣) ، ومنهم من رأى أن : " الباري في كل مكان " (٤) . وهؤلاء لا يقولون هو على عرشه حقيقة بل يحرفون ذلـــك إلى معـــان باطلة .

أما الصنف الثاني فإنهم يقولون : " إن الله سبحانه بكل مكان وأنه مع ذلك مســـتو على عرشه " (٥) .

أما الصنف الثالث الذين فوضوا المعنى ، وأثبتو نصوص العلو والفوقية مع تصريحهم أنهم لا يعرفون لها معنى ولا يزيدون على الإيمان بالنص دون لوازمه الصحيحة . ولهذا يرون أنّ النصوص في ذلك من المتشابه . يقول البغدادي : واختلف أصحابنا في هذا فمنهم مـــن قال إن آية الاستواء من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله (٦) .

---

١) إثبات صفة العلو ١٤٢ .

٢) غنية الطالبين ٦٣/١ .

٣) مقالات الكوثري ١٥٧ .

٤) مقالات الكوثري ١٥٧ .

٥) مقالات الكوثري ٢٩٩ ، الفتاوى ١٢٤/٥

٦) أصول الدين للبغدادي ١١٢ .

وأما الصنف الرابع : فهم المهتدون الذين يرون مادلت عليه نصوص القرآن والسنة والعقل والفطرة من إثبات علو الله حقيقة ، وأنه عز وجل فوق سماواته ، على عرشه ، بائن من خلقه ، يعلم حالهم ، لا يخفى عليه منهم شيء .

وهذا قول عامة المسلمين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم من أئمة العلم والدين .

المطلب الثاني :

رأي الكوثري في العلو ونقده

المطلب الثاني :

رأي الكوثري في صفة العلو

تمهيد :

من خلال تتبع أقوال الكوثري في صفة العلو يتبين لنا أنه يرى في هذه الصفة رأي المتكلمين من الماتريدية وغيرهم ، فإن المتكلمين يرون أن الله لا داخل العالم ولا خارجه ، وذلك منهم نفياً لكون الخالق عز وجل فوق العالم حقيقة .

ولهذا فالله عند الكوثري لا داخل العالم ولا خارجه ، يقول رداً على ابن القيم :

"من يعلم هذا البجباج النفاج أنواع التقابل ، والفرق بين الضدين والنقيضين ؟ ومن يفهمه أن الدخول والخروج ضدان لا نقيضان قد يرتفعان عما ليس بجسم بخلاف النقيضين ؟"[1] .

وهذا منه منافحة عن استدلال المتكلمين عندما ألزموا بأن القول بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه يستلزم رفع النقيضين . فقرر الكوثري أن الخروج والدخول ضدان يمكن نفيهما لا نقيضان .

فنأخذ من هذه المحاورة إقراره باستدلال المتكلمين النافين لصفة علو الله عز وجل مما يدل على عدم إثباته لهذه الصفة بمعنى علو الذات .

على أن رده لابن القيم لم يخل من طعن في إمام من أئمة السلف وعدم إصابة الحق ، فإن مراد الإمام ابن القيم – رحمه الله – نفي الدخول والخروج في هذا العالم الكروي الموجود وهذا يتقابل تقابل النقيضين ، مما يستلزم العدم المحض ، وهذا ما فهمه أئمة السلف قديماً وحديثاً .

والحق أن القول بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ممتنع شرعاً وعقلاً .

أما شرعاً فالأدلة المتواترة المتكاثرة التي تصف الله بأنه فوق العالم .

---

١) حاشية السيف الصقيل ٨٨ .

وأمَّا عقلاً فلأن الله مباينٌ للعالم قطعاً ، والعالم كروي " فإذا كان العالم كرياً وقد ثبت بالضرورة أنه إما مداخل له وأما مباين له وليس بمداخل قطعاً ثبت أنه مباين قطعـاً ، وإذا كان مبايناً فإما أن يكون تحته أو فوقه بالضرورة وليس تحته بالضـرورة ، وجـب أن يكون فوقه بالضرورة ، ولا جواب عن هذا البتة إلا بنفي النقيضين ، وهو أنه لا مباين ولا مداخل ، وهذا حقيقة العدم المحض " [1] .

ولهذا حكم أئمة السلف على القائلين بذلك بالكفر ، والقول بنفي وجود الرب – عز وجل – وذلك لأن هذا لازمه ومدلوله .

سئل الإمام أحمد عمن قال : إن الله تعالى ليس على العرش ؟ فقال : كلامهم كلـه يدور على الكفر " [2] .

وقال حماد بن زيد [3] : إنما يريدون يدورون على أن يقولوا ليس في السماء إله " [4]

وسئل الإمام أبو حنيفة عمن يقول : لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض فقال : من لم يقر أن الله على العرش فقد كفر " [5] .

والكوثري لم يفهم من دلالة النصوص على العلو إلا معنى علو الشأن والقدر وعلـو القهر

يقول :

" إنما التأويل الصحيح ما أشار إليه الباجي من استعمال العرب لفظ (هو في السماء) يعنون علو شأنه ورفعة منزلته بدون ملاحظة كونه في السماء أصلاً كقول الشاعر :

علونا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهراً

---

١) الصواعق المرسلة ١٢٨٠/٤ .

٢) طبقات الحنابلة ٤٢١/١ انظر مسائل أحمد ٣١٨/١ .

٣) حماد بن زيد أبو إسماعيل الأزدي ، مولى آل جرير بن حازم البصري ، الأزرق الضرير العلامة الحافظ ، الثبت ، محدث الوقت ، أحد الأعلام ، سمع من: أنس بن سيرين ،وعمرو بن دينار ،وثابت البناني ، وخلق كثير. روى عنه : سفيان ، وشعبة ، وابن مهدي ، وابن المبارك ، وامم سواهم . روى له الجماعة . قال الذهبي : لا أعلم بين العلمـاء نزاعاً ، في أن حماد بن زيد من أئمة السلف، ومن اتقن الحفاظ وأعدلهم ، وأعدمهم غلطاً ، على سعة ما روى رحمه الله . مات سنة (١٧٩هـ) ، [طبقات ابن سعد ٢٨٦/٧، الجرح والتعديل ١٧٦/١ ، ١٣٧/٣، تهذيب التهـذيب ٩/٣ ، تذكرة الحفاظ ٢٢٨/١، السير ٤٥٦/٧] .

٤) العرش للذهبي ١٨٧/٢ .

٥) العرش للذهبي ١٧٨/٢ .

وظاهر أنه لم يرد إلا علو الشأن " [١] .

ويقول : " وإن كان للفظ (في السماء) متسع في اللغة وكثيراً ما يعني بـه علـو الشأن فقط . " [٢] .

ويقول : " واستعمال العلو ومشتقاته في اللغة العربية بمعنى علـو الشـأن في غايـة الشهرة رغم تقول المجسمة " [٣] .

والذي دفعه إلى هذا أنه ظن أن إثبات العلو الحقيقي يستلزم أن يكون الله جسـماً ومن ثم نفاه ، حيث يقول : " وكيف يتصور ذلك في الله تعالى المتره عن الجسـم ولـوازم الجسمية " [٤] .

فأمَّا الدعوى الأولى ففيها مغالطة ، حيث إنَّ استعمال لفظ العلو يراد به علو المكان وعلو المكانة أو أحدهما دون الآخر بقرينة ، والشأن ليس في دلالة اللغة على المعنيين ، ولكن الشأن في حصر دلالته على أحدهما دون الآخر .

والكوثري يريد حصر دلالة نصوص العلو الشرعية في علو الشأن والقـدر بـدون قرينة ، كيف وقد جاءت النصوص للدلالة على المعنيين بدلالة السياق ودلالة تفسير الرسول ﷺ بالإشارة ونحوها ودلالة فهم الصحابة والتابعين وأئمة الدين ؟!

والكوثري متناقض ، فهو يثبت العلو الحقيقي إذا وافق رأيه ، وينفيه إذا خالف هواه فيقول راداً على منكري رفع عيسى :

"فإن حمل الرفع هنا على رفع المكانة لا يظهر له وجه اختصاص بهذا الموقـف ، لأن أولي العزم من الرسل يكون كل واحد منهم رفيع المكانة دائماً " [٥] ؟

وهذا ردٌّ عليه ، من فيه ، وأزيد فأقول : فالله رفيع المكانـة دائمـا ، فـلا وجـه للاختصاص هنا .

وأمَّا الدعوى الثانية فشبهة قد تولَّى الرد عليها أئمة المسلمين .

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٢٠ .

٢) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٩٧ .

٣) حاشية السيف الصقيل ١٠٠ .

٤) نفسه ٤٢ .

٥) نظرة عابرة للكوثري ٣٣ .

وهذه المقولة التي يرد بها نفاة الصفات ـــ أعني أن إثبات العلو ، يستلزم وصف الله بالجسم ـــ مقولة باطلة ، فإن لفظ الجسم ، من الألفاظ المجملة ، التي تتضمن حقاً وباطلاً ، فإن أراد من ينفي العلو بالجسم ، المجتمع من الأعضاء ، أونحوها ، فإن هذا باطل ، قطعاً .

وإن أراد به ما هو " موصوف بالصفات ، أو أنه يرى في الآخـــرة ، أو أن يمكـــن رؤيته ، أو أنه مباين للعالم فوقه ، ونحو هذه المعاني الثابتة بالشرع والعقل .

قيل له : هذه معان صحيحة ، ولكن إطلاق هذا اللفظ على هذا بدعة في الشرع ، مخالف للغة ، فاللفظ إذا احتمل المعنى الحق والباطل ، لم يطلق ، بل يجب أن يكون اللفـــظ مثبتاً ، للحق نافياً للباطل . " (١)

" ولهذا كل من أثبت شيءً قال لمن أثبته ، إنه مجسم .

فغلاة النفاة من الجهمية ، والباطنية يقولون لمن أثبت له الأسماء الحسنى ، إنه مجسم ، ومثبتة الأسماء دون الصفات من المعتزلة ، ونحوهم ، يقولون لمن أثبت الصفات ، إنه مجسم ، ومثبتة الصفات دون ما يقوم به من الأفعال الاختيارية ، يقولون ، لمن أثبت ذلـــك ، إنـــه مجسم ، وكذلك النفاة " (٢)

والله كما يرى الشيخ الكوثري يجل أن يكون له مكان يحويه فلا يقال "إن الســـماء ظرف له ، ولا أن العرش مستقر ذاته " (٣) .

والله عنده" متره عن المكان والنقلة والمسافة " (٤) .

" والقائل بالجهة والحد خارجاً عن معتقد أهل الحـــق رغـــم تقـــولات الحشـــوية وتشغيباتهم " (٥) .

" فمن أثبت له تعالى جهة فقد أثبت له أمثالاً وأشباهاً مع أنه لا مثيل له ولا شبيه له تعالى بل لعائن الله على من يثبت له ما لم يثبت الكتاب ولا السنة من الجهة ونحوها " (٦) .

---

١) منهاج السنة لشيخ الاسلام ٢/٢١١- ٢١٣ .

٢) نفسه ٢ / ٢١٣- ٢١٤ .

٣) حاشية السيف الصقيل ٢٧ .

٤) الإمتاع بسيرة الامامين الحسن بن زياد وصاحبه محمد بن شجاع للكوثري ٣٩ .

٥) حاشية التبصير في الدين ٩٥ .

٦) حاشية السيف الصقيل ١١٥ .

فهو يقرر هنا ، عدم جواز وصف الله ــ سبحانه ــ بالمكان ، والنقلة ، والحد ، والجهة ، وقد سبق الكلام على هذه الألفاظ المجملة .

ولعل قائلاً يقول هذا الكلام المنقول عن الشيخ الكوثري كلام صحيح ، ورأي صائب فما الخطأ في نفي المؤمن هذه الأمور عن الله ؟ وكيف يكون الكوثري منكراً للعلو من خلال هذه النصوص ؟

وهذا الكلام في ظاهره حق ، لا يقول به أئمة السلف ، فالله لا يحويه مكان بمعنى لا يحصره ويحيط به بل هو بكل شيء محيط ، ولكن هل أراد الشيخ الكوثري هذا المعنى فقط ؟ الحق يقال إنه لم يرد هذا المعنى .

فإن الكوثري يترع إلى ألفاظ مجملة لم ترد نصاً في القرآن أو السنة ، فيضمنها نفي صفات الله عز وجل ، فهنا يصرح بنفي المكان عن الله والجهة والجسمية وغيرها من المعاني المجملة لينتهي إلى كون النصوص الواردة في العلو والفوقية إنما تدل على معنى القدْر والمترلة فقط دون العلو الحقيقي الذي يليق بالرب عز وجل وأسوق هنا نصين له يؤيدان ما قررته :

الأول : قوله : " العلو ومشتقاته من صفات التنزيه تعالى الله عما يصف به المجسمة ، والحمل على علو المكان نزعة وثنية ، قال[1] ابن تيمية (والباري سبحانه وتعالى فوق العالم فوقية حقيقة ليست فوقية الرتبة ، كما أن التقدم على الشيء قد يقال أنه بمجرد الرتبة كما يكون بالمكان ، مثل تقدم العالم على الجاهل ، وتقدم الإمام على المأموم ، فتقدم الله على العالم ليس بمجرد ذلك ، بل هو قبلية حقيقية ، وكذلك العلو على العالم قد يقال أنه بمجرد الرتبة كما يقال العالم فوق الجاهل ، وعلو الله على العالم ليس بمجرد ذلك ، بل هو عال عليه علواً حقيقياً ، وهو العلو المعروف والتقدم المعروف)أ.هـ " فيعلق الكوثري قائلاً : " فهل يشك عاقل أن ابن تيمية يريد بذلك الفوقية الحسية والعلو الحسي تعالى الله عما يأفكون " ؟[2]

فهو هنا يسمي العلو الحقيقي الذي قرره شيخ الإسلام بالعلو الحسي وبالفوقية الحسية ، للوصول إلى نفيه أولاً ، وللتنفير عنه ثانياً ! مع أن شيخ الإسلام لم يثبت ما يسميه تجسيماً أوحسياً .

---

١) الكلام ما زال للكوثري .

٢) حاشية السيف الصقيل ١٠٠ – ١٠١ ومثله في حاشية التنبيه والرد للملطي ١٠٧ .

الثاني : أن ابن فورك قال عند تفسير قوله تعالى : (مَنْ في السَّمَاء) أي من فوقها . علق الكوثري على ذلك فقال : " وهذا إخراج للآية عن ظاهرها من غير داع ، فليكن (**مَنْ في السَّمَاء**) هو خاسف سدوم بأمر الله سبحانه " (١) .

وجرى الشيخ الكوثري في العلو على هذا المجرى ، فضاق صدره من كثرة المثبتين لحقيقة العلو من أئمة السلف والخلف ، وبرم بنقل ابن القيم إجماع أهل العلم على ذلك ، فطفق يطعن بعضاً منهم ، ويتأول للبعض الآخر ، ويقول : فكيف ساغ له أن يروي هنا الإجماع على الفوقية على خلاف البراهين العقلية والنقلية القائمة " (٢) .

فابن عباس ومجاهد الرواة عنهما هلكى لا تقبل روايتهم حتى في حيض النساء ، ومقاتل بن سليمان شيخ المجسمة ، والكلبي هالك ، وأبو العالية لم يصح السند إليه ، وتفسير مجاهد في الاستواء طرقه ضعيفة ، وأبو عبيدة شعوبي ، والأشعري لماذا تقبلون كلامه مع طعنكم فيه ، والبغوي ساقط لأن تفسيره يرويه عن مقاتل والكلبي .

ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأبو يوسف وأحمد وابن المبارك كلهم يقولون بالاستواء دون " الفوقية الحسية " أو " الجهة " ، واعتقاد الشافعي المنقول في ثبت الكوراني كذب موضوع . وأما ابن خزيمة فجاهل بعلم أصول الدين ؟ يعني لا يفقه العلو ! وكتابه (التوحيد) كتاب شرك كما ينقل الرازي ! وهو خفيف العقل والفهم ، وليس هو ممن أخذ عن المزني بل زاغ عن السبيل ، وهو يخطئ في المعتقد مرات ، وأما ابن عبد البر الذي صرح بنقل الإجماع على العلو والفوقية إنما يصح نقله في علو التنزه والقهر والغلبة لا بمعنى إثبات المكان له تعالى ؟ وابن أبي زيد والكرخي مجسم صريح ، وأما الدارمي عثمان بن سعيد فله الويل والثبور حاله كحال حرب بن إسماعيل الكرماني وحشيش بن أصرم منحرف عن الاستقامة ، وعبد الله بن أحمد فلا حب ولا كرامة فكيف يروي كتاب السنة ؟ وابن أبي حاتم جاهل بعلم الكلام والذي هو علم أصول الدين ؟ ومحمد بن أبي شيبة مشبه كذّاب ، وابن أبي داود يكفي كلام أبيه فيه ، وابن أسباط لا يحتج به في الرواية فضلاً عن الصفات ، واللالكائي والطلمنكي سامحهم الله (٣) .

---

١) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٣٨١ .

٢) حاشية السيف الصقيل ١٢٢ .

٣) انظر نص هذه العبارات على حاشية السيف الصقيل ٢٢٤ – ٢٢٥ بتصرف .

كل هذا الاندفاع والتخطئة لأنهم أثبتوا علواً حقيقياً وفوقية حقيقية تليق بـــالله .. ثم يقول : " ولن يثبت عن هؤلاء سوى أنهم كانوا يقولون إنه تعالى استوى على العرش بـــلا كيف ، وإنه القاهر فوق عباده بلا كيف ، وأين هذا مما يدعو إليه الناظم ؟ " [1] .

وهو يريد هنا أن يقول إن ثبت عنهم ما نقل فهم لم يزيدوا على أن قالوا بـــالنص بدون معنى خاص ، فهم مفوضة . وهذا منه لأصل فهمه الخاطئ لمعتقد السلف .

والناظم ابن القيم لم يزد على أن نقل عنهم أنهم كانوا يقولون : إن الله فوق سماواته مستوٍ على عرشه حقيقة لا معنى مبهم غير مدرك .

وهنا نقطة الخلاف ، فالكوثري لا يرى إثبات علوٍ حقيقي ، وهو العلو المعـــروف الذي يسميه جهة ومكاناً .

وأئمة السلف — ومنهم ابن القيم وشيخه — يثبتون دلالة النصوص من العلو الحقيقي وعلو القهر والمكانة .

والعجيب من حال الكوثري أنه يشتد في النكير على مثبتي العلـــو الحقيقـــي لله ولا يعتذر لهم بأية حال ، وهو في الوقت نفسه يلين مع القائلين إن الله في كل مكان ؟

يقول : " وأما قول من يقول إنه تعالى في كل مكان — بالنظر إلى نقل المصـــنف — فظاهره قول بالجسم على حد قول من يقول إنَّه في مكان دون مكان إلا إذا أراد تنـــــزيهه تعالى عن الحلول في المكان والزمان ، فضاقت عبارته عـــن ذلـــك ، فيكـــون خطـــأ في التعبير " [2] ؟

يريد أن من اعتقد أن الله في كل مكان مثل قول من يقول أنه في مكـــان كلاهمـــا مجسم ، إلا إذا أراد الأول بقوله : في كل مكان تنـــزيه الله عن المكان فهو على حق ؟

ولو أنه عدل لقال أيضاً في الذين ينكر عليهم إثبات العلو إلا إذا أرادوا تنـــــزيه الله عن الجمادات والمعدومات والحلول والاتحاد ؟ هذا هو العدل ، لكن الكوثري مـــال مـــع هواه .

من خلال هذا الفهم الباطل انطلق الكوثري راداً على أئمة الســـلف وكـــثيراً مـــا يشتمهم وينبزهم بالألقاب المنفرة ، نافياً لصفة العلو كما أثبتها أئمة السلف ، محرفاً دلالـــة النصوص الشرعية بما يسميه تأويلاً .

---

١) نفسه ١٢٥ .

٢) نفسه ٩٨

لهذا نراه يضيق ذرعاً بإثبات البيهقي للعلو كما أثبته أئمة السلف فيقول : " ويقع وصف الله سبحانه بالعلو على العرش في كلام المصنف وكلام ابن مهدي الطبري [١] ، ومرادهما ليس العلو الحسي ، وإلا لما استقام الشرح الذي يلي إثبات العلو له تعالى ، حيث تجدهما يجردان العلو عن جميع لوازم العلو الحسي ، فظهر أنهما يريدان علو الشأن والمكانة "[٢] .

ومن خلال النص يتبين أن الكوثري يقرر أمرين : أولهما أنه ينفي العلو الحقيقي ، وثانيهما أن البيهقي والطبري ينفيانه ولا يثبتان إلا علو الشأن .

فأما الأمر الأول فهو ما يعتقده كما ترى ، وأما الثاني فهو تجني عليهما ، وتقرير غير صحيح ، فإن أبا الحسن الطبري يقول : " إن الله تعالى في السماء فوق كل شيء مستو على عرشه بمعنى أنه عالٍ عليه ومعنى الاستواء الاعتلاء كما يقول استويت على ظهر الدّابة واستويت على ظهر السطح بمعنى علوته ، واستوت الشمس على رأسي ، واستوى الطير على قمة رأسي بمعنى علا في الجو فوجد فوق رأسي " [٣] .

وقد تتبعت كلام الكوثري على هذه الصفة فرأيته لا يخرج في معتقده عن معتقد الأشاعرة والماتريدية فيها وذلك بنفي هذه الصفة ، جلداً في ذلك ، طاعناً في مثبتها ، راداً لأدلتها بكل وجه .

وهذه الأدلة عبارة عن عشرات النصوص القرآنية والنبوية الصحيحة الدالة على العلو بمعانيه الثلاثة علو القدر وعلو القهر وعلو الذات .

فما موقف الكوثري تجاه هذه النصوص ؟ لا يعدوا موقفه موقف المتكلمين النفاة قبله .

فإن كان الدليل في كتاب الله حصر دلالته في معنى علو القدْر أو القهر .

فإن كان النص لا يتوجه له جنح إلى ما يسميه تأويلاً .

وأما إن كان في السنة الصحيحة ، فإن كان في غير الصحيحين بادر إلى تضعيفه ورده ، وإن كان فيهما أو أحدهما جنح للتأويل فإن شق عليه لم يتردد بحشد النقول في

---

١) يعني البيهقي وأبا الحسن علي الطبري ، وأبو الحسن الطبري هو علي بن محمد بن مهدي الطبري ، صحب الأشعري بالبصرة وتخرج به ، وصنف التصانيف . [تبين كذب المفتري ، لابن عساكر ١٩٥] .

٢) حاشية الأسماء والصفات ٣٨١ .

٣) كتاب الاسماء والصفات للبيهقي ٣٨١ .

تضعيف أحاديثهما فإن صعب عليه رده بدعوى : أحاديث آحاد لا تصلح للمطالب العقدية !

وسوف يتضح ذلك من خلال سرد هذه الأدلة ، وبيان رأيه فيها ، وبيان وجه الحق في ذلك وفق معتقد السلف الصالح .

الدليل الأول : قوله تعالى : (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ)

وهذه الآية من أعظم الأدلة لدى السلف في تقرير علو الذات لكن الكوثري لأجل هذا يقول : " ليكن (مَنْ فِي السَّمَاءِ) هو خاسف سدوم بأمر الله سبحانه "[1] .

وهذا التفسير هل أخذه عن أئمة السلف بسند صحيح ؟ أم هو رأي تبناه ؟ لا هذا ولا هذا بل هو قول للرازي نقله عنه حرف به دلالة الآية .

والأشد من هذا أن الكوثري لا يرى أن تفسيره للآية بهذا المعنى تأويلاً كما يسميه ، بل يرى أنه الظاهر منها ، وأن تفسير الآية (مَنْ فِي السَّمَاءِ) بالفوقية الحقيقية إنما هو تأويل لظاهرها يقول : " أن السماء مسكن الملائكة ... وبينهم خاسف سدوم ، ولا داعي لصرف الآية عن ظاهرها تعالى الله أن يكون له مكان "[2] .

وهذا غريب مخالف لما اتفق عليه أهل السنة ، بل حتى من ذهب إلى تأويلها يرى أن ظاهرها يدل على العلو الحقيقي ومن ثم سعى إلى تأويلها !

وليس هذا التفسير الذي ذهب إليه الكوثري من تفسير السلف ، وإنما يذكره من يذكره بلا نسبة ، فقد قال الألوسي : " وقيل جبريل عليه السلام ، وهو الملك الموكل بالخسف ، وأئمة السلف لم يذهبوا إلى غيره تعالى "[3] .

والكوثري ظنَّ أنَّ نسبة الضمير في الآية (مَنْ فِي السَّمَاءِ) إلى الله يستلزم إحاطة السماء به لأن حرف (في) يفيد ذلك كما مر

---

١) حاشية الاسماء والصفات ٣٨١ ، ٣٩٠ .

٢) نفسه ٣٩٠ .

٣) روح المعاني للألوسي ٢٥/١٦ .

وهذا المعنى باطل ، لأنَّ حرف (في) في الآية بمعنى (على).

قال أحمد بن إسحاق بن أيوب : " قد تضع العرب (في) بموضع (على) قال الله عز وجل (فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ) وقال (لأُصَلِّبَنَّكُمْ في جُذُوعِ النَّخْلِ) ومعناه علـــى الأرض ، وعلى النخل ، فكذلك قوله في السماء أي على العرش فوق السماء " [1] .

وهذا الكلام أعلاه في كتاب الاسماء والصفات للبيهقي الذي علق عليه الكوثري ، لكنه هنا لم يعقب !.

وقال أبو عبيدة عن قوله تعالى (فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ) :

" وقال آخرون : حتى إذا كنت أنت ومن معك على الفلك ، لأن (في) و(على) واحد كقوله (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ) [2] أي على جذوع النخل " [3]

والعرب تطلق حرف(في) بمعنى (على)كقولهم " صلى فلان في ســـيفه " أي وعليـــه سيفه .

قال أبو ذؤيب :

يعثرن في حد الضبات كأنما   كسيت برودَ بني تزيد الأذرع[4]

فهو يصف حمر الوحش بعد أن أصيبت بحدِّ السِّهام فجعلت تعثر وتســـقط علـــى السهام .

وهذا ما فهمه أئمة السلف وأكثر الخلف من الآية .

قال أحمد بن حنبل " وقد أخبرنا أنه في السماء ، فقال : (ءَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ) [5] .

وقد مرَّ بنا كلام البيهقي في الآية ، وابن مهدي الطبري أيضاً .

---

١) الأسماء والصفات للبيهقي ٣٩٠ .

٢) طه ٧١ .

٣) مجاز القران لأبي عبيدة معمر بن المثنى ٢ / ٥٧

٤) المفضليات للمفضل الضبي ٤٢٥ .

٥) الرد على الجهمية للامام أحمد بن حنبل ١٣٧ — ١٣٦ .

يقول أبو الحسن الأشعري : (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ) فالسماوات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السماوات قال : ءأمنتم من في السماء ، لأنه مستوٍ على العرش الذي فوق السماوات " [1] .

وهذا الباقلاني قد صرَّح بالاستدلال بالآية على دلالة كون الرب عز وجل في السماء حقيقة فعندما سئل : هل تقولون : إنه في كل مكان ؟ قال : معاذ الله ، بل هو مستوٍ على عرشه ، كما أخبر في كتابه فقال : (الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى) وقال : (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) " [2] .

الثاني : قوله تعالى (وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [3] وهي من أدلة السلف على علو القدر والقهر وعلى علو الذات أيضاً ، لكن ما رأي الكوثري في دلالتها ؟

يقول : " ومن الخرق أن يظن من قوله تعالى عن القبط (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) ركوب القبط على أكتاف بني إسرائيل [4] مع إمكان ركوب جسم على جسم ، وكيف يتصور ذلك في الله تعالى المتره عن الجسم ولوازم الجسمية ، واعتبار ذات الله فوق عباده فوقية مكانية إلحاد ليس من مدلول الآية في شيء " [5] .

وهذا المعنى الذي ذكره الكوثري ونقله عن ابن جهبل ليس له فيه سلف يعتدُّ به ، ولم يقل به إمام من أئمة السنة .

والأصل في الكلام الحقيقة ولا يجوز صرفه إلا بقرينة واضحة .

ثم إن هذا المعنى فضلاً عن أنه من المعاني المبتدعة هو لا يستقيم مع سياق النص ، فالله يخبر أنه القاهر بالغلبة والقهر والقوة ، ثم أفاد معنىً زائداً وهو أنه فوقهم حقيقة ، ولو كان قوله (فَوقَ عِبَادِهِ) بمعنى القهر والغلبة لكان معنىً مكرراً لا فائدةً كبيرةً فيه .

---

١) الإبانة الكبرى لابن بطة ٨٦ وقد نقله من طريقه الذهبي في كتاب العرش ٢/٢٩٥ .

٢) العرش للذهبي ٢/٣٣٧ .

٣) الأنعام ١٨ .

٤) أخذ هذا المعنى عن ابن جهبل الأشعري – انظر طبقات الشافعية ٩/٤٧ .

٥) حاشية السيف الصقيل ٤٢ .

هذا ولو سلمنا حصر معنى النص على هذا على علو القهر والغلبة لم يفد ذلك نفي صفة العلو الحقيقي لله عز وجل ، إذ إنَّ هذه الآية ليست النص الوحيد للدلالة على ذلك المعنى بل هي ضمن مئات الحجج لذلك .

فلا يستفاد من إلغاء معناها بطلان ثبوت صفة العلو بمعانيه .

وهذا النوع من موقف الكوثري أمام أدلة العلو هو من جنس حصر دلالته في علـو القهر ، فهو هنا يقرر أن معنى (وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) [1] أي هو قاهر لهم بقوته كما أن قوله تعالى عن فرعون (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُوْنَ) [2] إنا قاهرون لهم بقوتنا ، وظاهرونا بعددنا !

الثالث : حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما الذي جاء فيه قوله ﷺ : (أنتم مسؤولون عني ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أن قد بلغت وأديت ونصـحت ، فرفـع إصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس وهو يقول : اللهم فاشهد) [3] .

فهذا كما ترى ذو دلالة بينة بالإشارة الحسية إلى العلو مما بنى عليه أئمة السلف دلالة علو الذات .

يقول الكوثري معترضاً :

" أين في الحديث ذكر الإشارة إلى الله ؟ وهكذا تكون مثل أمانة الناظم وشيخه [4] ؟ وهل صدر منه ﷺ في خطبة عرفات سوى أن رفع إصبعه ثم نكبها إليهم ، وهل في ذلك دلالة على أن رفعه كان يشير به إلى جهة الله سبحانه ؟ تعالى الله عن ذلك .

والخطيب يرفع يده وينكبها كيف شاء في أثناء خطبته ، وجعل ذلك حجة في شيء لا يصدر إلا ممن في قلبه مرض " [5] .

وهذا الكلام منه يتضمن مع نفي علو الله ما يأتي :

١- إنكار دلالة الإشارة مع سياق قوله ﷺ : اللهم فاشهد ؟

---

١) الأنعام ١٨ .

٢) الأعراف ١٢٧ .

٣) رواه مسلم ٢١٣٧ كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ .

٤) يعني بالناظم ابن القيم وبشيخه شيخ الإسلام .

٥)حاشية السيف الصقيل ١٠٤ ، مقالات الكوثري ٤٢١ .

٢- تجهيله للصحابة الذين نقلوا هذا الخبر ومنهم جابر حيث فهموا منه الإشارة إلى الله .

٣- أن هذه الإشارة منه ﷺ من قبيل أسلوب الخطيب في خطبته .

٤- أن من استدل بإشارته ﷺ على مدلول خاص فهو مريض القلب ؟

وهذه الأمور التي يقررها الكوثري كلها باطلة .

فأما الأول فالسياق يدل دلالة لا لبس فيها أن الرسول ﷺ يشير إلى السماء قائلاً : اللهم فاشهد أي مخاطباً ربه -عز وجل - بهذا !

وأي دلالة أوضح من ذلك ؟ كيف وقد أكد هذا الفهم أحد الحاضرين - وهو أولى من فهم الكوثري - كيف وإذا كان هذا الحاضر صحابياً ؟!

وأما تجهيله للصحابة فهو أنهم فهموا معنى سياق الكلام والإشارة والذي عبر عنه جابر بقوله (إلى السماء) مع قوله ﷺ (اللهم فاشهد) والكوثري يرى من فهم أنه إشارة إلى الله ففي قلبه مرض !

واللافت للانتباه أن الكوثري لم يطعن في الحديث كعادته بل اكتفى بالتشغيب .

الرابع : حديث الجارية المشهور

وهو حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه — في حديث طويل وفيه — قال : وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك علي قلت يا رسول الله أفلا أعتقها قال " ائتني بها فأتيته بها فقال لها : أين الله ؟ قالت : في السماء قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله قال أعتقها فإنها مؤمنة ".[1]

فقد بذل الكوثري جهداً كبيراً في مناقشته ما بين طعن في الحديث سنداً ومتناً ، وبين تأويل دلالته ، كل ذلك ليتفق مع معتقده في هذه الصفة .

---

١) رواه مسلم (٨٣٦) كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ، ومالك في الموطأ ٢ / ٧٧٦ — ٧٧٨ ، وأبو داود في السنن ١ / ٥٧٠ وأحمد في المسند ٥ / ٤٤٧ ، والدارمي في الرد على الجهمية ٢١ ، والنسائي ٣ / ١٤ ، وابن أبي عاصم في السنة ، وعبدالله بن أحمد في السنة ١ / ٣٠٦ ، وابن خزيمة في التوحيد ١ / ٢٧٨ ، واللا لكائي في شرح أصول اهل السنة ٣ / ٣٩١ ، ابن قدامة في العلو ٤٦ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وهو من الأحاديث العظيمة التي تلقته الأمة بالقبول .

وأستطيع أن أجمل أهم اعتراضات الكوثري على إثبات العلو من خلال هذا الحديث بما يأتي :

أولاً : الطعن في قبول الحديث بعدة طعون :

١- انفراد عطاء بن يسار بهذا الحديث عن الحكم ، واضطراب روايته فيه ، يقول : " وراوي هذا الحديث عن ابن الحكم هو عطاء بن يسار ، وقد اختلفت ألفاظه فيه ، ففي لفظ له : " فمد النبي ﷺ يده إليها وأشار إليها مستفهماً ... فتكون المحادثة بالإشارة " [1] .

٢- اضطراب سنده ، ومتنه ، يقول : " لأن الحديث فيه اضطرابٌ سنداً ومتناً " [2] .

٣- أن لفظ " أين الله " ليس من كلام الرسول ﷺ ، بل من أحد الرواة ! يقول : " فيكون اللفظ [3] الذي أشار إليه الناظم والمؤلف [4] لفظ أحد الرواة على حسب فهمه لا لفظ الرسول ﷺ " [5] .

٤- أن الحديث في سنده يحيى بن أبي كثير يقول : " مدلس وقد عنعن " [6] .

٥- أنه ربما أُدخل هذا الحديث في مسلم وليس هو فيه ، فإن البيهقي أشار إلى ورود حديث الحكم في مسلم دون ذكر قصة الجارية لهذا علق الكوثري

١) حاشية السيف الصقيل ١٠٧ .
٢) نفسه ١٠٧ .
٣) يعني (أين الله) .
٤) يريد بالناظم ابن القيم وبالمؤلف السبكي .
٥) حاشية السيف الصقيل ١٠٧ .
٦) حاشية الأسماء والصفات ٣٩٠ .

بقوله : " قصة الجارية مذكورة فيما بأيدينا من نسخ مسلم ، لعلها زيدت فيما بعد إتماماً للحديث أو كانت نسخة المصنف ناقصة " [1] .

٦- أيضاً قال : " و لم يخرجه البخاري في صحيحه " [2]

ثانياً : أن دلالة هذا الحديث مخالفة للدلائل العقلية !

يقول : " وأما عدم صحة الاحتجاج به في إثبات المكان له تعالى فالبراهين القائمة في تنـزه الله سبحانه عن المكان والمكانيات والزمانيات " [3] .

ثالثا : الحديث لا يصلح في باب الاعتقاد ، ولكن في باب العمل ، فيقول : ومثل هذا الحديث يصح الأخذ به فيما يتعلق بالعمل دون الاعتقاد " [4] .

رابعاً : أن الصحابي معاوية بن الحكم ﷺ ليس بفقيه ، بل هو أعرابي يتكلم في الصلاة ! وقد روى القصة بالمعنى ، والرواية بالمعنى من غير الفقيه لا تصح .

يقول : " إذا وقعت الرواية بالمعنى من غير الفقيه فهناك الطامة الكبرى ، وصاحب القصة لم يكن من فقهاء الصحابة ، ولا له سوى هذا الحديث في التحقيق ، بل كان أعرابياً يتكلم في الصلاة " [5] !

خامسا : على فرض صحة الحديث وألفاظه ، ذهب إلى صرف معناه ، يقول : " فيكون معنى " أين الله " ما هي مكانة الله عندك ، ومعنى " في السماء " أنه تعالى في غاية من علو الشأن " [6] .

---

١) نفسه ٣٩٠ .

٢) نفسه ١٠٧ .

٣) حاشية السيف الصقيل ١٠٨ – ١٤٢ .

٤) نفسه ١٠٧ .

٥) نفسه ١٠٨ .

٦) نفسه ١٠٩ .

هذه طعون الكوثري في هذا الحديث الصحيح ، وفي دلالته ، مما يدل على جـــلاء موقفه في صفة العلو لله [1] .

وقبل أن أشرع في الرد عليه ، لا بد أن أشير إلى أن هذا الحديث مـــن الأحــاديــث المقطوع بصحتها ، و لم أعلم أحداً من أئمة السلف شكك في صحته ، بـــل تلقتـــه الأمـــة بالقبول ، وأول من عرف عنه الطعن فيه هم الجهمية المعتزلة .

ـــ فأما دعواه اضطراب الحديث فمما لا يسلم له وذلك لأن الاضطراب لا يكون إلا بين الروايات المتساوية في القوة ، أما إذا ترجح بعضها انتفى الاضطراب .

وهذا ما قرره ابن الصلاح في علوم الحديث حيث يقول عن الحديث المضطرب :

" وإنما نسميه مضطرباً إذا تساوت الروايتان ، أما إذا ترجحت إحداهما ، بحيـــث لا تقاومها الأخرى بأن يكون راويها أحفظ ، أو أكثر صحبة للمروي عنه ، أو غير ذلك من وجوه الترجيحات المعتمدة ، فالحكم للراجحة ، ولا يطلق عليه حينئذ وصف المضطرب ولا له حكمه . " [2] ،

فلا تساوٍ بين الروايات التي تروي القصة بأن الجارية أجابت بنفسها وبين الرواية التي أشار إليها الكوثري وأفادت أنها أشارت برأسها . فيمكن الجمع بينها و تقديم الأقوى التي رواها مسلم .

ـــ وأما قوله بأن لفظ " أين الله " ليست من كلام الرسول ﷺ بل هو مـــن أحـــد الرواة ، فهو كلام ضلال لا شك في ذلك ، واتباع هوىً بين ، والكوثري يعلم أشد العلم أن من القواعد المتقررة في علم الحديث عدم التشكيك في متون الحديث إذا صح الســند إلا بحجةٍ ناصعة .

والقول بالظن في هذا يفتح الباب لأهل البدع بله للزنادقة والملاحدة برد الأحاديث الصحيحة بالهوى .

---

1) حاشية الأسماء والصفات ٣٩٠-٣٩١ .

2) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ٤٤ ، وانظر النزهة ، لابن حجر ٢١ ، وشرح قصب السكر للصنعاني

وهي جرأةٌ منه على ما تقرر في هذا العلم الشريف ، ولو أن غير الكوثري قال بذلك لأمكن الاعتذار له ، لكن أن يأتي ذلك من الكوثري الذي لا يشك أحدٌ في سعة اطلاعه ومعرفته للقواعد الحديثية فهذا مما لا جواب له

ـــ وأما الطعن في السند لأجل عنعنة يحيى بن أبي كثير فإنَّ ذلك مما لا يضر ، فقد ثبت تصريحه بالتحديث عند أحمد ، وابن خزيمة [1] ، والحديث مرويٌّ بسندٍ صحيحٍ بصيغة التحديث عند أحمد ، وابن خزيمة [2] ، وغيرهم .

ثم إنَّ الحديث صح من غير طريق يحيى بن أبي كثير عند مالك ، والشافعي ، والدارمي ، وابن خزيمة ، والبيهقي [3]

ـــ وأما القول بأن قصة الجارية زيدت في بعض نسخ مسلم ، فهو قولٌ شنيعٌ لم يسبق إليه ، فلو كان كذلك لما سكت عن ذلك العلماء المحدِّثون المعتنون بدواوين السنة الذين لا يهابون في سبيل ذلك شيئاً ، فهل دفع الكوثري لقول هذا الكلام القبيح قول البيهقي في الأسماء والصفات ، بعد أن روى حديث الجارية "أخرجه مسلم مقطعاً دون قصة الجارية " [4] ؟

لكني لا أظن أن ذلك وحده هو الذي دفعه ، وإنما لما يوافق هواه في رد قصة الجارية وإلا فهذا القول من البيهقي لا يكفي للتشكيك في وجود الحديث في مسلم ، فهو خبرٌ واهمٌ فيه يقيناً لا شك فيه ، لأن مسلماً روى هذا الحديث مقطعاً في كتاب السلام [5] ، بدون ذكر قصة الجارية ، وقد رواه بطوله مع القصة في كتاب المساجد [6] .

فلعل البيهقي اطلع على روايته له في كتاب السلام فقال ما قال ، لأن من عادة مسلم ، عدم تكرار الحديث إلا قليلاً ، فالحديث صحيحٌ ثابتٌ في مسلم وفي غيره .

---

١) مسند أحمد (باقي مسند الأنصار) ٢٢٦٥١ ، وكتاب التوحيد لابن خزيمة ١٢١

٢) مسند أحمد (باقي مسند الأنصار) ٢٢٦٥٢ ، وكتاب التوحيد لابن خزيمة ١٢٢

٣) الموطأ لمالك ك/ العتق ب/ ما يجوز من العتق ٢/٧٧٦ ، والرسالة للشافعي ٧٥ ، والأم له ٥/٢٨١ ، والرد على الجهمية للدارمي ٣٨ ، وكتاب التوحيد لابن خزيمة ١٢٢ ، ١٢٣ ، والسنن للبيهقي ٧/٣٨٧

٤) الأسماء والصفات للبيهقي ٣٩١ .

٥) رواه مسلم ك / السلام ، باب / باب تحريم الكهانة ١٤ / ٢٢٣.

٦) رواه مسلم ك / المساجد ، باب / تحريم الكلام في الصلاة ٥ / ٢٠ - ٢٤

— وأما قوله إن الصحابي معاوية بن الحكم ، ليس ، بفقيه ، وكان أعرابياً يتكلم في الصلاة ! فهو من أعجب الأمور .

وهو طامة من طامات القول ، فلا يليق هذا الكلام على أحد من أصحاب النبي ﷺ ، ولو كان هذا الكلام حقاً لكان سوء أدب مع صحبه ﷺ ، كيف وهو غلط بين ؟! وغني عن القول أن أئمة السلف ضللوا من طعن في أصحابه ﷺ ، وذموه أشد الذم .

فكون معاوية بن الحكم ﷺ ليس بفقيه غير مسلم له ، نعم ليس من فقهائهم ، لكن لا يسلب عنه الفقه مطلقاً ، فقد ظهر منه الحرص على العلم وفقه الذي أخبره ﷺ .

ثم ولو لم يكن من فقهاء الصحابة لا يضره ولا يغير من قبول الحديث شيئاً لأن مدار الرواية السَّماع والحفظ .

ثم قوله " بل كان أعرابياً يتكلم في الصلاة " !

فزعمه إنَّه كان يتكلم في الصلاة ، كذبٌ ظاهر ، فقد صلى مع النبي ﷺ ، وكان حديث عهد بالإسلام فجهل أنَّ الكلام في الصلاة من الأمور المحرمة فتكلَّم ، فلما وجهه النبي ﷺ علم فالتزم فكيف يقال : كان يتكلم في الصلاة مما يشعر أنه كان هذا حاله ؟! [1]

فالصحابة كانوا يعبدون الأصنام ، فهل هذا يعيبهم لما علموا الحق وأسلموا ؟!

ثم قوله " بل كان أعرابياً يتكلم ...... " ! ما دخل أعرابيته في الحديث ؟

هل منعته من الإيمان بالله وبصفاته وبرسوله ﷺ ؟ لا أعلم سبب عيب الكوثري لهذا الصحابي ﷺ بأعرابيته فقد كان مؤمناً ﷺ .

— وأما القول بأنَّ هذا الحديث مخالف للدلائل العقلية فهو كلام فاسدٌ قد مرَّ الردُّ عليه .

— وأما الاحتجاج بعدم صحته لأنَّ البخاري لم يخرجه ، فهو كلامٌ باطلٌ يعلم الكوثري مدى بطلانه ، فمن قال إن كل حديث ليس في البخاري فهو مردود ؟

ومن المعلوم أنَّ البخاري — رحمه الله — لم يلتزم حصر الصحيح وإنما التزم إخراج الصحيح [2] . لكن الكوثري يعلم هذا ، وإنما يومئ إلى أن البخاري إنما تركه لعلة حيث

---

١) انظر لهذا الوجه والذي قبله من الردود : (الماتريدية وموقفهم من الصفات) للشمس الأفغاني ٢ / ٥٥١ — ٥٥٦ . بتصرف .

٢) قد مر تقرير ذلك ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .

قال : " وأخرج في جزء خلق الأفعال ما يتعلق بتشميت العاطس من هذا الحديث مقتصراً عليه دون ما يتعلق بكون الله في السماء ، بدون أي إشارة إلى أنه اختصر الحديث "[1] .

وهذا الزعم يحتاج إلى تصريح من البخاري أو أحد أئمة الحديث ، فلا يلزم من ترك البخاري له ضعفه ، فكم ترك من صحيحٍ لم يخرجه ولعله لم يصله بسندٍ صحيح ، فتركه لذلك ، أو لعله اقتصر على الشاهد في جزء خلق أفعال العباد .

ـ وأما الزعم بأن هذا الحديث لا يصح في باب الاعتقاد ولكن في باب العمل فهو كلام أهل البدع الذين يردون الآثار .

وأول ما أبدى فيه بالرَّد على الكوثري فهو من كلامه نفسه في إبطال هذه الدعوى فقد قال : " أما الدليل اللفظي فيفيد اليقين عند توارد الأدلة على معنى واحد بطرق متعددة وقرائن منظمة عند الماتريدية كما في " إشارات المرام " للبياضي وغيره ، وإلى هذا ذهب الآمدي في (الأبكار) والسعد في (شرح المقاصد) و (التلويح) و السيد في (شرح المواقف) وعليه جرى المتقدمون من أئمة هذه الأمة ، وجماهير أهل العلم من كل مذهب بل الأشعري يقول : إنَّ معرفة الله لا تكون إلا بالدليل السمعي ، ومن يقول هذا يكون بعيداً عن القول بأنَّ الدليل السمعي لا يفيد إلا الظَّن "[2] .

بل إنَّ الكوثري ليدفع عن الرازي هذا القول مع شهرته به ، فإنَّ الرازي يقول في أساس التقديس : " إنَّ أخبار الآحاد مظنونة فلم يجز التمسك بها في معرفة الله تعالى وصفاته "[3] .

فيقول الكوثري : " وأما ما أجمله الفخر الرازي في (المحصل) فقد أوضحه في (المحصول) ، و (نهاية العقول) واعترف فيهما بأن القرائن قد تعين المقصود فيفيد الدليل اللفظي اليقين "[4] .

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٠٧ .

٢) نظرة عابرة للكوثري ٢٢ .

٣) أساس التقديس ١٦٨ .

٤) نظرة عابرة ٢٣ .

وقال : " فظهر أنَّ خبر الآحاد الصحيح قد يفيد اعتقاداً جازماً في أناس ولا يفيد البرهان العلمي اعتقاداً في آخرين ، فواحد يعتقد اعتقاداً جازماً بنزول عيسى ابن مريم بمجرد أن سمع حديثاً واحداً في ذلك من صحيح البخاري مثلاً ، وآخر لا يعتقد ذلك ولو أسمعته سبعين حديثاً ... فالناجي هو ذاك الواحد دون الآخر " [1] .

وقال : " عند تضافر الظواهر الظنية ، على معنى ، يحصل القطع لذلك المعنى كما هو الحال في خبر الآحاد المفيد للظن " [2] .

وعاب الجبائي بكثرة شذوذه عن الحق فقال : " ومن جملة شذوذه أنه يرى عدم جواز الأخذ بخبر الآحاد عقلاً " [3] .

وقال : " فخبر الآحاد الذي تلقته الأمة بالقبول يقطع بصدقه " [4] .

وقال : والاعتقاد عمل قلبي يؤخذ من خبر الآحاد [5] .

وقال : فيكون إنكار أخذ الاعتقاد من خبر الآحاد إنكاراً للدليل القطعي المفيد للعلم الموجب للعمل [6] .

وقال : " والواقع أن من قال : إن خبر الآحاد يفيد العمل فقط ، يريد بالعمل ما يشمل عمل الجوارح وعمل القلب وهو الاعتقاد [7] ، كما نص على ذلك البزدوي نفسه " [8] .

ثم نقل كلام البزدوي وقال :

" يكون إنكار أخذ الاعتقاد من خبر الآحاد إنكاراً للدليل القطعي المفيد للعلم الموجب للعمل بخبر الآحاد أعم من أن يكون عمل الجوارح وعمل القلب – وهو

---

١) نظرة عابرة ٢٣ .

٢) نظرة عابرة ٣٠ .

٣) نظرة عابرة ٤٣ .

٤) نظرة عابرة ٤٤ .

٥) نظرة عابرة ٤٤ .

٦) نظرة عابرة ٤٥ .

٧) في الأصل .

٨) نظرة عابرة ٤٣ .

الاعتقاد – فماذا يكون موقف الكاتب إزاء هذا حتى على فرض إن خبر النزول خبر آحاد ؟ " [1] .

ويقال له : فماذا يكون موقف الكوثري إزاء هذا حتى على فرض أنَّ خبر العلو الحقيقي خبر آحاد ؟!

وقال بعد ذكر أقوال الناس في إفادة الآحاد العمل بأنهُم : "متفقون على أنه يفيد العمل القلبي – وهو الاعتقاد – وإفادته العمل مقطوع بها " [2] .

وقال : " لأن خبر الآحاد يفيد عقيدة اتفاقاً كما ذكرنا نصوص أهل العلم في ذلك " [3] .

هذا بعض كلامه بحروفه يكفي في الرد عليه حيث قرر بجلاء إفادة حديث الآحاد الاعتقاد ، ووجوب الإيمان بما جاءت ، فأيُ تقرير أحسن من تقريره هو في الرد عليه ! .

وليس رأيه هذا من ترك رأي لآخر ، ولكن فيما يظهر والله أعلم أنَّ الكوثري يستنجد بكل حجة عند المسائل التي يعتقد بها ، فلما كان معتقده نفي العلو استعان بمقولة أهل البدع ، فلما استدل بها الخصم في نفي نزول عيسى عليه السلام والتي يعتقد بها الكوثري سارع إلى نقضها بأوضح حجة ، وهكذا من ليس له أصل ثابت لا بد أن يتناقض .. والله المستعان .

وهذا الأصل الباطل الذي استدل به الكوثري قد أنكره أئمة المسلمين من قديم ، فقد قال أبو المظفر منصور السمعاني رداً على من قال (إنَّ أخبار الآحاد لا تقبل فيما طريقه العلم) قال : " هذا رأيٌ سمعت [4] به المبتدعة في رد الأخبار فنقول وبالله التوفيق : إذا صح الخبر عن رسول الله ﷺ ، ورواه الثقات والأئمة ، وأسنده خلفهم عن سلفهم إلى النبي ﷺ وتلقته الأمة بالقبول ، فإنَّه يوجب العلم فيما سبيله العلم ، هذا قول عامة أهل الحديث ، والمتقنين من القائمين على السنة ، وأمَّا هذا القول الذي يذكر أنَّ خبر الواحد لا يفيد العلم

---

١) نظرة عابرة ٤٥ .

٢) نظرة عابرة ٤٧ .

٣) نظرة عابرة ٤٨ .

٤) كذا في الأصل ، ولعله " سعت " .

بحال فلابد من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم به ، حتى أخبر عنه القدرية والمعتزلة وكان قصدهم منه رد الأخبار " [1] .

ــ وأمَّا صرف معنى الحديث بالقول إنَّ معنى أين الله (ما هي مكانة الله) .

فأولاً : هو تكلف بارد أكتفي بنقضه بكلام الكوثري نفسه عندما ردَّ على منكري رفع عيسى حقيقة فيقول : " إنَّ رفع المكانة لا يخص عيسى حتى يمن الله به هنا ، بل يعمه وسائر الأنبياء والمرسلين " [2] .

ثانياً : لا يلزم من كون مكانة الله في نفس الإنسان في غاية علو الشأن أن يكون الإنسان مؤمناً ، فقد حكى الله عن المشركين أنهم يعظمون الله أشد تعظيماً من معبوداتهم ، ويرونه عز وجل أعلى وأقدر من آلهتهم ، ومع هذا لم يكونوا مسلمين !

ثالثاً : أين البينة من كلام العرب على أنَّ " أين " يسأل بها المكانة والمنزلة ؟ ثم لو كان هناك من شاهد أو دليل على ذلك أين الصارف عن حقيقة الكلام ؟

فالكوثري لا يقبل من صرف لفظ " رفعه الله " عن حقيقته إلا بصارف فيقول :

" لا صارف عن الحقيقة حتى يجوز حمل الرفع هنا على رفع المكانة " [3] .

فكذلك يقال له : لا صارف عن الحقيقة حتى يجوز حمل معنى أين على رفع المكانة

الخامس : حديث " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء " [4]

وهو جزء من حديث طويل .

وعلى غير عادته يكتفي الكوثري بتأويله الحديث تأويلاً غريباً فيقول :

" وهو أمين من في الأرض من المؤمنين وأمين سكان السماوات كلهم ، فماذا في هذا الحديث مما يرمي إليه الناظم " [5] .

---

١) مختصر الصواعق ٥٠٤ ، وهو موجود في الحجة في إثبات المحجة للأصبهاني ٢ / ٢١٥

٢) نظرة عابرة ٣٣ .

٣) نفسه ٣٣ .

٤) رواه البخاري في الصحيح ك المغازي ٥ م ٣٢٦ ، ومسلم ك الزكاة ٢ / ٧٤٢ .

٥) حاشية السيف الصقيل ١٤٥ .

فهو يرى أن المقصود ملائكة الله في السماء ليس إلا !

ونص الحديث : " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباح مساء " ؟ وفيه الإشارة إلى أن المراد ربه — عز وجل — .

السادس : حديث (حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات)...

عن سعد بن أبي وقاص — رضي الله عنه — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد يعني ابن معاذ : لقد حكمت فيهم — يعني بني قريضة — بحكم الملك من فوق سبع سموات . " [١]

يرى الكوثري أن الحديث ليس بصحيح لأمرين :

١ – فسند البيهقي فيه " الفروي وابن أبي أويس متكلم فيهما ، وقال أبو حـــاتم : التمار ليس بالقويّ . ولذا نجد ابن العربي يقول عن هذا الحديث لم يصح " [٢]

٢ – وعلى فرض صحته " فيكون معنى كون حكمه في السماء ، كون حكمه في اللوح المحفوظ الذي هو في السماء " [٣] ؟

فأما تضعيفه الحديث فغير مسلم له فالحديثُ حسن ، فقد صححه الذهبي [٤] وابن أبي العز [٥] وغيره ، فالتمار وثقه أحمد والعجلي وأبو داود ، وقال الرازي عنه : ليس بالقوي [٦] ، لذا قال الحافظ : صدوق يخطئ [٧] .

فالحديث لا يترل عن رتبة الحسن ، هذا وللحديث شاهدٌ مرسل من طريق :

---

١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (تحفة الأشراف ٣/ ٢٩٣) والبيهقي في الأسماء والصـــفات ٣٨٩ ، وذكـــره الذهبي في العلو ٣٢ ، وصححه ، وقال عن التمار : وهو صدوق .

٢) حاشية الأسماء والصفات ٣٨٩ .

٣)حاشية السيف الصقيل ١٤٤ .

٤) العلو للذهبي ٣٢

٥) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ٢ / ٣٧٨

٦) انظر هذه الأقوال في ميزان الأعتدال ١٥٩/٤ .

٧) تقريب التهذيب لابن حجر ٤٩٣ (٥٧٦٣)

١ - معبد بن كعب : أن سعد بن معاذ لما حكم في بني قريظة ، قال له رسول الله : لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع أرقعة . "[1]

٢ - ومن طريق علقمة بن وقاص عند ابن إسحاق[2] فيتقوى به .

وأصل الحديث في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد هو ابن معاذ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قريبا منه فجاء على حمار فلما دنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قوموا إلى سيدكم فجاء فجلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له إن هؤلاء نزلوا على حكمك قال فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية قال لقد حكمت فيهم بحكم الملك "[3] .

وأمَّا قوله " معنى كون حكمه في السماء كون حكمه في اللوح المحفوظ الذي هو في السماء " فهو تلاعب بلفظ وسياق الحديث بنى عليه تأويله الضعيف ، فالنص يقول : حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات " ، و لم يقل : إن حكمه في السماء ، وفرق بين نسبة الحكم لله من فوق سبع سماوات وبين كون حكم سعد في السماء .

السابع : حديث " الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء... " .

فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ، الرحم شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله "[4] .

---

١) رواه الذهبي في كتاب العرش ٤١ ، والعلو ٣٢ وقال : هذا مرسل . ورواه ابن قدامة في إثبات صفة العلو ٦٩ ، وذكره ابن حجر في الفتح ٧/ ٤١٢ .

٢) فتح الباري ٧/٤١٢ .

٣) رواه البخاري (٢٨١٦) كتاب الجهاد والسير باب إذا نزل العدو على حكم رجله و (٣٥٢٠) وكتاب المناقب باب مناقب سعد ، ومسلم في الجهاد والسير (٣٣١٤) باب جواز قتال من نقض العهد .

٤) رواه الترمذي ٤ / ٣٢٣ ـ ٣٢٤ (١٩٢٤)كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في رحمة الناس ، وقال : حديث حسن صحيح ، وأبو داود في السنن ٤/ ٢٨٦ (٤٩٤١) كتاب الأدب باب في الرحمة ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ،

ضعفه الكوثري من جهتين ، الأولى من جهة السند يقول : " فيه أبو قابوس ، على أن الكلام في ابن قابوس معروف " [1]

الثانية من جهة المتن فعلى فرض صحته فمعنى الحديث : " ارحموا من دونكم ، يرحمكم من هو فوقكم " [2] ؟

وكلام الشيخ الكوثري يوهم أن الحديث ليس له إلا سند البيهقي والأمر ليس كذلك [3] .

وله شاهد من حديث ابن مسعود نحوه مرفوعا ، بلفظ : " ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء . " [4]

وأمَّا التفسير المذكور للحديث فهو أقرب لكلام الأعاجم منه إلى كلام العرب ، فكيف يقال إن معنى : (يرحمكم من في السَّماء) أي يرحمكم من هو فوقكم ؟ فهل من شاهد من كلام العرب يدل على هذا السياق ، فإذا لم يوجد لزم دلالته الظاهرة بلا تكلف أو تنطع .

الثامن : وأما حديث حصين

فعن عمران بن حصين قال قال النبي ﷺ لأبي : " يا حصين كم تعبد اليوم إلها ؟ ، قال أبي : سبعة ، ستة في الأرض وواحدا في السماء ، قال : فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك ؟ ، قال : الذي في السماء ، قال : يا حصين أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك

والدارمي (٤٢) ، وإثبات العلو لابن قدامة (٤٥) ، والعرش للذهبي (٢٨) ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٣٢٩ ،والحاكم في المستدرك ٤ / ١٧٥ وصححه .

١) حاشية الأسماء والصفات ٣٩٢

٢) نفسه ٣٩٢

٣) انظر تخريجه في الرد على الجهمية للدارمي ٤٢ وإثبات العلو لابن قدامة ٤٧ والعرش للذهبي ٢٨ .

٤) رواه الالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/ ٣٩٤ (٦٥٥) ، والذهبي في العلو ٢٠ ، ورواه الدارمي موقوفاً في الرد على الجهمية ٢٧٣.

، قال : فلما أسلم حصين قال يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني ، فقال : قل اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي "[1] .

وأما هذا الحديث فقد أطال الشيخ الكوثري الكلام فيه فقد أنكر تزكية الصحابي الحصين فقال : " ووصفه بالثقة الرضي مطلقاً مجازفة "[2] .

يقول :

" وكان هذا السؤال بمكة عندما كان حصين مشركاً فلا يكون هناك إقرار من الرسول ﷺ . "[3]

ويقول :

" إذ من المحال أن يقره على ستة في الأرض "[4] ؟

الحديث حديثٌ صحيح ، وجاء من طريق أخرى بنحوه .[5]

وأمَّا نفي إقرار الرسول ﷺ على أنَّ الله في السماء بدعوى أنَّ ذلك يلزم منه أنَّ يقرَّه على ستة في الأرض ، فهو إدِّعاءٌ ضعيف ، لأن لازمه باطل ، فالنبي ﷺ يلزمه بعبادة من يفزع إليه في الخوف والرغبة ، فإذا كنت لا تنتفع بعبادة غير الله فدعهم واعبد الله ، والدليل أنَّه قال : " أما إنك لو أسلمت ... " أي تركت عبادة الستة وعبدت الله وحده ، فأين الإقرار ؟ وحجة الرسول ﷺ مثل قوله تعالى : (وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بها جَاءتها رِيحٌ عَاصِف ...) .

---

١) رواه الترمذي (٣٤٠٥) كتاب الدعوات باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ ، وفي كتاب البر ٤ / ٣٢٣ وصححه ، وأحمد في المسند ٢/ ١٦٠ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ١٣٤ ، وأبوداود في السنن ك الأدب ٥ / ٢٣١ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٣٩٢ ، وابن قدامة في العلو ٦٦ ، والاصبهاني في الحجة في بيان المحجة ٢ / ١١١ ، والذهبي في الأربعين ٥٦

٢) حاشية السيف الصقيل ١٤١ .

٣) حاشية الأسماء والصفات ٣٩٢ .

٤) حاشية السيف الصقيل ١٤٢ .

٥) رواه ابن خزيمة في كتاب التوحيد ١ / ٢٧٨ ، والترمذي في السنن ك الدعوات ، وابن قدامة في العلو ٤٩ .

التاسع : أحاديث المعراج

وما يستدل به السلف على العلو أحاديث المعراج الدالة على عروجـــه – ﷺ – إلى ربه في السماء . فما عساه قائل في هذا الوجه ؟

يرى الكوثري ضعف حديث المعراج بسبب اضطراب شريك بن عبد الله فيه ، بل يرى هذا الاضطراب سببه الوهم [1] ، بل لا يفهم من ذلك إلا غشيان المكان فيقول : " لم يكن إسراء [2] النبي ﷺ ليغشى مكان الله – سبحانه عن المكان – بل أسري به ليريه مـــن آياته الكبرى كما نص على ذلك القرآن " [3] .

وهذا خلط بين الإسراء الذي نص الله عليه بالآيات الكبرى وبين المعراج الذي أراه أعظم الآيات ، وأي آية أعظم من أن يعرج به إلى الرب عز وجل ؟

فزعمه أن حديث المعراج مضطرب ، بسبب الوهم الحاصل عند شريك ، فهو كلام غريب ، لا يليق بأهل العلم ، إذ إنه يفيد أن قصة العروج بالنبي ﷺ لم ينقلها إلا شريك ! ، ولذا فالعروج لا يثبت ؟

وهذا ليس بصحيح .

ولو سُلِّم اضطراب شريك بن عبدالله في روايته وزياداته فالحجة الدلالة من القصـــة المتواترة لا من رواية شريك بن عبدالله ، فأجمع المسلمون على أنه ﷺ عرج به إلى ربه ، وإنما اختلفوا هل رأى ربه بعينه أم بقلبه ولذا لا يرضى تشغيب الشيخ الكوثري على هذا الحديث .

وأمَّا التشنيع بغشيان المكان لله ، فلا طائل وراءه فإنا نقول بل أسري به ﷺ ليريه الله آياته الكبرى " رأى ملائكة ربه عز وجل ورأى إخوانه من الأنبياء حتى وصل إلى مـــولاه الكريم فأكرمه بأعظم الكرامات " [4] ، فنسبة المكان لله من الكلام المجمل المحتمـــل للحـــق والباطل ، فيقال للكوثري هل المكان الذي تنفيه عن الله شيئاً وجودياً مخلوقاً ؟ فإن كان هذا

---

١) حاشية السيف الصقيل ١٤٤ .

٢) يقصد العروج .

٣) حاشية السيف الصقيل ٤٣ .

٤) الشريعة للآجري ١٥٢٦/٣ .

مراده ، فلا شك في نفيه فالله منزه عن أن يكون في مخلوق بل هو بكل شيءٍ محيط ، أم أنَّ المكان الذي تنفيه شيئاً عدمياً – وهو ما فوق العالم المخلوق المتصور – ؟ فالله فوق العالم ليس فوقه شيء وهو معنى العلو الحقيقي الذي وصف الله نفسه به فإن كان كذلك فلاشك أنَّ من نفى المكان بهذا المعنى فهو معطل لصفة العلو [1] .

العاشر : حديث (كان الذي في السماء ساخطاً عليها)

فهو ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها " [2] .

وعلى رغم أن الحديث في مسلم نرى الكوثري يقول :

" ومثل هذا الحديث من أخبار الآحاد يحمل على المحكمات " [3] .

بل إن الحديث لا يشير إلى الله عز وجل " وليس في الحديث ذكر الرب سبحانه " [4] .

إذاً من هو الذي يسخط عليها ؟ وما المقصود بهذا الخبر إن لم يكن دفع المرأة إلى الطاعة ، بترغيبها إلى جلب رضاه وتجنب سخطه – سبحانه – وذلك بطاعة الزوج ؟

لأجل هذا كله نجده يقول :

" وعلى فرض حمله عليه ليس معنى كونه في السماء الاستقرار والتمكن فيها باتفاق ، بل معنى ذلك علو الشأن " [5] ؟

الحادي عشر : وأما حديث زينب " وزوجني الله من فوق سمٰواته ... "

-----

١) منهاج السنة النبوية بتصرف ٢/٥٥٨ .

٢) رواه مسلم (٢٥٩٥) كتاب النكاح ، باب تحريم امتناعها عن فراش زوجها .

٣) حاشية السيف الصقيل ١٤٥ .

٤) نفسه ١٤٥ .

٥) نفسه ١٤٥ .

فعن أنس قال جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اتق الله وأمسك عليك زوجك " ، قال أنس : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا لكتم هذه قال فكانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات " [1] .

يقول عن الحديث : " لا يقول بالفوقية الحسية غير مجسم أثيم يساير الوثنية " [2] .

وقوله : " الفوقية الحسية " تحذلق لا فائدة فيه ، ولا يقول به السلف لكن الكوثري لم يطعن في الحديث كعادته واكتفى بنفي ما يسميه الفوقية الحسية هروباً من إثبات العلو الحقيقي الذي يدل عليه نص الحديث !

هذه آراء الكوثري في هذه الأحاديث الصحيحة ، وما يأتي أحاديث ، تكلم فيها العلماء بالضعف ، تطرق إليها الكوثري ، وشنع على أهل السنة إيرادهم لها ، وأنكر الاستدلال بها على إثبات العلو ، موحياً أن هذه الصفة إنما قامت على مثل هذه الأحاديث ؟

والجواب العام عليه ، بأن صفة العلو لم تثبت بمثل هذه الأحاديث فقط ، وإنما لنصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة ، وإجماع سلف الأمة على ذلك ، فلا يلزم من ضعف بعض الأحاديث نفي هذه الصفة .

وهذه الأحاديث هي :

الثاني عشر : وأماحديث الأطيط

فهوما روي أنّ أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : " يا رسول الله جهدت الأنفس وضاع العيال ، ونهكت الأبدان ، وهلكت الأموال ، فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله تبارك وتعالى ونستشفع بالله عليك ، قال : قال رسول الله ﷺ : ويحك ، تدري ما تقول ؟ فسبح رسول الله ﷺ ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ، فقال : ويحك لا تستشفع بالله على أحد من خلقه ، فإن شأن الله تعالى أعظم من ذلك ، ويحك تدري ما

---

١) رواه البخاري (٦٨٧٠) كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء .

٢) حاشية الأسماء والصفات ٣٨٦ .

الله ؟ إن عرشه على سماواته وأرضيه لهكذا مثل القبة ، وإنه ليأط أطيط الرحل بالراكب " [1] .

نسب الكوثري إلى الذهبي وابن عساكر تضعيفهما هذا الحديث [2] .

بل وغلى حتى وصف هذا الأمر بالوثنية [3] .

والحديث كما قال الذهبي وغيره ضعيف لعنعنة ابن إسحاق [4]

الثالث عشر : وأما حديث " ربنا الله الذي في السماء ... " .

فهو ما رواه أبو الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من اشتكى منكم شيئا أو اشتكاه أخ له فليقل ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ " . [5]

يقول الكوثري عن الحديث : " في سنده زيادة بن محمد وهو منكر الحديث " [6] .

والحديث ضعيف لأجل ، زيادة .

الرابع عشر : وأما حديث الأوعال

فهو ما روي عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب زعم أنه كان جالسا في البطحاء في عصابة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فيهم إذ مرت عليهم سحابة

---

١) رواه الآجري (١٠٩٠) و الدارمي (٤١) و ابن ابي عاصم (٥٧٤) وأبو داود (٤٧٢٦) . وسيأتي الكلام عليه .

٢) السيف ١٤٢ .

٣)حاشية الأسماء والصفات ٣٨٨-٣٧٦ .

٤) العلو للذهبي ٣٩ .

٥) رواه أبو داود في الطب باب كيفية الرقى ٤/ ٢١٨ (٣٣٩٤) و البيهقي في الأسماء و الصفات ٣٩٢ وأحمد ٦ / ٢١ ، والدارمي في الرد على الجهمية ١٨ ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٣٨) ، والحاكم في المستدرك ١ / ٣٤٣ _ ٣٤٤ وصححه ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣ / ٣٨٩ ، وابن قدامة في إثبات صفة العلو ٤٨ ، والاصبهاني في الحجة في بيان المحجة ٢ / ١٠٥ .

٦) حاشية السيف الصقيل ١٤٠ .

فنظروا إليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما اسم هذه قالوا نعم هـــذا السحاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمزن قالوا والمزن قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم والعنان قالوا والعنان ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون كم بعد ما بين السماء والأرض فقالوا لا والله ما ندري قال فإن بعد ما بينهما إما واحدة وإمــا اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة والسماء التي فوقها كذلك حتى عددهن سبع سموات كذلك ثم قال فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء إلى السماء وفوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ثم فوق ظهورهن العرش بين أســفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلى السماء والله فوق ذلك " (١) .

يضعف الكوثري الحديث بعلل :

الأولى : انفراد سماك .

الثانية : جهالة عبدالله بن عميرة .

الثالثة : الانقطاع بين ابن عميرة والأحنف .

وزعم أن الحديث متلقف من الإسرائيليات ونسب ذلك لابن العربي (٢) .

والحديث ضعيف الإسناد ، فمداره على ابن عميرة ، وهو كما قال الــذهبي فيــه جهالة (٣) ، وسماعه من الأحنف لم يثبت (٤) ، ومع هذا صححه ابـــن ماجـــه والترمـــذي والحاكم والذهبي ، وقال شيخ الإسلام :

" البخاري إنما نفى معرفة سماعه من الأحنف ، و لم ينف معرفة الناس بهـــذا ، فـــإذا عرف غيره – كإمام الأئمة ابن خزيمة – ما يثبت به الإسناد كانت معرفته وإثباته مقـــدماً على نفي غيره وعدم معرفته (٥) .

---

١) رواه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن باب سورة الحاقة ، وأبو داود ، كتاب السنة باب في الجهمية ، وابن ماجه (١٨٩) في المقدمة ، وأحمد ، والدارمي في الرد على الجهمية ٤٢ ، وأبوداود ، وابن أبي عاصم في السنة ٢٥٣/١ (٥٧٧) ، وابن خزيمة في التوحيد ١٠ _ ١٠٢ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٨٨ _ ٢٨٩ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣ / ٣٩٠ ، والبيهقي في الأسماء والصفات ٣٧١ ، والبغوي في التفسير ٧/ ١٢٠ ، وابـــن عبدالبر في التمهيد ٧ / ١٤٠ ، والآجري في الشريعة (٦٦٣) و (٦٦٤) ، والذهبي في العرش (٣٣) .

٢) حاشية الأسماء والصفات ٣٧١،٣٨٩ ، حاشية السيف الصقيل ١٤٠ .

٣) انظر ميزان الاعتدال ٤٦٩/٢ .

٤) انظر البخاري في التاريخ الكبير ١٥٩/٥ .

٥) الفتاوى ١٩٢/٣ .

ولابن القيم كلام نحو هذا [1] لكن ابن خزيمة لم يصرح بإدراك ابن عميرة للأحنف واستند ابن تيمية على اشتراط ابن خزيمة ألا يروي ولا يحتج في كتابه إلا بما نقله العدل عن العدل وتبقى جهالة ابن عميرة ، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد [2] في المسند ،

والذهبي في العرش [3] ، والترمذي في كتاب تفسير القـــرآن ســـورة الحديـــد [4] ، والبيهقي [5] في الأسماء والصفات وابن أبي عاصم في السنة [6] لكنه منقطع لعدم ثبوت سماع الحسن من أبي هريرة ، وقد عنعن .

والخلاصة أن إسناده ضعيف ، لكنه صح موقوفاً عن ابن مسعود عند الـــدارمي [7] وابن خزيمة [8] والبيهقي [9] وابن عبد البر في التمهيد [10] ، واللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة [11] .

ولكن لا يلزم من ضعفه مرفوعا تعطيل الصفة التي تواترت النصوص عليها

الخامس عشر : حديث جابر في أهل الجنة .

وهو حديث طويل عن جابر بن عبد الله قال : قال رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم : بينا أهل الجنة في نعيمهم و إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم فـــإذا الـــرب قـــد

---

١) تهذيب السنن ٩٢/٧ وعون المعبود ٦/١٣ .

٢) ٣٧٠/٢ .

٣) ٣٤/٢ .

٤) ٣٢٩٨ .

٥) ٣٨٦ .

٦) ٢٥٤/١ ح ٥٧٨ .

٧) ٤٦ .

٨) ١٠٥ .

٩) ٣٧٣ .

١٠) ١٣٩/٧ .

١١) ٣ / ٣٩٠ .

أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . وذلك قوله تعالى (سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ) [1] " [2]

يقول الكوثري : " أخرجه ابن ماجه بطريق العباداني ، وهو منكر الحديث ، و فضل الرقاشي ممن لا يكتب حديثه ، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات " [3] .

والحديث ، كما قرر أهل الحديث ، ضعيف .

السادس عشر : حديث يوم المزيد. وهو حديث طويل [4] جاء فيه أن الرب يتجلى لأهل الجنة من عليين . [5]

وهو الحديث المشهور بحديث يوم المزيد يقول الكوثري عنه : " غير صالح بالمرة ، ولا سيما في مثل هذا المطلب " [6] .

بل رآه موضوعاً " تعالى الله عما اختلقه أعداء الدين ، وركبوا له أسانيد ما أنزل الله بها من سلطان " [7] .

أولاً قوله :(غير صالح بالمرة) من حيث السند ، والزيادات الواردة فيه ، وإلا فإثبات العلو للرب ، وتجليه لأهل الجنة ، وكلامه لهم قد ذكره الله في كتابه .

ثانياً : (قوله لاسيما في مثل هذا المطلب) فيه إيهام أن إثبات صفة العلو إنما ، استند فيها على مثل هذا الأثر ! ، وليس الأمر كذلك ، فهب أن هذا الأثر كان ضعيفاً ، فهل تعطل صفة دلة عليها مئات النصوص القرانية ؟ .

---

١) يس ٥٨ .

٢) رواه ابن ماجه ١/ ٣٦ ، والآجري في الشريعة ٢ / ١٠٢٧ ـ ١٠٢٨ (٦١٥) ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣ / ٤٨٢ .

٣) حاشية الاسماء والصفات ١٤٥ .

٤) انظره كاملا في مسند الشافعي ٧٠

٥) رواه الدارمي في الرد على الجهمية ٢٩٠ ، وابن أبي شيبة في المصنف ٢ / ١٥٠ ، عبد الله بن أحمد في السنة ١ / ٢٥٠ والشافعي في مسنده ٧٠ وابن قدامة في العلو ٧٠ ـ ٧١ ، والآجري في الشريعة ٢ / ١٠٢٧ ، والذهبي في الأربعين ٣٥ ـ ٣٦ وضعفه ، ومال شيخ الإسلام إلى تصحيحه في الفتاوى ٦ / ٤١٠ ـ ٤١٦ .

٦) حاشية السيف الصقيل ١٤٥.

٧) نفسه ١٤٥ .

هذه آراء الكوثري أمام نصوص السنة وأحاديث الرسول ﷺ . فموقفه يدور بين الطعن في سندها ومتنها ، وبين تحريف دلالتها الصحيحة .

موقفه تجاه دليل الفطرة

أما موقفه تجاه دليل الفطرة فلا يخرج عما سبقه ، فهو يرى أن رفع الأيدي إلى السماء " لأجل أن السماء مترل البركات والخيرات ، لأن الأنوار إنما تترل منها والأمطار ، وإذا ألف الإنسان حصول الخيرات من جانب مال طبعه إليه فهذا المعنى هو الذي أوجب رفع الأيدي إلى السماء " [1] .

" ولأن السماء قبلة الدعاء " [2] .

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه :

الأول : أنه ثبت في السنة المتواترة وإجماع المسلمين أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فالقول بأن السماء هي قبلة الدعاء من الكذب المخالف لفعل النبي ﷺ .

الثاني : أن توجه الخلق بقلوبهم إلى السماء والعلو هو أمر فطري لا يختص بالمسلمين ، بل يجده حتى المشركون الذين لم يبلغهم خبر الاستواء ولا نصوص العلو .

الثالث : ليس في كتاب الله ولا سنة نبيه الكريم ، ولا عن السلف السلف الصالح ، بل ولا عن شرائع الأمم السابقة النص على أن السماء قبلة للدعاء ، حتى يقال إن انصراف القلوب إلى العلو لأجل أنها قبلة الدعاء .

الرابع : أن القبلة هي ما يستقبله الانسان ، لا ما يرفع يديه إليه أو رأسه أو بصره أو تعلق فيه فلا يقال استقبله واتخذه قبلة [3]

---

١) نفسه ١٠٤ .

٢) نفسه ٤٢ .

٣) انظر هذه الوجوه في بيان تلبس الجهمية لشيخ الاسلام ٢/ ٤٥٩ – ٤٦٢

و لم يكتف الكوثري بتتبع دلائل الإثبات عند أهل السنة أتباع السلف لتعطيلها ، بل إنه يستدل لنفي العلو فيقول : " ومن حذاق النظار من استدل على بطلان القول بالجهة بقوله تعالى : (ومَا كَانَ معه من إِلَه إِذاً لَذَهَبَ كل إِله بِما خَلَق) باعتبار أن فيه استدلالاً على بطلان التعدد ببطلان لازمة الذي هو انحياز الإله إلى جهة "[1] .

وهذا الاستدلال من الآية استدلال باطل ، والرد عليه من وجوه :

الأول : أن هذا التفسير للآية خلاف تفسير السلف لها ، يقول ابن جرير :

" يقول تعالى ذكره ما لله من ولد ولا كان معه في القديم ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته ، ولو كان معه في القديم أو عند خلقه الأشياء من تصلح عبادته من إله (إذاً لذهب) يقول : إذاً لاعتزل كل إله منهم بما خلق من شيء فانفرد به وتغالبوا فعلا بعضهم على بعض ، وغلب القوي منهم الضعيف لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً "[2]

ويقول ابن كثير :

" أي لو قدر تعدد الآلهة ، لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال "[3]

الثاني : أن الآية إنما جاءت لإثبات استحقاق الله للعبادة وإبطال عبادة ما سواه .

يقول ابن القيم عن الآية :

" فلو كان معه سبحانه إله ، لكان له خلق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا "

إلى أن قال :

---

١) نفسه ١١٨ .

٢) جامع البيان للطبري ١٨ / ٣٨

٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٣٥٤

"وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره " [1]

فالقضية في إثبات وجوب عبادته ، يقول الفراء :

" (إذاً لذهب كل إله) إذاً جواب لكلام مضمر ، أي لو كانت معه آلهة (إذاً لذهب كل إله بما خلق) يقول : لاعتزل كل إله بخلقه " [2]

الثالث : قوله عز وجل (لذهب) ليس المراد الاعتزال الحسي ، وإنما الاستقلال بالتدبير والملك يقول الآلوسي :

" أي لاستبد بالذي خلقه ، واستقل به تصرفاً ، وامتاز ملكه عن ملك الآخر " [3]

---

١) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢ / ٤٦٣ – ٤٦٤

٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤١

٣) روح المعاني ١٨ / ٨٨

الفرع الرابع :

كلام الله

المطلب الأول :

معنى صفة الكلام والأقوال فيه

المطلب الأول

معنى صفة الكلام والأقوال فيه

تمهيد :

صفة الكلام لله من ضمن أعظم صفات الباري التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ

حيث قال عز وجل : (سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ)[1] .

وقال عز وجل : (وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا)[2] .

وقال : (مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ)[3] .

وصفة كلام الله من الصفات الاختيارية العظيمة ، القائمة بالرب — عز وجل — .

وقد دلت النصوص المتكاثرة في القرآن الكريم والسنة المتواترة إلى إثبات نسبة الكلام والقول إلى الله ، وقد نازع المعطلة في دلالة هذه النصوص ، وفي معنى الكلام والقول .

ولذا يحسن بنا قبل تقرير رأي الكوثري في هذه الصفة أن نبين معنى الكلام لنوضح دلالة النصوص .

معنى الكلام

الكلام عند العرب " يدل على نطق مفهم ، تقول : كلمته أكلمه تكليماً ، وهو كليمي إذا كلمك أو كلمته "[4] .

ومن هذا نستنتج أن الكلام هو لفظ ومعنى ، فاللفظ بلا معنى لا يعد كلاماً ، والمعنى بلا لفظ لا يسمى كلاماً . " فإذا قيل تكلم فلان ، كان المفهوم منه عند الإطلاق اللفظ والمعنى جميعاً "[5] .

فالكلام يتناول اللفظ ويتناول المعنى معاً .

---

١) يس ٥٨ .

٢) النساء ١٦٤ .

٣) البقرة ٢٥٣ .

٤) معجم مقاييس اللغة ١٣١/٥ لابن فارس .

٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥٣٣/٦ .

هذا الذي قرر هو ما دلَّ عليه كلام العرب ، وما دلت عليه النصوص ، وهو قـــول السلف .

ومثله " النداء ، بالضم والكسر : الصوت " [1] .

ومع بيان هذا ووضوحه فقد نازع بعض طوائف الأمة في هذا بناء على أصـــلهم في نفي صفة الكلام عن الباري .

فذهبت المعتزلة ومن شايعهم على أن الكلام اسم لمجرد الحروف ، والمعنى .

ورأى آخرون ، وهو قول الكلابية والأشاعرة ومن وافقهم أن الكلام اســـم لمجـــرد المعنى ، فمسماه هو المعنى ، فاللفظ دال على المدلول وهو المعنى ، وليس هو حقيقته .

وذهب بعض الأشاعرة على أن الكلام يطلق على اللفظ والمعنى بطريـــق الاشـــتراك اللفظي ، نفياً للتقارب بينهما .

وعلى هذا يتحصل لنا في معنى الكلام أربعة أقوال :

" فقيل : هو اسم اللفظ الدال على المعنى .

وقيل : المعنى المدلول عليه باللفظ .

وقيل : لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي .

وقيل : بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الإطلاق ، ، وإن كان مع التقييـــد يراد به هذا تارة وهذا تارة ، وهذا قول السلف وأئمة الفقهاء " [2] .

والذي يهمنا من هذه الأقوال ، قول الكلابية والأشاعرة الذين يرون أن الكلام هو المعنى وليس اللفظ إلا دال عليه .

والماتريدية لا يخرجون عن هذا ، يقول الشريف الجرجاني : " الذي قالته المعتزلة [3] لاننكره) نحن بل نقول به ، ونسميه كلاماً لفظياً ، ونعترف بحدوثه وعدم قيامه بذاته تعالى (: لكنا نثبت أمراً وراء ذلك ، وهو المعنى القائم بالنفس) الذي يعبر عنه بالألفاظ ، ونقول هو الكلام حقيقة " [4] .

---

١) القاموس المحيط ١٧٢/٤ .

٢) مجموع الفتاوى ٦٧/١٢ .

٣) يعني أن الكلام هو اللفظ والحروف فلا يصح أن يوصف به الله .

٤) شرح المواقف للجرجاني ٩٣/٨ .

فعندهم أن حقيقة الكلام ، هو المعنى القائم بالنفس لا اللفظ الذي يوافقون المعتزلـــة في أنه محدث مخلوق !.

أقوال الناس في كلام الله عز وجل

قد افترق الناس في مسألة كلام الله – عز وجل – إلى أقوال :

الأول : " قول المتفلسفة ومن وافقهم من متصوف ومتكلم كابن سينا وابن عربي [(١)] الطائي ، وابن سبعين ، وأمثالهم ممن يقول بقول الصابئة الذين يقولون إن كلام الله ليس له وجود خارج عن نفوس العباد ، بل هو ما يفيض على النفوس من المعاني إعلاماً وطلباً ، إما من العقل الفعال كما يقوله كثير من المتفلسفة " [(٢)] .

وإما مطلقاً كما يقوله بعض متصوفة الفلاسفة " [(٣)] وذلك أنهم يرون أن كل كلام هو كلام الرب ــ سبحانه وتعالى ــ وهو القول الثاني .

الثالث : " قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون كلام الله مخلوق ، يخلقــه في بعض الأجسام فمن ذلك الجسم ابتدأ لا من الله " [(٤)] .

الرابع : قول أبي محمد عبدالله بن سعيد بن كلاب البصري ومن اتبعه كالقلانســي وأبي الحسن الأشعري ، وغيرهم : " إن كلام الله معنى قائم بذات الله ، وهو الأمـــر بكـــل مأمور أمر الله به ، والخبر عن كل مخبر أخبر الله عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنـــاً وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً " [(٥)] .

والقائلون بهذا القول منهم من يقول : " إنه معنى واحد في الأزل ، وإنه في الأزل أمر ونهي وخبر ، كما يقوله الأشعري .

---

١) (ابن عربي) محيي الدين أبو بكر ، محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المُرسي ابن العربي ، نزيل دمشـــق . من أردأ تواليفه : كتاب (الفصوص) قال عنه الذهبي : فإن كان لا كفر فيه ، فما في الدنيا كفر ، نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله ! وقال مرة : ولا ريب أن كثيرًا من عباراته له تأويل إلا كتاب (الفصوص) . قال العزبن عبد السلام عنه : شيخ سوء مقبوح كذاب . [السير ٢٣/٤٨] .

٢) مجموع الفتاوى ١٢/١٦٣ .

٣) مجموع الفتاوى ١٢/١٦٣ .

٤) مجموع الفتاوى ١٢/١٦٣ .

٥) مجموع الفتاوى ١٢/١٦٥ .

ومنهم من قال : بل يصير أمراً ونهياً عند وجود المأمور والمنهي .

ومنهم من يقول : هو عدة معان ، الأمر والنهي والخبر والاستخبار " [1] .

الخامس : " قول الهشامية والكرامية ، ومن وافقهم إن كلام الله حادث ، قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلماً بكلام ، بل مازال عندهم قادراً على الكلام ، وهو عندهم لم يزل متكلماً بمعنى أنه لم يزل قادراً على الكلام ، وإلا فوجود الكلام عندهم في الأزل ممتنع ، كوجود الأفعال عندهم " [2] .

فعندهم كلام الله ابتدأ بعد أن لم يكن ، لامتناع حوادث لا أول لها .

القول السادس : " قول طوائف من أهل الكلام والحديث من السالمية وغيرهم يقولون : " إن كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية ولها مع ذلك معان تقوم بذات المتكلم " [3] .

القول السابع : " أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته ، وهو ماخلقه في غيره ، وهذا قول أبي منصور الماتريدي " [4] .

القول الثامن : " أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات ، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه " [5] .

القول التاسع : قول أهل السنة والجماعة الذي عليه سلف هذه الأمة " وهو أن القرآن جميعه كلام الله ، حروفه ومعانيه ، ليس شيء من ذلك كلاماً لغيره ، ولكن أنزله على رسوله ، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى ، ولا لمجرد الحرف ، بل لمجموعها ، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط ، ولا المعاني فقط ، كما أن الإنسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ، ولا مجرد الجسد بل مجموعهما ، وأن الله تعالى يتكلم بصوت كما جاءت به الأحاديث الصحاح ، وليس ذلك كأصوات العباد لا صوت القارئ ولا غيره .

وإن الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته ، فكذلك لا يشبه كلامه كلام

---

1) مجموع الفتاوى ١٧٢/١٢ .
2) مجموع الفتاوى ١٧٢/١٢ .
3) مجموع الفتاوى ١٦٦/١٢ .
4) شرح العقيدة الطحاوية ١٧٤/١ .
5) شرح العقيدة الطحاوية ١٧٤/١ .

المخلوق ولا معانيه تشبه معانيه ، ولا حروفه تشبه حروفه ، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد ، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته ، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد في أسمائه وآياته "[1] . وأنه تعالى " لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء ، وكيف شاء ، وهو يتكلم بصوت يسمع ، وأن نوع الكلام قديم ، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً "[2] .

ويهمنا من هذه الأقوال ، قول ابن كلاب ، حيث إنَّ الأشاعرة والماتريدية اعتمدوا في كلام الله فيما يسمى الكلام النفسي ، على بدعة ابن كلاب .

وذلك أنَّ المعتزلة والجهمية كانت تنكر صفات الباري كالعلم والقدرة والاستواء ومن ضمنها الكلام .

خلافاً لأهل السنة الذين يثبتون له كل ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله ﷺ من العلم والقدرة والوجه والرضا والرحمة والاستواء .

فهؤلاء مثبتة للصفات كلها دون تفريق أو تقسيم وأولئك نفاه للصفات كلها .

فجاء عبدالله بن كلاب فقسم الصفات إلى ما يقوم بذاته فأثبته كالعلم والقدرة ، وما يتعلق بالمشيئة فنفى حقيقته .

وقد أقر شيخ الإسلام ما نُسب للأشاعرة من أن كلام الله قديم بلا صوت ولا حرف ، وأنه معنى قائم بالنفس ، إلا أنه قال :

فهذا صحيح ، ولكن هذا القول أول من قاله في الإسلام عبدالله بن كلاب ، فإن السلف والأئمة كانوا يثبتون لله تعالى ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته ، والجهمية تنكر هذا وهذا ، فوافق ابن كلاب السلف على القول بقيام الصفات القديمة ، وأنكر أن يقوم به شيء يتعلق بمشيئته "[3] .

فكل ماقرره الماتريدية إنما بني على بدعة ابن كلاب .

فالله تعالى عند الماتريدية : " متكلم بكلام هو صفة له ، ضرورة امتناع إثبات المشتق للشيء من غير قيام مأخذ الاشتقاق به .

---

١) مجموع الفتاوى ٢٤٤/١٢ .

٢) شرح العقيدة الطحاوية ١٧٤/١ .

٣) مجموع الفتاوى ١٧٨/١٢ .

وفي هذا رد على المعتزلة ، حيث ذهبوا إلى أنه متكلم بكلام هو قائم بغيره ، ليس صفة له (أزلية) ضرورة امتناع قيام الحوادث بذاته (ليس من جنس الحروف والأصوات)" [1] .

ويبين التفتزاني معنى صفة الكلام بقوله : " أي معنى قائم بالذات " [2] .

ويقول البياضي الحنفي : " (والله متكلم) بكلامه الذي هو صفته (بلا آلة) لتتره ذاته عن القصور والاحتياج إلى الآلة ، فيحصل له تعالى بلا آلة ما لا يحصل لنا إلا بها (ولا حروف) لتتره عن الصوت وكيفيته القائمة بالهواء لحدوثها ، فلو تألف كلامه من الحروف لزم الحدوث ضرورة توقف الحروف المقطعات على التموجات المتعاقبات " [3] .

ثم يقرر في كلام الله " أنه المعنى القائم بالنفس المعبر عنه " [4] .

وأن " كلام الله مؤلف من حروف مترتبة متعاقبة في الوجود ، وكل ماهو كذلك فهو حادث ، فكلام الله حادث " [5] .

---

١) شرح العقائد النسفية للتفتزاني ٤٢ .

٢) شرح العقائد النسفية ٤٢ .

٣) إشارات المرام من عبارات الإمام ١٣٨ .

٤) إشارات المرام من عبارات الإمام ١٣٩ .

٥) إشارات المرام من عبارات الإمام ١٤٣ .

المطلب الثاني :

رأي الكوثري في صفة الكلام ونقده

المطلب الثاني

رأي الكوثري في صفة الكلام ونقده

تمهيد :

تابع الكوثري أئمة الماتريدية في مسألة كلام الله عز وجل . حيث يرى كلام الباري معنى نفسياً قائماً بالله .

يقول : " ليس أحد من المسلمين ينفي القدر الثابت من الدين بالضرورة في ذلك ، وهو كون الله تولى نظم هذا الكلام دون سواه " حتى قال " وأما أهل السنة فلا يرون هذا[1] ويقولون بقدم كلام الله النفسي وحدوث الأصوات " [2] .

ويقرر الكوثري أن " القديم ما قام بالله سبحانه ومن زعم قدم الحرف والصوت قدماً شخصياً ، أو قدمها قدماً نوعياً مع حدوثهما حدوثاً شخصياً وادعاء قيامهما بالله ، فقد سقط من مرتبة الخطاب إلى إصطبل الدواب " [3] .

لذا فكلام الله المضاف إليه ، والذي كلم به جبريل وموسى ، وغيره عند الكوثري هو كلام بلا صوت. حيث نراه يقول : " والوارد في الكتاب أنه تعالى كلم موسى – بدون ذكر صوت أصلاً – والتكليم لا يستلزم الصوت " [4] .

فالكوثري يثبت صفة الكلام لله ، على وجه العموم ، ولكن ذلك لا يدخله ضمن أهل السنة المثبتين لكلام الله حقيقة ، فهو يرى أن هذه الصفة تقوم بالله ، ولكنه تبعاً للماتريدية يفسرها بمعنى قائم بالله ، سماه الكلام النفسي .

" والمفهوم من عامة كلماتهم هو أن النفسي مدلول اللفظي " [5] .

فكلام الله " صفة منافية للسكوت " [6] .

---

1) أي لا يرون القول بالحروف والصوت .

2) حاشية الاختلاف في اللفظ ٢٥ بتصرف .

3) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٥١ .

4) حاشية العقيدة النظامية ٣٠ .

5) حاشية السيالكوتي على شرح المواقف للجرجاني ٩٣/٨ .

6) شرح العقائد النفسية للتفتزاني ٤٢ .

يوضحه التفتزاني بقوله : أي معنى قائم بالذات (منافية للسكوت) الذي هو تـــرك التكلم مع القدرة عليه " [1] .

فالكلام النفسي " يعني أنه صفة واحدة تتكثر إلى الأمر والنهي والخبر ، بـــاختلاف التعلقات " [2] .

يقول البياضي : " وذهب المحققون منهم [3] إلى أن كلامه تعالى حقيقة هو المعـــاني المذكورة في الأزل ، كما في الإرشاد وقيل : النسب الإخبارية والإنشائية ، وهـــذا مختـــار الفاضل الفناري في فضول البدائع ، وإليه أشار بقوله : متكلم بلا آلـــة ولا حـــرف ، دون المعاني اللغوية المعبر عنها بالألفاظ ، فإنها جواهر وأعراض يستحيل قيامها بذاته تعالى ، كما صرح به الإمام الرستغفني في الإرشاد وأبو معين النسفي في التبصرة ، والفاضل عصام الدين في الحواشي النسفية وغيرهم ، وسيشير إليه الإمام وقال المتقدمون منهم : هو المعاني المدلولة والعبارات من غير أصوات ومن غير ترتيب في الوجود ، فإن ذلك إنما هو الـــتلفظ لعـــدم مساعدة الآلة على التلفظ دفعة واحدة ، والأصوات غير داخلة في حقيقة الكلام " [4] .

ومعنى هذا أن صفة الكلام لله ليست مما يسمع ، ولا هي لفظ بل عبارة عن اللفـــظ والقول .

ما الذي دفع الكوثري إلى التمسك بهذا القول ؟

أولاً : أننا نرى الكوثري متابعاً لأئمة الماتريدية منافحاً لمعتقدهم .

ثانياً : ما زعموه من أن الله ليس محلاً للحوادث ، حيث يرون إن الكـــلام عـــرض حادث ، والله منزه أن يحل به حادث .

يقول الكوثري :

" أما من جوز قيام الحوادث به سبحانه فيعده صادراً منه تعالى بحرف وصوت ، وأما أهل السنة فلا يرون هذا " [5] .

---

١) شرح العقائد النسفية للتفتزاني ٤٢ .

٢) شرح العقائد النسفية للتفتزاني ٤٢ .

٣) يعني بهم الماتريدية والأشاعرة .

٤) إشارات المرام من عبارات الإمام للبياضي ١٤٣ .

٥) حاشية الاختلاف في اللفظ ٢٥ .

ويقول مقرراً كلام أبي المعالي في هذه الحجة :

" وقد اتفقت فرق المسلمين سوى الكرامية وصنوف الحشوية على أن الله سبحانه متره من أن يحل فيه شيء من الحوادث " (١) .

وكرر هذا المعنى في موضع آخر فقال : نسبة القول بقيام الفعل الحادث بالله سبحانه إلى أحمد وجعفر الصادق وابن عباس - رضي الله عنهم - نسبة كاذبة وفرية مكشوفة وقول أحمد (إن الله لم يزل متكلماً إن شاء) بمعنى أن الكلام صفة قديمة ، وأنه تعالى يكلم أنبياءه متى شاء بدون حرف ولا صوت " (٢) . اهـ

وأمام هذا الكلام وقفة :

فتفسير الكوثري قول الإمام أحمد بأن كلام الله بلا حرف ولا صوت ، هو تفسير باطل ، وجرأة على التحريف ، فليس فيما نقله الكوثري من كلام الإمام أحمد إشارة إلى هذا . فقد ثبت عن الإمام أنه قال : " نقول إن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ولا نقول إنه قد كان ولا يتكلم حتى خلق كلاماً " (٣) .

فالإمام هنا يرد على من زعم أن الله تكلم بعد أن لم يكن متكلماً .

وقد صح عن الإمام أحمد رده على من ابتدع انكار الصوت والحرف ، فقد روى عبدالله بن أحمد (٤) قال أبي رحمه الله : حديث ابن مسعود رضي الله عنه " إذا تكلم الله عز وجل سمع له صوت كجر السلسلة على الصفوان " (٥)

---

١) حاشية العقيدة النظامية لأبي المعالي ٢٧ .

٢) حاشية السيف الصقيل ٨٠ .

٣) الرد على الزنادقة والجهمية ١٣٣ .

٤) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبد الرحمن ، الهلي الشيباني المروزي ، ثم البغدادي ، ولد سنة (٢١٣) . وروى عن أبيه ، وابن معين ، وابن أبي شيبة وخلق كثير. وحدّث عنه : النسائي ، والبغوي ،وأبو عوانه ، وخلق كثير ، كان صَيِّناً ديِّناً صادقاً ، صاحب حديث واتباع وبصر بالرجال . ما ت سنة (٢٩٠) ؛ [الجرح والتعديل ٧/٥، تاريخ بغداد ٣٧٥/٩، طبقات الحنابلة ١٨٠/١، السير ١٣-٥١٦، تهذيب التهذيب ١٤١/٥] .

٥)حديث عبد الله بن مسعود رواه البخاري معلقاً ك التوحيد باب قوله تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) ٤٥٢/١٣ ، ورواه أبو داود موصولاً ك السنة باب في القرآن . والبيهقي في (الأسماء والصفات) باب ما جاء في أسماء الرب عز وجل بعض ملائكته كلامه ١٩٦ .

وقال عبدالله أيضاً : قال أبي : وهذا الجهمية تنكره . [1]

فهو هنا نسب من أنكر كلام الله ، ولازمه الصوت ، للجهمية بل إن الإمام كفَّر من أنكر هذا ، يقول عبدالله بن أحمد : قال أبي : هؤلاء كفار ، يريدون أن يموهوا على الناس من زعم أن الله عز وجل لم يتكلم فهو كافر " [2] .

وسأل عبد الله بن أحمد أباه ، عن قوم يقولون : لما كلم الله عز وجل موسى لم يتكلم بصوت ، فقال : بلى إن ربك عز وجل تكلم بصوت ، هذه الأحاديث نرويها كما جاءت " ! . [3]

فكيف يتجرأ الكوثري فيفتري هذا المعنى على الإمام أحمد ؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية أن معتقدي الكلام النفسي " يقولون : إن قول الإمام أحمد موافق لما قلناه ، لأنه قال : لم يزل متكلماً إذا شاء ، و لم يقل لم يزل مكلماً إذا شاء ، والمتعلق بالمشيئة – عند من يقول إنه قديم واجب – إنما هو التكليم الذي هو فعل جائز لا التكلم " [4] .

ثم قال رحمه الله : " فيبين ذلك أن أحمد – رضي الله عنه – قال في الموضع الآخر : لم يزل الله متكلماً عالماً غفوراً ، فذكر الصفات الثلاث : الصفة التي هي قديمة واجبة ، وهي العلم ، والتي هي جائزة متعلقة بالمشيئة ، وهي المغفرة ، فهذان متفق عليهما ، وذكر أيضاً التكلم ، وهو القسم الثالث الذي فيه نزاع ، وهو يشبه العلم من حيث هو وصف قائم به ، لا يتعلق بالمخلوق ، ويشبه المغفرة من حيث هو معلق بمشيئته ، كما فسره في الموضع الآخر .

فعلم أن قدمه عنده، أنه لم يزل إذا شاء تكلم ، وإذا شاء سكت ، لم يتجدد له وصف القدرة على الكلام التي هي صفة كمال كما لم يتجدد له وصف القدرة على المغفرة " . [5]

---

١) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ١/٢٨١ رقم ٥٣٤ .

٢) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ١/٢٨١ رقم ٥٣٤ .

٣) كتاب السنة لعبدالله بن أحمد ١/٢٨٠ رقم ٥٣٣

٤) مجموع الفتاوى ٦/١٥٩-١٦٠ .

٥) مجموع الفتاوى ٦/١٥٩-١٦٠ .

الكوثري لا يفهم من إثبات صفة الكلام لله إلا ما يتعلق بالمخلوقين ، فيقول عن سماع موسى لكلام الله : " وأما المسموع فإن كان يريد به الصوت المكيف فكذلك ، وإن كان يريد ما هو قائم بالله فجل الإله أن يقوم به عرض سيال "[1] .

ويقول : " إثبات الحرف والصوت لله تشبيه له بالإنسان وتشبيه الله بمخلوق كفر ، والصوت عرض سيال محال أن يقوم بالله سبحانه ، بل هو متكلم بكلام نفسي ليس له صوت "[2] .

ويقول : " من قال إن كلام معبوده ، حرف وصوت قائمان به فهو الذي نحت عجلاً جسداً له خوار "[3] .

وأيضاً " تعالى الله أن يقوم به الصوت الذي هو كيفية اهتزازية للهواء "[4] .

فمن هنا استند على القول بما يسمى الكلام النفسي فراراً من التشبيه .

وهكذا أخذ الكوثري في سرد ما يراه دليلاً على نسبة الكلام النفسي لله عز وجل .

يقول : " قوله تعالى (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)[5] ف(قال) إما بدل من أسر أو استئناف بياني ، وعلى التقديرين تدل الآية على أن للنفس كلاماً لقوله (فِي نَفْسِهِۦ) كما حكى القرآن (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) .

وكذلك قوله تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم)[6] وفي الحديث السر ما أسره ابن آدم في نفسه ، وقوله تعالى (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا)[7] أي يقولون في أنفسهم بدليل السياق .

---

١) حاشية السيف الصقيل ٦٩ .
٢) حاشية السيف الصقيل ٧٤ .
٣)حاشية السيف الصقيل ١٩٦ ، ١٩٧ .
٤) حاشية كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ١٩٨ ، ومثله ص ٢٠٠ .
٥) يوسف ٧٧ .
٦) الزخرف ٨٠ .
٧) آل عمران ١٥٤ .

كل ذلك من أدلة الكلام النفسي ، وحديث أم سلمة في الطبراني في رجل سأل النبي ﷺ قائلاً : (إني لأحدث نفسي بالشيء لو تكلمت به لأحبطت أجري) فقال ﷺ : لا يلقى هذا الكلام إلا مؤمن [1] ، وما في الحديث القدسي (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي) [2] من أدلة الكلام النفسي أيضاً ، وقد أقر الذهبي بحجية الأخير في ذلك في كتاب العلو له ، ومن الدليل على ذلك أيضاً قوله تعالى (وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ) [3] وقول عمر الفاروق (زورت في نفسي كلاماً) [4] أشهر من نار على علم " .[5]

من خلال ما سبق نستطيع أن نحصر أدلة الكوثري فيما يأتي :

١- قوله تعالى (أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم) .

مراده أن الله ذكر أن السر — وهو حديث النفس — يُسمع .

٢- قوله تعالى (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا)

فسمى السر قولاً .

٣- قوله تعالى (يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا) .

وجه الدلالة قوله : أي يقولون في أنفسهم ، بدليل السياق " [6] .

٤- قوله تعالى (وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ) .

٥- قوله تعالى (وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ) .

٦- حديث " السر ما أسر ابن آدم في نفسه " [7] .

---

١) رواه الطبراني ٢/٢٣٧ .

٢) متفق عليه .

٣) المجادلة ٨ .

٤) رواه البخاري ك الحدود باب رجم الحبلى من الزنا ١٢/١٤٤-١٤٥ .

٥) حاشية السيف الصقيل ١٩٨ .

٦) حاشية السيف الصقيل ١٩٨ .

٧) لم أجده فيما لدي من مراجع .

٧- حديث أم سلمة حيث سأل رجل النبي ﷺ فقال : إني لأحدث نفسي بالشيء لو تكلمت به لأحبطت أجري . فقال النبي ﷺ : " لا يلقى هذا الكلام إلا مؤمن " .

٨- الحديث القدسي (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)

٩- قول عمر : " زورت في نفسي كلاماً " .

هذا كل ما أورده الكوثري للاستدلال على الكلام النفسي ، ولا خلاف في دخول الكلام النفسي ضمن الكلام ، ولكن إنما يكون ذلك إذا قيد ، لا على سبيل الإطلاق .

فأما قوله تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم) فقد قال ابن كثير : " أي نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرة وكبيرة " [(١)] .

وأما قوله تعالى (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) فقد قال أبو علي الفارسي : " إنَّ هذا النوع من الإضمار على شريطة التفسير غير مستعمل " [(٢)] .

وقيل : أسر في نفسه قولهم : " إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل وهو هذا الأولى " [(٣)] .

وهذا معناه أن ما أسره يوسف في نفسه إنما هو قولهم القبيح و لم يقابلهم به ، وإنما ناجى نفسه بقوله : أنتم شرٌّ مكاناً .

وأما ما استدل به من قصة المنافقين فيما ذكر الله عنهم حيث يقول عز وجل (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا) .

فالاستدلال بأن المعنى : يقولون في أنفسهم ، استدلال بلا حجة ، وخلاف ظاهر الآية ونقول المفسرين ، فعن الزبير بن العوام – ﷺ – قال : " لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره ، قال :

---

١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٣٥/٤ .

٢) فتح القدير للشوكاني ٤٥/٣

٣) فتح القدير للشوكاني ٤٥/٣ .

فوالله إني لأسمع معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : (لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا) فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا) " .[1]

فما رأي الكوثري في ذلك ؟

وأما قوله تعالى (وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ) فالآية جاءت في اليهود حيث كانوا يدخلون إلى رسول الله ﷺ فيحيونه بالموت ، ثم إذا خرجوا قالوا لأنفسهم مستسخرين : لولا يعذبنا الله بما نقول لو كان نبياً حقا .[2]

فعن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليك ، ثم يقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول فنزلت هذه الآية (وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ) " .[3]

فالكلام فيما بينهم ، فقوله (فِيٓ أَنفُسِهِمْ) كقوله عز وجل (ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ)[4] وقوله (وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا)[5] ، ثم على فرض أنهم لم ينطقوا به ، فالقول هنا مقيد بالنفس فما قول الكوثري في هذا ؟

وأما قوله تعالى (وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ) فإن المراد هنا ذكر اللسان ، بدلالة قوله (تَضَرُّعًا وَخِيفَةً) وهو ليس حديث النفس بدليل قوله في الآية نفسها (ودون الجهر من القول) وأما ما سماه حديث (السر ما أسر ابن آدم في نفسه) فالجواب أن النقاش في حقيقة الكلام وليس في معنى السر ، وعلى فرض صحة الأثر ، والتسليم بالاستدلال فإن ذلك مقيد بالنفس .

وأما حديث (إني لأحدث نفسي بالشيء لو تكلمت به ...) ففيه الرد عليه ، فإن السائل يقول عن ما في نفسه لو تكلمت به ، أي نطقت به ، أما ما دام لم يحدث به فلا يعد كلاماً ، لأنه قيده بالنفس ؟

---

١) أخرجه الترمذي ٨٤/٤ وصححه .

٢) رواه ابن كثير في التفسير ٤١٨/١ .

٣) رواه أحمد ١٧٠/٢ . ورواه بمعناه عن عائشة مسلم ١٤٧/١٤ .

٤) الأنعام ٢٤ .

٥) النساء ٦٣ .

ومثله حديث الرسول ﷺ المشهور " إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل " [1] فما في النفس من المعاني – الكلام النفسي عند الماتريدية – لا يعد كلاماً إلا إذا نطق به بنص الحديث المتفق عليه ، فحديث النفس مقيد بالنفس ، وليس كلاماً مطلقاً .

وأما الحديث القدسي (فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي) ففيه الرد أيضاً ، فجاء في الحديث (وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ أفضل منه) .

فهنا ذكر مقيد بالنفس ، وذكر في ملأ ، ودلت هذه المقابلة على أن الأول حديث نفس ، والثاني حديث علني مسموع .

وأما قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (زورت في نفسي كلاماً)

فأولاً ، إن اللفظ الذي في الصحيح هو : " وكنت قد زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها " .

وأما ثانياً فإن هذا النقل فيه نقض استدلاله ، لأن عمر أخبر أنه لم يتكلم به ، وإنما هيأه في نفسه ، إذ لو تكلم به لما احتاج أن يقول : "فلما أردت أن أتكلم " [2] فعلم أن الكلام لا يسمى كلاماً إلا إذا نطق به .

يقول ابن الأثير : " وفي حديث عمر يوم السقيفة " كنت زورت في نفسي مقالة " أي هيأت وأصلحت .

والتزوير : إصلاح الشيء وكلام مزور : أي محسن " [3] .

إذاً هو هيأ كلاماً و لم يتكلم ، فبطل استدلال الكوثري لما يسميه كلاماً نفسياً .

هذا ما استدل به من النصوص على الكلام النفسي ، أما استدلاله من جهة المعقول فهو ما سبق ذكره مما يسميه تتريه الرب عن حلول الحوادث .

وهذه شبهة عرضت على أهل البدع ، نفوا بسببها الصفات المتعلقة بمشيئة الله ومنها الكلام .

---

1) رواه البخاري كتاب الإيمان والنذور ، باب إذا حنث ناسياً ١١/٥٤٨ ، ومسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس .

2) سبق تخريجه .

3) النهاية في غريب الحديث ٢/٣١٨ .

فيقال إن هذا من الأمور المحدثة التي لم ترد في كتاب الله ولا في سنة النبي ﷺ ولا على لسان أئمة السلف من الصحابة ومن بعدهم ، فلا تعطل الصفات – ومنها الكلام – بدعوى حلول الحوادث .

ويقال أيضاً : إن أريد بحلول الحوادث أن الله لا يحل في شيء من مخلوقاته ولا يحل شيء من مخلوقاته فيه ، فهذا حق لا شك فيه .

وإن كان هذا المصطلح المقصود به نفي صفاته الاختيارية وتحريف معناها لمعان لا دليل عليها ، بحيث يقال إن الله تكلم بكلام في نفسه ، أسمعه من شاء من خلقه بدون لوازمه من الصوت و الحرف فهذا النفي بهذا المعنى غير مقبول ، بل هو مردود ومرفوض ثم إنهم – الماتريدية والكوثري منهم _ متناقضون ، حيث يقولون إن الله يوصف بأنه خالق ورازق من غير أن تقوم به هذه الصفات ، و إنما المقصود ما يخلقه من الخلق و الرزق ولكنهم لا يقولون إن الله متكلم من غير أن تقوم به صفة الكلام ، و المقصود الكلام الذي خلقه في غيره ! فالكوثري يقول إن الله متكلم بصفة تقوم به وهو رازق بصفة لا تقوم به و إنما تقوم بما يرزقه الله [1] ! وهذا تناقض .

ومن هذا أنهم أثبتوا لله علماً وقدرة ، فإن قيل لا نعلم هذه إلا عرضاً ، نفوا ذلك بحجة أن هذا للمخلوق .

فيقال لهم فالله يتكلم حقيقة بحرف وصوت ، لا كلاماً نفسياً مع نفي أن تكون تلك عرضاً من الأعراض إذ إن ذلك للمخلوق . [2]

لهذا كله يشدد الكوثري في نفي الصوت الذي هو من حقيقة الكلام يقول : " واعتقاد الصوت في كلام الله خطر جداً " [3] .

ويقول : قال أبو بكر ابن العربي في العارضة " لا يحل لمسلم أن يعتقد أن كلام الله صوت وحرف لا من طريق العقل ولا من طريق الشرع ، فأما طريق العقل فلأن الصوت والحرف مخلوقان ومحصوران ، وكلام الله يجل عن ذلك كله ، وأما من طريق الشرع فلأنه لم يرد في كلام الله صوت وحرف من طريق صحيحة " [4] .

---

١) ينظر مجموع الفتاوى ٣١٨/٦ – ٣٢٢ ومنهاج السنة ٢٦٤/٢ – ٢٦٦ .

٢) التدمرية بتصرف ٣١–٣٢ .

٣) حاشية السيف الصقيل ٤٦ .

٤) حاشية السيف الصقيل ١٩٧ .

وأيضاً : " والصوت سواء كان من جهة أو الجهات كلها حادث مخلوق لا يقوم بالله سبحانه " . (١)

وقبل أن أذكر رأي الكوثري في الآثار الواردة مما مقتضاها إثبات الصوت لله ، يحسن بيان أن الكوثري كثيراً ما يخلط بين تلاوة العبد للقرآن الكريم ، ونسبة هـــذا المتلـــو لله ، ويزعم أن المثبتين لكلام الله على حقيقته النافين لما يسمى الكلام النفسي ، إنمـــا يريـــدون التلاوة التي تتعلق بالمخلوق .

يقول : " الملفوظ فإن كان يريد وجوده العلمي في علم الله فقدمه بهـــذا الاعتبـــار موضع اتفاق ، وإن كان يريد الصوت الصادر من فم اللافظ ، فهو حادث قطعاً " . (٢)

ويقول : " ومن الحشوية من يقول إن الصوت من المصوت قديم . ومنهم من يقول : إن الله يتكلم على لسان كل تال تعالى الله عن جهالات الجاهلية " . (٣)

ويوضحه بقوله : " إن ما يصدر من فم العبد من الحروف والأصوات حادث قطعاً ، وكذلك الكتابة ونحوها " . (٤)

وكلامه في هذا المعنى كثير . (٥)

ولي أمام هذا الكلام وقفتان :

<u>الأولى</u> : أن هذا القول ، وهو أن ما يسمع من تلاوة القاري للقرآن الكريم ، إنما هو حادث مخلوق ، وليس كلام الله من الأقوال المبتدعة التي أحدثت بسبب الجهمية المعطلة .

قال عبدالله بن أحمد : " سألت أبي قلت : ما تقول في رجل قال : التلاوة مخلوقة ، وألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، والقرآن كلام الله عز وجل وليس.بمخلوق ؟ وما ترى في مجانبته ، وهل يسمى مبتدعاً ؟ فقال : هذا يجانب ، وهو قول مبتدع وهذا كلام الجهمية " .(٦)

---

١)حاشية الانصاف للباقلاني ٩٥-٩٦ .

٢) حاشية السيف الصقيل ٧٦ .

٣) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٥١

٤) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٢٥ .

٥) انظر حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٥ وحاشية العقيدة النظامية ٣٠ ، وحاشية الانصـــاف ٩٤-٩٥ .

٦) كتاب السنة لعبدالله بن أحمد ١/١٦٣-١٦٤ رقم ١٧٨ .

الثانية : لم يقل أحد من السلف بأن فعل العبد هو كلام الله ، بل يقولون أفعالهم مخلوقة ، يقول يحيى بن سعيد القطان : ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة " .[1]

لكنهم أنكروا على من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، لأن ذلك يتضمن نفي حقيقة الكلام عن الرب عز وجل .

قال المروذي : " سمعت أبا عبدالله يقول : افترقت الجهمية على ثلاث فرق : الذين قالوا مخلوق ، والذين شكّوا والذين قالوا ألفاظنا بالقرآن مخلوقة " .[2]

والكوثري يخلط بين البدعتين ، حين ينفي أن يكون المتلو كلام الله وحين يثبت أن القرآن كلام نفسي .

وكلام الله عز وجل يسمعه من شاء من خلقه بصوت كما جاءت بذلك الأحاديث ، وكما هو لازم صفة الكلام .

فماذا فعل الكوثري تجاه هذه النصوص ؟

أولاً قوله تعالى (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)[3] وغيرها من الآيات في كلام الله لموسى يقول الكوثري : " والوارد في الكتاب أنه تعالى كلم موسى – بدون ذكر صوت أصلاً – والتكلم لا يستلزم الصوت " .[4]

فالجواب عليه هو: قوله تعالى (فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ)[5] . والاستماع إنما يكون لصوت يسمع ، وهو كلام الله .

---

١) خلق أفعال العباد للبخاري رقم ١٢٥ .
٢) كتاب السنة للخلال ١٢٥/٥ رقم ١٧٧ .
٣) القصص ٣٠ .
٤) حاشية السيف الصقيل ٦٩ .
٥) طه ١٣ .

وقد قيل للإمام أحمد : " إن عبد الوهاب قد تكلم وقال : من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي ، عدو لله عدو للإسلام – فتبسم أبو عبدالله وقال : ما أحسن ما قال عافاه الله " .[1]

ثانياً : حديث عبدالله بن أنيس ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يحشر الله العباد – أو الناس – عراة غرلا بهماً . فقلنا ما بهماً ؟ قال : ليس معهم شيء ، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد – أحسبه قال : كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان " .[2]

يقول الكوثري عن الحديث : " ذكره البخاري تعليقاً بصيغة (ويذكر) في صحيحه إشارة إلى أنه ضعيف ، ليس من شرطه كما هي عادته في الأحاديث المعلقة " .[3]

و" الرواة عن ابن عقيل قد اختلفوا عليه في ذكر الصوت " .[4]

و" الإسناد مجازي على تقدير إسناده إلى الله سبحانه ." [5] .

والجواب عن هذا :

أولاً لا يضر ذكر البخاري لهذا الحديث بصيغة التمريض في صحيحه وذلك :

١- لأن الحديث من رواية جابر بن عبدالله عن عبدالله بن أنيس ، وقد روى البخاري قصة خروج جابر إلى ابن أنيس بالجزم .[6]

٢- ولأن البخاري رواه موصولاً في كتابه (خلق أفعال العباد) واحتج به ، حيث قال : " وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق " [7] .

ثانياً : ليس هناك أي اختلاف على ابن عقيل في ذكر الصوت .[8]

ثالثاً : قوله إن الإسناد مجازي ، واستدل بحديث " فينادى بصوت إن الله يأمرك ..." فهذا كلام فاسد ، فكيف يكون الإسناد مجازياً لقصتين مختلفتين ، فالأولى أن الله ينادي

---

١) اجتماع الجيوش الإسلامية ٨٣ وانظر درء التعارض ٢/٣٨-٣٩ ، وانظر ماسبق ص ٣٩٩ .

٢) رواه أحمد ٣/٤٩٥ ، والحاكم في المستدرك ٢/٤٣٧-٤٣٨ ، والبخاري في " خلق أفعال العباد " ١٤٩ ، وذكره البخاري في الصحيح معلقاً في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى (ولا تنفع الشفاعة) ٦/٢٧٢ والبيهقي في الأسماء والصفات ٢٦٣ .

٣) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٦٣.

٤) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٦٣.

٥) حاشية الأسماء والصفات للبيهقي ٢٦٣ .

٦) رواه البخاري في الصحيح ١ / ٣٢ ، وانظر حاشية (الماتريدية) للشمس الأفغاني ١ / ١٢٥.

٧) خلق أفعال العباد ١٤٩ .

٨) انظر كلام ابن حجر على الحديث في فتح الباري ١/١٧٤ .

بالملك والجبروت عزة وقوة ، والثانية في طلب الله من آدم أن يخرج من ذريته من استحق النار ؟ هذا تلبيس وتدليس !

وعلى فرض أن القصة واحدة ، فالأصل في الكلام الحقيقة . ثم لا يتصور أن يكون الإسناد مجازياً أبداً حيث إن اللفظ يأباه ، ألا ترى أنه يقول : " أنا الملك أنا الديان " فهل يناسب أن يكون القائل ملكاً أو غيره ؟!

وللكوثري حجة في نفي الحرف والصوت كثيراً ما يرددها ، فينقل عن الباقلاني قوله : " من زعم أن السين من " بسم الله " بعد الباء ، والميم بعد السين الواقعة بعد الباء لا أول له ، فقد خرج عن المعقول ، وجحد الضرورة ، وأنكر البديهة ، فإن اعترف بوقوع شيء بعد شيء ، فقد اعترف بأوليته فإذا ادعى أنه لا أول له فقد سقطت محاجته ، وتعين لحوقه بالسفسطة ، وكيف يرجى أن يرشد بالدليل من يتدافع في جحد الضروري " .[1]

وللجواب على هذا يقال إن هذا التعاقب متعلق بالمشيئة ، والصفة قديمة ، ونوعها حادث ، ولا يلزم من هذا التعاقب حدوث الصفة .

ثم إن إيراد هذا المعنى لنفي حقيقة الكلام ، والصوت والحرف في كلام الله إيراد عقلي فاسد لا يصح في صفة الله ، لأنه قياس لله على المخلوق ، فالكلام عندهم لا يكون إلا بجارحة وآلة وفم ... الخ ، فيقال لهم والسمع لا يكون إلا بآلة وهي الأذن ، والبصر لا يكون إلا بحدقة ونحوه ، فإن قال هذا سمع المخلوق وبصر المخلوق ، فكذلك هذا كلام المخلوق .[2] فالله (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ)[3] .

وأما رد الحرف والصوت بحجة أولية الحرف فهذا كلام فاسد ، وذلك أن هذه الأولية ، حادثة الآحاد ، قديمة النوع ، كما أخبر عن نفسه (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا)[4] .

والكوثري إنما ينافح برد هذه النصوص لاعتقاده بما يسميه كلاماً نفسياً .

---

١) حاشية الانصاف ٩٩ .
٢) انظر مثلاً التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣١ .
٣) الشورى ١١ .
٤) الكهف ١٠٩ .

وهذا الأمر الذي قرر في صفة كلام الله لا يتصوره عقل ولا يدل عليه شرع ، فعلى كثرة شروحهم لهذا المعنى لا يزال الاضطراب ماثلاً فكيف يتصور كلام قائم به ، بلا صوت ! فهذا الكلام كيف سمعه جبريل وموسى إذا كان كلاماً نفسياً ؟

فهذا المعتقد معتقد بدعي لم ينص عليه النقل ، ولا أشار إليه السلف ، بل أول من قال به عبدالله بن كلاب وعنه انتشر .[1]

فلم يكن بين الصحابة والتابعين ولا بين أهل البدعة نزاع في مسمى الكلام وحقيقته .

" وأما ما يدعونه من (الكلام النفساني) فذاك لا يعقل أن من خلا عنه كان ساكتاً أو أخرس ، فلا يدل بتقدير ثبوته على أن الخالي عنه يجب أن يكون ساكتاً أو أخرس .

وأيضاً فالكلام القديم (النفساني) الذي أثبتموه لم تثبتوا ما هو ؟

بل ولا تصورتموه ، وإثبات الشيء فرع تصوره فمن لم يتصور ما يثبته كيف يجوز أن يثبته ، ولهذا كان أبو سعيد بن كلاب - رأس هذه الطائفة وإمامها في هذه المسألة — لا يذكر في بيانها شيء يعقل ، بل يقول : وهو معنى يناقض السكوت والخرس .

والسكوت والخرس ، إنما يتصوران إذا تصور الكلام ، فالساكت هو الساكت عن الكلام ، والأخرس هو العاجز عنه أو الذي حصلت له آفة في محل النطق تمنعه عن الكلام ، وحينئذ فلا يعرف الساكت والأخرس حتى يعرف الكلام ، ولا يعرف الكلام حتى يعرف الساكت والأخرس .

فتبين أنهم لم يتصوروا ما قالوه و لم يثبتوه ، بل هم في الكلام يشبهون النصارى في الكلمة ، وما قالوه في الأقانيم والتثليث والاتحاد ، فإنهم يقولون ما لا يتصورونه ولا يبينونه ، والرسل عليهم السلام إذا أخبروا بشيء و لم نتصوره وجب تصديقهم " .[2]

ويحسن أن أنقل كلاماً نفيساً لأحد أئمة الماتريدية المعظمين لدى الكوثري ، وهو الشريف علي بن محمد الجرجاني ، الذي يقول فيه الكوثري : " .... والعلامة السيد الشريف الجرجاني وغيرهم من كبار أئمة الدين الذين يفزع إليهم في حل المشكلات في أصول الديانة " [3] .

---

١) انظر درء تعارض العقل لابن تيمية ٨٤/٢ .

٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٩٥/٦-٢٩٦ .

٣) مقالات الكوثري ٤٥٢ .

والكلام النفسي من الأمور المشكلة — عندهم — التي تطرق الجرجاني إليها حيث، يقول : " فالشيخ الأشعري لما قال الكلام هو المعنى النفسي فهم الأصحاب منه أن مراده مدلول اللفظ وحده ، وهو القديم عنده ، وأما العبارات فإنما تسمى كلاماً مجازاً لدلالتها على ما هو كلام حقيقي حتى صرحوا بأن الألفاظ حادثة على مذهبه أيضاً ، لكنها ليست كلامه حقيقة .

وهذا الذي فهموه من كلام الشيخ له لوازم كثيرة فاسدة : كعدم إكفار من أنكر كلاميّة ما بين دفتي المصحف مع أنه علم من الدين ضرورة ، كونه كلام الله حقيقة وكعدم المعارضة والتحدي بكلام الله تعالى الحقيقي وكعدم كون المقروء والمحفوظ كلامه حقيقة إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتفطن في الأحكام الدينية فوجب حمل كلام الشيخ على أنه أراد به المعنى الثاني ، فيكون الكلام النفسي عنده شاملاً للفظ والمعنى جميعاًقائماً بذات الله تعالى " .[١]

أبت فطرة الجرجاني قبول الاضطراب ، فقرر الصواب ، فماذا يقول الكوثري في هذا ؟!

يقول ابن القيم رحمه الله : " جمهور العقلاء يقولون : إن تصور هذا المذهب كافٍ في الجزم في بطلانه وهو لا يتصور إلا كما تتصور المستحيلات الممتنعات " .[٢]

وهذا الشهرستاني الأشعري يقول : " أبدع الأشعري قولاً ثالثاً وقضى بحدوث الحروف ، وهو خرق الاجماع ، وحكم بأن ما نقرأه كلام الله مجازاً لا حقيقة وهو عين الابتداع " .[٣]

---

١) شرح المواقف للشريف الجرجاني ١٠٣/٨-١٠٤ .

٢) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ٥١٣-٥١٤ .

٣) نهاية الأقدام ٣١٣ .

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في القرآن الكريم ونقده

المطلب الثالث :

رأي الكوثري في القرآن الكريم ونقده

تمهيد :

معتقد السلف الصالح في القرآن الكريم أنه كلام الله غير مخلوق ، تكلم به حقيقة ، تكلم به بحروفه ومعانيه ، سمعه جبريل فأسمعه نبينا ﷺ ، منه بدأ وإليه يعود .[1]

يقول أبو بكر أحمد الإسماعيلي في بيان معتقد أهل الحديث : " ويقولون القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنه كيفما يصرف بقراءة القارئ له ، وبلفظه ، ومحفوظاً في الصدور ومتلواً بالألسن ، مكتوباً في المصاحف غير مخلوق "[2] .

ويقول عثمان بن سعيد الدارمي : " القرآن خرج من الخالق لا من المخلوق ، وأنه كلام الخالق لا كلام المخلوقين " .[3]

ويقول الطحاوي الحنفي : القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى حقيقة ، وليس بمخلوق " .[4]

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة ، أتباع السلف في القرآن الكريم لم يتناقضوا ، وذلك لأن معتقدهم في كلام الله موافق للمنقول والمعقول ، وقد ضل في حقيقة كلام الله بالقرآن الكريم أقواماً .

فإن القول بنفي كلام الله كان من أول ما ظهر من البدع الاعتقادية في صفات الله ، فقد وضع جهم بن صفوان في هذه الأمة بذرة شر ، حيث تصور في الله معتقدات اليونان الوثنية ، فرأى لزوم نفي صفات الله ومنها الكلام ، والقرآن الكريم من كلام الله فتسرب معتقد خلق القرآن .

---

١) انظر لذلك درء التعارض ٢٥٧/٧-٢٧٣ ، مجموع الفتاوى ١٥٣/٦ ، ٣٧/١٢-٣٨ ، ٢٣٥-٢٣٦ .

٢) اعتقاد أئمة الحديث للاسماعيلي ٥٧ .

٣) الرد على الجهمية ١٦٠ .

٤) العقيدة الطحاوية مع شرحها ١٧٢/١ .

فقد ذكر في مجلس أبي نُعيم الفضل بن دكين من يقول : " القرآن مخلوق ، فقال أبو نعيم : والله ، والله ما سمعت شيئاً من هذا حتى خرج ذاك الخبيث جهم " [1] .

فترتب على نفي صفة الكلام ، أن كلامه بالقرآن مخلوق خلقه في غيره كما هو معتقد المعتزلة الجهمية .

فدفع ذلك ابن كلاب ان استعظم هذه الفرية ، فزعم أنه يرد على الجهمية بدعتهم ، فأنكر عليهم نفي الكلام ، ووصف القرآن العظيم بالخلق ، وزعم أن كلام الله — ومن ضمنه القرآن الكريم — كلاماً نفسياً ! [2] فأخذ الأشعري هذا الأمر واستنند عليه ، وتوسع أتباعه فيه هم والماتريدية .

معتقد الماتريدية في القرآن الكريم

قد مر بنا سابقاً معتقد الماتريدية في كلام الله — عز وجل — وما تابعوا فيه ابن كلاب من الكلام النفسي ، إنما الذي دفعهم إلى ذلك الاعتقاد ، هو معتقدهم في القرآن الكريم ، وهل هو كلام الله حقيقة ؟

يقول التفتزاني : " والكلام هو صفة أزلية عبر عنها بالنظم المسمى بالقرآن المركب من الحروف ، وذلك لأن كل من يأمر وينهى ويخبر يجد في نفسه معنى ، ثم يدل عليه بالعبارة أو الكتابة أو الإشارة " . [3]

فالنظم المسمى — عنده — قرآناً هو عبارة عن كلام الله ، لكن قد يشكل أن النسفي قال : " والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق " [4] ! فيستدل منه على تطابق معتقدهم مع معتقد السلف الصالح ! ولكن الأمر ليس كذلك ، إذ إن التفتزاني شرح مراده فقال : " وعقب القرآن بكلام الله ، لما ذكره المشايخ من أنه يقال : القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ، ولا يقال : القرآن غير مخلوق " [5] . لماذا ؟

يقول : " لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الأصوات والحروف قديم " . [6]

---

١) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد ١٧٢/١ رقم ٢٠٧ .

٢) قد سبق ذكر ذلك ص ٤٥١ ، ٤٧١ ، وانظر أيضاً مجموع الفتاوى ١٧٨/٢ ودرء التعارض ١١١/٢-١١٥ .

٣) شرح العقائد النفسية للتفتزاني ٤١ .

٤) شرح العقائد النسفية ٤٣ .

٥) شرح العقائد النسفية ٤٣ .

٦) شرح العقائد النسفية ٤٣ .

فالمقصود أن النفي في قوله : " غير مخلوق " منصب على كلام الله ، لا على القرآن الذي هو عندهم هذا النظم ! لذا لا يجوز أن يقال : القرآن غير مخلوق ، لأنه عندهم مخلوق ؟

وأزيد بياناً بقول البياضي الماتريدي حيث يقول : " فبقي النزاع بين أهل السنة والمعتزلة ، وهو في التحقيق عائد إلى إثبات الكلام النفسي ونفيه ، وأن القرآن هو النفسي ، أو الحسي المؤلف من الحروف المترتبة وإلا فلا نزاع لأهل السنة في حدوث الكلام الحسي " . [1]

فالقرآن إما هو النفسي فهو كلام الله غير مخلوق ، والقرآن الثاني هو الحسي فهو حادث مخلوق !

لذا رأى الكوثري أنه متى " يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم كما في قولنا : القرآن غير مخلوق فالمراد : حقيقته الموجودة في الخارج .

وحيث يوصف بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات يراد به : الألفاظ المنطوقة والمسموعة " . [2]

إذاً إذا قيل : القرآن غير مخلوق ، فالمعنى – عندهم – صحيح وإذا قيل : القرآن مخلوق ، فالمعنى – عندهم – أيضاً صحيح !

والكوثري في القرآن الكريم يقرر ما قرره الماتريدية .

يقول : " والقرآن كلام الله قائم به قديم بقدمه ، ليس بحرف ولا صوت " . [3]

وأيضاً : " ليس القرآن مخلوقاً في كل موضع وبكل جهة ، وعلى كل حال بل في جهة دون جهة ، قديمٌ فيما إذا اعتبر قيامه بالله صفة له غير بائنة منه ، ومخلوق فيما إذا كان نقش الكاتب أو كيفية اهتزازية في الهواء ، المضغوط بلهاة التالي ، ولسانه تمتد من فيه إلى صماخ السامع أو صورة خيالية موجودة في ذهن الحافظ وجوداً مثالياً ، والقرآن مشترك بين هذه الإطلاقات .

وهذا ينطبق تمام الانطباق لما عليه أهل الحق " . [4]

---

١) إشارات المرام ١٤٥ .

٢) شرح العقائد النسفية ٤٥ .

٣) حاشية كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ٢٤٦ .

٤) حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٤٣ .

ولي عند هذا الكلام وقفات :

الأولى :

أن الكوثري يقرر في القرآن الكريم ما قرر النسفي والتفتزاني وأئمة الماتريدية .

فالقرآن قرآنان :

– قرآن قديم ليس بمخلوق .

انظر لقوله : " قديم فيما إذا اعتبر قيامه بالله صفة له " .[١]

– وقرآن مخلوق .

انظر لقوله : " ومخلوق فيما إذا كان نقش الكاتب ... " .[٢]

الثانية :

أن الكوثري كثيراً ما ينسب نفي اللفظ والصوت والحروف عن كلام الله لأنه يرى أنها من خصائص المخلوق ، لذا ينصب نكيره على من أثبت كلام الله بحرف وصوت يسمع ، زاعماً أن ذلك تشبيه وتمثيل .

وهذا الأمر ليس بجديد ، فقد اتخذه الجهمية تستراً لنفي كلام الله ، فابتدعوا القول : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ومقصودهم أن القرآن ليس كلام الله ، بل مخلوق .

فاستمع إليه يقول : " فصدور العلماء[٣] ، واللوح المحفوظ[٤] ، ولسان الرسول ﷺ[٥] ، مخلوقة مع ما فيها " .[٦]

ويزيده وضوحاً قوله : " إن كان يريد الصوت الصادر من فم اللافظ فهو حادث قطعاً " .[٧]

---

١) حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٤٣ .

٢) حاشية الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ٤٣ .

٣) يشير إلى قوله تعالى (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) العنكبوت ٤٩ .

٤) يشير إلى قوله تعالى (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) البروج ٢١-٢٢ .

٥) يريد قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) الأحقاف ٢٩ .

٦) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٧٦ .

٧) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٧٧ .

ويقول : " وليس بقليل بين أهل العلم الذين يقولون بأن المعنى المصدري أمر نسبي من قبيل الحال ، فعندهم ، أن اللافظ هو العبد وهو مخلوق الله ، والملفوظ هو الصوت المكيف الخارج من فم العبد ، وهو مخلوق الله تعالى أيضاً " . (١)

بل يستعين الكوثري بما وقع للبخاري من محنة اللفظية للدلالة على صحة قوله أولاً وللإشارة إلى انتسابه لمذهب السلف ثانياً .

يقول : " والمعروف بين أهل العلم أن البخاري كان يقول بحدوث اللفظ – يعني لفظ التالي الدال ، دون تعرض للمعنى المدلول عليه وضعاً أو عقلاً – وأحمد يبدع من يقول ذلك ، وتبديع هذا وقول ذاك متواردان على شيء واحد ، والحق مع البخاري في تلك المسألة " . (٢)

فأستعين بالله – عز وجل – وأقول إن الكوثري قد نسب إلى البخاري ما لم يقله ، وما لا يعتقده ، فأين قال البخاري : إن لفظ التالي أو القارئ حادث ؟

بل هذا مما قوّله عليه بعض الناس ، وإنما سئل عن رأيه في اللفظ بالقرآن ، فأجاب : " أفعالنا مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا " ففهم منه من فهم أنه يقول : لفظي بالقرآن مخلوق ! (٣) وبين العبارتين بون .

فالبخاري – رحمه الله – يبرأ من أن يعتقد في كلام الله شيء مخلوق أو أن يرى نفي الحرف أو الصوت ، أو شيء من حقيقة الكلام ، وقد مر بنا كلامه في ذلك .

فليس اعتقاده ، اعتقاد الجهمية الذين يعتقدون أن جبريل هو الذي جاء بهذا القرآن المكون من حروف عربية . حاشاه من ذلك .

وإنما مراده لفظ العبد ، وصوت العبد ، وحركة العبد لا شك أنها مخلوقة ، ولم يرد الملفوظ .

وإليك كلام البخاري نفسه : " حركاتهم ، وأصواتهم واكتسابهم ، وكتابتهم ، فأما القرآن المتلو المبين ، المثبت في المصحف ، المسطور المكتوب الموعى في القلوب ، فهو كلام الله ، ليس بخلق " . (٤) وهذا كلام بين لا لبس فيه .

---

١) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٧٧ ، ومثله حاشية كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ٢٥٠ .

٢) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٧٧ .

٣) ينظر هدي الساري مقدمة شرح البخاري ٤٩٠ ، وسير أعلام النبلاء ١٢ / ٤٥٨.

٤) انظر حاشية الأسماء والصفات ٢٥٦ .

ولنا أن نقول : هل قرأ الكوثري هذه العبارات ؟

أكاد أجزم بذلك ، فيبعد على أحد مثل الكوثري في سعة اطلاعه ، وتنقيبه وفهم قراءته ألا يطلع على هذا الكلام ، كيف وقد صرح هو باطلاعه على كتاب خلق أفعال العباد للبخاري ! ولا يقول معترض أنه قد نقل عن الإمام أحمد أنه أنكر على من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، حيث روى صالح[1] قال : " تناهى إلي أن أبا طالب يحكي عن أبي أنه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فأخبرت أبي بذلك ، فقال : من أخبرك ؟ قلت : فلان ، قال : ابعث إلى أبي طالب ، فوجهت إليه ، فجاء وجاء فوران فقال له أبي : أنا قلت لكم لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ وغضب ، وجعل يرعد فقال : قرأت عليك (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) فقلت لي : هذا ليس بمخلوق ، قال له : لم حكيت عني أني قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وبلغني أنك وضعت ذلك في كتابك ، وكتبت به إلى قوم ، فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو ، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم أني لم أقل لك هذا وغضب ، وأقبل عليه ، فقال تحكي عني ما لم أقله ؟ فجعل فوران يعتذر إليه ، وانصرف من عنده وهو مرعوب "[2] .

فهل يُفهم من إنكار أحمد أنه يرى أن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، بمعنى نفي الحرف والصوت عن كلام الله ؟

يقول البيهقي بعد رواية القصة : " فهاتان الحكايتان تصرحان أن أبا عبدالله أحمد بن حنبل ﷺ بريء مما خالف مذهب المحققين من أصحابنا ، إلا أنه كان يستحب قلة الكلام في ذلك ، وترك الخوض فيه ، مع إنكار ما خالف مذهب الجماعة " .[3]

فالبيهقي وغيره فهموا أن الإمام ينفي الحرف والصوت وهو فهم باطل،فحاشاه ، فقد برئ الإمام مما خالف الكتاب والسنة ، وإن لم يتفق مع مذهب من سماهم مذهب المحققين .

فالإمام أحمد قد أنكر على من قال : القرآن مخلوق ، أو قال لفظي بالقرآن مخلوق ، بل وكفره .وأنكر أيضاً على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وجعله مبتدعاً .

فأما الأولون فقد قال : " من قال القرآن مخلوق فهو عندنا كافر " .[4]

---

١) هو صالح بن أحمد بن حنبل .

٢) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ٢٤٦/١ ، وانظر الأسماء والصفات للبيهقي ٢٥٦ .

٣) كتاب الأسماء والصفات للبيهقي ٢٥٦ .

٤) كتاب السنة لعبدالله بن أحمد ١٠٢/١ رقم ١ .

وأما الآخرون فقد جاء عن عبدالله بن أحمد قال : " سمعت أبي يقول : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي " . (١)

فهذا يرد بجلاء على ما فهمه البيهقي ، وتبعه الكوثري من أن الإمام أحمد أنكر على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق لأنه يرى أن كلام الله بلا حرف ولا صوت !

وهذا أجلى عند الإمام أحمد من أن يدلل عليه .

وإنما أنكر الإمام أحمد على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق لأن هذا قول مبتدع لم يأت عن أحد من السلف .

وأيضاً هذا اللفظ موهم ملتبس ، فيدخل فيه فعل التالي وصوت القارئ .

يقول عبدالله بن أحمد : " سمعت أبي يقول : من قال : لفظي بالقرآن مخلوق هذا كلام سوء رديء ، وهو كلام الجهمية . قلت له : الكرابيسي يقول هذا . فقال : كذب هتكه الله ، الخبيث .

وقال : قد خلف هذا بشراً المريسي (٢) ، وكان أبي رحمه الله يكره أن يتكلم في اللفظ بشيء ، أو يقال : مخلوق أو غير مخلوق " . (٣)

والعبارة الأخيرة تبين سبب إنكار الإمام أحمد على من نقل عنه قول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وهو كراهيته للنفي أو الإثبات في اللفظ ، وليس لموافقته لمذهب المحققين من أصحاب البيهقي كما زعم .

فخلط الكوثري بين فعل العبد ، وبين كون القرآن كلام الله حقيقة ، لا يستند إليه في نفي الكلام وأن القرآن الكريم كلام الله .

---

١) كتاب السنة لعبدالله بن أحمد ١/١٦٥ رقم ١٨١ ومثله رقم ١٨٢ ، ١٨٣ .

٢) بشر بن غياث بن أبي كريمة ، أبو عبد الرحمن ، العدوي مولاهم ، بالغدادي المريسي . المتكلم المناظر البارع ، كان من كبار الفقهاء ، أخذ عن : القاضي أبي يوسف ، وروى عن : حماد بن سلمة ، وابن عينية . ونظر في الكلام ، فغلب عليه ، وانسلخ من الورع والتقوى ودعا إلى القول بخلق القرآن ، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم ، فمقته أهل العلم ، وكفّره عدة . قال أحمد: كان أبوه يهودياً ، أي شيء تراه يكون ؟! مات سنة (٢١٨هـ) . [تاريخ بغداد ٧/٥٦، وفيات الأعيان ١/٢٧٧،ميزان الاعتداد ١/٣٢٢ السير ١٠/١٩٩] .

٣) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ١/١٦٦ رقم ١٨٦ .

يقول الموفق ابن قدامة : " وما ذكر من الأخبار الدالة على نسبة الصوت للقارئ فليس هذا محل نزاع ، إنما النزاع في أن الله تعالى تكلم بحرف وصوت أم لا ؟ ومذهب أهل السنة اتباع ما ورد في الكتاب والسنة . " (١)

ومن ذلك قول الكوثري : " من قال إن القرآن القائم بالله في الأرض فهو حلولي زائغ ، وهذا ظاهر جداً . " (٢)

بل نقول : إن القرآن الذي أنزله الله على نبيه ﷺ وقرأه على أصحابه ، والذي نقرأه ونسمعه هو كلام الله – عز وجل – تكلم به على الحقيقة بحرف وصوت يسمع .

ولذا فالكوثري لا يرى أن هذا القرآن الذي يتلى ويكتب ويقرأ كلام الله حقيقة .

يقول : " وصف القرآن القائم بالله سبحانه بالمكتوب ، والمحفوظ والمتلو من قبيل وصف المدلول بوصف الدال مجازاً . " (٣)

ولأجل هذا قام الكوثري بتغيير مراد الباقلاني ، حيث إنه جلى هذه المسألة فقرر كلام السلف في ذلك ، حيث فرق بين القراءة والمقروء ، يقول الباقلاني : " ويجب أن يعلم أن القراءة غير المقروء ، والتلاوة غير المتلو ، والكتابة غير المكتوب ، وهذا إنما خالف فيه من لاحس له ولا فهم ولا عقل ولا تصور " (٤) ثم قال : " فكذلك التلاوة غير المتلو ، لأن التلاوة فعل الرسول ، وهو المأمور بها ، والمتلو كلامه القديم ، و لم يأمره أن يأتي بكلامه القديم ، لأن ذلك لا يتصور الأمر به ، ولا يدخل تحت قدرة مخلوق ، إنما أمر بتلاوة كلامه . " (٥)

علق الكوثري على هذا الكلام فقال :

" ومما يجب الانتباه إليه هنا ، أن التلاوة بالمعنى المصدري لها طرفان كما سبق ، جانب الفاعل ، وجانب الأثر المترتب عليه ، الذي يقال له الحاصل بالمصدر المبني للمفعول ، وهذا هو المتلو حقيقة ، فالتالي والمتلو بهذا المعنى مخلوقان ، وأما ما دل عليه هذا الصوت المكيف ، فهو صفة لله قائمة به ، وقديمة قدم باقي الصفات الذاتية الثبوتية ، فليس مراد

---

١) الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم ٥٠ .

٢) حاشية السيف الصقيل للسبكي ١٧٥ .

٣) حاشية الانصاف ٧٨ ، ومثله ٨٠ .

٤) الانصاف للباقلاني ٨١ .

٥) الانصاف للباقلاني ٨١ .

المصنف بالمتلو والمحفوظ والمكتوب ما هو أثر مترتب على المعنى المصدري للتلاوة والحفظ والكتابة بل مراده بها الصفة القائمة بالله التي لا ترتب ولا تقدم ولا تأخر فيها " .[1]

أقول هذا تحريف لمراد الباقلاني ، وتجن عليه فالباقلاني يقول نصاً : " التلاوة غير المتلو ، لأن التلاوة فعل الرسول ، وهو المأمور بها ، والمتلو كلامه القديم " .

والكوثري يقول ليس مراد الباقلاني بالتلاوة ، الأثر المترتب على التلاوة ويقصد المتلو المسموع ، وإنما مراده الصفة القائمة بالله التي لا ترتب فيها أي الكلام النفسي ؟

كيف يستقيم هذا الزعم ، والباقلاني يتكلم عن أمر واحد ، وهو تلاوة التالي للقرآن الكريم ، فيقول إن التلاوة هي فعل العبد ، والمتلو المسموع هذا كلام الله .

وقد صرح الباقلاني بأن المسموع ، هو كلام الله ، فقال : " يجب أن يعلم أن كلام الله تعالى مسموع لنا على الحقيقة ، لكن بواسطة وهو القارئ " .[2]

وإنما دفع الكوثري لهذا التكلف والزعم الذي لا طائل وراءه هو محاولة إنكار أن الباقلاني يرى في المتلو المسموع الذي هو حرف وصوت ، كلام الله حقيقة !

وهذا القول من الكوثري واضح الدلالة على أنه لا يرى أن هذا المسموع هو كلام الله .

وقد سئل شيخ الإسلام – ابن تيمية – فقيل له : " هذا القرآن الذي نتلوه ، القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ، وكان صفة له أو لا ؟ " .[3]

فأجاب : " أما الكلام فهو كلام الله لا كلامنا ولا غيرنا ، وهو مسموع من المبلغ لا من الله – كما تقدم – وهو مسموع بواسطة سماعاً مقيداً ، لا سماعاً مطلقاً – كما تقدم – وليس شيءٌ مما قام بذاته ، فارقه وانتقل إلينا ، ولا شيء مما يختص بذواتنا – كحركاتنا وأصواتنا فهو منا – قائماً به " .[4]

وذكر ابن قتيبة هذا الأمر فقال : " ولسنا نشك أنّ القرآن في المصاحف على الحقيقة لا على المجاز ، كما يقول أصحاب الكلام " .[5]

---

١) حاشية الانصاف للباقلاني ٨١ .

٢) الانصاف للباقلاني ٩٤ .

٣) مجموع الفتاوى ٥٤٨/١٢ .

٤) مجموع الفتاوى ٥٤٨/١٢ .

٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٢٣٧ .

فالقرآن كلام الله حقيقة لا مجازاً ، ولا عبارة ، ولا معنى عن كلام الله .

" فالقرآن كلام الله لفظه ومعناه ، سمعه منه جبريل ، وبلغه عن الله إلى محمد ، ومحمد سمعه من جبريل ، وبلغه إلى أمته ، فهو كلام الله حيث سمع ، وكتب وقرئ ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (1) " . (2)

والآية نص على أن المسموع كلام الله ، لا عبارة عن كلام الله ، " فإن الكتاب والسنة والإجماع دل على أن هذا الذي يقرأه المسلمون هو كلام الله لا كلام غيره ، ولو قال أحد : إن حرفاً منه أو معنى ليس هو من كلام الله أو أنه كلام غير الله وسمع ذلك منه النبي ﷺ أو أحد من أصحابه لعلم بالاضطرار أنهم كانوا يقابلونه بما يقابلون أهل الجحود والضلال ، بل قد أجمع الخلائق على نحو ذلك في كل كلام فجميع الخلق الذين يعلمون أن قوله : (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) ، من شعر لبيد ، يعلمون أن هذا كلام لبيد ، وان قوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) هو من كلام أمريء القيس ، مع علمهم أنهم إنما سمعوها من غيره ، بصوت ذلك الغير " . (3)

هذا وقد خص الله موسى بكلامه حيث قال عز وجل : ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ (4) ، وثبت في الصحيح وغيره عن النبي ﷺ أنه قال : " احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟ فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، ثم تلومني على أمر قُدر عليَّ قبل أن أخلق ؟ فقال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى ، مرتين " (5) .

وهذه شهادة آدم أن الله خص موسى بالكلام دون غيره ، وإلا ما فائدة أن يثني عليه بهذه الخصيصة لو اشترك معه فيها غيره في الدنيا ؟!

---

1) التوبة ٦.
2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥٦٦/١٢ .
3) مجموع الفتاوى ٤٠٧/١٢ ، ٤٠٨ .
4) الأعراف ١٤٤ .
5) أخرجه البخاري – وهذا نصه – كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى ٣٤٠٩ ، ومسلم برقم ٢٦٥٢ ، وأحمد ٢٤٨/٢ وأبو داود ٤٧٠١ والترمذي ٢١٣٤ .

و هذا الحديث ينقض استدلال الكوثري بآية الشورى لإثبات ما يدعيه من الكلام النفسي ، فإن الكوثري يقول : " قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [1] إذ لا صوت في الوحي إلى القلب ، والصوت في الثالث صوت الرسول دون المكلم ، فليكن الكلام من وراء حجاب كذلك ، وهو الذي حصل لموسى فمهما كان النبي بسماعه صوت الرسول إليه يعد أن الله كلمه ، فلا يكون أي مانع من أن يعد موسى كلمه ربه إذ نودي من الشجرة ، فأي زائغ يتصور حلول الله في الشجرة حتى يقول : إن الذي سمعه صوت الله ؟ تعالى الله أن يكون كلامه صوتاً ، والآية قاضية على جميع الأوهام في هذا البحث " . [2]

فهو يقرر هنا :

- أن الآية نص على أن كلام الله ثلاثة أنواع :

١- كلام إلى القلب ، وهو بلا صوت ودليله (وَحْيًا) .

٢- كلام الله على لسان رسوله ودليله (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً) .

٣- كذلك كلامه من وراء حجاب بإرسال رسول يوحي إلى نبيه كلامه ، وهو ما وقع لموسى .

هذا التقسيم ، تقسيم بالهوى ليس عليه أثارة من علم ، ولا نقل سلف هداة .

يقول مجاهد : " (أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ) كما كلم موسى " . [3]

فالآية لا تحتاج هذا التنطع ، فإن الله يخبر بأنه لا يكلم فرداً من الخلق إلا بأن يقذف في روعه أو من وراء حجاب كما كلم موسى ، أو يرسل رسولاً فيبلغ كلام الله كما أرسل جبريل إلى نبينا ﷺ . [4]

وحديث آدم وموسى رد عليه حيث بين وجه اختصاصه بكلام الله حقيقة .

---

١) الشورى ٥١ .

٢) حاشية السيف الصقيل للسبكي ٦٩ .

٣) فتح القدير ٤/٥٤٥ .

٤) انظر درء تعارض العقل بالنقل لابن تيمية ٤/١٢٨ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١٢٢ ، ١٢٣ ، وفتح القدير للشوكاني ٤/٥٤٤ .

وقبل أن أختم هذا الحديث يحسن أن أعرج على شيء مهم ، وهو أن الكوثري كثيراً ما يشنع على السلف في إثباتهم كلام الله حقيقة بحرف وصوت ، بنقل منسوب إلى الإمام أحمد ، فيه أن الله تكلم بجارحة .

يقول الكوثري : " وفي طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى عند ترجمة الأصطخري في صدد ذكر عقيدة أحمد : (وكلم الله موسى تكليماً من فيه ، وناوله التوراة من يده إلى يده) ومن هذا يعلم مبلغ ضلال هؤلاء المجسمة المتسترين بالانتساب إلى أحمد زوراً ، وحاشى لله أن يكون الإمام أحمد يثبت لله فماً ، وما إلى ذلك من وجوه الضلال في العقيدة المعزوة إليه هناك . " [1]

أولاً : لابد من الإشارة إلى أن الكوثري أصاب بنفي هذا الأمر عن الإمام أحمد .

ثانياً : لم يورد الكوثري هذا النص إلا للتشنيع والتهويل على من أثبت صفة الكلام لله على حقيقته بحرف وصوت .

وأيضاً للإشارة إلى أن ما نسب إلى الإمام أحمد من إثبات الصوت إنما هو من فعل أتباعه لا معتقده ، إذ إن الإمام أحمد – عند الكوثري – لا يخرج عن القول بأن كلام الله أزلي ، وبمعنى الكلام النفسي كما مر .

وما نقله الكوثري ونسبه إلى الأصطخري ، فهو عزو صحيح . [2]

لكن ذلك لا يصح عن الإمام أحمد بن حنبل ، فإن ما نقل عنه قد استفاض وتواتر من أنه كان يتقيد بالنص لا يزيد عليه .

فهذا العزو يخالف ما رواه عنه خاصة طلبته ، وعامتهم .

ولذا فقد روى الذهبي بعضاً من رسالة الاصطخري ثم قال عنه وعن الرسالة : " إلى أن ذكر أشياء من هذا الأنموذج المنكر ، والأشياء التي – والله – ما قالها الإمام . " [3]

بل وقد حكم الذهبي بوضعها . [4]

والحكم بوضعها لأجل هاتين الكلمتين ، غير صائب فإن هذه الرسالة اشتملت على أصول صحيحة في المعتقد فلعل الراوي وهم في النقل .

---

١) حاشية الانصاف للباقلاني ٩٦ ، ومثله حاشية العقيدة النظامية للجويني ٢٩ .

٢) انظر طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ٢٤/١ .

٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٠٣/١١ .

٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٠٣/١١ .

والحق والصواب إنما يؤخذ من كتاب الله وسنة النبي ﷺ وفق فهم سلف هذه الأمة ، ولا يضر تهويل الكوثري في هذا ، ولا ينقض دلالة الأحاديث على كلام الله حقيقة .

ثم إننا نستنبط من كلام الكوثري ، وإن أثبت صفة الكلام على الإجمال إلا أنه ضل فيه .

وأجمل معتقده في هذا الباب بما يأتي :

- قوله بأن كلام الله ، هو الكلام النفسي ، وأنه من لوازم ذاته .
- زعمه بأن كلام الله قديم ، لا علاقة له بالمشيئة فالله لم يتكلم متى شاء إذا شاء ، لأن ذلك يتضمن حلول الحوادث .
- زعمه أن موسى وإن كلمه الله ، فإنه لم يسمع كلام الله – وقت التكليم – وإنما سمع كلام الرسول المبلغ ، أو أن الله خلق له السمع والإدراك .
- زعمه أن هذاالقرآن العربي المنظوم مخلوق ، فهو ليس كلام الله إلا بالمعنى الأزلي القديم ، لا هذا النظم العربي المسموع .
- زعمه أن كلام الله بلا حرف ولا صوت يسمع ، بل هو عبارة عن هذا المسموع والملفوظ .
- وافق الكوثري اللفظية القائلين بأن الألفاظ مخلوقة .

خاتمة

بعد هذه الجولة العلمية في أراء الكوثري اختم حديثي بأهم نتائج البحث ، وبعض التوصيات.

أولا / أهم نتائج البحث :

-: نلحظ أن الكوثري لم يخرج عند تلقيه العلم عن دائرة الأحناف الماتريدية في الأصول وفي الفروع . لذا كان شديد التعصب لنصرة معتقد الماتردية متهجماً على خصومهم

-: سار الكوثري في معرفة الله وفق رأي المتكلمين الذين يرون أنه أول واجب ، وعلى طريقتهم في تقريرها .

-: وافق الكوثري السلف في القدر عموماً .

-: أن الكوثري لايرى أن أفعال الله معللة موافقة لرأي الفلاسفة .

-: وافق الكوثري السلف الصالح في مسألة خلق فعل العبد ، مع ميل لرأي المعتزلة بسبب قوله بالارادة الجزئية

-: لايرى الكوثري فرقاً بين توحيد العبادة وبين توحيد الربوبية لذا قرر أن الواجب على المكلف الاقرار بالصانع .

-: أن الكوثري يرى جواز الاستغاثة بالأموات مادام المستغيث مقراً بقدرة الله النافذة .

-: أن الكوثري يرى جواز البناء على القبور والصلاة عندها .

-: أن الكوثري يقرر نفي حقيقة الاستواء لله ، ويمنع إثبات أياً من معانيه التي أثبتها السلف

-: أثبت تناقض الكوثري في أكثر من موضع خاصة في قواعده المضطربة مثل نفيه للآحاد عند رده على من استدل به في اثبات الاستواء والعلو ، ثم احتجاجه بالاحاد للرد على من نفى نزول عيسى ابن مريم ، ومثل نفي اللوازم الباطلة عند اثبات الرؤية ، ثم إثبات مثل هذه اللوازم عند نفيه للنزول والاستواء .

-: أن الكوثري لايرى وصف الله بما وصف نفسه وبما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصفات الخبرية .

-: قررت نفي الكوثري لعلو الله ، وأسندت أقواله وردوده وتشنيعه على أئمة السلف مـــن ذلك .

-: قررت نفي الكوثري لصفة كلام الله ، وبينت موافقته للجهمية المعطلة ، ورأيه أن هـــذا القرآن المنظوم الذي بين الدفتين مخلوق ، لأنه عبارة عن كلام الله .

ثانيا / أهم التوصيات .

تخلص هذه الدراسة ببعض التوصيات :

-: تبين لنا أن الكوثري علق على كثير من كتب السلف ، وبعض من كتب المثبة للصفات، كتعليقه على كتاب الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ، وكتاب دفع شبه التشبيه لابن الجوزي، وكتاب العقيدة النظامية للجويني ، وكتاب الأسماء والصفات للبيهقي ، فخالف مراد هؤلاء المصنيفين فنفى ما أثبتوه لذا أوصي أن تعاد طباعة هذه الأحصول مع الإشارة إلى تلك التعليقات والرد عليها .

-:للكوثري تهجم كثير على أئمة السلف ، ونبزهم بشنيع الألقاب ، وربما كفر بعضهم ، لذا أوصي أن يتناول أحد طلبة العلم ، هذا الجانب فيجمعه ثم يقوم بالذب عن هؤلاء الأئمة الأعلام ، ويرد الشبه التي أثارها حولهم .

-: يتضح مدى تحمس الكوثري للدعوة الى مذهب الماتريدية الذي يسميه مذهب أهل السنة، لذا لا بد من التنبه الى هذه الأمر عند النقل من كتبه .

-: للكوثري يد طولى في علم الحديث النبوي ، وقد استعان بهذا العلم في الاحتجاج لمذهبه، وطوعه لنقض معتقد خصومه المثبتة ، فأتمنى أن يقوم بعض طلبة العلم المتخصيصين في علم الحديث بتناول هذا الجانب لدى الكوثري ، فقد وجدته كثيرا يصحح ما ضعفه الجمهور ، ويضعف ماصححوه إذا خالف معتقده ، وإن كان هذا الحديث الذي ضعفه في الصحيحين.

حدود الدراسة

كانت الرسالة ضمن الحدود الآتية :

أ/ كتب ألفها :

_ صفعات البرهان على صفحات العدوان . مطبعة الترقي سنة ١٣٤٨

_ الإشفاق على أحكام الطلاق . طبعة (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)المكتبة الأزهرية للتراث وطبعة اسلام ابا د

_ بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد ابن الحسن الشيباني . طبع ضمن الرسائل النادرة التي كان يطبعها الخانجي في سنة ١٣٥٥

_ تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب . طبعة (مكتبة إسلامية) في كويته بالباكستان ١٤٠٣ هـ و طبع دارالكتاب العربي ، بيروت ١٤٠١ - ١٩٨١

_ إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق . مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٠ ، وطبعة دار المدينة المنورة بالقاهرة ١٤٠٨ -١٩٨٨ وطبعة المكتبة الأزهرية للتراث ١٩٩٨ -١٤١٨.

_ أقوم المسالك في بحث رواية مالك عن أبي حنيفة ورواية أبي حنيفة عن مالك . طبع في آخر إحقاق الحق في الصفحات ٦٧ — ٧٢

_ تذهيب التاج اللجيني في ترجمة البدر العيني المتوفى للبخاري مطبوعة بأول شرح العيني لصحيح البخاري .

ـ الحاوى في سيرة الإمام أبي جعفر الطحاوي . مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٨ .

ـ نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام . مطبعة أمين عبد الرحمن سنة ١٣٦٢ وطبعة مكتبة القدسي ١٤٠٠ – ١٩٨٠

ـ نبراس المهتدي في إجتلاء أنباء العارف دمرداش المحمدي . مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٤ .

ـ النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة . مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٥ ، وطبعة إدارة القران في كراتشي بالباكستان ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

ـ رفع الاشتباه عن مسألتي كشف الرؤوس ولبس النعال في الصلاة . طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

ـ من عبر التاريخ طبع سنة ١٣٦٧ ، نشرة السيد عزت العطار .

ـ حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي . طبعة الأنوار سنة ١٣٦٨ .

ـ لمحات النظر في سيرة الإمام زفر. طبعة الأنوار سنة ١٣٦٨.

ـ الامتاع بسيرة الإمامين الحسن بن زياد وصاحبه محمد بن شجاع . طبعة الأنوار سنة ١٣٦٨ .

ـ الترحيب بنقد التأنيب طبعة مكتبة الخانجي سنة ١٣٦٩ ، وأيضاً ضمن كتابه (تأنيب الخطيب) .

ـ محق التقول في مسألة التوسل . مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٩ ، وضمن (مقالات الكوثري)[1] .

ـ الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار . طبعة الأنـــوار ســـنة ١٣٧٠ ، وطبعة سنة ١٤ ١٥ — ١٩٩٥ ، المكتبة الأزهرية للتراث .

ـ لفت اللحظ إلى ما في الاختلاف في اللفظ . طبعة السعادة سنة ١٣٤٩ ، وطبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٥.

ـ تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم . طبعة السعادة سنة ١٣٥٦.

ب/ كتب قدم لها وعلق عليها

ـ مقدمته على نصب الراية لأحاديث الهداية للحافظ الزيلعـــي . طـــبع بمصر سنة ١٣٥٧ وتقع من ص ١٧ إلى ص ٤٩ ثم مـــن ص ٥٧ إلى ص ٦٠ من الجزء الأول.

ـ مقدمته لكتاب المقدمات الخمس والعشرون... من دلالة الحائرين لابن ميمون الفيلسوف الأسرائيلي . طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٦٩ .

ـ تعليقه على مادة (الجركس) في تعريب دائرة المعارف الاســـلامية وتقع التعليقة في المجلد السادس ص ٣٤٥ إلى ٣٥٠

ـ الغرة المنيفة للسراج الغزنوي الهندي في تحقيق بعض مسائل الإمام أبي حنيفة . مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ١٣٧٠ .

ـ دفع شبة التشبيه ، لابن الجوزي . طبعة المكتبة الأزهرية ١٤١٨ هـــ

١) انظر ص ٤٥٠ — ٤٦٨

ـ مناقب أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن للذهبي طبعة بيروت ، سنة ١٤٠٨ ، وطبعة إحياء المعارف ، حيدر آباد (بدون تـــاريخ) وطبعة المكتبة الأزهرية ، ١٤١٣ هـــ.

ـ ذيول طبقات الحفاظ للحسيني وابن فهد والسيوطي ، طبعة دار إحياء التراث العربي .

ـ تبيين كذب المفترى في الذب عن الإمام الأشعري لابـــن عســاكر ، نشرته دار الكتاب العربي ١٣٩٩ — ١٩٧٩ .

ـ التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين ، لأبي المظفر الأسفراييني . مطبعة الأنوار ، سنة ١٣٥٩ — ١٩٤٠.

ـ العالم والمتعلم رواية أبي مقاتل عن أبي حنيفة .

ـ رسالة أبي حنيفة إلى البتي إمام أهل البصرة في الإرجاء .

ـ الفقه الأبسط رواية أبي مطيع .

ـ الفرق بين الفرق ، لعبد القاهر البغدادي .

ـ التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسين الملطي ، وقد طبع ١٤١٨ — ١٩٩٧ المكتبة الأزهرية للتراث .

ـ اللمعة في الوجود والقدر وأفعال العباد ، لابراهيم بن مصطفى الحلبي المذارى

ـ كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك الحمادي ، طبعة عزت العطـــار سنة ١٩٦٦ هـــ .

ـ الروض الزاهر للبدر العيني في سيرة الملك الظاهر (ططر) .

ـ الانتصار والترجيح للمذهب الصحيح ، لسبط ابن الجوزي . طبعة المكتبة الأزهرية للتراث ، سنة ١٤١٥ — ١٩٩٥

ـ شروط الأئمة الستة لمحمد بن طاهر المقدسي والخمسة للحـــازمي والتعليقـــات عليهما مسماة بالتعليقات المهمة على شروط الأئمة ، طبع بعناية حســـام الـــدين القدسي ، سنة ١٣٥٧ بالقاهرة ، وطبعة دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٥ — ١٩٨٤ بيروت .

ـ مراتب الاجماع لابن حزم ونقده لابن تيمية ، طبعتة دار الكتب العلمية بيروت

ـ النبذ في أصول المذهب الظاهري لابن حزم .

ـ اختلاف الموطآت للدارقطني .

ـ كشف المغطى من فضل الموطأ لابن عساكر ، طبعته والذي قبله في كتاب واحد بتعليق الكوثري ، دار الرعاية الإسلامية (بدون تاريخ) .

ـ العقل وفضله لابن أبي الدنيا .

ـ الحدائق الفلسفية ، للبطليوسي .

ـ حقيقة الانسان والروح لجلال الدواني .

ـ العقيدة النظامية لإمام الحرمين ، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٢ — ١٩٩٢

ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به للباقلاني ، وقد طبعتـــه المكتبـــة الأزهرية للتراث ١٤١٣ — ١٩٩٣ ..

ـ خصائص مسند أحمد لأبي موسى المديني ، وقد طبع ســـنة ١٣٤٧ بمطبعـــة دار السعادة وطبعة مكتبة التوبة ١٤١٠ هـــ ـ ١٩٩٠ .

ـ المصعد الأحمد لابن الجزري ، وقد طبع سنة ١٣٤٧ .

ـ زغل العلم للذهبي .

ـ الأسماء والصفات للبيهقي ، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٩ — ١٩٩٩.

ج / كتب قدم لها :

- شرح مقامة (الحور العين) لنشوان الحميري .

- نثر الدر المكنون في فضائل اليمن الميمون للسيد محمد الأهدل شيخ رواق اليمن .

- الدر الفريد الجامع لمفترقات الأسانيد للسيد عبد الواسع اليماني .

- بيان مذهب الباطنية وبطلانه من كتاب قواعد عقائد آل محمـــد لمحمد بن الحسن الديلمي .

- طبقات ابن سعد من الطبعة المصرية .

- فتح الملهم في شرح صحيح مسلم للعلامة شبير أحمد العثماني .

- ترتيب مسند الإمام الشافعي للحافظ محمد عابد السندي .

- أحكام القرآن جمع البيهقي من نصوص الإمام الشافعي رضي الله عنه .

- مناقب الإمام الشافعي للحافظ عبد الرحمن بن إبي حاتم الرزاي .

- ذيل الروضتين للحافظ أبي شامة .

- فهارس البخاري للأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان .

- إشارات المرام لكمال الدين البياضي .

- كشف الستر عن فرضية الوتر لعبد الغني النابلسي .

- العالم والمتعلم لأبي بكر الوراق الترمذي .

- الأعلام الشرقية للأستاذ زكي مجاهد .

- انتقاد المغنى عن الحفظ والكتاب لحسام الدين القدسي .

- النهضة الاصلاحية للأسرة الاسلامية لمصطفى الحمامي .

- منتهى آمال الخطباء له أيضاً .

- براهين الكتاب والسنة ، سلامة العزامي .

- قانون التأويل للغزالي .

- الثمرة البهية للصحابة البدرية لمحمد سالم الحفناوي .

- كتاب بغداد لابن طيفور .

- الروض النضير في شرح المجموع الفقهي الكبير للصنعاني .

- منية الألمعي فيما فات من تخريج أحاديث الهداية ، للحافظ بن قطلوبغا

- ايضاح الكلام فيما جرى للعز بن عبد السلام في مسالة الكلام طبع بمطبعة الأنوار سنة ١٣٧٠ .

- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء علق عليه لغاية ص ٨٨

- وأضيف هنا مقالاته التي جمعها تلميذه أحمد خيري (مقالات الكوثري) وقد طبع طبعات كثيرة منها ط/ المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٤ – ١٩٩٤ .

- مقدماته التي جُمعت في كتاب باسم (مقدمات الإمام الكوثري) طبع دار الثريا بدمشق سنة ١٤١٨ .

قائمة المراجع

فهرس المصادر والمراجع

- الإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري ، دار البيان ، ١٤٠١هـ .
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ، عبيد الله بن بطة العكبري / ت ــ أحمد فريد المزيدي ــ الطبعة الأولى ١٤٢٢ ، دار الكتب العلمية .
- إبطال التأويلات لأخبار الصفات ، أبو يعلى الفراء ، الطبعة الأولى ، مكتبة ابن تيمية القاهرة ، ١٤١٨ .
- إتحاف أهل الفضل والإنصاف ، سليمان بن ناصر بن عبد الله العلوان ، دار الصميعي ، ١٤١٥هـ .
- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، ابن قيم الجوزية الدمشقي ، دار الفكر ، ١٤٠١ هـ .
- أحاديث الموطأ ، أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني ، دار الرعاية الإسلامية .
- الأحرف السبعة للقرآن ، إمام القراء أبي عمرو الداني المتوفي سنة٤٤٤ هـ .دار المنارة ، ١٤١٨ هـ .
- إحقاق الحق ، محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، المكتبة الأزهرية للتراث .
- احقاق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق ، محمد زاهد الكوثري ، ١٤٠٨ هـ .
- أخبار الآحاد ، عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ، دار عالم الفوائد ، ١٤١٦ هـ.. .
- الأختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥ هـ .
- الأربعين في صفات رب العالمين ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٣هـ.
- الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار ، محمد زاهد الكوثري .
- الإستيعاب ، عمر بن يوسف النمري ، ابن عبد البر ، ط / الأولى ١٤١٢-١٩٩٢ نشر دار الجيل .
- إشارات المرام من عبارات الأمام ، كمال الدين أحمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفي عام ٤٣٨ هـ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الثابي الحلبي وأولاده بمصر ،

١٤١٩ هـ.
● الإشارة إلى مذهب أهل الحق ، أبي إسحاق الشيرازي، دار الكتاب العربي ، ١٤١٩
● الإشفاق على أحكام الطلاق ، محمد زاهد الكوثري ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤١٥هـ .
● الإصابة في معرفة الصحابة أحمد بن حجر العسقلاني ، دار الفكر العربي ، بدون .
● أصول الدين ، أبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي ، دار الكتب العلمية، ١٤٠١ هـ .
● أصول الدين ، أبو اليسر البزودي ، بحاشية كشف الاسرار لعلاء الدين البخاري ، ط/ البابي بالقاهرة ١٣٨٣ .
● أصول الدين ، فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي ، مكتبة الكليات الأزهرية.
● الأضحوية في المعاد ، لابن سينا ، ت/ د. حسن عاصي ، الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ، المؤسسة الجامعية للدراسات .
● الاعتصام ، إبراهيم موسى الشاطبي ، دار المعرفة للطباعة ، بيروت ١٤٠٢.
● الاعتقاد ، للإمام الحافظ الكبير أبي بكر احمد بن الحسين البيهقي ، السلام العلامية للطبع والنشر والتوزيع .
● اعتقاد أئمة الحديث ، أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي ، دار العاصمة ، ١٤١٢ هـ .
● اعتقاد السلف أصحاب الحديث ، للصابوني ، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية ، نشر مكتبة المعارف .
● الأعلام ، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط / السادسة ١٩٨٤
● الأعلام الشرقية ، زكي محمد مجاهد ، الطبعة الثانية ١٩٩٤ دار الغرب الإسلامي ، بيروت .
● اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، ت/ د. ناصر بن عبد الكريم العقل ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .
● الإمتاع ، محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار ، ١٣٦٠ هـ .
● الإنتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار ، الشيخ يحيى بن أبي الخير العمراني ،

طبع أضواء السلف .

- الانتصار والترجيح للمذهب الصحيح ، أبي المظفر جمال الدين يوسف بن فرغل بن عبد الله البغدادي سبط ابن الجوزي ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤١٥ هـ
- الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ، عمر بن يوسف النمري ، ابن عبد البر ، مكتبة القدسي بمصر ، ط / الأولى ١٣٥٠
- الانحرافات العقدية والعلمية ، تأليف علي بن بخيت الزهراني ، تقديم الشيخ محمد قطب ، دار الرسالة للنشر والتوزيع .
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، إمام المتكلمين سيف الاسلام أبي بكر بن الطيب الباقلاني ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤١٣ هـ .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، عبدالله بن يوسف ابن هشام ت / محمد يحي الدين عبد الحميد ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، ط / السادسة ١٩٨٠
- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، للحافظ ابن كثير ، ت / أحمد شاكر ط ١٤٠٣ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- البداية والنهاية ، إسماعيل بن عمر ، لابن كثير ، مكتبة المعارف ، ط / السادسة ١٤٠٥ .
- بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، دار الطباعة المنيرية ، القاهرة .
- بذل المجهود في افحام اليهود ، السموءل بن يحي بن عباس المغربي المتوفي ٥٧٠ هـ ، دار القلم ، ١٤١٠هـ .
- البحوث السنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوتية ، محمد زاهد الكوثري ، مخطوط ميكروفيلم برقم ١١٨٥، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- بلوغ الأماني في سيرة الامام محمد بن الحسن الشيباني ، محمد زاهد بن حسن الكوثري ، مكتبة الخانجي ومطبعتها ، ١٣٥٥ هـ .
- بيان تلبيس المفتري محمد زاهد الكوثري او رد الكوثري على الكوثري ، أحمد بن محمد بن الصديق الغماري ، دار الصميعي ، ١٤١٧ هـ .
- تأديب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب ، محمد زاهد الكوثري ، المكتبة إسلامية .
- التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، ط ١٤٠٦ المكتب الإسلامي ، بيروت .

- تاريخ الدولة العلية العثمانية محمد فريد بك / ت / إحسان حقي ، ط ١٩٨١ دار النهار ، بيروت .
- تاريخ الدولة العثمانية ، يلمز أزتونا ، نشر مؤسسة فيصل للتمويل ، ط الأولى (١٤١٠-١٩٩٠)
- تاريخ الشعوب الإسلامية ، كارل بروكلمان ، الطبعة العاشرة المترجمة دار العلم للملايين ، بيروت .
- تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ، ط ١٩٩٩ مكتبة النهضة المصرية .
- تاريخ بغداد ، أحمد بن علي الخطيب ، طبعة المكتبة السلفية ، المدينة المنورة .
- تأويل مختلف الحديث ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ت/ محمد محيي الدين ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ ، المكتب الإسلامي ، وكذا طبعة الكليات الأزهرية .
- تأويل مختلف الحديث ، محمد محيي الدين الأصفر، دار الإشراق ، ١٤٠٩ هـ .
- التبرك ، د. ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع ، مكتبة الرشد ، ١٤٢١ هـ .
- التبرك المشروع والتبرك الممنوع ، د. علي بن نفيع العلياني ، الطبعة الأولى لدار الوطن للنشر ١٤١١ .
- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، أبي المظفر الأسفراييني ، مطبعة الانوار ، ١٣٥٩ هـ .
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي ، دار الكتاب العربي ، ١٣٩٩هـ .
- تجريد التوحيد المفيد ، محمد المقريزي ، ط / مكتبة السلام العالمية بيروت ، بدون تاريخ .
- تحذير الساجد من بناء القبور على المساجد ، محمد ناصر الدين الألباني ، م / المكتب الإسلامي ١٤١٦ .
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي ، ت/ عبد الوهاب عبد اللطيف ، الطبعة الثانية ١٣٨٥ هـ .
- التدمرية ، شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، طبعة ١٤٠٥ هـ .
- تذكرة الحفاظ ، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي ، دار الباز .

- التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار في الثناء على شيخ الإسلام والوصاية به ، للإمام عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي المعروف بابن شيخ الحزاميين، دار العاصمة ١٤١٥، هـ.
- التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة ، أبي بكر محمد بن الحسين الآجري الحنبلي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، عالم الكتب ، ١٤٠٥ هـ .
- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس ، للإمام العلامة الحافظ الكبير شيخ الإسلام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني المصري ، ت/ د. عبد الغفار سليمان البنداري ، أ. محمد أحمد عبد العزيز ، طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٥ هـ .
- تعريفات الجرجاني ، ت/ إبراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ ، دار الكتاب العربي
- تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، دار الدعوة .
- تفسير غريب القرآن ، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، دار الكتب العلمية .
- تفسير غريب القرآن ، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، ت/ السيد أحمد صقر ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
- تلخيص المستدرك ذيل المستدرك على الصحيحين ، محمد أحمد الذهبي ، دار المعرفة بيروت .
- تلخيص كتاب الاستغاثة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، مكتبة الغرباء الإثرية ، ١٤١٧ هـ .
- التمهيد ، محمد بن الطيب الباقلاني ت/ رتشرد يوسف مكارثي ، المكتبة الشرقية ١٩٥٧ .
- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، أبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن المطلق الشافعي ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤١٨ هـ .
- التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ، عبد الرحمن بن يحيى المقلمي العتمي اليماني ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٦ هـ .
- تهذيب التهذيب ، أحمد بن حجر العسقلاني ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ ، دار الفكر

بيروت .

- التوحيد ، الإمام آبي منصور الماتريدي ، دار الجامعات المصرية .
- التوحيد وإثبات صفات الرب ، محمد بن إسحاق بن خزيمة ، ت/ محمد خليل الهراس ، دار الباز ١٣٩٨ هـ .
- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، دار الفكر ، ١٤١٢ هـ .
- جامع الأصول في أحاديث الرسول ، المبارك بن محمد بن الأثير ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ ، دار الفكر .
- جامع البيان في تفسير القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، دار المعرفة ، ١٤٠٣ هـ .
- جامع التحصيل في أحكام المراسيل ، صلاح الدين العلائي ، ت / حمدي السلفي ، عالم الكتب ، ط / الثانية ١٤٠٧ .
- الجرح والتعديل ، عبد الرحمن بن أبي حاتم ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ط/ الأولى ، بدون .
- جلاء العينين في محاكمة الاحمدين ، السيد نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي البغدادي ، دار الكتب العلمية .
- جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية ، شمس الدين السلفي الأفغاني ، دار الصميعي ، ١٤١٦ هـ.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، ابن تيمية ، تحقيق / عبد العزيز العسكر وحمد الحمدان ، دار العاصمة – الرياض .
- حاشية السيالكوتي على شرح المواقف ، عبد الحكيم السيالكوتي ، الطبعة الأولى ١٣٢٥ مطبعة السعادة مصر .
- الحجة في بيان المحجة ، قوام السنة إسماعيل بن محمد الأصبهاني (تحقيق محمد هادي مدخلي ومحمد أبو رحيم) ، دار الراية ، ١٤١١ هـ .
- حجة الله البالغة ، ولي الله الدهلوي ، المكتبة السلفية ، لاهور ، بدون .
- الحطة في ذكر الصحاح الستة ، أبي الطيب السيد صديق حسن خان القنوجي ، دار الجيل ، ١٤٠٨ هـ .

- خصائص مسند الإمام احمد ، ابي موسى المديني ، مكتبة التوبة ، ١٤١٠ هـ .
- درء تعارض العقل بالنقل ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، ت/ محمد رشاد سالم ، مكتبة ابن تيمية .
- درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٢ هـ .
- الدرر السنية في الرد على الوهابية ، أحمد زيني دحلان ، ط الرابعة ١٤٠٠ نشر مكتبة الحلبي بالقاهرة
- دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين الخوارج والشيعة ، أحمد محمد أحمد جلي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٠٨ هـ .
- دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، عبد العزيز محمد علي العبد اللطيف ، دار الوطن ، ١٤١٢ هـ .
- دفع شبهة التشبيه ، عبد الرحمن أبي الحسن الجوزي المتوفي عام ٥٩٧ هـ ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤١٨ هـ ، طبع مراراً آخرها طبعة المكتبة الأزهرية ١٤١٨ — ١٩٩٨ .
- دفع شبهة من شبه وتمرد ، تقي الدين أبي بكر الحصني الدمشقي ، المكتبة الأزهرية للتراث .
- دقائق التفسير ، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ، ت/ د. محمد السيد الجليند ، مؤسسة علوم القرآن دمشق بيروت ، ١٤٠٤ هـ .
- ذم التأويل ، ابن قدامة ، ضمن مجموعة الرسائل الكمالية ، نشر مكتبة المعارف .
- رؤية الله تبارك وتعالى ، أبي محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد المعروف بابن النحاس ، مكتبة الفرقان ، ١٤١٩هـ .
- الرجل الصنم ، ضابط تركي ، ط ١٤٠٢ مؤسسة الرسالة .
- الرد على البكري ، (تلخيص كتاب الاستغاثة) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، ت/ محمد علي عجال ، الطبعة الأولى ١٤١٧ ، مكتبة الغرباء .
- الرد على الجهمية ، الأمام عثمان بن سعيد الدارمي ، الدار السلفية ، ١٤٠٥ هـ .
- الرد على الجهمية والزنادقة ، أحمد بن حنبل ، ت/ عبد الرحمن عميرة ، دار اللواء ، ١٤٠٣.

- الرد على المنطقيين ، تقي الدين أحمد ابن تيمية ، ادارة ترجمان السنة ١٤٠٢ هـ.
- الرد على من أنكر الحرف والصوت ، لأبي نصر السجزي ، ت / محمد باكريم ط١ ، ١٤١٤ دار الراية .
- الرسالة الأكملية ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع ابن قاسم
- الرسالة ، محمد بن إدريس الشافعي ، ط الثانية ١٤١٩ ، دار النفائس .
- رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ، أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني ، دار طويق ، ١٤١٩ هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمود الألوسي البغدادي توفي ١٢٧هـ ، دار الفكر ، ١٤١٤هـ .
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية ، ١٤٠٦ .
- سلسة الأحاديث الضعيفة ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، ط / الثانية ١٤٠٨ .
- السنة ، أبي بكر أحمد بن محمد ابن هارون بن يزيد الخلال ، دار الراية ، ١٤١٥هـ.
- سير أعلام النبلاء ، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي توفي ٧٤٨ هـ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤١٢ هـ .
- السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل ، لأبي الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي الكبير المتوفي ٧٥٦ هـ ، مكتبة زهران .
- الشامل في أصول الدين ، عبد الملك بن عبد الله الجويني ، ت/ د. علي النشار ، فيصل عون ، سهير مختار ، المعارف بالاسكندرية .
- شرح الأصول الخمسة ، عبد الجبار بن أحمد ، ت/ د. عبد الكريم عثمان ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٣٨٤ ÷.
- شرح العقائد النسفية ، سعد الدين التفتازاني (مسعود بن عمر بن عبد الله) توفي ٧٩٣ هـ ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٢١هـ .
- شرح العقائد النسفية ، سعد الدين التفتازاني مسعود بن عمر بن عبد الله ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٤٠٧ هـ .

- شرح العقيدة الطحاوية ، الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي المتوفي سنة ٧٩٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٨ هـ .
- شرح الفقه الأكبر للقاري ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ دار الكتب العلمية بيروت .
- شرح الفقه الأكبر للقاري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ .
- شرح المواقف ، القاضي عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الايجي ، منشورات الشريف الرضي ، ١٣٢٥هـ .
- شرح حديث النزول ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية النميري ٦٦١ -٧١٨ هـ ، دار العاصمة ، ١٤١٤ هـ .
- شرح قصب السكر نظم نخبة الفكر ، للإمام العلامة محمد بن لإسماعيل الحسني الصنعاني المعروف بالأمير ، ت/ عبد الكريم مراد الأثري ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ ، لمكتبة الدار بالمدينة المنورة .
- شرح مذاهب أهل السنة ، أبي حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين ، مؤسسة قرطبة ، ١٤١٥ هـ .
- شروط الأئمة الخمسة ، محمد بن موسى الحازمي ، بحاشية كتاب شروط الأئمة الستة للمقدسي ، ت/ محمد زاهد الكوثري ، الطبعة ١٣٥٧ حسام الدين القدسي ، القاهرة .
- شروط الأمة الستة ، أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥
- شعب الإيمان ، أبي محمد عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل القصري ، دار الحديث، ١٤١٧ هـ .
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية .
- شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل ، أبي المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله المتوفي سنة ٤٧٨ هـ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤٠٩ هـ .
- الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد ، د . مفرح بن سليمان القوسي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤١٨ هـ .

- الصارم المنكي في الرد على السبكي ، محمد بن أحمد بن عبد الهادي ٧٤٤ هـ ، مؤسسة الريان ، ١٤١٢ هـ .
- الصحيح المسند من أسباب الترول ، مقبل بن هادي الوادعي ، مكتبة المعارف ، ١٤٠٠هـ .
- صحيفة على بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم ، د.راشد عبد المنعم ، مكتبة السنة ، ١٤١١ هـ .
- الصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم ، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي ، مكتبة الفرقان ، ١٤١٩ هـ .
- صفحات في ترجمة الحافظ الذهبي ، قاسم علي سعد ، دار البشائر الإسلامية ، ١٤٠٧ هـ .
- صلح الإخوان من أهل الإيمان وبيان الدين القيم في تبرئة ابن تيمة وابن القيم ، داؤد بن سليمان ، ابن جرجيس ، بمبي الهند ، ط / نخبة الأخبار ١٣٠٦ .
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، ابن القيم الجوزية ، مكتبة المتنبي .
- طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ، ت/ د. محمود محمد الطناحي ، د. عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الثانية هجر للطباعة والنشر والتوزيع والأعلان ١٤١٣ هـ .
- عظمة المنة في رؤية المؤمنين ربهم في الجنة ، عبد الرحمن بن عبد الرحمن شميلة الأهدل ، مكتبة الطالب الجامعي ، ١٤٠٨ هـ .
- العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الردية ، عبد الله بن يوسف الجديع ، دار الصميعي ، ١٤١٦ هـ.
- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية ، أبي المعالي عبد الملك ابن عبد الله بن يوسف الجويني المتوفي سنة ٤٧٨ هـ ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤١٢ هـ .
- العقيدة الواسطية ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني المتوفي سنة ٧٢٨ ، .
- علاقات مصر بتركيا ، د / أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف ، ط / ١٩٦٧
- العلم الشامخ في تفضيل الحق على الأباء والمشايخ ، صالح بن المهدي المقبلي ، مكتبة دار البيان ، دمشق .

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، محمود بن أحمد العيني ، طبعة دار الفكر ، بيروت .
- غاية الأماني في الرد على النبهاني ، أبي المعالي محمود شكري الألوسي ، دار إحياء السنة النبوية .
- الغرة المنيفة ، سراج الدين ابي حفص عمر الغزنوي الحنفي ، مطبعة السعادة ١٣٧٠ هـ مطبعة السعادة .
- فتح الباب في الكنى والألقاب ، تأليف الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق ابن منده الأصبهاني ، ت/ أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي ، مكتبة الكوثر الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الفكر .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الفكر .
- فتح القدير ، محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر ، ١٤٠٣ هـ .
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي ، مكتبة المؤيد ، مكتبة دار البيان ، ١٤١٤هـ .
- القاموس المحيط ، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ .
- مدق العالم وتسلسل الحوادث ، تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيمية والفلاسفة ، دار أسامة ، ٢٠٠١ م .
- القواعد المثلى ، محمد الصالح العثيمين ، طبع أضداء المجتمع ، ١٤١٦ هـ .
- القواعد الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن السعدي ، دار الشروق ١٤١٨
- كتاب الحوادث والبدع ، الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي ، دار ابن الجوزي ، ١٤١٧ هـ .
- كتاب الرد على الأخنائي واستحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية ، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ٦٦١- ٧٢٨ هـ ، طبع الرئاسة العامة للإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٤هـ .

- كتاب السنة ، أبي عبد الرحمن عبد الله بن إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الشيباني ، رمادي للنشر ، ١٤١٦هـ .
- كتاب الشريعة ، الإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ، دار الوطن ، ١٤٢٠ هـ .
- كتاب العرش ، تاليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، ت/ د. محمد بن خليفة التميمي ، أضواء السلف ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ .
- كتاب المدلسين ، للأمام الحافظ أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن العراقي ، ت /د. رفعت فوزي عبد المطلب د. نافذ حسين حماد ، الطبعة الأولى لدار الوفاء ١٤١٥
- الكتاب المنتخب في ذكر قبائل العرب ، عبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيري ، دار المدني بجدة ، ١٤١٩ هـ .
- كرامات الأولياء هبة الله بن حسن اللالكائي ، الإحسان للنشر دمشق ، ط / الأولى ١٤١٨
- الكشاف عن حقائق التتريل ، جار الله الزمخشري ، ط / دار المعرفة ، بيروت .
- الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ، عبد العزيز السلمان، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .
- الكوثري وتعديه على التراث وبيان حاله في مؤلفاته وتعليقاته ، محمد بهجة البيطار و الأستاذ الشيخ عبد الرحمن بن يحي والشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة والأستاذ / حسام الدين القدسي والشيخ / ناصر الدين الألباني ، منشورات دار الحرمين ، ١٤١٩ هـ .
- لسان العرب ، محمد بن مكرم (ابن منظور) طبعة دار صادر ، بيروت .
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية ، محمد السفاريني ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
- لوامع الأنوار السنية ، محمد بن أحمد السفاريني ، ت/ عبد الله البصيري ، مكتبة الرشد ط/ الأولى ١٤١٥
- الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات ، للشمس السلفي الأفغاني ، مكتبة الصديق ، ١٤١٣هـ .
- مجاز القرآن ، محمد املتنبي التيمي أبو عبيدة ، ت/ د. محمد فؤاد سزكين ، مكتبة

الخانجي بالقاهرة .

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، علي بن سليمان الهيثمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط / الثالثة ١٤٠٢ .
- المجمل في تاريخ مصر الحديثة ، جلال يحيى ، نشر المكتب الجامعي ، بدون تاريخ
- مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي ، ١٣٩٨ هـ .
- مجموع فيه إثبات صفة العلو ولمعة الاعتقاد والهادي إلى سبيل الرشاد وذم التأويل ، الأمام موفق الدين عبد الله أحمد بن قدامة المقدسي ، دار ابن الاثير ، ١٤١٦ هـ .
- محاسن الاصطلاح ، للبلقيني ، ت/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، مطبعة دار الكتب ١٩٧٤ م .
- محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، فخر الدين بن عمر الخطيب الرازي ، مكتبة الكليات الأزهرية .
- محمد بن عثمان بن أبي شيبة وكتابه العرش (دراسة وتحقيق)، ت/ د. محمد بن خليفة التميمي ، مكتبة الرشد ، الطبعة الأولى ١٤١٨ .
- مختصر العلو ، الحافظ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠١ هـ .
- مدارج السالكين ، ابن القيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- مدارك التنزيل وحقائق التنزيل ، حافظ الدين النسفي ، ط / دار الكتاب العربي ، بيروت
- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات ، ابن حزم الظاهري ، دار الباز .
- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة ، د. عبد الإله بن سلمان بن سالم الأحمري ، دار طيبة ، ١٤١٦هـ .
- مصباح الزجاجة ، هبة الله البوصيري ، دار الجنان بيروت ، ط/ ١٩٨٩
- المصعد الأحمد في ختم مسند الإمام أحمد ، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن علي بن يوسف إبن الجزري ، مكتبة التوبة ، ١٤١٠ هـ .
- المصنف ، عبدالرزاق بن همام الصنعاني ، ت الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، ط /

الثانية ١٤٠٣

- المضنون به على غير أهله ، محمد بن محمد الغزالي ، ت/ رياض العبدالله ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ، الناشر : الحكمة .
- معارج الألباب في مناهج الحق والصواب ، حسين بن محصدي النعيمي ، مكتبة المعارف، ١٤٠٥ هـ .
- معارج القبول بشرح سلم الوصول ، حافظ الحكمي ، دار الفكر ، بيروت .
- معاني القران يحي بن زياد الفراء ، ت / أحمد نجاتي ومحمد النجار ، ط/ دار السرور
- المعتزلة وأصولها الخمسة وموقف اهل السنة منها ، عواد بن عبد الله المعتق ، مكتبة الرشد ، ١٤١٧ هـ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الجيل ، ١٤٠٧هـ.
- معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس ، الطبعة الثانية ١٤٠١ ، دار الفكر بيروت .
- المفردات في غريب القرآن ، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ٥٠٢ هـ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.بمصر ، ١٣٨١ هـ.
- المفضليات ، ت/ أحمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف الطبعة السابعة .
- المقابلة بين الهدى والضلال حول ترحيب الكوثري بنقد تأنيبه ، العلامة الشيخ عبد الرزاق حمزة ، مكتبة العلوم ، ١٣٩٣ هـ.
- مقالات الكوثري ، محمد زاهد الكوثري ، المكتبة الأزهرية للتراث ، ١٤١٤هـ.
- مقدمات الإمام الكوثري ، دار الثريا ، ١٤١٨ هـ .
- مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ، الأمام المحدث الحافظ أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهروزوري المعروف بابن الصلاح ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
- الملل والنحل ، حاشية على الفصل لابن حزم ، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني ، المطبعة الأدبية.بمصر ، ط / الأولى ١٣١٧ .

- مناقب اللأمام أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، طبع لجنة إحياء المعارف النعمانية ، ١٤٠٨ هـ .
- مناهج أهل الأهواء والافتراق والبدع ، د . ناصر بن عبد الكريم العقل ، دار الوطن، ١٤١٧ هـ .
- منهج الأمام الشوكاني في العقيدة ، د. عبد الله نوموسك ، مكتبة دار القلم والكتاب، ١٤١٤ هـ.
- منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ، محمد بن ناصر بن صالح السحيباني ، دار الوطن ، ١٤١٧ هـ .
- منية الألمعي فيما فات من تخريج احاديث الهداية للزيلعي ، قاسم بن قطلو بغا توفي ٨٧٩ هـ .
- المواقف في علم الكلام ، عبد الرحمن بن أحمد الايجي ، دار الكتب .
- موسوعة الأديان والمذاهب ، العميد عبد الرزاق محمد أسود ، الدار العربية للموسوعات ، ١٤٢٠ هـ .
- موقف ابن تيمية من الأشاعرة ، د. عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود ، مكتبة الرشد ، ١٤١٦ هـ .
- موقف العقل والعلم والعالم ، مصطفى صبري ، ط ١٤٠١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- الموالاة والمعاداة ، محماس بن عبد الله بن محمد الجلعود ، ١٤٠٧ هـ .
- النبذ في أصول الفقه الظاهري ، الامام الحافظ على بن احمد بن حزن الأندلسي القرطبي الظاهري المتوفي ٤٥٨ هـ .
- نزهة النظر شرح نخبة الفكر ، ابن حجر العسقلاني ، مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٥ هـ.
- نصب الراية لأحاديث الهداية ، جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الحنفي الزيلعي توفي ٧٦٢ هـ ، دار الحديث .
- نكت الانتصار لنقل القرآن ، للإمام أبي بكر الباقلاني ، تلخيص أبي عبد الله الصيرفي ، تحقيق الدكتور محمد زغول سلام ، الناشر منشأة المعارف ، الاسكندرية .
- النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة ، محمد زاهد بن

الحسن الكوثري ، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، ١٤٠٧ هـ .

- نهاية الأقدام في علم الكلام ، عبد الكريم الشهرستاني ، مكتبة الثقافة الدينية .
- النهاية في غريب الحديث املبارك بن محمد ابن الأثير الجزري ت/ محمد طناحي ، طاهر زاوي ، أنصار السنة .
- النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ، محمد بن حمد الحمود ، دار السياسة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ .
- هدي الساري مقدمة فتح الباري ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، ت/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، دار الفكر .

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
الفاتحة	الحمد لله رب العالمين	٢	٢٧٨
الفاتحة	إياك نعبد وإياك نستعين	٥	١٦٥
البقرة	يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم	٢١	١٠٨، ١٦٦
البقرة	قلنا اهبطوا منها جميعاً	٣٧	٢٠٤
البقرة	ورفعنا فوقكم الطور	٦٣	٤٠٦
البقرة	ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أماني	٧٨	٢٨٢
البقرة	وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا	٨٩	١٩٢
البقرة	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام	١٨٣	١٤٥
البقرة	هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام	٢١٠	٣٧١
البقرة	إن الذين آمنوا والذين هاجروا	٢١٨	١٦٩
البقرة	منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات	٢٥٣	٤٤٧
البقرة	لاتأخذه سنة ولانوم	٢٥٥	٢٧٨
البقرة	سمعنا وأطعنا غفرانك	٢٨٥	٣٣٣
آل عمران	ومايعلم تأويله إلا الله	٧	٣١٥
آل عمران	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله	٣١	٣٣٧
آل عمران	قل إن الفضل بيد الله	٧٣	١٦٠
آل عمران	إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا	٨٩	٣٣٦
آل عمران	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	١٠٢	٦
آل عمران	يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا	١٥٤	٤٥٨
آل عمران	ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان	١٩٣	١٨٠،١٦١
النساء	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة	١	٦

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
النساء	واهجروهن في المضاجع	٣٤	٣٥٧
النساء	وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً	٦٣	٤٦١
النساء	ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله	٦٤	٢٠٤
النساء	ولهديناهم سراطا مستقيماً	٦٩-٧٠	١٤٨
النساء	إن الذين تتوفاهم الملائكة	٩٦	٢٦٠
النساء	لئلا يكون للناس على الله حجة	١٦٥	١١٠
النساء	وكلم الله موسى تكليما	١٦٤	٤٤٧
النساء	يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم	١٧١	٢١٩
المائدة	فلا تخشوهم واخشون	٣	١٦٩،٣٢١
المائدة	وابتغوا إليه الوسيلة	٣٥	١٩٠
المائدة	ومن يتولهم منكم فإنه منهم	٥١	٢٦٤
المائدة	إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا	٥٥	٢٦٠
المائدة	يا أيها الذين ءامنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه	٥٤	١٤٧
المائدة	بل يداه مبسوطتان	٦٤	٢٨٧،٢٨٧،٣٩٠
المائدة	ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء	٨١،٢٨	٢٥٩
المائدة	اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم	٩٨	٢٩٥
الأنعام	وهو القاهر فوق عباده	١٨	٤٢٠،٤٢١
الأنعام	قل أي شيء أكبر شهادة	١٩	٢٩٨
الأنعام	بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل	٢٨	١٣٠
الأنعام	انظر كيف كذبوا على أنسهم	٢٤	٤٦١
الأنعام	ولوشاء الله لجمعهم على الهدى	٣٥	١٣٤،١٦٠
الأنعام	من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم	٣٩	١٦٠
الأنعام	فقطع دابر القوم الذين ظلموا	٤٥	١٤٩

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
التوبة	والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض	٧١	٢٦٠
التوبة	فإن تولوا فقل حسبي الله	١٢٩	١٦٥
يونس	ثم استوى على العرش	٣	٣٤١
يونس	وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب	٥	١٤٥
يونس	قل لو شاء الله ما تلوته عليكم	١٦	١٣٣
يونس	ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم	٩٩	١٣٣،١٦٠
هود	فاعبده وتوكل عليه	١٢٣	١٦٥
يوسف	فأسرّها يوسف في نفسه و لم يبدها لهم	٧٧	٤٥٨
الرعد	قل من رب السموات والأرض	١٦	١٣٥
إبراهيم	قالت رسلهم أفي الله شك	١٠	١١٣
ابراهيم	وعلى الله فليتوكل المؤمنون	١١	١٤٧،١٦٩
إبراهيم	ليجزي الله كل نفس ما كسبت	٥١	١٤٥
الحجر	واعبد ربك حتى يأتيك اليقين	٩٩	١٦٥
الحجر	نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم	٤٩	٢٩٥
النحل	وإياي فارهبون	٥١	١٦٩
النجل	والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا	٤١	٢٦٠
النحل	هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك	٣٣	٣٧٢،٣٧٤
النحل	وإن لكم في الأنعام لعبرة	٦٦،٦٧	١٠٥
النحل	ولكن يضل من يشاء	٩٣	١٥٨،١٥٩
الإسراء	ولا تقف ما ليس لك به علم	٣٦	١٢٥
الإسراء	وجعلنا الليل والنهار آيتين	١٢	١٤٥
الإسراء	وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا	١٥	١١٠
الإسراء	يبتغون إلى ربهم الوسيلة	٥٧	١٧٨
الإسراء	ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك	٨٦	١٣٤

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
القصص	قال رب إني ظلمت نفسي فاغفرلي	١٦	١٨١
القصص	فلما أتاها نودي	٣٠	٤٦٥
القصص	ويبقى وجه ربك	٨٨	٣٩٩
القصص	فلما أتاها نودي من شاطئ الوادِ الأيمن	٣٠	٢٦٥
الروم	فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون	١٧-١٨	١٥٠
الروم	فأقم وجهك للدين حنيفا	٣٠	١١٣
لقمان	وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا	٧	١١٠
السجدة	الذي أحسن كل شيء	٧	١٥٠
الأحزاب .	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا	٧٠	٦
سبأ	الحمد لله الذي له ما في السموات	١	١٥٠
فاطر	والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير	١٣	١٧٠،٢١٦
فاطر	إن تدعوهم لا يسمعوا دعائهم	١٤	٢١٦
فاطر	وما أنت بمسمع من في القبور	٢٢	٢١٦
يس	إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا	١٢	١٣٠
يس	سلام قولاً من رب رحيم	٥٨	٤٤٢،٤٤٧
يس	ولو نشاء لطمسنا على أعينهم	٦٦	١٣٣
الصافات	والله خلقكم وما تعملون	٦٩	١٣٦،١٥٣
ص	وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا	٢٧	١٤٥
ص	كتاب أنزلناه إليك مبارك	٢٩	٢٣٦،٢٣٧
ص	ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون	٧٥	٣٩٢
الزمر	فاعبد الله مخلصاً له الدين	٢	١٦٧
الزمر	ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى	٣	٢٠٩
الزمر	قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين	١١-١٢	١٦٧
الزمر	قل الله أعبد مخلصا له ديني	١٤-١٥	١٦٧
الزمر	قرءاناً عربياً غير ذي عوج	٢٨	٣١٣

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
الزمر	ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء	٢٩	١٦٨
الزمر	أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر	٣٨	١٦٨
الزمر	أم اتخذوا من دون الله شفعاء	٤٣	١٦٨
الزمر	الله خالق كل شيء	٦٢	١٣٥،١٥٣
الزمر	قل افغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون	٦٤	١٦٨
الزمر	ما قدروا الله حق قدره	٦٧	٣٨٥،٣٩٣
غافر	وقال ربكم ادعوني استجب لكم	٦٠	١٧٠،٢٠٠
فصلت	وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه	٥	١١٠
فصلت	وجعلنا فيها رواسي	١٠	٤٠٦
فصلت	وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم	٢٢	٢٧٠
فصلت	ولو جعلناه قرءاناً	٤٤	٣١٣
الشورى	حم * عسق	١-٢	٣٨٧
الشورى	عليه توكلت وإليه أنيب	١٠	١٦٥
الشورى	ليس كمثله شيء وهو السميع البصير	١١	٢٧٣،٢٧٧،٢٨٣ ،٢٩١،٣٧٦
الشورى	وما كان لبشرٍ أن يكلمه	٥١	٤٨١
الزخرف	وقالوا لولا نزل هذا القرءان	٣١	١٤٨
الزخرف	وسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا	٤٥	١٦٦
الزخرف	أم يحسبون أنّا لا	٨٠	٤٥٨
محمد	فاعلم أنه لا إله إلا الله	١٩	٢٦٩
الفتح	هو الذي أنزل عليهم السكينة	٤	١٢٩
الفتح	عليهم دائرة السوء	٦١	٢٧٠
الحجرات	يا أيها الذين آمنوا إن جائكم فاسق بنبأ	٦	٣٢٧
الحجرات	واعلموا أن فيكم رسول الله	٧	١٤٧
الحجرات	يمنون عليك أن أسلموا	١٧	١٦١

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة